تهذيب الرياسة وترتيب السياسة



القلعي

ذيب الرياسة وترتيب السياسة

للإمام أ عبد ا مد بن علي القلعي

ا تو سنة ٦٣٠ هـ

فهرس تويات الرسالة

ا وضوع الصفحة

القسم الدراسي

الباب الأول

الباب الثا

نص الكتاب

القسم الثا من ذيب الرياسة وترتيب السياسة
مناقب ا لفاء والوزراء والعمال والأمراء
الدالة على مناقبهم وارتفاع مراتبهم

البَابُ الأوّل

الفصلُ الأولُ

تر ةُ الإِمام القلعي

ا هُ وكنيتُهُ:

هو الإمامُ أبو عبدِ ا ـ مدُ بنُ علي بنِ ا سنِ بنِ علي بن أ علي القلعي.

وقد اختلفَ ا ؤرخون نسبةِ الإمامِ القلعي و ضبط هذهِ النسبة تبعاً لاختلافِهم القلعةِ ا نسوبِ إليها الإمامُ و أي بلادِ ا سلم هي فقيل القَلْعي بفتح القَاف وسكون اللام نسبةً إ قلعةِ حلبَ ا دينةِ ا عروفةِ بالشامِ. وذكرت كتبُ البلدانِ أن حلبَ ونواحيها قلاعاً كث ةً أ ُها قلاع ثلاث مشهورةٌ.

الأو : قلعةُ ا سلم ال كانت تسمى قد اً قلعةَ الرومِ تقعُ الغربِ الشما من حلبَ على بُعدِ س مراحلَ منها تُعد من أحصنِ القلاعِ وأكثرِها شهرةً و ر ا رٌ يعرفُ رزبانَ يصبُ الفراتِ.

والثانيةُ: قلعةُ أَبِي قُبَيْس - مزةٍ مفتوحةٍ وباءٍ موحدةٍ مكسورةٍ بعدها ياءُ ساكنة قاف مضمومة وباءٌ موحدةٌ مفتوحةٌ وياءٌ مثناةٌ ت ساكنةٌ س ٌ، مهملة الآخرِ تقعُ الغربِ من حلبَ على بُعدِ ثلاثِ مراحلَ منها.

والثالثةُ: قلعة حَارِم اءِ مهملةٍ مفتوحةٍ وألفٍ راءٍ مهملة مكسورةٍ وميم الآخرِ تقع على بعدِ مرحلت ـ من حلبَ وهي ذاتُ بسات َ وأشجارٍ و ا رٌ صغ ٌ وبينها وب انطاكيةَ ُو مرحلةٍ.

وهناك قلاعٌ أخرى أقلُ أ يةً منتشرةً نواحي حلبَ. ويرجعُ السببُ كثرةِ هذه القلاعِ أن حلبَ كانت ثغراً من ثغور الإسلامِ وأن ا يشَ الإسلاميَ كان ينـزلُ أولاً بقنسرينَ، ولَ إ ـ حلبَ فعمرها ا سلمون وأشادوا وحصنوا كث اً من قلاعِها وأصبحت وخاصة عهد ب دانَ غرةَ بلادِ الشامِ وثا حواضرِهِ بعدَ دمشقَ، و يذكرْ ا ؤرخون الذين تر وا للإمامِ القلعي إ أي القلاعِ ينسبُ وكلُ الذي ذكره

ا ندي السلوكِ وا زرجيُ العقود اللؤلؤيةَ ورجحه الزركلي الأعلامِ أ ا نسبة إ قلعةِ حلَب. وقيل إ ا نسبةٌ إ بلدٍ اليمنِ يقَالُ ا القلعةُ بينها وب زبيدَ و يومٍ وهذا ما ذهَب إليِه الأسنوي طبقاِته. و يذكرْ لنا أي ناحيةٍ هي من زبيدَ وإ مثل هذا ذهب ياقوتٌ ا موي معجمِ البلدانِ. فقال: (القلعةُ موضعٌ باليمنِ ينسبُ إليها الفقيهُ القلعيُ). وقيل إن النسبةَ بفتح القافِ واللامِ نسبة إ بلدةٍ با غربِ وأورد هذا الاحتمالُ ا زرجيُ وا نديُ و يذكْره الأسنوي ولا غ ه.

وذكر ابنُ الأث اللبابِ أن القَلَعي بفتح القاف واللام و آخرها ع مهملةٌ نسبة إ بلدٍ يقال ا القلعةُ و يذكرْ أي بلادِ ا سلم هي والأرجحُ وا أعلم أ ا نسبةٌ إ قلعةِ حلّب ملةِ اعتبارات:

١ - أنه لو كان من قلعةِ اليمنِ كما ذكره الأسنويُ طبقاِته وا مويُ معجمِ البلدانِ ا فوجئ به أهلُ مرباطَ ولكان معروفاً لديهم أو لقاضِيهم وسلطاِنهم على أقلِ تقديرٍ ولكنهم ذكروا أ م جردِ أن عوا بوصولِ فقيهٍ خرجوا إليه وسأله القاضي عن عدةِ مسائل ليَتب حقيقةِ خ هِ. و ذا دُ صاحبُ العقودِ اللؤلؤيةِ يقولُ بعدَ أن نقلَ قولَ الأسنوي وهذا غلطٌ وا أعلمُ.

٢ - أنه لو كان من قلعةِ اليمنِ لكانَ الذهابُ متيسراً و ا أ عليه أهلُ مرباطَ وقاضيها وسلطاُنها البقاءِ عندهم وشرطوا له أن لا يدعوه تاجُ لشيءٍ وهو يقولُ أريدُ أن أذهبَ إ بلدي ما خرجتُ على هذا العزمَ.

٣ - ولو كان من قلعةِ اليمنِ لذهبوا إليِه أو بعضُهم بعد أن عرفوا بلدَه وأنه قريبٌ منهم سيما وهم يشعرونَ اجتِهم إ الفقهِ والرغبةُ لديهم أكيدة نلمسُها من إصرارِهم على بقاِئه بينهم والرحلةُ طلبِ العلمِ معروفة سيما وا كان قريبٌ.

٤ - أ م يذكرون أنه قَدِمَ عليهم من ا ج تاجراً وهذا يُشعِرُ ببعدِ موطِنه وأنه يريدُ أن ينقـلَ إ بلده سلعاً لا توجدُ فيه ا ينقلُ إ اليمنِ عن طريقِ البحرِ من ا ندِ ونواحيها.

٥ - أن تلميذَ الإمامِ القلعي الفقيهَ ناصرَ بن عبدِ ا والذي أخذَ عن الإمام كتابَ اللفظ ا ستغربِ قال مقدمة الكتابِ وهو يُعرفُ بالإمام القلعي أخ نا الإمامُ العا الفقيهُ العلامةُ أبو عبدِ ا مدُ بنُ علي بن أ علي القلعي اليم .

وهذا يشعرُ بأنه معروف عند تلاميذِه بأن له نسبتين إحداهما إلى القلعةِ والأخرى إلى اليمنِ فلو كانت القلعةُ باليمنِ لاكتفى بقولِهِ القلعي أو اليمني أو لقال القلعي اليمني ولكنه فصلَ بين النسبتين "بثم" فقال القلعي ثم اليمني.

٦ - أما أن النسبةَ إلى بلدٍ بالمغربِ فبعيدٌ والله أعلمُ لأنه شافعيٌ مشهورٌ وأهل المغرب في الأعمِ الأغلب يتمذهبون بمذهب مالكٍ وقل أن نجدَ فيهم شافعياً ولو وُجِدَ لاشتُهِرَ فلم يبقَ بعد كل هذا إلا النسبةُ إلى قلعةِ حلَب.

ولم تذكرْ لنا كتبُ التراجمِ شيئاً عن مولدِ الإمامِ القلعي وطفولتِه وتلقيهِ العلمَ كما لا نكادُ نجدُ شيئاً عن أبويهِ وأسرتِه وشيوخِه الذين تتلمذَ عليهم في طفولتِه وصباهُ أو الذين أخذَ عنهم الفقهَ والعلمَ في شبابِه وريعانِ عمرِه.

وكلُ الذين ترجموا لأبي عبدِ الله القلعي رددوا ما ذكره بهاءُ الدين الجنديُ في كتابِه السلوكُ في طبقاتِ العلماءِ والملوكِ وتكادُ تكونُ كلُ الترجماتِ اختصاراً لما أورده الجنديُ دون زيادةِ شيءٍ جديدٍ.

ويبدو أن الجنديَ استقى ترجمتَه للإمام من أفواهِ الرواةَ وفقهاءِ تلكَ الناحية وهو يذكرُ ذلك بأوضح عبارةٍ إذ يقولُ: (أخبرني شيخٌ قدٌ من أهلِ تلك الناحيةِ وأهل الفقهِ بها قال سمعتُ قدماءَ بلادِنا يذكرونَ أن هذا الفقيهَ قدمَ عليهم من الحج إلى مرباطَ).

وبذلك تكونُ ترجمةُ الجندي أقدَم ترجمةٍ معروفةٍ للإمامِ القلعي وهي لم تعرضْ لشيء من حياةِ الإمام الشخصية والعلمية قبل قدومه إلى مرباطَ[1]، ولم يذكرْ لنا أيضاً تاريخَ هذا القدومِ ولا في أي سنةٍ كان ولكنْ يبدو أنه كان قبلَ سنةِ ٥٨٥ هـ لأنه يذكرُ أن الإمامَ حج من مرباطَ وأُخذ عنه بمكةَ. ووجدتْ في مقدِمة كتابِ الإمامِ القلعي (اللفظُ المستغربُ من ألفاظِ المهذبِ) أنه أخذ عنه بمكةَ سنة ٥٨٥ هـ والله أعلم هل أخذ عنه قبل قدومِه إلى مرباطَ أو في حجتِه التي حجها من مرباطَ. وكان سبق قدومِه إلى مرباطَ على ما ذكروا أنه بعد أن قضى حجه وأدى مناسك فرضِه قدمَ إليها مع رفقةٍ له تجارٍ فدخلوا

[1] مرباط بكسر الميم وسكون الراء وفتح الباء وطاء مهملة، مدينة قديمة على الساحل، كان فيها مرسى جيد، كثر ذكره على أفواه التجار، والآن خرب (أحمد بن محمد المبوضي، معجم البلدان، ج ٥ ص ٩٧.

مرسى مرباطَ وأرسوا فيه مركَبهم وَضُرِبتْ للفقيه خيمةُ على الساحل يستريحُ من وعثاء السفرِ ودخل الآخرونَ إ البندرِ ليبيعوا ويشتروا ويتزودوا فبلغ خ ُ قدومِ الإمامِ قاضي البلدِ فما أن بلغه ا ُ ح خرجَ إليه و اعة من أعيان مرباط و ارها واستأذنوا عليه فرحبَ الإمامُ القلعي م وآنسهم وأنسوا به وسأله القاضي عن لةِ مسائلَ فأجابه الإمامُ عنها أب جوابٍ وبعباراتٍ صر ةٍ مرضيةٍ فازداد اعجابُ القاضي ومن معه بعلمِه وفضله وحسن خُلُقِه وورعِه وسألوه أن يسكنَ معهم فهم أمسِ ا اجةِ إ علمِه فالفقهُ بتلك الناحية قليل والواردُ إليها من العلماء قليلٌ أيضاً وشرطوا له مبالغةً رغبتهم به ألا يدعوه تاجُ إ شيء من أمورِ معاشِه، فهم يكفلو ا على أن يقومَ بتعليمِهم أمور دينهم وفرائضَ ربِهم. فلم يقبلْ أولَ الأمر وعاوده ا ن ُ إ بلدِه ومسقطِ رأسِه وظن أن ذلكَ منهمْ على سبيلِ ا املةِ، وقالَ ْ أخرجْ من بلدِي على هذِه النيةِ. ولكن القاضي وَمَنْ معُه من أعيانِ مرباطَ و ارِها وسراتِها يقطعوا الأملَ منُه، فذهبوا إ سلطانِ مرباطَ وكان يومئذٍ أبو عبدِ ا مدُ بنُ أ دِ الأكحلِ ا نجوي من قومٍ يقال م ا نجويونَ من بيتٍ يقالُ م آلُ بُلُخْ بضمِ ا وحدةِ واللامِ وسكونِ ا اءِ ونسبُهم من مذجح، وكان هذا السلطانُ أوحدَ عصرِه كرماً وحلماً وتواضعاً ذكرَ ا ؤرخونَ له من الكرمِ وا لمِ والتواضعِ مآثرَ تس ا الركبانُ ويتناقلُها الرواةُ جاؤا فأخ وه خ َ الفقيهِ ووصولِه إ بلدهم وما كانَ من أمرهم معه وشَكَوْا إليه شدةَ حاجتِهم إ علمِه وفضلِه وفقهِه وأ م أمس ا اجةِ إ مثلِه وأثنوْا عليه لشدة إعجابِهم به وطلبوا منه أن رجَ إليه بنفسِه ويلازمَهُ لعلهُ يقبلُ البقاءَ عندهم فما كان من السلطانِ إلا أن استجابَ م وشعرَ بشعورهم وخف سريعاً موكبه إ خيمةِ الإمام على الساحلِ ورجاه، ورغبه الإقامةِ بلدهم وأ ذلكَ وأكثرَ على الإمامِ وشرطَ على نفسِه للإمامِ القلعي ما أحب ولا يَدَعُهُ تاجُ إ شيءٍ من أمورِ ا عاشِ. وأمامَ هذا الإ احِ الشديدِ والرغبةِ الصادقةِ الأكيدةِ العلمِ وأهلِه من سلطانِ مرباطَ وأهلِها وأعيانِها دُ الإمامُ بُداً من أنْ يبهم إ طلبِهم وأن ينـزل على رغبتِهم وأن يُضَحيَ سبيلِ دينِه فيعيشَ بعيداً عن مسقط رأسِه وبلدِه حسبةً وابتغاءً للأجر عندَهُ ونشراً للعلم. وهكذا هم العلماء يؤثرونَ طاعةَ ا عزَ وجلَ على عاجلِ أمرِ الدنيا لإ انِهم أن ما عندَ ا يبقى وأن أمرَ الدنيا صائرٌ إ زوالٍ. فما أن تسامعَ الناسُ بأن الإمامَ قد رَضِيَ البقاءَ عندهم ح فرحوا واسْتَبشَروا به خ اً وحَمَلوا متاعَهُ

على الفورِ من ا ركبِ إ البلدِ وأنـزلَ دارٍ تليقُ بِهِ كَعَلَمٍ من أعلام الفقهِ وإمامٍ من أئمةِ الإسلامِ وأحاطُوه بوافر ا فاوةِ والتكر .

وهناكَ بدأ الإمامُ أبو عبدِ ا نشاطَهُ وأقبلَ على التدريسِ ونشرِ العلمِ وتسامعَ الناسُ به وأطبقتْ شهرتُهُ النواحيَ فقصدَهُ طلابُ العلمِ من كلِ ناحيةٍ وتتلمذوا على يدَيْهِ وأخذُوا عنه كُتبَهُ الفقهِ والفرائضِ والسياسةِ وإليه يرجعُ الفضلُ نشرِ الفقهِ تلكَ البلادِ يذكرون لَهُ ا ميلَ فيقولونَ إنَّهُ ينتشرِ العلمُ عن أحدٍ بتلكَ الناحيةِ كما انتشرَ عن الإمامِ القلعي.

وعنه أخذَ أعيانُ فقهائِها فهم أصحابُه أو أصحابُ أصحابِه. وكانَ للإمامِ ا نـزلةُ الرفيعةُ عند عامةِ سلاط مرباطَ وكلهم يقدرُ له قدرَهُ ويعرفُ له فضلَهُ و يطُهُ ا بُ له من حفاوةٍ وتكر يدل على ذلكَ ويؤيدُه أنه ا أحدثَ مدُ بنُ أ دَ ا بوضي ظفارَ سنة ٦٢٠ هـ بعدَ وفاةِ الأكحلِ وأمرَ أهلَ مرباطَ أن ينتقلوا إليها وهَدَمَ عامةَ بيوتِ مرباطَ إلا بيتَ الإمامِ القلعي إجلالاً له واعترافاً بفضله ورعايةً نـزلتِهِ. ولكن الإمامَ ابتَ بيتاً بظفارَ وكان يترددُ بينَها وبَ مرباطَ ح لا ينسبَ إ الفةِ السلطانِ وليقومَ بواجبِ نشرِ العلمِ وتبليغِهِ للناسِ ويلتقيَ بتلاميذِه.

وكانَ عامةُ أهلِ مرباطَ وظفارَ وحضرموتَ يقدرونَ للفقيهِ جهادَهُ وتفانِيَهُ نشرِ العلمِ فلَهُ قلو م ا بةُ والإكبارُ ح أنَ أهلَ السعةِ منهم كانوا يوقفونَ الأوقافَ و بسونَ الأحباسَ علي تلاميذِ الإمامِ ومن يفدُ إليه ح أن تاجراً منهم أعد داراً وجهزها وكان يقومُ بكفايةِ الطلبةِ الذين يرغبونَ العلمِ ويلازمونَ الإمامَ وإن كَثُرُوْا.

مذهبُ الإمام القلعي:

تفقَهَ الإمامُ أبو عبدِ ا مدُ بن علي القلعي على مذهبِ ابنِ عمِ رسولِ ا صلى ا عليه وسلمَ، الذي تُرْتَجى الر ةُ بذكرِه ويستنـزلُ رضاءُ الر نِ بدعائِهِ- الإمامِ الشافعي- الذي أطبقت مذاهبُ ا لْقِ على أنَهُ ددُ الدينِ و يي ا لةِ وناصرُ السنةِ على رأسِ ا ائةِ الثانية للهجرةِ تطبيقاً ا روى أبو هريرةَ عن الن صلى ا عليهِ وسلمَ أنَهُ قالَ: (إن ا يبعثُ ذِهِ الأمةِ على رأسِ كلِ مائةِ سنةٍ من ددُ ا دينَها).

فقدْ كانَ أ دُ بنُ حنبلَ يقولُ هذا ا ديثِ إن عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ على رأسِ

ا ائة الأو والشافعي على رأسِ ا ائةِ الثانيةِ.

وكانَ الإمامُ القلعي، رحِمَهُ ا ُ، قد أوتيَ با كيالِ الأو من الفقهِ والتقوى والعلمِ وحسن ا ُلُقِ، فهو صاحبُ القدمِ الراسخةِ فقهِ الشافعيةِ ويدلُ على تبحرِهِ هذا ا ذهبِ ما خلفَ من تراثٍ فقهي شافعي شاد العلماءُ به، وأخذُوه عنه وانتفعُوا به وتدل مؤلفاتُهُ على أنه رحِمَهُ ا ُ كان إماماً جامعاً فقيهاً موسوعياً أكثرَ من التأليفِ فروعِ الشافعيةِ منْ مثلِ مؤلِفه قواعد ا هذب واحترازاتِ ا هذبِ، ومستغربِ ألفاظِه. و يَحُلْ تبحُر الإمام ذهبِ الشافعي دونَ اطلاعِهِ على مذاهبَ أخرى فقد كانَ على إ ام حسنٍ واطلاع واسع ببقيةِ ا ذاهب ُيرْشِدُ إ هذا ما ذَكَرَهُ ا نديُ السلوكِ تر ةِ الإمام القلعي أنه عَ مصنفِهِ إيضاحَ الغوامض علمِ الفرائضِ ب مذهبِ الشافعي وغ ِهِ وأوردَ فيه طَرَفاً منَ ا ِ وا قابلةِ والوصايةِ.

الفصل الثا

شيوخُ الإمامِ القلعيّ

تذكرْ كتبُ التراجم شيئاً عن شيوخِ الإمام القلّعي، الذينَ تتلمذَ على أيديهم وأخذَ عنهمُ الفقهَ والدينَ والتاريخَ وا ساب فإنه كان ضليعاً بكلِ هذهِ العلومِ متمرساً ا. ولعل مرد ذلكَ إ أن الإمامَ تتلمذَ على شيوخِ بلدهِ ـ رَحَلَ منها عا أ قفاً وفقيهاً مصنفاً فعرَفَهُ الناسُ هكذا و يَعرفوا شيوخَهُ كما أنه يَذكرْ لنا مؤلفاتِهِ ال ب أيدينا أ اءَ شيوخِهِ الذين أخذَ عنهمُ العلمَ وإن كنا نقطعُ بأن هذا العلمَ والفقهَ لا بد وأنهُ قد أخذهُ بالتلقي و السةِ كبارِ علماءِ زمانِهِ ح تفتحتْ قر تهُ وأصبحَ من كبار علماء عصرِهِ. إذ العادةُ جاريةَ ذا زمانِهِ مانعة من ضدِهِ ويدلنا على ذلكَ غزارةُ علمِهِ وسعةُ اطلاعِهِ على ما كُتب قبلهُ فروع العلمِ ا ختلفةِ فقهاً وسياسةً، وعزْوه كث اً من مسائلِ هذا العلمِ إ أصحابِها أو إ كتبِهم كما هو ا الُ مؤلفهِ ذيبِ الرياسةِ.

أقرانُ الإمام عبدِ ا القلعي:

اشتهر الإمامُ القلعي اليمنِ كفقيهِ رباطَ ومف ا ولنواحيها و تذكرْ كتبُ التراجمِ شيئاً عن أقرانِه ومعاصِريه الذينَ التقى م وأخذَ عنهم وأخذوا عنه أو الذين حاوَرَهم وناظَرهم. وكل ما ذكروه عمومياتٌ وأنه التقى بعلماءِ مكةَ وزبيدٍ وأخذوا عنه. وبرجوعِنَا إ كتبِ التراجمِ ال تَرْ تْ لعلماءِ اليمنِ تلكَ الفترةِ وجدنا علماءَ أجلاءَ كُثر كانوا يعاصرونَ الإمامَ و اورونَه نواحي تلفة فلا بدَ وأنه اتصلَ م وناظَرهم وناظَروه ورحلَ إليهم ورحَلوا إليه وإنْ كنا لانقطعُ بصلةٍ لواحدٍ بعينه ومن هؤلاءِ العلماءِ ا عاصرينَ للإمام علىَ سبيلِ ا ثال سا ُ بنُ مدٍ بنُ سا ا تو نفسِ السنةِ ال ُتو َ فيها الإمامُ وهي سنة ٦٣٠ هـ وكان مُحَدثاً فقيهاً يأتيهِ الناسُ من بعدٍ لقراءةِ العلم على يديهِ.

ومنهُم الفقيهُ أبو ا سن عليُ بنُ مدٍ بن أ دَ بن جديدٍ ا عروفِ عندَ أهلِ اليمنِ بالشريفِ ابن ا ديدِ، الذي نفاهُ ا لكُ ا سعودُ بنُ الكاملِ إ ا ند فخرَجَ إليها صحبةِ الشيخِ الصا ِ مدافعِ بن أ دَ فعصفتِ الريحُ ركبِهم فدخلوا ظفارَ بلدَ الإمامِ القلعي

وأقاما ا مدة رحلا عنها وعادا إليها بعدَ شهرينِ وفيها تُو الشيخُ مدافعُ بنُ أ دَ. فلا بد وأنه قد التقى بالإمامِ القلعي وجالَسَهُ وأخذَ كلّ عن صاحبِهِ.

كما أن من العلماءِ ا عاصرينَ للإمامِ أ عبدِ ا القلعي الفقيهِ بنَ فضلِ بنَ أسعدَ بن ٍ فإنه كانَ من ا عاصرينَ للإمام زماناً ومكاناً والعادةُ جاريةٌ بتزاور العلماء للبحثِ والدرسِ وا ناقشةِ.

وفاةُ الإمامِ القلعي:

تُطْبِقُ كتبُ التراجمِ على أن الإمامَ القلعي طالَ به العمُرُ وامتدتْ به ا ياةُ وأفسح ا ُ له الأجلِ (وخ ُ الناسِ مَنْ طال عُمُره وحسنَ عَمَلُهُ).

ويذكرونَ أنه تُو َ سنةَ ٦٣٠ هـ بعدَ أن عَمر طويلاً وكانتْ وفاتُهُ رباطَ ودُفِنَ ة ِتها وق ُه هناكَ مشهورٌ يزارُ. ويقصدُهُ الناسُ منْ بُعْدٍ ليترحَمُوا عليه ويقرأُوا له الفا ةَ فجزاهُ ا ُ عن العلمِ وأهلِهِ أحسنَ ا زاءِ وأسَبغَ عليهِ نعمَتَهُ وأدخلَهُ فسيحَ جناتِهِ.

تلاميذُ الإمام:

على الرغمِ من أ يةِ الإمامِ أ عبدِ ا ِ مدِ بنِ عليِ القلعيّ تاريخِ الفكرِ الإسلامِي، وما أسهَم به منْ دراساتٍ فقهيةٍ وسياسيةٍ إلا أن كتبَ التراجم تذكرْ لنا إلا القليل من تلاميذِهِ وأصحابِهِ رغمَ أن كل من ترجمَ للإمام أث عليه بكثرةِ تلاميذِهِ وأصحابِه. فلقدْ ذكرَ اءُ الدين ا ندي كتابِهِ السلوكِ طبقات العلماءِ وا لوكِ عند تر ةِ الإمام القلعي (أن أكثرَ أصحابِه حضرموتَ ونواحيها وأنَ أعيانَ فقهائِهَا أصحابِه حضرموت ونواحيها وأنَ أعيانَ فقهائِهَا أصحابُهُ وأصحابُ أصحابِهِ) وكذلك قال ا زرجيُ العقود اللؤلؤيةِ تر ةِ الإمام.

ولعل مرد هذا إ قلةِ الدراساتِ ا تعلقةِ بذلك الصقع مِن بلادِ ا سلم َ وأنه ْ ينلْ بعدُ منَ العنايةِ ما نالَ غ ُهُ من حواضرِ العا ِ الإسلامي وأسأل ا َ أن يهيئَ أناساً لص ، يبحثونَ تار ُهُ وتاريخ رجالِهِ الذين أسهمُوا خدمةِ دينهم وأمتِهم، فعندها سنعرفُ الكث عَنْ إمامِنا وتلاميذِهِ، وقد بدأتْ بوادرُ هذهِ العنايةِ مدِ ا ِ تبدُو الأفقِ بإنشاءِ مركزِ الدراسات اليمانيةِ صنعاءَ، وهو يتو نشرَ و قيقَ تراثِ اليم ا يكشف الكث َ عن مسا اتِ علماءِ تلكَ الناحيةِ خدمةِ الإسلامِ وا سلم َ ومن هؤلاءِ التلاميذِ الذين

ذكروهم لنا:

الأولُ: هوَ الإمامُ مدُ بنُ أ دَ بنِ بنِ صمعٍ أخذَ الفقهَ عن الإمامِ أ عبد ا ـِ القلعيّ وكان مشهوداً له بالفقه والفضل مبارك التدريسِ وهو الذي لزمَ لسَ الإمامِ القلعيّ بعدَ وفاتِه. تفقه على يديِه عٌ كثٌ، منهم الفقيهُ الصا ُ أبو عبد ا مد البس ا تو سنة ٧١٢ هـ.

أما تلميذُه الثا : فهو الفقيهُ علي بنُ أ دَ بنِ سا ٍ بنِ مدٍ بن علي ا كَ بأ مروانَ من بيتِ أ علوي ا شهودِ له بالفقهِ والورع والتقوى فلقدْ ذكرَ ا نديُ أن هذا البيتَ بيتُ صلاحٍ، وعلم خرج اعة من العلماءِ منهم حسن بنُ مدٍ بن علي بنُ أ علويَ كان غاية الورعِ وا فظِ حفظَ الوجيزَ للغزالي غيباً، وعدد كث من أهلِ هذا البيتِ ن اشتهروا بالفقهِ والورعِ والصلاحِ، وأسهُموا ا ياةِ الإسلاميةِ زمنِهم. وكان الفقيهُ عليُ بنُ أ دَ تلميذُ الإمامَ القلعيّ صاحبَ مصنفاتٍ عديدةٍ فقيهاً فاضلاً خ اً مباركَ التدريس انتشَر عنه العلمُ ضرمَوت انتشاراً موسعاً أخذَ الفقهَ عنه اعةٌ من العلماءِ منهم أبو زكريا الذي خرجَ إ مقدشوه فنشرَ العلمَ ا وبنواحيها نشراً موسعاً.

أما تلميذُه الثالثُ: فهو الفقيهُ ا ف ناصرُ بنُ عبد ا بنِ عبدِ الر نِ بنِ حا ـِ العطار كةَ. يك بأ الفتح ا كي، عَ صحيحَ البخاري من أ ا س عَلى بنِ يدِ الأطرابلسي، وحدثَ عنه وعن أ مدِ بنِ الطباخَ وأخذَ عن الإمام أ عبدِ ا ـِ القلعي كة وأخذ عنه الرشيدُ العطارُ صحيحَ البخاري تُو كةَ سنةِ ٦٤٣ هـ و نْ تفقَه على يديِه الإمامُ أبو نـزارٍ ربيعةُ بنُ ا سنِ.

أما تلاميذُ تلاميذِه: فلم تذكرْ كتبُ التراجمِ منهم سوى النـزر اليس ذكروا من تلاميذِ تلاميذِه، الإمامَ ا افظَ أبا ا بنَ منصورِ بنِ أ ا ـِ الشماخي نسبةً إ اخَ اسمِ جَدٍ لَهُ السعدي نسباً إ سعدٍ العش ةِ من مذحج أصلُ بلدِه حضرموتُ قدَم زبيدٌ شبيبتِه فأقامَ ا مدة يطلبُ العلمَ سافَر إ مكةَ فأخذَ عن ع من العلماءِ رجعَ إ زبيدَ وقد تضلعَ العلوم فأرادَ الرجوعَ إ بلدِه فرغبه ا ظفرُ الإقامةِ باليمنِ لينتفعَ الناسُ بعلمِه وأعلى قدرَه فاستوطنَ اليمنَ وتأهلَ بزبيدَ وكانَ إماماً الفقهِ والنحو واللغةِ وا ديثِ والتفسـ .

والفرائِض وأخذَ عن أ عبدِا ـِ مدِ بن أ دَ صاحب أحورَ عن بن أ نص

الطفاوي عن الإمام القلعي و يكنْ لهُ آخرِ عمرهُ نظٌ جودةِ العلمِ وضبطِ الكتبِ ح عتْ خزائنه مئةَ أم سوى ا ختصراتِ تُو بزبيدَ سنة ٦٨٠ هـ بعد أن بلغَ عمرُه وأَ من ٩٠ سنة.

ومن تلاميذِ تلاميذه الإمام. ربيعةُ بنُ ا سنِ بنِ علي بن عبدِا بن الصنعا الذماري الفقيهُ ا دثُ ولدَ سنةَ ٥٢٥ هـ وتفقهَ بظفارَ على الفقيهِ مدِ بنِ عبدِا بن ادةِ وغ ه وقرأَ اللفظَ ا ستغربَ من ألفاظِ كتابِ ا هذبِ على الإمام ناصرِ بنِ عبدِا سنه ٦٠١ هـ ودخلَ ديارَ مصرَ و عَ من السلفي وروى عنه ا نذري والإمامُ ا افظُ عبدُ العظيمِ بن عبدِ القويّ وتُو سنةَ ٦٠٩ هـ.

كذلكَ ذكرَ ا نديُ من تلاميذِ تلاميذِ القلعي الإمامَ أبا زكريا أخذَ الفقهَ على يدِ علي بن أ دَ تلميذِ الإمامِ القلعي فلما تضلعَ بالفقهِ خرَج إ مقديشوه فنشرَ العلمَ ا وذكرَ ا نديُ أنه ْ يتحققْ تاريخ وفاتِه.

الفصلُ الثالثُ

مؤلفاتُ الإمامِ

يتب لنا منْ خلال دراستِنا ياةِ الإمامِ القلعي، أنه كتبَ الكثـ َ وصنفَ العديدَ من ا ؤلفات الـ أثرى ا ا ياةَ العلميةَ وا كتبةَ الإسلاميةَ وأجادَ البحثَ كلِ فنٍ، إلا أنه غلبَ عليه أمرُ الفقهِ حـ كانتْ أغلبُ مصنفاتِه وأشهرُها فيه. فقد تركَ لنا تراثاً فقهياً ضخماً انتفعَ به ا سلمونَ وتناقلُوه وأثنَوا عليه وكل من ترجَم للإمام عدَ ما انتهى إليه علمُهُ من مصنفاتِه وما وصلَه خ ُهُ قالَ بعدَ ذلك: وكتبُهُ أكثرُ من ذلكَ وبعضُهم أشارَ إ مضانّ وجودِها. فقدْ قالَ ا ندي كتابِه السلوكِ طبقاتِ العلماءِ وا لوكِ: (ومصنفاتُه أكثرُ ا ذكرتُ وهي توجدُ بظفارَ وحضرموتَ ونواحيها) ومثلُ ذلكَ قالَ ا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ فقال: بعدَ أن عدد مصنفاتِهِ وله غ ُ ذلك وأكثرُ ما توجدُ مصنفاتُه ظفارَ وحضرموتَ ونواحيها). والكتبُ الـ ذكَرها الأئمةُ له هي:

١ - قواعدُ ا هذبِ، ذكَرَهُ ا نديُ السلوكِ طبقاتِ العلماءِ وا لوكِ وا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ وصاحبُ معجم ا ؤلفِ وهو مفقودٌ ْ أقعْ لهُ على أثرٍ.

٢ - إحترازُ ا هذب، ذكرَهُ ا نديُ تر ةِ الإمامِ القلعي ومعجمِ ا ؤلفـ َ، وا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ، والسبكي طبقاتِ الشافعيةِ الكـ ى، وقد أثـ العلماءُ على هذا ا صنفِ فقال ا ندي وهذا ا صنفُ شهدَ ـ به أعيانُ الفقهاءِ أنهُ ْ يصنفْ لهُ الاحترازِ نظ ٌ وهو مفقودٌ أيضاً.

٣ - إيضاحُ الغوامضِ علم الفرائضِ، وهو مُجَلدْين جَمَعَ فيه بـ َ مذهبِ الشافعي وغ ِه وأوردَ فيه طرفاً من ا ـ وا قابلَةِ والوصايا ذكرَهُ ا نديُ السلوكِ، وا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ، وصاحبُ معجمِ ا ؤلفـ َ، والزركلي الأعلام، وقال السبكيُ طبقات الشافعيةِ الكـ ى عن هذا الكتابِ وله مصنفٌ حافلٌ الفرائض. وهو مفقودٌ نعرفْ له وجوداً رغمَ ثنا فهارسِ ا خطوطاتِ.

٤ - كنـز ا فاظِ غرائبِ الألفاظِ، أ ألفاظَ ا هذبِ ذكرَهُ أُ الدينِ ا ندي السلوكِ، وا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ والزركلي وهو مفقودٌ أيضاً.

٥ - لَطائفُ الأنوارِ الصحابة الأبرار، ذكَرَهُ ا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ و اُءَ الدينِ ا ندي السلوكِ وصاحبُ معجمِ ا ؤلفِ َ، والزركلي الأعلام وهو لا زالَ طوطاً لا نعرفُ له وجوداً.

٦ - اللفظُ ا ستغربُ مِنْ ألفاظِ ا هذب، ذكَرَهُ ا نديُ بقولِهِ تر ة الإمامِ ومنها- أيْ مؤلفاتِه مستغربُ ألفاظِهِ وقال السبكي وله كتابٌ آخرُ مستغربِ ألفاظِهِ و أ اءِ رجالِهِ، وهو لا زالَ طوطاً وتوجدُ منه نسختان بدارِ الكتبِ ا صرية الأو ت رقم ب ٢١٨٥٤ وهي طوطةٌ قد ةٌ صفحا ا خروقٌ وآثارٌ رطوبَة وتقطيعٌ إلا أ ا كنُ قراءُ ا إذا دقق القارئُ فيها. مبدؤُهُ.. بسمِ ا ِ الر نِ الرحيمِ أخ نا أبو نــزارَ ربيعةُ بنُ ا سنِ بنِ علي بنِ عبد ا ِ بنِ أبِي شجاع اليما ا ضرمي بقرأ عليه رجبَ سنةَ إحدى وستمائةٍ قال أخ نا الفقيهُ الزاهدُ ا اورُ كةَ حرسَها ا ُ تعا ناصرُ بنُ عبد ا ِ بنِ عبدِ الر نِ ا قري بقرأتي عليه ادَ الآخرةِ سنةَ سِ و ا َ و سمائةٍ.

قال أخ نا الإمامُ العا ُ الفقيهُ العلامة أبو عبدِا ِ مدُ بنُ علي بنِ أ علي القلعي اليم ر َهُ ا ُ تعا قال: ا مدُ ِ على ما منحَ مِنَ العطاءِ ودفعَ من البلاءِ وصلواتُهُ على مدٍ خا ِ الأنبياءِ وعلى آلِ مدٍ السادةِ النجباءِ أما بعدُ، فإ قد جَمَعْتُ هذا ا ختصرِ من الألفاظِ اللغويةِ والأ اءِ الوضعيةِ الواقعةِ كتاب ا هذبِ ما قد طئ بأكثرِه أو هلُ تفس َها أكثرُ ا تدرس َ بل أكثر ا درس َ وقسمه إ قسم ِ:

الأولُ الألفاظِ اللغويةِ وهو مرتبُ على ترتيبِ أبوابِ الكتابِ والقسمُ الثا الأ اءِ والكُنى.

والنسخةُ تقعُ ٦١ ورقةً كلُ ورقةٍ ا ١٤ سطراً وأما النسخةُ الثانيةُ فهي منسوخة عن النسخةِ ا طيةِ الا أشرنا إليها و ملُ رقم ٢١٩٤٢ وكان الفراغُ من نسخِها ٨ مارس ١٩٤١م وتقعُ ٨٢ صفحةً ومسطرا ا ٢١ سطراً وما أحوجَ هذا الكتابِ بالدراسةِ والتحقيقِ وأن يُطبَعَ مع ا موعِ لعظيمِ فائدتِهِ وكثرة ا اجةِ إليهِ.

٧- كتابُ أحكامِ ا ختصرِ، ذكَرَهُ ا نديُ السلوكِ طبقاتِ العلماءِ ا لوكِ وهو مفقودٌ لا أعرفُ له وجوداً رغمَ ثي ا كتباتِ الإسلامية.

٨ - ولهُ كتابُ أحكامِ القضاةِ، ذكرُه ا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ والزركلي الأعلامِ وهو مفقودٌ لا أعرف له مكاناً.

٩ - وله كتابُ ذيب الرياسةِ وترتيبِ السياسةِ، وهو من أشهرِ كتبِ الإمامِ ذكرَهُ ا نديُ السلوكِ، والزركلي الأعلام، وا زرجي العقودِ اللؤلؤيةِ.

القسم التحقيقي

كتابُ

ذيبِ الرياسةِ وترتيبِ السياسةِ

تأليفُ الشيخ

العارفِ أ عبد ا مد بنِ علي بنِ أ عليٍ القلعي

ر ةُ ا عليه "ا ؤلف"

ا مدُ ِ وصلّى ا على سيدِنا مدٍ

وعلى آلِه وسلم ق / ١

بسمِ ا ـ الر نِ الرحيمِ (وبا ـ أثقُ وعليهِ أتوكل).

وا مدُ ـ داً كث اً دائماً متواتراً متواصلا مترادفاً متكاثفاً متظاهراً متظافراً دَ من اعترفَ ب هِ وآلائِه شاكراً وسلم لقدرهِ وقضائِهِ صابراً وأشهدُ أنْ لا إلهَ الا ا ُ وحدَه لا شريكَ لهُ إ اً واحداً أولاً آخراً صمداً[١] قيوماً[٢] باطناً ظاهراً حياً مريداً عا اً قادراً يعاً بص اً ناهياً وآمراً.

وأشهدُ أن مداً عبدُه ورسولُه ابتعثَه ليعمرَ من الدين داثراً وينعشَ من ا قِ عابراً ويقطعُ من الكفرِ دابراً ويغيضُ من الضلالةِ راً زاخراً فلمْ يزلْ (صلى ا ُ وعلى آلِهِ وسلَم) سامِ الإسلامِ شاهراً وبإعلانِ ا قِ اهراً و هادِ أهلِ العنادِ مصابراً وعن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ زاجراً ح عادَ ربعُ[٣] الدينِ عامراً.

وأضاءَ فلكَ اليق ـ داثراً ورجعَ الكفرُ والضلالُ إ الثباتِ وا سارِ داحراً صلى ا ُ عليهِ وعلى آلِهِ ما ا لَ النوءُ[٤] السماكي ماطراً وحدى العيسَ[٥] حاديها وارداً وصادراً

(١) الصمد: السيد الذي يقصد إليه با وائج، تار الصحاح.

(٢) القيوم: اسم من أ اء ا تعا معناه القائم بتدب ما خلق.

(٣) الربع لة القوم ومنـ ز م، ا صباح ا نـ .

(٤) النوء: سقوط م من ا نازل با غرب مع الفجر وطلوع رقيبه من ا شرق يقابله من ساعته وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح وا ر وال د إ الساقط منها، تار الصحاح.

(٥) الإبل: البيض ال بياضها ظلمة خفية، ا صباح ا نـ .

وبعدُ..

فهذا الكتابُ عتُه ذيبِ الرياسةِ وترتيبِ السياسةِ وجعلْتُه قسم ِ: القسمُ الأولُ منهُ يشتمل على أنواعِ أبوابٍ توي على غررٍ [١] من كلامِ ا كماءِ ودررٍ من نظامِ الفصحاءِ ا ينسبكُ قالبِ الأمثالِ الشاردة وينتظمُ سلكِ ا كمِ الواردةِ يتضمنُ اسنَ الأوصافِ ا مودةِ من ذوي الأمرِ وذمِ أضدادِها وما بُ استعمالُهُ أو تركُهُ من الأمورِ ا مدُ متبعُها عاقبةَ إصدارِها وإيرادِها.

والقسمُ الثا كاياتٍ من ا لفاءِ ووزرائِهم وعمالِهم وأمرائِهم ا يدلُ على نبلِهم وغزارةِ فضلِهم وحسنِ س تِهم وكمالِ مروءتِهم وما اشتملت عليه طرائقُهم وحوتْهُ خلائقُهم من العدلِ والإنصافِ والبذلِ والإسعافِ والعفوِ عند الاقتدارِ ومعرفةِ حقوقِ ذوي الأقدارِ وقبول- النصحِ من الناصح و اعِ ا وعظةِ من الصا مع ما اتصفوا بِهِ مِنْ علمٍ وأدبٍ ووقارٍ وحلمٍ وفصاحةٍ وبراعةٍ و احةٍ وشجاعة فمن ا ذَ ذلك إماماً ارتفعَ وانتفعَ ومنْ عملَ ا شاكلَه رشدَ وحُمِدَ.

وقد ابتدأتُ ذلكَ بذكرِ وجوبِ الإمامةِ وعدمِ الاستغناءِ عن الولاةِ وما بُ م على الكافةِ من الطاعةِ وا والاة وا ُ تعا ا وفقُ لانتظامِه والتيامِه وا ع ُ على إ امِهِ واختتامِهِ.

(١) غرر: بالضم والغره: بياض جبهة الفرس فوق الدرهم، القاموس.

بابُ ذكرِ وجوبِ الإمامةِ
والاحتياجَ إ السلطانِ
وعدَمِ الاستغناءِ عنه يعِ الأزمانِ

أ عتْ الأمةُ قاطبةً إلا من لا يعتد لافِهِ على وجوبِ نصبِ الإمامِ على الإطلاقِ وإن اختلفوا أوصافِهِ وشرائِطِهِ.

فأقولُ نظامُ أمرِ الدينِ والدنيا مقصودٌ، ولا صلُ ذلك إلا بإمامٍ موجودٍ. لو نقُلْ بوجوبِ الإمامةِ لأدى ذلكَ إ دوام الاختلافِ وا رجِ [1] إ يومِ القيامةِ. لوْ يكنْ للناسِ إمامٌ مطاعٌ لا نثلم شرفُ الإسلامِ وضاعَ. لوْ يكنْ للأمةِ إمامٌ قاهرٌ لتعطلتْ ا اريبُ [2] وا نابرُ، وانقطعتْ السبلُ للواردِ والصادرِ، لو خلا عصرٌ من إمام لتعطلتْ فيهِ الأحكامُ وضاعتْ الأيتامُ، و يُحجَ البيت ا رامُ. لولا الأئمةُ والقضاةُ والسلاط والولاةُ ا نكحتِ الأيامى ولا كفلتِ اليتامى. لولا السلطانُ لكانَ الناسُ فوضى ولأكلَ بعضُهم

(١) ا رج: الفتنة والاختلاط وفسره النَ صلى ا عليه وسلم إشراط الساعة بالقتل/ تار الصحاح.

(٢) ا اريب: ا راب اللغة كل موضع مرتفع وقيل للذي يصلي فيه راب لأنه ب أن يرفع ويعظم وقيل ا اريب ا ساجد/ تفسير القرط ، سورة سبأ.

بعضاً [١]. و ا ديثِ "السلطانُ ظلُ ا ـ ا مدودُ الأرض يأوي إليهِ كلُ مظلومٍ" [٢].

وقالَ عثمانُ [٣] رضْيَ ا ُ عنهُ: ما يزعُ ا بالسلطانِ أكثرُ ا يزعُ بالقرآنِ. ومع يزعُ أي نعُ ويكفُ ويردع. وقالَ بعضُ القدماءِ الدينُ والسلطان تؤمانِ. وقيلَ الدينُ أسٌ والسلطانُ حارسٌ فما لا أسَ له فمهدُوم، وما لا حارسَ له فضائعٌ.

وقال عمروُ بنُ العاصِ [٤]: إمامٌ عادل خ ٌ مِنْ مطرٍ وابلٍ [٥]، وأسدٌ حطومٌ خ ٌ من سلطان غشومٍ [٦]، وسلطان غشومٌ خ ٌ من فتنةٍ تدوم.

---

(١) نسبت هذه ا ملة للجاحظ كتاب آداب السياسة وبالعدل مصور رقم ٤٣٠٠.

(٢) ورد ا ديث باختلاف يس بعض ألفاظه، السنن الك ى للبيهقي، ج ٨ ص ١٦٢؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٩٧؛ مع الزوائد، ج ٥ ص ١٩٦؛ وفيه رواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدي وهو متروك، منتخب كنـز العمال سنن الأقوال والأفعال على هامش ا سند، ج ٢ ص ١٣١؛ كشف ا فاء وذكَرَ فيه طرق أخرى للحديث، ج ١ ص ٥٢٢.

(٣) هو أم ا ؤمن : عثمان بن عفان بن أ العاص ذو النورين وصاحب ا جرت وزوج الابنت . وأحد العشرة ا شهود م با نة وأحد الستة أصحاب الشورى ثالث ا لفاء الراشدين والأئمة ا هدي من السابق للإسلام. ولد السنة السادسة بعد الفيل بويع له سنة ٢٤ هـ وقتل سنة ٣٥ هـ وله من العمر ٨٢ سنة ودفن بالبقيع رضي ا عنه وأرضاه/ البداية والنهاية، ج ٧ ص ١٩٨؛ الطبقات الك ى، ج ٣ ص ٣٦؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٤٠؛ الاستيعاب لابن عبد ال ، ق ٣ ص ١٠٣٧؛ ا عارف، ص ٨٢.

(٤) عمرو بن العاص: هو أبو مد عمرو بن العاص الصحا القرشي أحد سادة قريش ا اهلية. أسلم يوم ا دنة وهاجر و الأمرة غزو الشام لأ بكر وعمر، افتتح مصر ووليها لعمر بن ا طاب عاوية، كان صاحب دهاء وخ ة تو سنة ٤٣ هـ صر / النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦١ - ٦٢؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٣؛ البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥؛ الطبقات الك ى، ج ٤ ص ٢.

(٥) وابل: ا طر الشديد.

(٦) الغشم: الظلم/ القاموس ا يط.

وقالَ كعب الأحبار [١]: مثلُ (الإسلام والسلطان) مثلُ عمودٍ وفسطاطٍ [٢]، فالفسطاط الإِســلامُ، والعمــودُ السلطانُ، والأوتادُ الناسُ، ولا يصلُح بعضُهم إلا ببعض.

وقال الأفوهُ الأوديُ [٣]:

لا يصلُحُ الناس فوضى لا سراةَ م ... ولا سراةَ إذا جُهّا ُم سادُوا

كالبيتِ لا يبتى إلا له عمد ... ولا عمودَ إذا ُترسى أوتادُ

فــإن ـمــعَ أوتــــاد واعمــدةٌ ... وســاكنٌ بلغوا الأمرَ الذي كادُوا

وقالَ ابنُ ا عتز [٤]: فسادُ الرعيةِ بلا ملكٍ كفسادِ ا سمِ بلا روح. وقال بعضُ البلغاءِ: السلطانُ زمامُ [٥] ا لةِ [٦]، ونظامُ ا ملةِ، وجلاءُ الغمةِ [٧] ورباطُ [٨] البيضةِ [١]،

(١) كعب الأحبار: هو أبو اسحاق كعب الأحبار بن نافع ا ميدي من مسلمي أهل الكتاب، أسلم على يد أ بكر الصديق، وهو من الطبقة الأو من التابع ، أخذ عنه الصحابة كث اً من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. تو ص سنة ٣٢ هـ عن مائة وأربع سن . النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٩٠.

(٢) الفسطاط بيت من الشعر/ تار الصحاح

(٣) الأفوه الأودي: هو صلاءة بن عمرو بن مالك، شاعر جاهلي غلب عليه لقب الأفوه/ الشعر والشعراء، ص ٢٢٣.

(٤) ابن ا عتز: هو أم ا ؤمن الراضي با أبو العباس عبد ا بن ا عتز با بن ا توكل العباسي. ولد شعبان سنة ٢٤٧ هـ وأخذ عن ا د وثعلب، وكان فاضلا شاعراً بويع له با لافة يوماً واحداً، و يتم له الأمر قتل خنقاً ٢٧٦ هـ/ تاريخ بغداد، ج ٧ ص ٢١٤؛ تاريخ الط ي، ج ١٣ ص ٢٢٨٢؛ الفهرست، ص ١١٦؛ فوات الوفيات، ج ١ ص ٢٤١.

(٥) الزمام: ا يط الذي يشد به ويسمى ا قود زمام، وزم البع خطة وا زمزمة صوت الرعد/ تار الصحاح.

(٦) ا لة: الدين والشريعة/ تار الصحاح.

(٧) الغمة: الكربة ويقال أمر غمة أي مبهم ملتبس/ تار الصحاح.

(٨) الرباط: ما تشد به الدابة والقربة/ تار الصحاح.

وعمادُ ا وزةِ (٢). وقالَ آخرُ: السلطانُ يدافعُ عن سوادِ الأمةِ (٣) ببياضِ الدعوة.

بابُ ذكرِ
الوا العادلِ (وما لهُ منَ الأجرِ)
والوا ا ائر وما عليه من الوزرِ

قالَ رسولُ ا ِ صلى ا عليه وسلمَ: سبعةٌ يظِلهُمُ ا ُ عزَ وجلَ تَ ظلِ عرشِهِ يومَ لا ظلَ إلا ظلُه، إمامٌ عادلٌ وشابٌ نشأ عبادةِ ربِه ورجلٌ قلبُهُ معلقٌ ا ساجدِ، إذا خرجَ حـ يعودَ إليهِ، ورجلٌ ذكَرَ ا َ خالياً ففاضتْ عيناهُ، ورجلانِ ابا ا ِ عزَ وجلَ اجتمعا على ذلكَ تفرقا، ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ حسنٍ و الٍ إ نفسِها فقالَ: إ أخافُ ا َ عزَ وجلَ، ورجلٌ تصدقَ بصدقةٍ فأخفاها حـ لا تعلمَ الُه ما تنفقُ ينُهُ (٤). فبدأ رسولُ ا ِ صلى ا ُ عليهِ وسلمَ بالإمامِ العادلِ وحقيقٌ (٥) أن يبدأ بهِ، لأنه من العا ِ =

(١) البيضة: بيضة القوم ساحتهم وبيضة كل شيء حوزته/ تار الصحاح.

(٢) ا وزة: الناحية وكل من ضم شيئاً إ نفسه فقد حازه/ تار الصحاح.

(٣) سواد الأمة: عامتهم/ تار الصحاح.

(٤) ورد ا ديث بتقد وتأخ بعض الألفاظ، صحيح مسلم، ج ٣ ص ٩٣. السنن الك ى للبيهقي، ج ٤ ص ١٩٠. مشكاة ا صابيح، ج ١ ص ٢٢٠- ٢٢١. موطأ مالك، بشرح الزرقا ، ج ٤ ص ٣٤٢. والراعي هو ا افظ ا لتزم صلاح ما قام عليه وفيه أن كل من كان ت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام صا ه.

(٥) حقيق به: أي خليق به وجدير به/ تار الصحاح.

نـزلةِ السوادِ من العـ بل نـزلةِ السويداءِ [١] من القلبِ، بل هو نـزلةِ القلبِ من ا سدِ، فبصلاحِهِ يصلحُ ا سدُ وبفسادِهِ يفسُدُ.

كما قال عليهِ الصلاة والسلامُ: "إن ا سدِ مضغةً [٢]، إذا صلحتْ صَلَحَ ا سدُ كُلُّهُ، وإذا فسدتْ فَسدَ ا سدُ كُلُهُ ألا وهي القلبُ [٣].

وقدْ تقدمَ قولُ ابنِ ا عتزِ، فسادُ الرعية بلا ملكٍ كفسادِ ا سمِ بلا روح. وإ ا كانَ السلطانُ ذِهِ ا ثابة لأنه نفسِهِ إمامٌ متبوعٌ، و س تِهِ دينٌ مشروعٌ، فإن ظلمَ يعدلْ أحدٌ حكم، وإن عدَلَ يستجري أحدٌ على ظلمٍ.

وَرُوِيَ أن عمرَ بنَ ا طاب [٤]، رضيَ ا عنهُ، لما حُملَ إليه مغا العراقِ عند افتتاحِها، وما أصيبَ من كنوزِ كسرى ورأى ما فيها من ا واهرِ النفيسةِ جَعَلَ يتعجبُ منها، ويقولُ: (إن الذي أدى هذا لأمين)، فقال له عبدُ الر نِ بنُ عوفٍ[٥]: أنا أخ كَ

(١) سويداء القلب: حبته/ تار الصحاح.

(٢) مضغة: قطعة من اللحم، وقلب الإنسان مضغة من جسده/ تار الصحاح.

(٣) صحيح البخاري، ج ١ ص ٢٠. صحيح مسلم، ج ٥ ص ٥٠. مسند أ د، م ٤ ص ٢٧٠. سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ١٣١٩. وا ديث دليل على عظيم دور القلب استعمال ا وارح لأ ا تابعة والقلب متبوع.

(٤) عمر بن ا طاب: هو أم ا ؤمن أبو حفص عمر بن ا طاب بن نفيل القرشي العدوي. ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، أسلم وله من العمر ٢٧ سنة، وشهد بدراً وأحداً، وا شاهد كلها مع الن صلى ا عليه وسلم. وهو أول من دعي أم ا ؤمن ، وأول من أرخ با جرة، وفتح الفتوح، ومصر الأمصار، ووضع ا راج، ودون الدواوين، واستقضى القضاة. لقب بالفاروق لعدله، استشهد وله ستون سنة، وكانت مدة خلافته عشر سن وستة أشهر وأربعة أيام. الاستيعاب ق/٣ ص ١١٤٤. الطبقات الك ى، ج ٣ ص ١٩٠. البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٣٣. شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٣. ا عارف، ص ٧٧.

(٥) هو عبد الر ن بن عوف بن عبد بن عبد بن ا ارث كان يسمى ا اهلية عبد عمرو، فسماه رسول ا صلى ا عليه وسلم عبد الر ن، ولد بعد الفيل بعشر س ، هاجر ا جرت ، وتو سنة ٣١ هـ، وهو ابن ٧٥ سنة، ودفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان. الاستيعاب ق/ ٢ ص ٨٤٤.

=

بذلك يا أم ا ؤمن أنتَ أم ا وهم أمناؤُك، فما دمتَ مؤدياً للأمانةِ أدوها وم رَتَعتَ رَتَعُوا.

و بعضِ الآثارِ "الناسُ على دينِ الملِكِ". وهذا معه قولِهِ صلى ا عليهِ وسلَّمَ كتابِهِ إ هرقل عظيمِ الرومِ: "أسلمْ يؤتِكَ ا أجرَكَ مرتين إنْ أبيتَ فإنَ عليك أ الأريسيين" [1]. والأريسيونَ الأكاريونَ[2]، قيلَ معناهُ أن الرعيةَ اتباعٌ للملوكِ ا والشرِ، والإسلامِ والكفرِ، فم أبيتَ قبولَ الإسلامِ و لمفتَ عنه وأقمتَ على الكفرِ، كانَ ذلكَ سببَ لمفِ رعيتِكَ عنْ الإسلامِ وتركهم الدخولَ فيهِ فيكونَ عليكَ مثلُ أ هم.

وهذا مثلُ قو صلى ا عليهِ وسلَّمَ: "مَن سن سنةً حسنةً كانَ لَهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ ا إ يومِ القيامةِ ومنْ سن سنةً سيئةً كانَ عليهِ وزرُها ووزرُ من عملَ ا إ يومَ القيامَة". [3] قال رسول ا صلى ا عليهِ وسلَّم: "منْ دعَا إ هدىً كان لهُ من الأجرِ مثل أجرِ من تَبِعَهُ لا ينقصُ ذلكَ من أجورِهم، ومن دعا إ ضلالةٍ كان عليه من الأ مثلُ آثامِ منْ تبعهُ لا ينقصُ ذلكَ من آثامِهم شيءٌ) [4].

=

ا عارف، ص ١٠٣.

(١) كتاب الرسول صلى ا عليه وسلم، إ هرقل، ذكره الإمام مسلم، صحيحه كاملاً، ج ٥ ص ١٦٣. البخاري، ج ٤ ص ٥٧. مسند أ د، م ١ ص ٢٦٣. تاريخ الط ي، ج ٣ ص ١٥٦٥. السـ ة ا لمبية، ج ٢ ص ٣٦٦.

(٢) الأكار: ا راث/ القاموس ا يط.

(٣) سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٤٩، باختلاف بعض الألفاظ، وقال حديث حسن صحيح. سنن النسائي، ج ٥ ص ٧٦. سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٧٤.

(٤) سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٧٥. سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٤٩. وقال حديث حسن صحيح. سنن أ داود، ج ٤ ص ٢١٠. صحيح مسلم، ج ٨ ص ٦٢. قوله صلى ا عليه وسلم، لا ينقص ذلك من أجورهم دفع به ما يتوهم أن أجر الداعي إ ا يكون بالنقص من أجر التابع وضمه إ أجر الداعي. وقوله مثل آثام من تبعه لتولده عن فعله والعبد يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه.

وقالَ صلى ا ُ عليهِ وسلَم: (إن أحبَ الناسِ إ ا ِ تعا وأقربَهُم منهُ إمامٌ عادلٌ، وإن أبغضَ الناسِ إ ا ِ تعا وأبعدَهُم منهُ وأشدهُم عذاباً إمامٌ جائر" [١].

و حديثٍ آخرَ "إن أفضلَ عبادِ ا ِ منـزلةً يومَ القيامةِ إمامٌ عادلٌ رفيقٌ، وإن أشرَ عبادِ ا ِ منـزلةً يومَ القيامةِ إمامٌ جائرٌ.

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: (الإمامُ جُنةٌ [٢] يقاتَل من وراءِه، ويُتقَى بهِ فإنْ أمرَ بتقوى ا ِ وعَدَلَ كانَ لَهُ بذلكَ أجرٌ، وإنْ أمرَ بغ ِه كانَ عليهِ وزرٌ) [٣].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "ثلاثةٌ يبغضُهم ا ُ الإمامُ ا ائرُ والشيخُ الزا ، والفق ُ ا ختالُ [٤]. وروتْ عائشةُ، رضيَ ا ُ عنها، قالت: عتُ رسولَ ا ِ صلى ا ُ عليهِ وسلمَ يقولُ بي هذا (اللهم مَنْ وَ ِ مْن أمرِ أم شيئاً فشق عليهم فأشققْ عليهِ، ومنْ و َ مِنْ أمرِ أم شيئاً فَرَفَقَ م فارفقْ بِهِ". [٥] وهذا عامٌ كلِ وال ولايَتُه عمتْ أو خصتْ "قَلت أو كثرتْ عظمتْ أو صغرتْ".

وقالَ عليهِ السلامُ: "إن ا قسط َ عندَ ا ِ على منابرَ من نورٍ عنْ ِ العرشِ الذينَ

---

(١) سنن الترمذي، ج ٢ ص ٣٩٤، وقال حديث حسن غريب. مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٩٤.

(٢) جنة: وقاية/ القاموس.

(٣) البخاري، ج ٤ ص ٦٠. صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٧. سنن أ داود، ج ٣ //ص ٨٢. سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٥- ١٥٦. وإ ا كان الإمام جنة، لأنه يقتدي برأيه ونظره الأمور العظام والوقائع ا طرة، ولا يتقدم عن رأيه، ولا ينفرد دونه بأمر مهم. يقاتل الناس معه الكفار والبغاة وسائر أهل الفساد. وقيل ا راد أن يقاتل الناس أمامه، فإن وراء هنا ع إمام، فلا يترك يباشر القتال بنفسه، ا فيه من تعريضه للهلاك، والصحيح أن ا راد أن يقاتل على وفق رأيه وأمره فصار كأ م خلفه.

(٤) ذكر الإمام أ د، مسنده ا ديث، بكماله، م ٥ ص ١٥٣، ورفعه إ أ ذر. سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٠٢، وقال حديث صحيح.

(٥) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٧. مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٩٠. هذا الدعاء من رسول ا صلى ا عليه وسلم، على من ظلم رعيته، وعاملهم بالعسف، ودعاء ن رفق م وعاملهم باللطف والرفق، وهو من أبلغ الزواجر عن ا شقة.

يعدلونَ حكمِهم وأهلِيهم وما ولُوا"[١].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: (ما منْ أمـِ عشره إلا جيءَ به يومَ القيامةِ مغلولةَ يداُهُ إ عنقِهِ، حـ يكونَ عملُهُ هُو الذي يطلقُهُ أو يوبقُهُ". أي يهلكُهُ، وقال عليهِ السَلامُ: "عَدْلُ ساعةٍ حكومةٍ خـ من عبادة سنةٍ"[٢] وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "العامل على الصدقةِ با قِ كالغازي سبيلِ ا ـِ حـ يرجعَ إ بيته" وعنْ أ ذر[٣]، ر ة ا ُ تعا ، قالَ: قلت يا رسول ا ألا تستعملُ ، قال فضرب بيدِهِ على منك قالَ: "يا أبا ذرٍ إنكَ ضعيفٌ، وإ ا أمانةٌ وإ ا يومَ القيامةِ حسرةٌ وندامة، إلا منْ أخذَهَا قها وأدى الذي عليهِ فيها". و روايةٍ أخرى أن الن صلى ا ُ عليهِ وسلمَ قالَ لَهُ: "يا أبا ذرٍ إ أراكَ ضعيفاً، وإ أحـبُ لَكَ ما أحبُ لنفسي لا تأَمرن على اثنـِ ولا تول على مالِ يتيم"[٤].

(١) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٧. مسند أ د، م ٢ ص ١٦٠. سنن النسائي، ج ٨ ص ٢٢١. يـ الرسول صلى ا عليه وسلم، ما للعادل عند ا من الأجر وا نـزلة فهم عنده مقربون ولديه مكرمون. وا ديث كناية عن حسن حا م وعلو مرتبتهم.

(٢) سنن أ داود، ج ٣ ص ١٣٢. مسند أ د، م ٣ ص ٤٦٥. سنن الترمذي، ج ٢ ص ٧٩، وقال فيه حديث حسن. سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٥٧٨.

(٣) هو جندب بن جناده على ا شهور، أسلم قد اً كة، فكان رابع أربعة أو خامس سة، يشهد بدراً ولا أحداً ولا ا ندق، لأنه حـ أسلم رجع إ قومه، فأقام حـ مضت هذه ا شاهد، قدم الن صلى ا عليه وسلم، ولزمه خرج خلافة أ بكر إ الشام، فلم يزل ا حـ و عثمان، رضي ا عنه، فأسكنه الربذة، فمات ا سنة ٣٢ هـ، وصلى عليه عبد ا بن مسعود. الاستيعاب، ق/ ١ ص ٢٥٢. الطبقات الك ى، ج ٢ ص ١١٢. البداية والنهاية، ج ٧ ص ١٦٤.

(٤) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٧. سنن النسائي، ج ٦ ص ٢٥٥. ووجه ضعفه أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا، ومن هذا حاله لا يعتـ صا الدنيا وبأموا ا، الذين راعا ما تنتظم مصا الدين ويتم أمره. وقد كان أبو ذر أفرط الزهد الدنيا، حـ انتهى به ا ال إ أن يفـ بتحر ا مع للمال وإن أخرجت زكاته، فلما علم منه الن صلى ا عليه وسلم هذه =

وعن ا قدامِ بنِ معدي كرب [١] أن رسولَ ا ِ صلى ا عليهِ وسلَم ضربَ على منكبه قالَ: "أفلحتْ يا مقدامُ إن ْ تكن أم اً ولا كاتباً ولا عريفاً" [٢].

وروي أن رجلاً قالَ لرسولِ ا ِ صلى ا ُ عليهِ وسلمَ إن أ شيخٌ كبٌ وهو عريفُ ا اءِ [٣] وهو يسألُكَ أن عل العرافة بعدَهُ قالَ صلى ا ُ عليهِ وسلمَ: "إن العرافةَ حقٌ، ولا بدَ للناسِ من العرفاءِ ولكن العرفاءِ النارِ".

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: ((لا يدخلُ ا نةَ صاحبُ مكسٍ)). وسنذكرُ إنْ شاءَ ا ُ فيما بعدُ ما وردَ من ألفاظِ ا كماءِ والبلغاءِ مدحِ العدلِ وذمِ ا ورِ بابٍ مفردٍ إنْ شاءَ ا ُ تعا .

=

ا الة، نصحه و اه عن الإمارة، وعن ولاية مال اليتيم، وأكد النصيحة ببيان حبه له.

(١) هو ا قدام بن معدي كرب الصحا الزبيدي الكندي، أحد الوفود الذين وفدوا على رسول ا صلى ا عليه وسلم من كنده، وبالشام مات سنة ٨٧ هـ، وهو ابن ٩١ سنة. الاستيعاب، ق/ ٤ ص ١٤٨٢. شذرات الذهب، ج ١ ص ٩٨. البداية والنهاية، ج ٩ ص ٧٣.

(٢) سنن أ داود، ج ٣ ص ١٣١. السنن الك ى، ج ٦ ص ٣٦١. مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٩٤.

(٣) العريف: النقيب وهو دون الرئيس وا مع عرفاء/ تار الصحاح.

باب ذكرِ ما ب على الرعيةِ للولاةِ من الطاعةِ وما يكرهُ ا منَ (ا عصيةِ) وا روجِ عليهم ومفارقةِ ا ماعةِ

قالَ ا تعا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ا َ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [1] فأوجبَ طاعةَ أو الأمرِ (وَقَرَنَهَا) بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ. وقد فَسرَ ذلكَ أكثرُ أهلِ العلمِ، بأن ا رادَ بأو الأمرِ أمراءُ ا سلم َ. وروىَ ذلكَ عن أ هريرَة [2]، وابنِ عباس [3] (رضيَ ا ُ عنهما)، وزيدِ بنِ أسلمَ [1] (رضيَ ا ُ عنهُ). وهوَ اختيارُ أكثرِ

(١) آية ٥٩ من سورة النساء وهي مدنية.

(٢) أبو هريرة: هو عبد الر ن بن صخر الدوسي على الأشهر. كناه الرسول صلى ا عليه وسلم بأ هريرة، أسلم عام خي وشهدها مع الرسول صلى ا عليه وسلم، لزمه وواظب على الصحبة. وكان من أحفظ الصحابة، روى عنه أكثر من ان مائة رجل، من صاحب وتابع استعمله عمر على البحرين، عزله أراده على العمل فأ عليه و يزل يسكن ا دينة، و ا كانت وفاته سنة ٥٨ هـ وصلى عليه الوليد بن عقبة بن أ سفيان وله من العمر ٧٨ سنة/ الاستيعاب، ق ٤ ص ١٧٨٨؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٥١؛ الطبقات الك ى، ج ٤ ص ٥٢؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٦٣؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٣.

(٣) عبد ا بن عباس: هو أبو العباس عبد ا بن عباس، حـ الأمة وتر ان القرآن، وابن عم رسول

العلماءِ.

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "مَنْ أطَاعَنِي فَقَدْ أطَاعَ ا ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عصى ا ، ومنْ أطَاعَ الأم فَقَدْ أطاعَ وَمَنْ عَصَى الأم فقدْ عصا " [٢].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "لو استعملَ عليكم عبدٌ حبشي دعُ الأطرافِ يقودُكم بكتابِ ا فا عُوا لَهُ وأطيعُوا" [٣]. وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصامِتِ [١] قَالَ: "بايعْنَا

=

ا صلى ا عليه وسلم وأبو ا لفاء العباسيـ . ولد شعب ب هاشم قبل ا جرة بثلاث سن ، ودعا له الن صلى ا عليه وسلم "اللهم علمه التأويل وفقه الدين وكان عمر بن ا طاب يدعوه للمعضلات لا يتجاوز قوله، شهد مع علي ا مل وصف وقد استنابه على البصرة، وأقام للناس ا ج بعض السن ، تو بالطائف سنة ٦٨ هـ/ الاستيعاب، ق ٣ ص ٩٣٣؛ الطبقات الك ى، ج ٢ ص ١١٩؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ٢٩٥؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٨٢.

(١) هو زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي العجلا الأنصاري، حليف لبـ عمرو بن عوف. شهد بدراً واحداً، وهو ابن عم ثابت بن أقرم. الاستيعاب، ق ٢ ص ٥٣٦.

(٢) صحيح البخاري، ج ٤ ص ٦٠؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٣؛ مسند أ د وفيه ورد ا ديث كاملاً، م ٢ ص ٢٥٣؛ السنن الك ى، م ٨ ص ١٥٥؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٤؛ مسند ا ميدي، ج ٢ ص ٤٧٧؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٨٥ وقوله صلي ا عليه وسلم من أطاع فقد أطاع ا مقتبس من قوله تعا : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ا** ﴾ الذي أمر بالأمر ابتداء. ولأنه صلى ا عليه وسلم إ ا كم نيابة عن ا ، وكذا الإمام كم نيابة عن الن صلى ا عليه وسلم. وقد ذكر ا طاب سبب اهتمام الن صلى ا عليه وسلم بشأن الأمراء، حـ قرن طاعتهم إ طاعته، فقال كانت قريش ومن يليهم من العرب لا يعرفون الإمارة، ولا يدينون لغ رؤساء القبائل فلما كان الإسلام وو عليهم الأمراء، أنكرت ذلك نفوسهم وامتنع بعضهم من الطاعة، فأعلمهم الرسول أن طاعتهم مربوطة بطاعته ومعصيتهم عصيته حثاً م على طاعة أمرائهم لئلا تتفرق الكلمة/ فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج ١٣ ص ١١٢.

(٣) صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٤- ١٥؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٤؛ السنن الك ى، م ٨ ص

رسولَ ا ِ صلى ا ُ عليهِ وسلمَ على السمع والطّاعةِ، منشِطنا ومكرهِنا، وعسرِنا ويسرِنا، وأثرةٍ [٢] علينا وأن لا ننازِع الأمرَ أهْلَهُ، إلا أن َتروا كفراً َبواحاً، عندكمْ من ا ِ فيه برهان" [٣].

وَعَن ابنِ مسعودٍ [٤] قالَ: قالَ رسول ا ِ صلى ا ِ عليهِ وسلم: "إ ا ستكون بعدي

=

٥٥؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٥، وقال هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غ وجه، مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٨٥، وا ع لو استعمل عليكم أي جعل عاملاً عليكم، بأن جعل ا ليفة بعض عبيده أم اً عليكم فا عوا وأطيعوا. ولا يرد أن العبد لا يصلح للخلافة فا طلوب هنا ا بالغة وقوله يقودكم بكتاب ا أي ملكم على مقتضاه، فإن أمر عصية فلا ع ولا طاعة.

(١) هو عبادة بن الصامت بن قيس ا زرجي الأنصاري. يك أبا الوليد شهد العقبة الأو ، والثانية والثالثة، وكان أحد النقباء آخى الرسول صلى ا عليه وسلم بينه وب أ مرثد الغنوي، وشهد بدراً وا شاهد كلها تو قضاء الشام لعمر، فأقام مص انتقل إ فلسط ومات ا، ودفن ببيت ا قدس. وهو ابن ٧٢ سنة وذلك سنة ٣٤ هـ، الاستيعاب، ق ٢ ص ٧٠٨؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٩١.

(٢) الأثرة: استأثر بالشيء استبد به والاسم الأثرة بفتحت تار الصحاح.

(٣) البخاري، ج ٩ ص ٥٩؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٦- ١٧؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٣٨-١٣٩؛ السنن الك ى، ج ٨ ص ١٤٥؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٨٦، وا ديث يرشد إ ما بايعت الصحابة عليه رسول ا صلى ا عليه وسلم، من السمع والطاعة حالة النشاط والكراهة، والعسر واليسر، وأن لا ينازعوا الأمر أهله أي لا تنازع من و الامارة من كان أهلا ا، من أئمة العدل ومن على شاكلتهم، إلا أن تروا كفراً بواحاً أي جهاراً عندكم من ا فيه حجة بينه، من نص آية أو خ صحيح لا تمل التأويل. ومقتضاه عدم جواز ا روج ما دام فعلهم تمل التأويل/ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٣ ص ٨.

(٤) عبد ا بن مسعود: هو عبد ا بن مسعود بن غافل، يك أبا عبد الر ن، شهد مع رسول ا صلى ا عليه وسلم بدراً، وبيعة الرضوان و يع ا شاهد وكان على قضاء الكوفة، وبيت ما ا

=

أثرةٌ، وأمورٌ تنكرو ا، قالوا يا رسولَ ا ـِ فما تأمرُ مَنْ أدركَ ذلكَ قال تؤدونَ ا قَ الذي عليكمْ وتسألون ا ـَ الذي لكمْ" [١].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ للأنصارِ: "إنكمْ ستلقونَ بعدي أثرةً، فاصـ وا حـ تلقو على ا وضِ" [٢].

وعن حذيفَة بن اليما [٣] أن رسولَ ا ـِ صلي ا ـُ عليه وسلَم قالَ: "تكونُ بعدي أئمةٌ لا يهتدونَ ـداي ولا يستنونَ بسنـ ، وسيقومُ فيهم رجالٌ قلوبُهُم قلوبُ الشياطـِ جثمانِ إنْسٍ قالَ: قلتُ كيفَ أصنعُ يا رسولَ ا ـِ إنْ أدركتُ قالَ: تسمعُ وتطيعُ، وإنْ ضرِبَ ظهرُك وأخذَ مالُكَ فا ـَعْ وأطِعْ" [٤]. وقالَ صلى ا عليهِ وسلَم: "مَنْ خَرَجَ من

=

لعمر وصدراً من خلافة عثمان، كان من أقرأ الصحابة للقرآن، قال فيه رسول ا صلى ا عليه وسلم: (من أراد أن يقرأ القرآن غضاً كما نـزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" تو سنة ٣٢ هـ، وهو ابن بضع وست سنة ودفن بالبقيع/ الاستيعاب، ق/ ٣ ص ٩٨٧؛ ا عـارف، ص ١٠٩.

(١) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٥٩، صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٧- ١٨؛ السنن الكـ ى، م ٨ ص ١٥٧؛ وهذا ا ـديث من معجزات النبوة فإنه صلى ا عليه وسلم أخـ عن ذلك ا أو من الغيب، وفيه ا ـث على السمع والطاعة، وإن كان ا تو ظا اً عسوفاً، فيعطى حقه من الطاعة ولا ـرج عليه ولا لع بل يتضرع إ ا تعا كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه / صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٣٢.

(٢) البخاري، ج ٥ ص ٤١؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٩؛ السنن الكـ ى، م ٨ ص ١٥٩؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٢٦؛ وقال هذا حديث حسن صحيح، سنن النسائي، ج ١ ص ٢٢٥.

(٣) "حذيفة بن اليما : هو حذيفة بن اليما العبسي. واسم اليما حسيل بن جابر، يكـ أبا عبدا العبسي صاحب سر رسول ا صلى ا عليه وسلم، وكان عمر يسأله عن ا نافق فإذا يشهد جنازة أحد يشهدها عمر، شهد أحداً تو سنة ٣٦ هـ. الاستيعاب، ق / ١ ص ٣٣٤؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٤٤؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٠٢؛ ا عارف، ص ١١٤.

(٤) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٠؛ السنن الكـ ى، م ٨ ص ١٥٧، وقال الدارقط أنه مرسل، لأن

الطاعةِ وفارقَ ا ماعةَ مات مات ميتةً جاهليةً، وَمَنْ قاتلَ ت رايةٍ عُميةٍ [١] يغضب للعصبيةِ ويقاتلُ للعصبيةِ، فليسَ م ، وَمَن خَرَجَ مِنْ أم يضربُ برَها وفَاجِرَها ولا يتحاشَى ؤمنها ولا يفي لذي عَهْدِهَا فليسَ م ، [٢]. وقالَ صلى ا عليه وسلَم:

"مَنْ رأى مِنْ أمـيرِهِ ما يكرهُه، فليصبِرْ فإنهُ منْ فارقَ ا ماعةَ شبراً فمات فميتةٌ جاهليةٌ" [٣].

=

راويه عن حذيفة هو أبو سلام وهو يسمع من حذيفة لكن ا صحيح، و الرسول، صلى ا عليه وسلم ن أو من الغيب عن حال أئمة ا ور الذين يدون عن ا ق ولا يهتدون بنور النبوة وحال بطانتهم الذين ببون م ا عاصي ويزينون م ا نكر، فيقومون بدور الشياط . وي ما ب على ا سلم عندها من ع وطاعة ما دام الأمر يصل إ الكفر البواح.

(١) عمية: هي بضم الع وكسرها لغتان مشهورتان وا يم مشددة والياء مشددة أيضاً وهي الأمر الأعمى لا يستب وجهه.

(٢) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢١؛ السنن الك ى، م ٨ ص ١٥٦؛ مسند أ د، م ٢ ص ٢٩٦؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٨٦، ب الرسول صلى ا عليه وسلم هذا ا ديث أن من خرج عن طاعة إمامه وفارق اعة الإسلام، فمات على تلك ا ال من منابذة الإمام وا سلم مات ميتة جاهلية، فإ م كانوا شيعة وأحزاباً متفرقة لا يطيعون أم ، ولا ينضمون إ اعة واحدة، بل عصائب متنازعة يقاتل بعضهم بعضاً. ومثله الضلالة والغواية من قاتل ت راية اجتمع أهلها على أمر هول، لا يعرف أنه حق أو باطل يدعون إليه ويقاتلون لأجله، من غ بص ة أو حجة. يؤكد الرسول صلى ا عليه وسلم، هذا ا ع ويب أن من شق عصا الطاعة، وخرج على أمة الإسلام لا يبا ا يفعل، يؤذي ا والفاجر دون تفريق ب تقي وشقي ولا يفي لذي عهد ا عاهد، وينقص عهد أهل الذمة يقتلهم وأخذ أموا م، فقد أخرجه الرسول صلى ا عليه وسلم من اعة ا ؤمن ، بقوله ليس م ، أي ليس من أم أو ليس هو على طريقي وسن / صحيح مسلم، شرح النووي، ج ١٢ ص ٢٣٨- ٢٣٩.

(٣) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٥٩؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢١؛ السنن الك ى، م ٨ ص ١٥٧؛ سنن الدارمي، ج ٢ ص ٢٤١؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٨٦، قوله فليص أي على جوره

=

وَعَنْ ابنِ مسعودٍ رضيَ ا ُ عنهُ أنهُ قالَ إذا كانَ الإمامُ عادلاً فلهُ الأجرُ وعليكم الشكرُ وإنْ كانَ جائراً فعليكُم الص ُ وعليهِ الوزرُ.

و ا ديث: "مَنْ نـزعَ يَدَهُ مِنَ الطاعةِ ْ يكنْ لَهُ حجةٌ يومَ القيامةِ"[١] و آخرَ: "مَنْ فارقَ ا ماعةَ واستذلَ الامارةَ لقيَ ا َ عز وجل ولا وَجْهَ لَهُ عندهُ"[٢]. و حديثٍ آخرَ: "مَنْ أهانَ سلطانَ ا ِ أهانَهُ ا ُ ومنْ أكرَمَ سُلطانَ ا ِ أكرَمَهُ ا ُ"[٣]. قلتُ: ليسَ ا رادُ ا وردَ هذه الأخبارِ أن نطيعَهُ ا عصيةِ إذا أمرَ ا، ونقتديَ فيه ا. بل ا رادُ بِهِ أن السلطانَ إذا فسقَ وجارَ، رجْ بذلك عَنْ أنْ تكونَ طاعتُهُ واجبةً، سائرِ الأحكامِ ال ِ لا معصيةَ فيها.

بلْ بُ الفتْنةُ ا عصيةِ وطاعتُهُ (الأمور اللازمة). قالَ رسولُ ا ِ صلى ا ُ عليهِ وسلَم: (على ا رءِ ا سلمِ السمعُ والطاعةُ، فيما أحب وكرِه الا أن يؤمَر عصيةٍ، فلا عَ ولا طاعةَ)[٤].

=

وظلمه والأمر بالص يستلزم وجوب السمع والطاعة، وقوله ميتة جاهلية أي كا يتة ا اهلية حيث لا يرجعون إ طاعة أم ، ولا يتبعون هدى إمام، بل كانوا مستنكف عن ذلك مستبدين الأمور لا تمعون شيء ولا يتفقون على رأي وليس ا راد أنه يكون كافراً بذلك/ إرشاد الساري، لشرح صحيح البخاري، ج ١٠ ص ٢٢٠.

(١)صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٢؛ باختلاف لفظي يس ، مسند أ د، م ٢ ص ٧٠؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٨٨، يدل ا ديث على أن من نازع إمامه ح خرج عليه ونـزع نفسه من طاعته يكن له حجة فعله ولا عذر له ينفعه مهما كانت الأسباب كشف هذا حرصاً على سلامة الأمة واجتماعها/ صحيح مسلم، بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٤٠.

(٢) مسند الإمام أ د، م ٥ ص ٣٨٧؛ الدر ا نثور التفس با أثور، ج ٢ ص ١٧٨؛ مع الزوائد، م ٥ ص ٢٢٢، وقال ورجاله ثقات.

(٣) سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٤١، وقال هذا حديث حسن غريب؛ مع الزوائد، ج ٥ ص ٢٥١؛ مسند أ د، م ٥ ص ٤٢.

(٤) البخاري، ج ٩ ص ٧٨؛ صحيح مسلم ج ٦ ص ١٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٥- ١٢٦؛

=

وقالَ، عليه الصلاةُ والسلامُ: (لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ) [١].

وفي حديثٍ آخرَ: (مَنْ أمركم من الولاةِ بغيرِ طاعةِ الله فلا تطيعُوه) [٢].

ورويَ أن النبيَّ صلى الله عليهِ وسلمَ بعثَ جيشاً، وأمرَ عليهِ رجلاً وَأَمَرَهُمْ أنْ يسمعُوا لَهُ ويطيعُوا، فأغضبُوه في شيءٍ فقالَ اجمعُوا حطباً فجمعُوا، ثم قالَ: أوقِدُوا ناراً فأوقدُوا ثم قالَ: ألمْ يأمُرْكُمْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلمَ أنْ تسمعُوا لي وتطيعُوا، قالوا بلَى قالَ فادْخُلوها قالَ فَنظَرَ بعضُهم إلى بعض، وقالوا: إنما فَرَرْنا إلى رسولِ الله صلى الله عليهِ وسلمَ مِنَ النارِ، وكانوا كذلكَ حتى سَكَنَ غَضَبُهُ وطُفِئَتِ النارُ، فلمّا رَجَعُوا إلى رسولِ الله صلى الله عليهِ وسلمَ ذَكَرُوا ذلكَ لَهُ، فقالَ: لو دَخَلُوهَا ما خرجُوا منها إنما الطاعةُ في المعروفِ [٣].

=

وقال حديث حسن صحيح: سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٦؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٦؛ مسند أحمد م ٢، ص ١٧؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٦٠. يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن طاعة ولاة الأمر مقيدة بحدود الشرع، محدودة بطاعة الله ورسوله. وبناء على هذا فإنه يحرم على الرعية وأفرادها عصيان أمر الحاكم المسلم ما دام في تلك الحدود فإذا أمر بخلافها وخرج عن حدود ما رسم الله ورسوله، فلا طاعة له لأن الأصل فيه أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر.

(١) مسند أحمد، م ١ ص ٤٠٩.

(٢) سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٦؛ ونقل عن الزوائد أن اسناده صحيح بعد أن قرر الإسلام أن الطاعة حق على المرء المسلم في حدود هذه الطاعة، وأنها لا تجب في المعصية. فتحمل الأحاديث المطلقة لوجوب الطاعة على الأحاديث المصرحة بأنه لا سمع ولا طاعة في المعصية. صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٧٩؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ١٥؛ سنن ابن داو، ج ٣ ص ٤٠؛ مسند أحمد، م ١ ص ٨٢؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ٩٥٦؛ السنن الكبرى، م ٨ ص ١٥٦؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٩، قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الطاعة في المعروف، دليل عل أن من أطاع ولاة الأمر، في معصية الله كان عاصياً وإن ذلك لا يمهد له عذراً عند الله، بل المعصية

=

عَنْ أمِ سلمةَ [١] رضيَ ا ُ عنها أنَ رسول ا ِ صلى ا عليهِ وسلَم قالَ: "تستعملُ عليكُم أمراءٌ فتعرفونَ وتنكرونَ، فمن كَرِه فقدْ برئَ، ومَنْ أنكرَ فقدْ سلمَ، لكنْ من رضيَ وتابع، قالوا: يا رسول ا ِ ألا نقاتلُهُم قال لا ما صَلوا" [٢]. وقال عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "خيارُ أئمتِكُم الذينَ بونَهم و بونَكم، وتصلونَ عليهم ويصلون عليكمْ، وشرارُ أمرائِكُمُ الذينَ تبغُضونَهُم ويبغضُونكم، وَتَلْعُنو ُم وَيَلْعَنونَكُم، قيلَ: يا رسولَ ا ِ أفلا نناِبذُهُمْ بالسيفِ، قالَ: لا ما أقامُوا فيكُمْ الصلاةَ، فإذا رأيتمْ من ولاتكمْ شيئاً تكرهونَه فاكْرَهُوا =

لاحقة له وإن كان لولا الأمر يرتكبها، وعلى هذا يدل ا ديث/ عون ا عبود، شرح سنن أ داود، ج ٧ ص ٢٩٠.

(١) أم سلمة وا ها هند بنت أ أمية بن ا غ ة ا خزومية، زوج الن ج كانت قبله، عليه السلام، عند أ سلمة بن عبد الأسد، فولدت عمر، ودره، وزينب، وهي أول ضعينة دخلت ا دينة مهاجرة، شهدت مع الن صلى ا عليه وسلم غزوة خي وطال عمرها وهي آخر أمهات ا ؤمن وفاء. الاستيعاب، ق/٤ ص ١٩٣٩؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٦٩- ٧٠؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٥٥- ١٥٦.

(٢) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٣، وقد ورد باختلاف لفظي يس : مع الزوائد، ج ٧ ص ٢٣٠؛ السنن الك ى، م ١٠ ص ٦٥٨؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٨٧؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٦١؛ هذا ا ديث فيه معجزة ظاهرة بالأخبار با ستقبل. ويب الرسول صلى ا عليه وسلم، فيه حال ا سلم، مع أئمة لطون عملاً صا اً وآخر سيئاً، فيستحسن بعض أعما م، ويستقبح بعضها. فمن عرف ا نكر و يشتبه عليه، فقد صارت له طريق إ ال اءة من أ ه وعقوبته، بأن يغ ذلك باليد أو باللسان إن قدر، فإن عجز فلا مناص من أن يكره ذلك ا نكر من قلبه، ح يسلم من مشاركتهم أ ه وجرمه، أما من رضي بفعلهم بقلبه وتابعهم عليه بالعمل، فإنه ي أ عند ا و يسلم من طائلة عقابه. و ا ديث دليل على أن من عجز عن إزالة ا نكر، لا يأ جرد السكوت بل إ ا يأ بالرضى به وا تابعة عليه. وقوله صلى ا عليه وسلم عندما قالوا: (أفلا تنابذهم بالسيف قال لا ما صلوا). فيه أنه لا وز ا روج على الأئمة جرد الفسق وا ور ما يغ وا شيئاً من قواعد الإسلام. صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ٢٤٣.

عَمَلُهُ، ولا تنـ زعُوا يداً منَ الطاعة»[(١)].

وقالَ عليهِ الصلاة والسلامُ: "سيكونُ بعدي امراءُ فَمَنْ دَخَل عليهم فصدقَهم كَذِبهم، وأعا م على ظلمِهم، فليس مِ ولستُ مِنهُ وليسَ بواردٍ على ا وضَ، ومن يدخلْ عليهم و يُعِنْهُم على ظلمِهم، و يصدقْهُم على كذِبهم فهوَ م وأنا منهُ، وهو وارِدٌ على ا وض" [(٢)].

فهذه الأحاديثُ تَدُلُكَ على أنه بُ على ا رءِ كراهةُ ما أحدَثُوا مْنْ بدعةٍ، وتركُ موافقِتهم على الفةِ السنةِ، والامتناعُ عن طاعتِهم فِي ا عصيةِ مع الانكفاءِ عن ا روج عليهم، وملازمةِ اعتهم الطاعةِ، وامتثالِ أوامِرِهم ا باحِ، والانقيادِ لأحكامِهم ا عروف، فيستد بذلكَ سلامةُ دينِهِ وصلاحُ دنياهُ وحقنُ دمِه وحفظُ مالِهِ وحياتِهِ وعرضِهِ.

وقالَ بعضُ ا كماء: من عصَى السلطانَ فقدْ أطَاعَ الشيطانَ. وقالَ بعضُ الكتابِ: من نَابَذَ [(٣)] السلطانَ، كانَ الأشقِ مكتوباً (والندم والغم) مكتوباً. وقال آخر: مَنْ

---

(١) صحيح مسلم، ج ٦ ص ٢٤؛ صحيح البخاري ج ٩ ص ٤٧؛ السنن الك ى، م ٨ ص ١٥٨؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٨٧؛ ويرشد الرسول صلى ا عليه وسلم إ أن خيار ا كام هم القربون إ رعيتهم، ا ريصون على إقامة العدل بينهم، الداء م با . وإن أشرارهم الذين يقسون على رعاياهم. كما و ذر الرسول من خطر ا روج وا نابذة ا قد ره من مفاسد لا يعلم مداها إلا ا .

(٢) مسند أ د، م / ٢ ص ٩٥؛ السنن الك ى، م ٨ ص ١٦٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٣٥٨؛ وقال هذا حديث صحيح غريب؛ سنن النسائي، ج ٧ ص ١٦١. الرسول صلى ا عليه وسلم هذا ا ديث أمته با ال ا سيصـ إليها ولاة الأمور بعده و ذر من الطتهم وتصديقهم وإعانتهم، على ظلم العباد وتزي الظلم م، فمن هذه ا الة فا والاة بينه وب الرسول مقطوعة. ومن يصدقهم كذ م ولا أعا م على الظلم فهو من ا سلم ، الذين وعدهم الرسول صلى ا عليه وسلم بأن يشربوا من حوض الكوثر، الذي من شرب منه لا يظمأ بعدها أبداً.

(٣) نبذت الأمر: أ لته ونابذ م خالفتهم، ونابذ م ا رب كاشفتهم إياها وجاهر م ا/ ا صباح

فارقَ الاعتصامَ بلِهِ حالِفُهُ ا سرانُ، وعانَقَهُ ا ذلانُ، وترصدتْ له ا نُونُ [١] وَطَحَنَتْهُ ا ربُ الزبون [٢]. ومن كتابِ ا بهجِ [٣] أخْلِقْ بدمِ ا ستخف با بابرة أن يكونَ دمُهُ جهاراً. وقال بعضهم: من تعرضَ ساوئ سلطانِه، تعرض لقطعِ لسانِه.

باب ذكر امع

ما بُ أنْ يتصفَ بِهِ ا لكُ منَ الطرائقِ ا ميلةِ، وا ذاهبِ النبيلةِ والشيمِ الزكيةِ والس ِ ا رضيةِ

قالَ بعضُ ا كماء: السلطانُ ظِل ا ِ أرضِهِ [٤]، وا اكمُ حدودِ دينِهِ وفرضِهِ قد حصنه ا بإحسانه وأشركهُ سلطانِه وَندَبهُ لرعايةِ خلقِهِ وَنصَبهُ لنصرةِ حقهِ إنْ أطاعهُ أوامره ونواهِيهِ تكفلَ بنصرتِهِ وحراستِهِ وإنْ عصاهُ فيهما وَكَلَهُ إ َنفْسِه.

وَمَنْ مَكنَهُ ا ُ أرْضِهِ وبلادِه، وائتَمَنَهُ خَلْقِه وعبادِهِ وبسطَ َيَدَهُ وسلطانَه وَرَفَعَ لَهُ ومكانَه، فحقيقٌ عليهِ أن يؤديَ الأمانةَ و لصَ الديانةَ و ملَ الس ةَ و سنَ السريرةَ و علَ العدلَ دأبَهُ ا عهودَ، والأجرَ غَرَضَهُ ا قصودَ.

وقالَ بعضُ ا كماءِ: إذا بَنى ا لكُ على قواعِدِ العدلِ، ودعمَ بدعائِمِ الفضلِ، وحصنَ بدوامِ الشكرِ، وحرسَ بأعمالِ ال ، نَصَرَ ا ُ مواليَهُ وخَذَلَ معادِيَه، وعضدَهُ وسلمه من الغ ِ.

=

ا ئ .

(١) ا نون: ا نبه لأ ا تقطع ا دد وتنقص العدد/ تار الصحاح.

(٢) الزبون: ا رب الضروس لأ ا تدفع الأبطال عن الأقدام خوف ا وت لأن الزين لغة الدفع فزينت الشيء زيْنًا إذا دفعته. وقيل للمشتري زبون لأنه يدفع غ ه عن أخذ ا بيع/ ا صباح ا ئ .

(٣) ا بهج: كتاب ألفه عبد ا لك بن مد بن إ اعيل النيسابوري ا عروف بالثعال . ألفه للأم س ا عا قابوس بن أ طاهر ع فيه ألفاً من ا مل ري رى الأمثال رتبه على سبع باباً.

(٤) يش بذلك إ قول الرسول صلى ا عليه وسلم: "السلطان ظل ا الأرض يأوي إليه كل مظلوم".

وقالَ: اعدلْ فيما وليتَ واشكرْ على ما أوتيتَ، دكَ ا القُ وتؤيدُكَ ا لائقُ. ليسَ من قُوتكَ وإن َتمت فضلٌ على قضاءِ حقٌ ا ِ عليكَ ولا لقدرِتكَ وإن دامتْ فضلٌ على القيام بشكرِ ما أسداهُ إليك، ولا ِلعُمُرِكَ وإنْ طالَ فضلٌ عنِ النظرِ فيما يصلحُ جندَك ورعيَتك، ولا ِلمَاِلكَ وإن كثرَ قدرٌ عما يصونُ عرضَك ومروءَتك [1]. فاجعلْ أياَمك أربعةً، يوماً (علَّه) سنِ العبادِة، ويوماً تستقبلُه بشكرِ النعمةِ منُه، ويوماً تقصرُه على النظرِ القَصَصِ وا ظا ِ، ويوماً ضِيْهِ ابتناءِ ا عا وا كارِمِ.

وقالَ بعضُ ا كماءِ: مَنْ جَعَلَ مُلْكَهُ خادِماً لدينِه، انقادَ لُه كل سلطانٍ ومَنْ جَعَلَ دينَه خادماً لكِهِ، طَمِعَ فيه كل إنسانٍ.

وقالَ ابرويز [2]: أطعْ مَنْ فَوْقَكَ ُيطِعْكَ من دُوْنَكَ.

وقال اردشُ [3]: أسعدُ ا لوكِ من سعدتْ رعيَتُه بعدِلِه، وَنالَها الرفاهيةُ أيامِه، وَجَرَتْ لُه صوا ُ السن َ دهرِه، وأشقاهُمْ مَنْ كانَ لافِ ذلكَ. وقالَ: الناسُ ثلاثُ طبقاتٍ بُ سياسُتُهم ثلاثِ سياساتٍ منهم. طبقةٌ ِمن ا واصِ الأعيانِ تسوسُهُم حضِ اللطفِ والإحسانِ وطبقةٌ من العوامِ الأوساطِ تسوسُهم مَنَ العنفِ واللطفِ ما ب َ الاقتصادِ والإفراطِ وطبقةٌ من العوامِ والأطرافِ تسوسُهم حضِ الغلظةِ والاعتساف.

وقالَ أيضاً: على ا لكِ أن يأخذَ نفسَه بثلاثٍ: تعجيل مكافأةِ ا سنِ على إحسانِه،

---

(١) يش بذلك إ قول الرسول صلى ا عليه وسلم: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن ا لق". ا امع الصغ ، ج ١ ص ١٠١.

(٢) ابرويز: هو ابرويز بن هرمز، أحد ملوك الفرس، تو ا لك بعد خلع أبيه. غزا الشام وبلغ مصر وحاصر ملك الروم بالقسطنطينية، صا ه. جار وأخذ أموال الناس وسفك الدماء فمقته الناس وخلعوه وجاءوا بابن له يقال له ش ويه. وكان ملك ابرويز ٣٨ سنة. ا عارف، ص ٢٩٣؛ تاريخ اليعقو ، م ١ ص ١٦٨-١٧٢.

(٣) اردش بن بابك بن ساسان، أحد ملوك الطوائف على أرض اصطخر وهم من أولاد ا لوك ا تقدم . ولد بقرية ا ها ط وده من رستاق اصطخر، و ي اردش شاهنشاه، ب ان مدن و يزل مود الس ة عادلاً، وكانت مدة ملكه أربعة عشر سنة وستة أشهر. ا عارف، ص ٢٨٥-٢٨٦؛ تاريخ اليعقو ، م ١ ص ١٥٩.

وتأجيلِ عقوبةِ العاصِ على عصيانِهِ، والأناةِ عند طوارقِ الدهرِ وحدثانِهِ، فإن تعجيلِ مكافأةِ ا سنِ شحذَ الضمائرِ على الطاعةِ، و تأجيلِ عقوبةِ العاصي إمكانَ العفوِ والإقالةِ ومراجعةِ التوبةِ والندامةِ، و الأناةِ عندَ الطوارقِ انفساحُ مذاهبِ الرأيِ والسياسةِ وإيضاحُ غوامضِ السدادِ والإصابةِ. وقالَ أيضاً: لا يصلحُ لسدِ الثغورِ وقودِ ا يوشِ وتدبـ ا يولِ، وحراسةِ الأرضـ والأقاليمِ، إلا من تكاملتْ فيه سُ خصالٍ، حزمٌ يتيقنُ بِهِ عندَ مواردِ الأمورِ حقائقَ مصادرِها، وعلمٌ جزُهُ عن التهورِ ا شكلاتِ إ عندِ لي فرصِها، وشجاعة لا تنقصها ا لمات بتواترِ حوائِجِها وعظم هو ا، وصدق الوعيدِ والوعدِ يوثقُ منه بالوفاءِ عليها وجودٌ يهونُ عندَهُ تدبـ الأموالِ عِندَ ازدحامِ السؤالِ عليه.

وقالَ أيضاً: لا ينبغي للملكِ أن يكونَ فيهِ سُ خصالٍ لا يكونُ كذاباً لأنهُ إنْ وَعَدَ أو أوعدَ يُرْجَ و يُخَفْ، ولا ينبغي أَنْ يكونَ يلاً فإنه إنْ كانَ كذلكَ يناصِحْهُ أحدٌ، ولا تصلحُ الولايةُ إلا با ناصحةِ، ولا ينبغي أَنْ يكونَ جباناً فإنه إنْ كانَ كذلك اجترءَ عليه عَدُوه وضاعَتْ الأمورُ ولا ينبغي أن يكونَ حديداً فإنه إنْ كانَ كذَلكَ مَعَ القدرةِ هَلَكَ الناسُ مَعَه ولا ينبغي أن يكونَ حسوداً فإنه إنْ كانَ كذلك يشرفْ أحداً ولا يصلحُ الناسُ لا بأشرافهم.

وقالَ أيضاً: خـُ ا لوكِ من أشبهَ النسرَ حولَهُ ا يفُ، وشرهُم من أشبهَ ا يفَ حو ا النسورُ.

وقالَ بعضُ البلغاءِ: أربعة لا يزول مَعَها ملكٌ، حسنُ الدينِ واستكفاءُ الأمـ وتقدُ ا زمِ وإمضاءُ العزمِ. وأربعةٌ لا يثبتُ معها ملكٌ، غش الوزيرِ وسوءُ التدبـ وخبثُ النيةِ وظلمُ الرعيةِ. وأربعةٌ لا بقاءَ ا، مالٌ معُ من ا رام وحالُ تعقدُ من الآثامِ ورأيٌ يغوى من العقلِ وملكٌ لو من العدلِ.

وقال ا ريري [(١)]: أسعدُ الناسِ مَنْ سعدتْ به رعيُته، وأشقاهُم الدارينِ من ساءتْ سريرتُه.

---

(١) ا ريري: هو أبو مد القاسم بن علي بن مد ا ريري، أديباً فاضلاً صنف ا قامات، وله كتاب درة الغواص أوهام ا واص، تو بالبصرة سنة ٥١٦ هـ. الكامل التاريخ، م ٨ ص ٣٠٥؛ وفيات الأعيان، م ١ ص ٤١٩؛ تاريخ أ الفداء، ج ٢ ص ٢٣٥.

ومنْ كلامِ الثعال ا بهج: ا لكُ من يوا لأوليائِه صلاتِهِ وتباري هبوبَ الريحِ هباتُهُ، وتفرُس الفوارسَ ظاتُه، وتضغُمُ الضراغمَ [1] سطواتُهُ، ا لك من عَ سدادَ الأمورِ إ سدادِ الثغورِ وكان أيدُهُ [2] متيناً، وكيدُهُ مبيناً، ا لكُ من رَجَعَ إ رأيٍ سديدٍ من كمالِه وركنٍ شديدٍ من أموالِهِ ورجالِهِ، ا لكُ من سيفُهُ يُف وسيبُهُ [3] يغ ، ا لكُ من جودُة مط وبأسُهُ مستطٌ ، ا لكُ من عدلُهُ كافٍ كافل [4]، وفضلُهُ هام هاطلٌ. ا لكُ من تث عليه ا ناصرِ وتث عليه السباباتُ وتعضُ عليه من الغيضِ الأباهيمُ، ا لكُ من لا يسلمُ الإِسلامَ، ولا يفارقُ الفرقانَ، ولا يهملُ ا لةَ، ولا يعدلُ عن العدلِ إذا ع ا لكُ ب شرفِ الانتسابِ والاكتسابِ، ونظم حاشي الفضلِ والعدلِ، فتقريضُهُ وإن أفرط فيه تفريطٌ ومدحُهُ وإن نبلَ قصاراهُ تقص ، إذا ء ا لكُ بتسكـ ِ الد اء [5]، وحقنِ الدماءِ بعدَ قرع باب السماءِ استحفاظِ بابِ النعماءِ.

إذا كانتْ يدُ ا لكِ مفتاح الأرزاقِ، وسيفُه حتفَ أهلِ الشقاقِ، فقدْ فاقَ ملوكَ الآفاقِ. ا لكُ من كان كالغيث يي إذا ـَى، والسيلِ أردى إذا أطمى [6]، والبدرِ يهدي إذا ا، والدير يصمى [7] إذا رَمى.

---

(١) الضرغام: الأسد.

(٢) أيده: آد يئيد أيداً: اشتد وقوي. والاد: الصلب. والقوة كالايد. القاموس ا يط.

(٣) السيب: العطاء. القاموس ا يط.

(٤)كافل: الكافل الذي يكفل إنساناً ويعوله ومنه قوله تعا : ﴿ **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا** ﴾. ا صباح ا ﺔ ؛ تار الصحاح.

(٥) الد اء: سـواد الأمة وكثر ا. فالـد ة: السواد. يقـال: فـرس أدهم. وقـال ا تعـا : ﴿ **مُدْهَامَّتَانِ** ﴾، أي سوداوان من شدة ا ضرة من الري. تار الصحاح؛ ا صباح ا ﺔ .

(٦) اطمى: طم الأمر طما: ارتفع وغلب، ومنه قيل القيامة طامة. وطم السيل: علا وغلب. ا صباح ا ﺔ ؛ تار الصحاح.

(٧) يصمى: يرمى با وت، ففي ا ديث كل ما أصميت، وا ع : كل ما قتله كلبك وأنت تراه. ا صباح ا ﺔ .

الملكُ من تبيضُ أياديه [١]، وتسودُ أيامَ معاويةَ، و ضرُ مواقعُ سيبِهِ و مرُ مواقعُ سيفِهِ [٢]. الملكُ من تشهدُ بفضلِهِ مشاهدُه، ويعمرُ وفدَه فوائدُهُ كفُ الملكِ اءٌ، صوبُها [٣] أموالُ ودماءٌ أدبُ الملكِ الأريبُ [٤] مكارمَ يبْتنيها، ومآثرَ يقتنيها، وعلمٍ صله وكرم يوصلهُ ورعيةٍ يرعاها و مي اها، ة الملك امامْ، أربابِ السيوفِ لا رباتِ السقوفِ، و البيضِ القواضبِ [٥]، لا البيضِ الكواعبِ [٦]، و ر الرماحِ، لا السمرِ الملاحِ، و إ ادِ الصنايعِ لا ابتناءِ المصانعَ.

وقالَ بعضُ الكتابِ مدحِ أمِ : هو مستقرٌ ذروةِ عزه، مستقلٌ بأعباءِ مُلكِهِ، يتصرفُ بالرئاسةِ ب رفقٍ من غ ضعفٍ، وخشونةٍ من غ عنفٍ [٧]. وقالَ آخرُ: قدْ عودَ الكه ياطةَ، ح لا ل حرَامها، ولا يذعرَ سوامُها ولا تراعَ جوانبُها، ولا تذب عقاربُها. وقال آخرُ: قد صرفهم ب خشونة أبعادِهِ ول معتادِهِ، وأراهم بريقَ حسامِهِ مشفوعاً بتزويقِ أنعامِهِ. وقالَ آخر وصفِ ملكٍ: قد أحيا سَنن العدلِ وأماتَ سُنَنَ ا ورِ فحِمى الدينِ منيعٌ وجنابُ الملكِ وسيعٌ. وقال آخرُ: قدْ جدتَ بصنعَ العدلَ فثبت أصلُه وَسَمَا فَرعُهُ، وفتّتَ عضدِ الظلمِ، فاجتث قرارُه وحُصِدَ زَرْعُهْ.

---

(١) آياديه: صنائعه.

(٢) كل ذلك كناية عن شدة بأسه.

(٣) الصوب: الانصباب والسحاب و يء السماء با طر. القاموس ا يط؛ ا صباح ا ن ؛ تار الصحاح.

(٤) الأريب: العاقل. تار الصحاح.

(٥) القواضب: السيوف القواطع. القاموس ا يط.

(٦) الكواعب: أثداء ا رأة و ود ثدييها. القاموس ا يط.

(٧) مأخوذ من قول عمر رضي ا عنه: "إنه وا لا يصلح ذا الأمر يا ابن عباس إلا القوي غ عنف، الل من غ ضعف. الأحكام السلطانية، ص ١٢.

باب فيما بُ
على السلطانِ من حسنِ السياسةِ
وما يلزمُهُ من الصيانةِ للرعيةِ وا راسةِ

قالَ صلى ا ُ عليهِ وسلَم: ((كُلكُمْ راعٍ وكلكم مسؤولَ عنْ رعِيتِهِ، فالأم ُ الذي على الناس راعٍ مسؤولَ عن رعيتِهِ، والرجلُ راع أهلِ بيتِهِ ومسؤولٌ عنهم وا رأةُ راعية على بيت زوجِها وولدِهِ وهيَ مسؤولةٌ عنهمْ والعبدُ راعٍ على مالِ سيدِهِ وهو مسؤولٌ عنه فَكُلكُمْ راع وكُلكُم مسؤولٌ عن رعِيتِهِ)) (١).

(١) صحيح البخاري، ج ٣ ص ١٥٧؛ سنن أ داود، ج ٣ ص ١٣٠؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٤، وقال حديث حسن صحيح؛ مسند أ د، م ٢/ ص ٥؛ مع الزوائد، ج ٥ ص ٢٠٧؛ السنن الك ى، ج ٨ ص ١٦٠؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٩٠؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ٨.

راع: أي حافظ مؤ ن صلاح ما قام به وما هو ت نظره وا ديث دليل على أن كل من كان ت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام صا ه دينه ودنياه ومتعلقاته فقد قال ا طا اشترك الإمام والرجل و يع من ذكر ا ديث الوصف بالراعي ومعانيهم تلفة فرعاية =

وقَالَ بعضُ الشعراءِ ذلكَ:

وُكُلكُم راعٍ و نُ رعّيّةٌ وكل سَيَلْقى ربه فُيحاسبُه

وقالَ رسولُ ا ِ صلى ا ُ عليهِ وسلَم: "مَا مِنْ عبدٍ يسترعْيِه ا ُ رعيةً وتُ يومَ القيامةِ وتُ وهو غاشٌ لرعيتِهِ إلا حَرمَ ا ُ عليهِ ا َنةَ» [(١)].

ودخلَ أبو مسلم ا ولا ُ [(٢)] على معاويةَ فقالَ: السلامُ عليكمْ أيها الأجُ ُ فقيلَ له: قل أيها الأم ُ فقال معاوية: دعوا أبا مسلمٍ فإ أعلمُ ا يريدُ وعليكَ السلامُ يا أبا مسلم فقال أبو مسلم: اعلمْ أنه ليس راعٍ استرعى رعيةً إلا ورب أجرِهِ سَائلُهُ عن رعيتِهِ فإنْ كان داوى مرضاها وهنأ جربا ا وجَ َ كسرانَها ورد أولَها على آخِرِها وَوَضَعَهَا أنفٍ من الكلأ وصفوٍ من ا اءِ وفاّهُ أجرَهُ وإلا يوفهِ فانظرْ من أنتَ مِنْ ذلكَ فقال معاويةُ: يرُ ُكَ ا يا أبا مسلم الأمرُ على ذلكَ.

=

الإمام حياطة الشريعة بإقامة ا دود والعدل با كم ورعاية الرجل لأهله سياسته لأمرهم وإيصال حقوقهم إليهم ورعاية ا رأة تدب أمر البيت والأولاد والنصيحة للزوج كل ذلك ورعاية ا ادم حفظه ما ت يده والقيام ا ب عليه من ا دمة/ فتح الباري؛ شرح صحيح البخاري، ج ١٣ ص ١١٣.

(١) صحيح البخاري، ج ٩ ص ٨٠؛ صحيح مسلم، ج ٦ ص ٥٩، ونصه "ما من عبد يسترعيه ا رعيه وت يوم وت وهو غاش لرعيته إلا حرم ا عليه ا نة". ومثله سنن الدارمي، ج ٢ ص ٣٢٤. قوله صلى ا عليه وسلم يسترعيه ا رعية أي يستحفظه إياها ويطلب منه رعايتها فإذا غش وظلم وجار حرم ا عليه ا نة فإن كان مستحلا لغشهم فتحرم عليه ا نة و لد النار وإن كان لا يستحل غشهم منع من دخو ا مع الفائزين بل يؤخر عنهم عقوبة له، صحيح مسلم، شرح النووي، ج ١٢ ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) أبو مسلم ا ولا : هو أبو مسلم ا ولا ، اليما الزاهد، من سادات التابع وا ه عبد ا بن ثوب أسلم حياة رسول ا صلى ا عليه وسلم وقدم ا دينة خلافة أ بكر وله كرامات وفضائل مشهورة، تو سنة ٦٢ هـ دمشق/ شذرات الذهب، ج ١١ ص ٧٠؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٤٦؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٥٦- ١٥٧.

ومع هنأ جربا ا طلاها با ناء وهو القطران ويقالُ روضةٌ أنفٌ إذا ُترْعَ قبلَ ذلكَ.

وقالَ بعض البلغاءِ: من آثَرَ اللهوَ ضاعتْ رعيُتُه وَمَنْ داومَ السكرَ فسدتْ رويُتُه ومن قصر عن سياسةِ نفسِهِ كان عن سياسةِ غ ِهِ أقصرَ.

وقال: إن مِنْ حُسْنِ الاختيارِ، وحسنِ الاستظهارِ، أنْ تَعْدِلَ القضاء وُتجريَ ا كمَ على ا اص والعامِ بالسوى، فمنْ جارتْ قضيتُه، ضاعتْ رعيتُه، ومنْ ضعفت سياستُه بطلتْ رياستُه.

وقالَ عمرُ بن ا طابِ، رضيَ ا عنهُ: أشقى الولاةِ من شقيتْ بِهِ رعِيتُه.

وقالَ بعضُ ا كماءِ: أحْسِنْ عقدَ نيتِكَ وأعدلْ جندِكَ ورعيتكَ لُصْ الطاعةُ لكَ و سنْ الاحدوثةُ عنكَ.

وقال: الزمَ الزرعَ فإنه يؤيدُ ا ُلكَ واحذر الطمعَ فإنه يد ا لُكَ.

وقالَ أردشُ: إ ا أملكُ الأجسادَ لا النياتِ وأحكمُ بالعدلِ لا بالرضى وأعاقبُ على الذنبِ لا على ا وى وافحصُ عن الأعمالِ لا عن السرائِر وقالَ معاويةُ بن أ سفيانَ لا أضعُ سيفي حيثُ يكفي سوطي ولا سوطي حيث يكفي لسانِي ولو أن بي وب َ الناسِ شعرة ما انقطعتْ قالوا وكيفَ ذلك يا أمَ ا ؤمنَ قال كنت إذا أرخوها مَدَدْتُها وإذا مَدوها جَرَرْتُها.

وقالَ عتبةُ بنُ أ سفيانَ [1] خطبةٍ لَهُ صرَ وقدْ أرجفَ [2] وت معاوية: "يا أهل مصرَ قد طالت معاتَبتنا إياكمْ بظبات [3] السيوفِ وأطرافِ الأسنةِ ح صِرْنا شجىً

(١) هو عتبة بن أ سفيان، صخر بن حرب بن أمية، أخو معاوية لأبيه ولد عهد رسول اله صلى ا عليه وسلم وشهد مع عثمان يوم الدار و ا دينة والطايف وا رسل عاوية، ولاه أمرة مصر بعد وفاة عمرو بن العاص فقدمها سنة ٤٣ هـ وهو من خطباء ب أمية ا عدودين، تو سنة ٤٤ هـ؛ النجوم الزاهرة، ١ ص ١٢٢- ١٢٣.

(٢) أرجف القوم بالشيء أرجافاً أكثروا من الأخبار السيئة واختلاق الأقوال الكاذبة ح يضطرب الناس منها. ا صباح ا نـ .

(٣) الظبة بالتخفيف حد السيف وا مع ظبات، القاموس ا يط.

حلوقكم وقذىً عيونكم فحـ اشتدتْ عُرىٍ ا قٍ عليكم عقداً واسترخَتْ عقدُ الباطلِ سحلاً أرجفْتُم با لميفةِ وأردتُم توهـ ا لخلافةِ وخضتمْ ا قَ إ الباطلِ فار وا أنفسَكم إذ خسرتُم دينَكم وضنوا[2] بدُنْياكم إذا حتُم بآخرتكم. واعلموا أن سلطانَنا على أبدانِكم دونَ قلوبكم فأصلحُوا لنا ما ظهرَ نكِلْكُمْ إ ا فيما بطنَ فاظهرُوا خ أ وان أسررتُم شراً فانكم حاصدونَ ما أنتم زارعُون.[1]

ومثلُ ذلكَ ما قالَ زياد[3] خطبةٍ لهُ: "قد كانتْ بي وبـ قومٍ أشياءُ قد جعلْتها دبرَ أذ و تَ قدمِي فَمَنْ كان منكمُ سناً فليزدَدْ وَمَنْ كان منكم مسيئاً فلينـ زعْ فإ لو علمتُ أن أحدَكم قَدْ قَتلَهُ السلُ مِنْ بُغضِي أكشفْ له قناعاً و أهتِكْ له ستراً حـ يبدي صفحتَه فإذا فعلَ ذلكَ أناظِرْهُ فأعينوني على أنفسِكم واستأنِفوا أمرَكُم. وهذا كُلُهُ من قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ: (أحكمُ بالظاهِرِ وا يتو السرائرَ).

ومنْ حُسْنِ السياسةِ و امِ السيادةِ والرياسة اختيارُ ا اصة والوزراء وانتخاب الكتابِ وا لساءِ واستشَارَةُ ذي الرأي من الفضلاءِ و نُ نفردُ لكلٍ من ذلكَ باباً نبـ فيه

(١) شجى الرجل يشجو شجى حزن؛ ا صباح ا ـنـ .

(٢) ضن بالشيء يضن ل/ ا صباح ا ـنـ .

(٣) هو زياد بن عبيد الثقفي. ويقال زياد بن أبيه وزياد بن أمه وهو زياد بن أ سفيان الذي استلحقه معاوية بأنه أخوه وكان هذا الاستلحاق أول قضية غ فيها حكم النـ صلى ا عليه وسلم كما يقول السيوطي تاريخ ا لفاء، ص ١٩٦؛ وذكر ا قدسي البدء والتاريخ، ج ٦ ص ٢؛ عن ا سن والشعـ أن سرك أن لا تكذب فقل زياد بن أبيه وأمه ية جارية ا ارث بن كلده زوجها عبيداً فولدت ية زياداً على فراش عبيد واختلف وقت مولده فقيل ولد عام ا جرة وقيل غ ذلك أسلم زمن الصديق وكان عاقلاً دنياه داهية خطيباً يضرب به ا ثل العقل وا زم والدهاء استعمله عمر على بعض صدقات البصرة وكتب لأ موسى الأشعري صار لعلي بن أ طالب عاملاً على فارس وخراسان فظهرت عبقريته الـ رت ا ميع فتلطف اليه معاوية واستماله إ صفه وأ قه بنسبه وولاه العراق و يزل كذلك إ أن تو بالكوفة سنة ٥٣ هـ وصلى عليه عبدا بن خالد بن أسيد/ سـ أعلام النبلاء، ج ٣ ص ٣٢٥- ٣٢٦؛ الاستيعاب ق ٢ ص ٥٢٣- ٥٣٠؛ وفيات الأعيان، م ٦ ص ٣٥٦- ٣٦٢.

صفاتِهم وأحوالِم إن شاء ا تعا .

باب

اختيارِ الوزراء والعمالِ

وذكرُ ما بُ أنْ يتصفوا به منَ ا صالِ

قالَ بعضُ ا كماءِ: اعلمْ أن ا لوكَ تاجُ إ وزيرٍ وأشجعُ الناسِ تاجُ إ سلاحٍ وأجودُ ا يلِ تاجُ إ سوطٍ وأجودُ الشفارِ تاجُ إ مسنٍ.

وقال ابنُ ا عتمدِ:

هيهاتَ تصدُقْكَ فكرتُكَ ال ... قد أو تكَ غ عن الوزراءِ

تغنِ عـن أحـدٍ اءٌ د ... أرضـاً ولا أرض بغيـرِ ـاءِ

وقالَ الثعالُ [1]: لا بد لكلِ فاضلِ من صاقلِ [2]. وقالَ صلى ا عليهِ وسلمَ:

---

(١) هو أبو منصور عبد ا لك بن مد بن إ اعيل الثعال النيسابوري، كان إماماً اللغة والأخبار، وأيام الناس راعى تلعات العلم له التصانيف الكثـ ة النظم والنثر، ولد سنة ٣٥٠ هـ، تو سنة ٤٢٩ هـ. البداية والنهاية، ج ١٢ ص ٤٤. وفيات الأعيان، م ١ ص ١١٠. شذرات الذهب، ج ٣ ص ٢٤٦.

(٢) صاقل اسم فاعل من صقل وصقلت السيف صقلاً جليته وشيء صقيل أملس مصمت لا لل ا اء أجزاءه/ ا صباح ا .

"وزرائي الأرضِ أبو بكرٍ وعمر" [١].

وقالَ صلى ا ُ عليهِ وسلم: "منْ و َ شيئاً من أمورِ الناسِ فأرادَ ا ُ به خ اً جعلَ مَعَهُ وزيراً صا اً إن َنسِي ذَكرَه وإنْ ذَكرَ أعانَهُ [٢]"، وقيل: إذا أردتَ نايلَ الأمـِ فالطفْ بِهِ منْ جهةِ الوزيرِ.

وقيلَ مثلُ ا لملكِ الصا إذا كانَ وزيرُهُ فاسداً مثلُ ا اءِ الصا العذبِ ا ُ الذي فيه التماسيحُ فلا يستطيعُ الإنسانُ ورودَهُ وإن كانَ سباحاً وإ ا اءِ ضامئاً، وقال بعضُ ا كماءِ لا يغرك كِبَرُ ا سمِ نْ صَغُرَ ا عرفةِ والعلمِ ولا طولُ القامةِ ن قَصُرَ الكفايةِ والاستقامةِ فإن الدرةَ على صغرِها أعودُ من الصخرةِ على كِـ ها واعلمْ أن الأيديَ بأصابِعِها وا لموكَ بصنائعها وأن وزيرَ ا لملكِ عينَه وأمينَه أذنَه وكاتبَه نطقَه وحاجبَه خلقَه ورسولَه عقلَه وند َه مثلُه م تستقيمُ الأعمالُ و تمعُ العمالُ ويقوى السلطانُ وتعمرُ البلدانُ فإن استقاموا استقامت الأمورُ وإن اضطربوا اضطربَ ا مهورُ.

وقالَ: أعلمْ أن معايبَ عمالِكَ وا نصرفِ َ أعمالِكَ من أقبح معايبِكَ ومآثرُهم ومناقِبهم من أحسنِ مآثرِكَ ومناقِبك لأن مْ يستدلُ على مقدارِ معرفتِك قاديرِ الرجال ويوقفُ على كيفية تصرفِك بتصاريفِ الأحوال فأحسنْ الاختيارِ م [٣] وأكثرْ الاستظهارَ

(١) سنن الترمذي، ج ٥ ص ٢٧٨. ونص ا ديث كما ورد عن أ سعيد ا دري قال: قال رسول ا صلى ا عليه وسلم: ما من ن إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزرائي من أهل السماء، فج يل وميكائيل، وأما وزيراي من الأرض، فأبو بكر وعمر. وقال الترمذي حديث حسن غريب.

(٢) سنن أ داود، ج ٣ ص ١٣١. سنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٩. السنن الك ى، ج ١٠ ص ١١١. يرشد هذا ا ديث بأن يتخ وا بطانتهم من صا ي رعيتهم، ومن دون عنده النصيحة إذا نسوا والعون إذا ذكروا، وعندها تكون هذه البطانة نعمة من ا تعيينهم توجيه أمور الدولة.

(٣) لقول الرسول صلى ا عليه وسلم من و ّ على ا سلم رجلاً وفيهم من هو أصلح منه، فقد خان ا ورسوله و اعة ا ؤمن . ا ستدرك، ج ٤ ص ٩٣. وقال حديث صحيح الإسناد.

عليهم [١] واعلمْ أ م أنفاسُ ا لوكِ وحراُبهُ قَدُمْ على مراعاةِ أحوالِهم، ولا تُمْهلْ مكافآةَ أفعالِهم، فأوْلِ ا سنَ ما يستحقهُ من حسنِ الولاءِ، وا سيءَ ما يستوجبه من سوءِ ا زاءِ، ليتصرفوا لكَ الأمانةِ ويتعففوا عن ا يانةِ.

وقالَ ي بنُ خالدٍ [٢] لبنيهِ: إنكمْ لا بد لكمْ من عُمالٍ وكُتاب فاستعينوا بأشراف الناسِ وإياكمْ والسفلةَ فإن النعمةَ على الأشرافِ أزينُ وا عروفُ عندهم أ نُ والشكرُ منهم أحسنُ.

وهذا ا ع يلاحظُ قولَ أرسطا طاليس [٣] ا كَتبَ إليهِ الإسكندرُ [٤] يستش هُ

---

(١) وأكثر الاستظهار عليهم كن رد هذا الشرط إ ما ذكره ا اوردي من أن الواجب على الإمام أن يباشر بنفسه، مشارفة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة ا لمه، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد ون الأم ويغش الناصح، وقد قال ا تعا ﴿ **يَا دَاوُدُ إِنا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرضِ فَاحكُم بَينَ الناسِ بِالْحَق وَلاَ تَتبِعِ الْهَوَى فَيُضِلكَ عَن سَبِيلِ ا** ﴾ [سورة ص: ٢٦]، فلم يقتصر ا سبحانه على التفويض دون ا باشرة ولا عذره الاتباع ح وصفه بالضلال، وهذا وإن كان مستحقاً عليه كم الدين ومنصب ا لافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع. قال النـ صلى ا عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". الأحكام السلطانية، ص ١٧.

(٢) هو أبو الفضل ي بن خالد بن برمك. وزير هارون الرشيد، ضم إليه ا هدي ولده هارون وجعله حجره ورباه وأرضعته امرأته، فلما استخلف هارون عرف له حقه وفوض إليه أمور ا لافة و يزل كذلك ح نكب الرشيد ال امكة، فغضب عليه، وحبسه ح مات ا بس سنة ١٩٠هـ. وكان كر اً فصيحاً ذا رأي سديد. وفيات الأعيان، م ٦ ص ٢١٩، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٠٤. النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٣٣

(٣) أرسطا طاليس: هو الفيلسوف اليونا أرسطا طاليس (معناه ب ا كمة)، من ولد اسقليادس الذي اخترع الطب لليونان، ولد باسطاخاريا، وتتلمذ على يد أفلاطون، ولقب با علم الأول لأنه أول من وضع التعاليم ا نطقية، صحب الإسكندر وكان يشاوره ويصدر عن رأيه. تو آخر أيام الإسكندر وله ٦٦ سنة. الفهرست، لابن الند ، ص ٢٤٦. سرح العيون، ص ٢١٠.

(٤) هو الإسكندر بن فيلقوسي، أبوه أحد ملوك اليونان وكانوا طوائف، وهو الذي وحدهم وغزا

قتل ملوكِ فارسَ أو استبقائِهم فكانَ لةِ ما رد من ا واب أنْ قالَ لستُ أرى قتْلَهُمْ صواباً لأنه مَتى قَتلَ ا لكُ ملوكَهُم وسراتِهم يكنْ بد من أنْ يستعمل عليهم بعضهم فتدعو الضرورةُ إ رفعِ السفلةِ وسياسةُ ا لوكِ أسهلُ من سياسةِ السفهاءِ لأن ا لوكَ أحسن طاعة وأسلسُ انقياداً وأعرفُ بالصنيعِ وأرجى للمكافآةِ وسياسةُ السفلةُ صعبةٌ واستياقُهم إ الإرادةِ متعبةٌ وقد رأيتُ رأياً يكفي به ا لكُ مؤنةَ قتلِهم إن استصوبه و معُ له بهِ طاعتُهم ويتعبدُهم ويتخلصُ به نياتِهم و لصُ من الإ بسببِهم وهو أن يعمدَ ا لكُ إ أولادِ ا لوكِ والرؤساءِ كلهم فيقسمُ ا ملكةَ بينهم ويفردُ كل واحدٍ منهم ببلدةٍ ويأمرُهُ أن يؤدي الأتاوةَ عنها و علَها وظائفَ أيديهم فإنه إذا رأى ا الكُ منهم أنه قد ساوى نظ ـرِه التملكِ ْ تطعْهُ نفسُهُ الانقيادَ إ من هو مثلُهُ وإذا تب ـَ أحدُهُم مقدارَ الطائفةِ ال يدِهِ نقصتْ تُهُ عن معصيةِ ا لكِ وا لاف لأمرِهِ فتجتمعَ للملك طاعتُهم ويكفي ما وقَّهُ منهم ورأى ا لكِ العا وفقْ ففعلَ الإسكندرُ ذلكَ ا أشارَ بهِ أرسطا طاليسْ فلم تزلْ ا لوكُ تؤدي الأتاوة إ ملوكِ الرومِ سمائةَ سنةٍ ونيفاً إ أنْ مَلَكَ أردش ـُ بنُ بابكَ فكانَ يقولُ إن ملوكَ الأرضِ ضربوا بسيفِ أرسطا طاليس سمائةَ سنةٍ يع تدب ـُه وتفريقَ كلمتِهم.

وقالَ بعضُ ا كماءِ: لا تستكف إلا الكفاةَ [1] النصحاء ولا تستبطنْ إلا الثقاتِ الأمناءَ، وإذا استكفيتَهم شغلاً أو وليتَهم أمراً، فأحسنْ الثقةَ مْ وأكدْ ا جةَ عليهمْ، فإذا رأيتَ منهم غدراً وتبينتَ منهم عجزاً، فاستبدلْ م واستوفِ ما لَكَ عليهمْ ولا تقلدْ منهمْ أحداً ولا تعتمدْ عليهمْ أبداً فمنْ عارضَ مع الاستقلالِ والأمانةِ قمعَ كفاتِهِ وعماله ومنْ

=

الفرس وملكهم، غزا ا ند وأطراف الص ، انصرف عنهم وب الإسكندرية، وكان ملكه و ثلاث عشرة سنة، وهو صاحب أرسطا طاليس وتلميذه، وهو غ ذو القرن ا ذكور القرآن، فإن ذا القرن كان زمن إبراهيم ا ليل، عليه السلام، قيل إن ا ه افريذون، وقيل غ ه، وتو الإسكندر بناحية السواد وعمره ٣٦ سنة. تاريخ أ الفداء، ج ١ ص ٤٥. تاريخ ابن الوردي، ج ١ ص ٦٢ - ٦٣.

(١) الكفاة: من صل م الاستغناء عن غ هم/ ا صباح ا ن .

قلدَ مع العجزِ وا يانة ضيعَ أعمالُه ومالُه.

ومنْ كتابِ ا بهجِ: إذا تصفحَ ا لك وجوهَ عمالِه وفحصَ عن الأصلحِ لأعمالِه فلا يقعن اختيارُهُ إلا على مَنْ سبق له اختبارُهُ ولا يتوجَهَن اعتمادُهُ إلا إ مَنْ تقدَم اجتهادُهُ ولا يكوَنن من ثقاتِهِ إلا من يتقي ا حق تقاتِهِ.

وقالَ أيضاً: خ العمالِ من كفىَ وكفَ وعفىَ وعفَ وشرُهُم من حذقَ وسرق. وقال شرُ العمالِ من تعدَ السعايةَ من مساعِيهِ. وقال: شرُ العمالِ من إذا و ثارَ وجارَ وإذا عُزلَ حارَ وخار.

ووقعَ جعفرُ بنُ ي بنِ خالدٍ [1] إ بعضِ عمالِه قد كثُر شاكوك وقلَ شاكروكَ فإما اعتدلتَ وإلا اعتزلتَ. وقال ي بنُ خالدٍ: ثلاثةٌ تدل على عقولِ أصحابِها الرسولُ، والكتابُ، وا دية.

وقالَ الشاعرُ:

ير إذا ما كنتَ مرسلاً	**فمبلغُ آراءِ الرجالِ رسو ا**
ورجع وفكر الكتابِ فإ ا	**بأطـرافِ أقـلامِ الرجالِ عقولُها**

وقالَ (صا ُ بنُ عبدِ القدوسِ):

إذا كنت حاجةٍ مرسلاً	**فأرسلْ حكيماً ولا توصِهِ**
(وإنْ بابَ أمر عليك التـوى	**فشـاور حليمـاً ولا تعصـهِ)**

---

(١) هو أبو الفضل جعفر بن ي بن خالد بن برمك، وزير هارون الرشيد، كان من علو القدر ونفاذ الأمر عند الرشيد الة انفرد ا و يشارك فيها، وكان من الأجواد ا شهورين، تفقه عل القاضي أ يوسف، فلأجل ذلك كانت توقيعاته عل منهج الفقه، ولاه الرشيد الشام، واستوزره، تغ له وقتله بسبب أمور انضم بعضها إ بعض سنة ١٨٧هـ. وفيات الأعيان، م ١ ص ٣٤٨. شذرات الذهب، ج ١ ص ٣١١. النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٨٧. البداية والنهاية، ج ١٠ ص ١٩٤.

باب ذكر الولاية والعمل
وما يتصل ما من المدح والذم وذكر ما يتعلق ما
من العز والذل حال الولاية والعزل

مِنْ فصل الخوارزمي [(١)]:

لا صغ مع الولاية والعمالة، كما لا كبر مع العطلة، والبطالة وإنما الولايةُ أنثى تصغُرُ وتكبُرُ بواليها، ومطيةٌ تحسنُ وتقبحُ بمتطيها، والصدرُ بمَنْ يليه، والدستُ [(٢)] بمن يجلسُ فيه. وله أيضاً: ولاية المرء ثوبُه فإن قصرَ عنه عرى عنه، وإن طالَ عليه عثُر فيه. وقالَ الفضلُ بنُ مروانَ [(٣)]: مثلُ الكاتبِ كالدولابِ، إذا تعطّلَ تكسرَ. وقالَ غيرُه: غُبارُ

(١) الخوارزمي: هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور كان إماماً في اللغة والأنساب أقام بالشام مدة وسكن بنواحي حلب وكان مشاراً إليه في عصره، اتصل بالصاحب بن عباد توفي سنة ٣٨٣ هـ/ شذرات الذهب، ج ٣ ص ١٠٥.

(٢) الدست من الثياب ما يلبسه الإنسان ويكفيه لتردده في حوائجه/ المصباح المنير.

(٣) هو أبو العباس الفضل بن مروان وزير المعتصم والذي أخذ البيعة له ببغداد عندما كان المعتصم ببلاد الروم ففوض إليه الوزارة في رمضان سنة ٢١٨ هـ وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب =

العمل خ من زعفران العطلَ.

وقالَ ا هلَ ُ [1]: التصرفُ أسـ وأعلى والبطالةُ أعفَى وأصفَى.

وقالَ الشاعرُ:

ما أطيَبَ الأمرَ ولو أنه على رذَايا [2] نَعِمٍ مراح

وقيلَ: مَنْ عمل عَملا فتاَه فيه أخ أن قدرَهُ دونَه ومن تواضَعَ فيِه دَل على أن قدرَهُ فَوْقَه.

وقالَ: سكرُ السلطانُ أشد من سكرِ الشرابِ.

وقال بعضُهُم من ولاُه السلطانُ، صبغَه الشيطانُ. وهذا ا ع أراد بعضهم.

قد كنتَ أكرمَ صاحبٍ وأبره حَتى دهتك أصابِعُ الشيطانِ

جـد الإلهُ بَنانَهـا وأبـانَها كم غّيرت خَلقاً من الإنسانِ [3]

وقالَ بعضُهم: أرضَ من أخيكَ إذا و َ ولايةً بعشرِ ودِه قبلَها.

وقالَ الشاعُر:

وكل ولايةٍ لابـدّ يومـ ـ ـاً مغيرةُ الصديقِ على الصديقِ [4]

=

عليه لطول خدمته وكان نصرا الأصل له ديوان رسائل وكتاب ا شاهدات والأخبار اا شاهدها تو سنة ٢٥٠ هـ/ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٤٥؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٣٣٢؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ١٢٢.

(١) هو أبو مد ا سن بن مد بن هارون الأزدي، ا هلـ الوزير. كان من ارتفاع القدر وعلو ا مة على ما هو مشهور عنه ولد سنة ٢٩١ هـ بالبصرة وتو وزارة معز الدولة أ د بن بويه الديلمي سنة ٣٣٩ هـ وتو سنة ٢ ٣٥ هـ/ وفيات الأعيان، م ٢ ص ١٢٤؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٩؛ يتيمة الدهر، ج ٢ ص ٢٢٣.

(٢) رذايا: يع رذية، وهي ا زيلة من الإبل، اا لا تستطيع براحاً ولا تنبعث/ القاموس ا يط.

(٣) ار القلوب ا ضاف وا نسوب، ص ٧٤؛ ربيع الأبرار، ج ١ ص ٣٨٧.

(٤) الصداقة والصديق للتوحيدي مع اختلاف الشطرة الأو إذ وردت فيه فكل إمارة إلا قليلاً. والبيت منسوب لأ رشيد الطائي/ التمثيل وا اضرة، ص ١٥١ وا ع أن الولاية وا كم يغ ان

=

وقال زيادُ بنُ الأعجَم [(١)]:

ف زادَهُ السلطان ا مدٍ رغبةً إذا غير السلطانُ كل خليلِ [(٢)]

وللفرزدق [(٣)] دحُ والياً:

فلْ لنصيرٍ والناسُ زمنِ السلطا ن أعمى ما دامَ يُدعى أم ا

فـإنْ زالــتِ الــولايةُ عنــهُ واستــوَى بالرجالِ عادَ بصر ا [(٤)]

=

الصديق على صديقه فينقلب ا تواضع صلفاً متك اً والودود جافياً وهيهات أن يبقى الصديق على ما كان عليه إذا انتهت إليه الولاية إلا من رحم ربك.

(١) هو أبو امة مو عبد قيس لقب بالأعجم لعجمة كانت لسانه، أدرك أبا موسى الأشعري وعثمان بن أ العاص وشهد معهما فتح اسطخر وحدث عنهما عده ابن سلام من الطبقة السابعة من شعراء الإسلام. كانت وفاته دود ١٠٠ هـ/ شذرات الذهب، ج ١ ص ١٢٣؛ فوات الوفيات، ج ٢ ص ٢٩.

(٢) التمثيل وا اضرة، ص ١٥١؛ البيان والتبي ، ج ١ ص ٥٢؛ اسة أبو ام، ج ٢ ص ٣٦٦ ونسبه إ حبيب بن عوف. وا ع أنه رجل كر الأخلاق حسن الشمائل يبطره الغ ولا أطغاه السلطان والإمارة.

(٣) هو أبو فراس ام بن غالب الشاعر ا عروف بالفرزدق، كان أبوه غالب من جلة قومه وسرا م وجده لأمه الأقرع بن حابس وفد الفرزدق مع أبيه عل علي بن أ طالب، كرم ا وجهه، فقال لأبيه علمه القرآن فهو خ له من الشعر وكان يقال الفرزدق أشعر الناس عامة، وجرير أشعر الناس خاصة. تو بالبصرة سنة ١١٠ هـ قبل جرير بأربع يوماً/ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٦٨-٢٦٩؛ وفيات الأعيان، م ٦ ص ٨٦؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ١٤١؛ البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٦٥.

(٤) ديوان الفرزدق، ص ٩٢؛ اية الأرب، ج ٣ ص ٧٥؛ التمثيل وا اضرة، ص ٧٠؛ جة ا الس، ق ١/ ص ٣٤٣؛ شرح ج البلاغة، م ٤ ص ٤٧٦. وكأن هذا القول مأخوذ من مع قول الإمام علي، كرم ا وجهه، الولايات مضام الرجال. أي أن الرجال تعرف بالولايات فمنهم من تظهر منه أخلاق يدة ومنهم تظهر منه أخلاق ذميمة.

وقالَ آخرُ:

إذا عُزل ا رءُ واصلْته ... وعند الولايةِ استكـُ
لأن ا ـُوالـى لـه ـنخـوةٌ ... ونفسـي على الذّلِ لا تصـُ (١)

وقال آخر:

يا مَن تولى فأبدَى ... لنا ا ـَقَا وتبدلُ
أليـس منـكَ سـمـْعـَنَا ... مَـن لـم ـت فسُيعـزلْ (٢)

وقيلَ: الولايةُ حلوةُ الرضاعِ مرةُ الفطامِ. وقالَ آخرُ: ذلُ العزلِ يضحكُ من تيهِ الولايةِ. قالَ:

سُكْرُ الولايةِ طيب ... و ارُها صفع شديدُ
كـم تـائـهٍ بـولايـ ـ ـةٍ ... وبعَـزلِهِ ركـضَ البَـريـدُ (٣)

وقال:

العَزلُ للكتاب حيض ... اه ا من حَيضٍ يَغيضِ
فإنْ يك هكذا فأبو عَـ ـلي ... مـن اللائي يَئسنَ من ا يضِ (٤)

ولابنِ بسام (٥) بعضِ الولاةِ:

---

(١) زهر الآداب، ج ٢ ص ٨٢٦؛ التمثيل وا اضرة، ص ١٥٠ ونسبه صاحب زهر الآداب إ منصور الفقيه.

(٢) زهر الآداب، ج ٢ ص ٨٢٦؛ التمثيل وا اضرة، ص ١٥٠ و ا منسوبان إ منصور الفقيه.

(٣) زهر الآداب، ج ٢ ص ٨٢٦، وفيه البيت الثا قبل البيت الأول. ديوان ابن ا عتز، ص ١٧٥.

(٤) التمثيل وا اضرة، ص ١٥٠؛ وفيات الأعيان، م ٥ ص ١١٦؛ الوا بالوفيات، ج ٤ ص ١١٠، وقيلت الوزير ابن مقلة.

(٥) ابن بسام: هو علي بن مد بن نصر بن منصور بن بسام، أبو ا سن الشاعر ا شهور إلا أن غالب شعره كان ا جاء، فلم يسلم منه أم ولا وزير ح هجا أهل بيته. تو ال يد أيام عبد ا بن سليمان بن وهب تو سنة ٣٠٢ هـ. وله كتاب أخبار عمر بن أ وبيعة ومتناقضات الشعراء/ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٣٦٣؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٨٩؛ فوات الوفيات، ج ٣ ص ٩٢.

سنصبرُ إن ملت كما صبرنا ... لغيرك من أميرٍ أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا ... وفتنا فيهم نوب الدهورِ
فبتنا بالسلامةِ وهي حظٌ ... وباتوا القيودِ أو القبورِ
فلما نرى منهم سروراً ... رأينا فيهم كل السرورِ (١)

وللبستي (٢):

عذلو عن وزارةِ بُستٍ ... ورأوها من أرفعِ الدّرجات
قلت لا أشتهي وزارة بستٍ ... إن لم أمل بعد حياتي (٣)

وله أيضاً:

وزارةُ الحضرة الكبرى ... خطيئة لا بل هي الكبرى
فلا تُردها ولا تَردها ... فإنها مهنةٌ مبيرةُ (٤)

ولسليمان بن مهاجر (٥):

إن الوزيرَ وزيرَ آل محمدٍ ... أودى فمن يشناك كانَ وزيرا (٦)

وللحريري:

يَوبُ البلادَ مَعَ الترَبة ... أحَب إ من الرَّتَبه

(١) المستطرف، ج ١ ص ٩٣؛ خاص الخاص، ص ١٣٦ وذكر البيت الأول والأخير الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم/ ١، م ٢ ص ٨٨٥؛ التمثيل والمحاضرة وذكر البيت الأخير.
(٢) البستي: هو أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي. شاعر عصره ولد ببست قرب سجستان وإليها نسب توفي سنة ٤٠٠ هـ وقيل سنة ٤٠١ هـ ببخارى/ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٣٧٦؛ يتيمة الدهر، ج ٤ ص ٣٠٢؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٣٤٥.
(٣) التمثيل والمحاضرة، ص ١٤٤.
(٤) المتشابه للثعالبي، ص ٥٢٨؛ التمثيل والمحاضرة، ص ١٤٤.
(٥) هو سليمان بن المهاجر البجلي، لم أعثر له على ترجمة فيما لدي من المراجع.
(٦) وفيات الأعيان، م ٢ ص ١٩٦، وفيه قيل هذا البيت في أبي سلمة الخلال وزير السفاح؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٥٥٤؛ التمثيل والمحاضرة، ص ١٤٤.

لأن الـوُلاةَ لَهُـم نَبـوَةً ومَعتَبـةٌ يـا لَهـا مَعـتَـبـه
فَمَا فِيهِمُ مَن يَرب الصنيع وَلا مَن يُشَيِّدُ ما رَتَّبه
فَلا يَخدَعَنكَ لُموع السراب وَلا تَأتِ أمراً إِذَا ما اشتَبه
فَكَـم حَالِـمٍ سَـرهُ حُلمُـهُ وَأدرَكَـهُ الـروعُ ـا انتَبه [1]

وقالَ أردشـ[2]: إذا ساوى الوزيرُ الملكَ ال وا يبةِ والطاعةِ من الناسِ فليصْرعهُ وإلا فليعلمْ أنه المصروعُ. وقيلَ أنه يزلْ الرشيد مروياً أمورِ الامكة حـ وقفَ عليه فصممَ.

باب

مصاحبةِ الملوكِ و الطتهم وكيفيةِ التحرزِ منهم حالِ السِتهم م ومباسطتِهم

بُ أولاً على الملوكِ أن تاروا السِتهم، مَنْ جَمَعَ الرأيَ والعقلَ وجودة الأدبِ والفضلِ، واتصفَ كارمِ الأخلاقِ، وطيبِ الأعراقِ [3].

قالَ رسولَ ا صلى ا عليه وسلم: "مثلُ الجليسِ الصا كالداري إنْ ْ ذيكَ من عطرِه، عَلَقَكَ من ر ـه، ومثلُ جليسِ السوءِ، ككـ ا داد إن رقْك بنارِه، عَلَقَكَ من دخانِه)[4]. (قلتُ الداري: العطارُ، و ذيكَ: أي يعطيكَ ويهبُ لكَ).

وقال بعضُ الكماءِ: السةُ أهلِ الديانةِ لي القلوبَ، وتصدي الذنوبَ، و السةُ

=

(١) مقامات الريري والأبيات وردت آخر المقامة السادسة المراغية، ص ٣٧..

(٢) تقدم تر ته : باب ذكر امع ما ب أن يتصف به الملك من الطرائق الميلة.

(٣) الأعراق: الأصل والنبت. وا مع: عروق وأعراق. القاموس المط.

(٤) صحيح مسلم، ج ٨ ص ٣٨ باختلاف بعض الألفاظ؛ سنن أ داود، ج ٤ ص ٢٥٩، و الديث دليل على الرغبة صحبة الصلحاء والعلماء و السته، فإ ا تنفع الدنيا والآخرة، وإ الاجتناب عن صحبة الأشرار والفساق فإ ا تضر ديناً ودنيا؛ عون المعبود، شرح سنن أ داود، ج ١٣ ص ١٧٨.

ذوي ا ـروءات تدل على مكارمِ الأخلاقِ [(١)].

وقيلَ: من ضيعَ عاقلاً دل على ضعفِ عقلِهِ، ومن اصطَنع جاهلاً أعربَ عن فرط جهلِهِ[(٢)].

قال الشاعر:

عنِ ا ـرءِ لا تَسَلْ وسلْ عن قرينِهِ   فكل قرين با ـُقارنِ يَقْتدِي [(٣)]

وقال آخر:

فارنْ إذا ما فارنتَ حراً فإ ـا   يزينُ ويزرى بالفـ قرناؤُهُ [(٤)]

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: (ا ـرءُ على دينِ خليلِهِ، فلينظرْ أحدُكُمْ مَنْ ـالِلْ) [(٥)].

ومن كتاب ا ـبهجِ: لا يتخذُ ا ـلك الأعوانَ، إلا أعيانْ، والأخلاءَ إلا أجلاءَ والندماءَ إلا كرماءَ. و ـبُ على من ـ السُ ملكاً، ملازمةُ الأدبِ ـيعِ أحوالِهِ وأن لا يغتر بإدناءِ ا ـلكِ له وإقبالِهِ. وقال بزر ـهرُ[(٦)]: مَنْ جالسَ ا ـلوكَ بغـ أدبٍ، فقد خاطرَ بنفسِهِ. وقال

---

(١) روضة العقلاء ونـزهة الفضلاء، ص ٣٣٤.

(٢) سلوك ا ـالك ـ تدبـ ا ـمالك، ص ١٤٧؛ كتاب الأمثال، للثعالـ ، ص ٥٤.

(٣) العقد الفريد، ج ٢ ص ٢٠٤ وفيه: عن ا ـرء لا تسأل وأبصر قرينه؛ الصداقة والصديق، ص ٨٥؛ ـاية الأرب، ج ٣ ص ٦٥؛ ـجة ا ـالس ق/ ١، ص ٧٤٩؛ ديوان ا ـماسة، للبحتري، ص ٢١١، والبيت منسوب ـ هذه ا ـصادر لعدي بن زيد.

(٤) ا ـوشى، أو الظرف والظرفاء، ص ٢٤ ونسبه إ ـ بن أكثم؛ ديوان طرفة بن لعبد، ص ١٣٨؛ ـذيب تاريخ ابن عساكر، ج ٦ ص ٣٧٨ ونسبه إ ـ صا ـ بن عبد القدوس.

(٥) سنن أ ـ داود، ج ٤ ص ٢٥٩؛ ا ـستدرك، ج ٤ ص ١٧١ وقال. حديث صحيح؛ سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٧، وقال حديث حسن غريب ومعناه وا ـ أعلم، أن ا ـرء يعتاد ما يراه من أعمال صحبه، فلهذا أمر أن لا يصحب إلا من يرى منه ما ـل و ـمل فمن رضي دينه وخلقه خا ـ؛ عون ا ـعبود شرح سنن أ ـ داود، ج ١٣ ص ١٧٩.

(٦) هو بزر ـهر بن البخت. كان وزير ابرويز والغالب عليه وا ـدبر لأمره وهو معدود من حكماء الفرس، ـ ا ـم بالزندقة وحبس، ـ أمر به وقتل وعندها تغـ ت الأمور على ابرويز، واختلط عليه ملكه، ولبزر ـهر ـ أيدي الناس حكم ومواعظ وكلام كثـ ـ الزهد وغـ ه. مروج الذهب، ج =

الفضلُ بنُ الربيع: مساءلةُ الملوكِ عن أحوالهِم، يُه النوكى[1] أو ا مقاء. وقال غ ُه: الأمراءُ لا ينصتون. وقال آخرُ: لا تسلم على الملك فإنه إن أجابك شق عليه وإن بك شق عليك.

وقال بعضُ الحكماءِ البلغاءِ: إذا جلستَ على موائدِ الملوكِ، فصم عن الكلام، ولا تشره إ الطعام، وإذا حدثك الملكُ فاستمعْ إليه، وأقْبِل بوجهك عليه، ولا تُعرِض عن قوله، ولا تعارضُه ثله. وقال: إذا جعلك الملكُ من خاصته وأهلكَ عاشرتِه، فلا تؤمنُ على دعوتِه، ولا تشمته على عطسته، ولا تسألْهُ عن حالِه، ولا تعزْه على ميتِه، ولا تلقَّهُ بالسلامِ، ولا تعا ه بالكلام، ولا تزا ْه بالتدبر، ولا تعاتْبه التقصير، ولا تعرضْ عنه إذا أخ َ ولا تكثرْ عليه إذا استخ َ، ولا تصلْ حديثاً ديثٍ، ولا تعارضْ أحداً ا ديثِ، ولتكن ألفاظُك شهيةً لا ل، ومعانيك صحيحةً لا تل.

وقالَ الرشيدُ لا اعيل بنِ صبيح[2]: إياكَ والدالة فإ ا تفسدُ ا رمة ومنها أتى ال امكةُ، قال ا تنـ[3]:

(وَكَــم ذَنبٍ مُوَلّـِدُهُ دَلالٌ (وَكَم بُعدٍ مُوَلِّدُهُ اقِترابُ)[4]

=

١ ص ٢٠٨- ٢٠٩.

(١) هو أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس. تو وزارة الرشيد، وكانت نكبة ال امكة على يديه وبسعايته، مات الرشيد وهو على الوزارة، وهو الذي قام بأعباء خلافة الأم ، فلما قتل الأم اختفى، أمنه المأمون و يزل خاملاً ح مات سنة ٢٠٨ وله من العمر ٦٨ سنة. شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٠؛ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٣٧؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦٣.

(٢) هو ا اعيل بن صبيح الكاتب، ولاه المهدي زمام ديوان ا راج سنة ١٦٨هـ فجعله المأمون ومعه علي بن صا على ديوان التوقيعات. خلاصة الذهب ا سبوك، ص ١٧٤.

(٣) هو أبو الطيب أ د بن ا سين بن ا سن بن عبد الصمد ا عفي المعروف با تنـ . حامل لواء الشعر عصره، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ وأكثر المقام بالبادية طلباً للأدب، ففاق أهل زمانه، مدح الملوك ولزم جناب سيف الدولة بن دان، رحل إ مصر وامتدح الأخشيد هجاه، وهرب منه. لقب با تنـ لأنه كان قد ادعى أنه علوي، ادعى أنه ن يوحى إليه، ولكن ا تنـ كان ينكر ذلك و حده ويتنصل منه، قتل سنة ٣٥٤ هـ. وفيات الأعيان، م ١ ص ١٢٠- ١٢٥؛ شذرات الذهب، ج ٣ ص ١٣- ١٥؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٣٤٠.

(٤) ديوان ا تنـ بشرح ال قوقي، م ١ ص ٢١٠، وا ع قد يتولد الذنب من الدلال فيأ ا دل

وقال أبو الفتح البس : أجهلُ الناس مَن كان على السلطانِ مدلاً وللإخوان مذلاً.

ومن كتاب كليلة ودمنة [(١)]: موصلُ الدالةِ[(٢)] على السلطانِ كالعابثِ بالأسدِ وا ستأنسِ بالنمرِ. وقال ابنُ ا قفع [(٣)]: من خدمَ ا لوكَ فعليهِ با لازمةِ من غ ِ ا عاتبةِ.

ومن كتاب ا بهج: لا تستقبلُ سخطَ ا لكِ عليكَ عارضتِهِ ومناقضتِهِ ولا تستجلبْ رضاه حاجته وملاحاته[(٤)] لكن بالتزام ا ناح وركوب الصعب والذلول التماس عفوه و شم ا رون[(٥)] والسهول بالاستعاذة من سطوته، إياك والتهكم التحكم على ا لوك. وقيل: اعتذر رجل إ عبيد ا [(٦)] وزير ا هدي بعذر غ سديد،

=

بالذنب يظنه دلالا وقد يكون البعد سببه القرب، أي أ م أدلوا عليك لفرط إحسانك إليهم فأتوا ذلك ا صار ذنباً وجناية منهم.

(١) كليلة ودمنة، كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف ا ندي على ألسنة البهائم والط من موعة من القصص تدور حول ما ب أن ري عليه ا كام حكمهم وسياسة دو م. و ي الكتاب باسم أخوين من بنات آوى و ا كليلة ودمنة، وأخبار ا باب من أبواب الكتاب ا باب الأسد والثور، وباب الفحص عن أمر دمنة. وقد ترجم هذا الكتاب عبد ا بن ا قفع واقتبس منه كث اً.

(٢) الدالة: دل ا رأة ودلا ا: تدللها على زوجها، تريه جراءة عليه كأ ا الفه وما ا خلاف. والدالة: ما تدل به عل يمك. وأدل عليه: انبسط فأفرط. القاموس ا يط.

(٣) ابن ا قفع: هو عبد ا بن ا قفع، الكاتب الفارسي الأصل، أسلم على يد عيسى بن علي، عم السفاح وا نصور، كان متهماً بالزندقة وهو الذي ترجم كتاب دليلة ودمنة عن اللغة الفهلوية- الفارسية القد ة- إ اللغة العربية، وله كتاب الأدب الكب ، والأدب الصغ ، قتل على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن ا هلب وا البصرة بأمر من ا نصور سنة ١٤٥. البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٩٦؛ الفهرست، ص ١١٨.

(٤) أ السؤال: أ ف. وا لاحاة: ا رادة بالكلام والطلب بالعنف.

(٥) حرنت الدابة حرون، أي لا تنقاد وإذا اشتد به ا ري وقف. القاموس ا يط.

(٦) الصواب هو عبيد ا . وا ه معاوية بن يسار، كان أوحد الناس علماً وخ ة، كتب للمهدي قبل ا لافة فلما تو ا هدي إمرة ا ؤمن فوض إليه تدب ا ملكة فاخترع أموراً منها نقل ا راج إ ا قا ة وصنف كتاباً ا راج، ومات أبو عبيد ا معاوية بن يسار سنة ١٧٠ هـ.

=

فقال: ما رأيتُ عذراً أشبه باستئناف ذنب من هذا.

وقال آخر: مثله عذرك هذا تاج إ معذرة. وقال أبو بكر الط ي لتلميذ له اعتذر إليه بعذر فاسدٍ: عُذرك هذا عَذْرَةٌ لا معذرةٌ[1]. وقال الصاحب بن عباد[2]: رضي السلطان لا يغلو بشيء من الأ ان ولو ببذل الروح وا نان.

وقال ا أمون: ا لوك تمل كل شيء إلا ثلاثًا: الطعن ا لك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم. وقال العباس [3] لابنه عبد ا [4] رضي ا عنهما، وقد كان تص بعمر: يا ب أ أرى هذا الرجل يدينك وإ موصيك لال لا تفش له سراً ولا ونن له عهداً ولا تغابن عنده أحدًا ولا تطوي عنه نصيحة.

وقال ابن ا عتز: إذا زادك ا لك تأنيساً فرده إجلالاً.

=

الفخري، ص ١٨٢؛ وفيات الأعيان، م ٧ ص ٢٦.

(١) العذرة: الغائط، وتطلق على فناء الدار أيضًا. وا عذرة والعذرى ع العذر. واعتذر إ : طلب قبول معذرته. واعتذر عن فعله: أظهر عذره. وا عتذر يكون قًا وغ ق.

(٢) هو أبو القاسم: الصاحب إ اعيل بن عباد الوزير ا شهور بكا الكفاة من الطالقا أصلاً، كان يعد نادرة دهره وأعجوبة عصره فضائله ومكارمه. وقال فيه أبو بكر ا وارزمي: (الصاحب نشأ من الوزارة حجرها ودب ودرج من وكرها، ورضع أفاويق درها، كان يصحب ابن العميد ومن هنا لقب بالصاحب. تو سنة ٣٨٥ هـ. شذرات الذهب، ج ٣ ص ١١٣ – ١١٤؛ وفيات الأعيان، م ١ ص ٢٢٨؛ النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٧١.

(٣) العباس: هو أبو الفضل العباس بن عبد ا طلب عم الن صلى ا عليه وسلم، شهد مع الرسول صلى ا عليه وسلم بيعة العقبة، وأكد له البيعة على الأنصار، أسلم عام الفتح، ويقال إنه أسلم قبل ذلك ولكنه أقام كة بإذن الرسول صلى ا عليه وسلم، وكان الرسول يكرمه و له وا لفاء من بعده، تو سنة ٣٢ هـ وصلى عليه عثمان رضي ا عنه. شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٨؛ ا عارف، ص ٥٣؛ الطبقات الك ى، ج ٤ ص ١ – ٢٢؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٨٩.

(٤) هو أبو العباس عبد ا بن عباس حـ الأمة، وتر ان القرآن وأبو ا لفاء العباس .

وقال الشاعر:

إذا أدناكَ سلطان فزِدهُ من التعظيم واحذَرْهُ وراقِب

فما السلطانُ إلا البحرُ عُظْماً وقُربُ البحرِ مَحذُورُ العواقِب (١)

وقال ابنُ عبادٍ:

إذا صحبتَ الملوكَ فالبس من التحلي أجل ملبس

وادخلْ إذا ما دخلـتَ أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس (٢)

وقيلَ: السلطانُ كالنارِ إن باعدْتها بطل نفعُها وإن قاربَتها عظُم ضررُها. وقالَ آخرُ: ليكنْ السلطانُ عندكَ كالنار لا تدنو منها إلا عند الحاجةِ فإن ابتليتَ فعلى حذرٍ.

وقالَ ابنُ المعتز: أشقى الناسِ بالسلطانِ صاحبُه كما أن أقربَ الأشياءِ إلى النار أسرعُها احتراقاً. وقيلَ: صاحبُ السلطانِ كراكبِ الأسدِ يهابُهُ الناسُ وهو لمركوبِه أهيبُ.

وقيلَ: مثلُ أصحابِ السلطانِ، كقوم رقوا جبلاً، ثم وقعوا منه فكانَ أبعدَهم المرقى، أقربَهم إلى التلفِ.

وقيل: مثل السلطان مثلُ الجبلِ الصعبِ الذي فيه كل ثمرةٍ طيبةٍ، وكل سبعٍ حطومٍ(٣)، فالارتقاءُ إليه شديدٌ والمقامُ فيه أشد. وقال ابنُ المعتز: من صحبَ السلطانَ فليصبرْ على قسوتِه، كما يصبرُ الغواصُ على ملوحةِ بحرِه. وقال أيضاً: لا تلتبسْ بالسلطانِ حالَ اضطرابِ الأمورِ عليهِ فإن البحرَ لا يكادُ يسلَمُ راكبُهُ في حالِ سكونِه فكيفَ عند اختلافِ رياحِهِ واضطرابِ أمواجِهِ. وقال أيضاً: إن كانَ البحرُ كثيرَ الماءِ فإنه بعيدُ المهوى.

وقال أبو الفتح البستي، شعراً:

---

(١) زهر الآداب، ج ٢ ص ٦٧٥ ونسبها للصاحب بن عباد؛ نهاية الأرب، ج ٦ ص ١٥؛ ديوان الصاحب بن عباد، ص ١٩١- ١٩٢.

(٢) التذكرة السعدية في الأشعار النجدية، ص ٣٩؛ التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ٨٥؛ مجمع الحكم والأمثال، ص ٤٦٧؛ برد الأكباد في الاعداد، للثعالبي، مخطوط ونسبها إلى أبي الفتح البستي.

(٣) الحطم: الكسر. والحطوم: السنة الشديدة. القاموس المحيط.

صاحِبُ السلطانِ لا بُد لَهُ من هُمُومٍ تَعتَريهِ وغُمَم
كالذي يَركَبُ بَحـراً سَيَرى قُحَـمَ الأهوَالِ من غ قُحَم (١)

وقالَ ابنُ ا عتز: مَنْ شاركَ السلطانَ عز الدنيا، شارَكَهُ ذل الآخرةِ. وقالَ أيضاً: لا يُدْرِكُ الغ بالسلطانِ، إلا نفسٌ خائفةٌ ودين. منثلمٌ.

و بعض الأخبارِ: (من اقتربَ من أبوابِ السلطانِ افت َ).

و بُ على من صحبَ (ا لوكَ) وجالسَهم، وصارَ من أهلِ ا باسطةِ م وا ؤانسةِ، أن لا يطوَي عنهم نصيحةً تعودُ عليهم صلاحِ الدينِ ودوامِ ا ملكة، وحسنِ الأحدوثةِ عنهم. قالَ صلى ا ُ عليهِ وسلم: "رأسُ الدينِ النصيحةُ" (٢) ولا ملهُ ما يراهُ من بةِ ا لكِ ا يرتكبُه من لذيذِ شهواتِهِ وسرورِهِ ا يتأتى له من دركَ إرادتِهِ، وارتياحِهِ إ تنفيذ أوامِرِهِ ونواهيه واغتباطِهِ من السياسة ا يذرهُ ويأتيه، ا يكسُبه ا أ أو يلحقُه وصماً أو تعودَ عاقبتُه إ فسادٍ لكتِهِ أو اختلالِ دولتِهِ، على موافقتِهِ استحسانِ ما استحسَنُه، ومتابعتِهِ على استصوابِ، ما خيلَ إليه رأيه من ذلكَ وزينَه، فإنَ ذلكَ من أعظمِ دلائلِ ا يانةِ، وهو مباينٌ لسبيلِ النصحِ والأمانةِ بل ينبغي أن يتلطف له حالِ استئناسِهِ بِهِ وميلِهِ إليهِ وإدنائِهِ منه وإقبالِهِ عليه بإرشادِهِ إ أوضحِ الطرقِ وأ جِ السبلِ ويب ُ لهُ ما ينتجُه فعلُهُ من الفسادِ وا للِ، فإنهُ م قصدَ بذلكَ من إخلاصِ قلبِهِ ونيته وصدقِ

---

(١) التمثيل وا اضرة، ص ١٥١- ١٥٢؛ زهر الآداب، ج ١ ص ٢١٢. والقحم: ا صاعب.

(٢) ورد ا ديث ذا اللفظ ا امع الصغ ، ج ٢ ص ٢٠؛ وعند الط ا كتابه الأوسط وروى مصادر السنة الأخرى كسنن النسائي، ج ٧ ص ١٥٦ "إ ا الدين النصيحة قالوا ن يا رسول ا ؟ قال ولكتابه ولرسوله ولأئمة ا سلم وعامتهم"؛ و سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢١٧، "الدين النصيحة" وقال هذا حديث حسن؛ و سنن أ داود، ج ٤ ص ٢٨٦ بلفظ (إن الدين النصيحة) والنصيحة كلمة يع ا عن لة، هي إرادة ا للمنصوح له فمع النصيحة ، اعتقاد وحدانيته، والإخلاص عبادته، والنصيحة لكتاب ا ، التصديق به والعمل ا فيه، ونصيحة الرسول صلى ا عليه وسلم التصديق بنبوته ورسالته، والانقياد ا أمر به و ى عنه، ونصيحة الأئمة، أن يطيعهم ا ق، ولا يرى ا روج عليهم، ونصيحة عامة ا سلم ، إرشادهم إ مصا هم عون ا عبود، ج ١٣ ص ٢٨٨.

ضمه، ورغبته إظهار النصح الواجب عليه لأمره وسلطانه ومنْ أنعمَ عليه بعوائده وإحسانه[١]، وتأدية النصح والأمانة والتنكب عنْ مناهج الغش وا يانة. أوقعَ ا تعا قلب سلطانه قبولَ نصيحته والاصغاءَ إ مشورته. ولو اتفقَ لسلطانه مثلاً كراهيةٌ لقوله وا اماً نصحه وغضبٌ من موعظته له واستعظامٌ للإنكار عليه ا ال فيوشكُ عن قربٍ أن ينصحَ له عندَ اختلال تدبيره وفسادِ أموره استصواباً ا سبقَ من رأيه ونصيحته، ويندمَ على ما فرطَ من إنكاره عليه، و الفته فيكسُبه ذلك عندَه منزلةً لا يساميه فيها سواه ولا يساويه أحدٌ من قصرَ عن وصول مداهُ وم تابَعهُ على رأيه ا عتل ونظره ا ختل مع علمه بفساده خوفاً من سخطه وإبعاده فيوشكُ أن يسخطَه ا عليه وترجع عاقبة مكره إليه[٢].

قالَ رسولُ ا صلى ا عليه وسلمَ ((من التمسَ رضى ا بسخط الناس رضيَ ا عنهُ وأرضَى الناسَ ومن التمس رضى الناس بسخط ا سخطَ ا عليه وأسخط الناسَ))[٣].

ودخلَ الفضلُ بنُ سهل[٤] على ا أمون وب يديه الشطرنجُ[٥] يلعبُ ا فرمَى ا

(١) بعوائده بره وإحسانه.

(٢) فمن حق إمام ا سلم على الأمة، أن تطيعه وتنصح له، وتأمره با عروف، وتنهاه عن ا نكر، لأن الدين النصيحة... ولرسوله ولأئمة ا سلم وعامتهم. والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما تكلفوا القيام به و ذيرهم سن السوء وعاقبته وقد ضرب لنا أهل الصدر الأول النماذج الرائعة هذا.

(٣) سنن الترمذي، ج ٤ ص ٣٤، باختلاف لفظي يسير.

(٤) هو أبو العباس الفضل بن سهل السرخسي. أسلم على يد ا أمون سنة ١٩٠ هـ ووزر له، وكان يلقب بذي الرياستين ا رب والسياسة وغلب على ا أمون لاله ا ميلة من الوفاء والبلاغة والكتابة ح صار الأمر كله إليه، قتل بسرخس سنة: *** وقيل سنة ٢٠٢ هـ، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٧٢- ١٧٣؛ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٤١؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٤.

(٥) قالوا: إن أصل الشطرنج من وضع الفرس وضعه رجل يسمى صصه وقيل أنه من مبتكرات ا ند وإن بعض ملوكهم كان له ولد يسمى شاه أخرجه إ بعض ا روب، فقتل فيها فهاب الناس أن =

وقالَ: أنا أحدثُ الناسَ أن أمَ ا ؤمن ـِ منفردٌ بالصلاةِ والعلمِ، والنظر أمورِ ا سلم َ، وهو على هذه ا ال، فشكَر له على ذلكَ.

ومن النصحِ أن ينبهُ دائماً على طرقِ ا كارمِ وا فاخرِ وا ساعي ا ميدةِ وا آثر ليسلكهَا ويهجنَ عنده ا ساوئ والقبائحَ ويبالغَ ذمها ليتجنبها ويذكرَ عنده طرق الأخيارِ و اسنَ السـِ والآثارِ وما جرى للملوكِ من قبله، من ا ساعي الشريفةِ والآثارِ ا ميدةِ وحسنِ السـ ةِ ليقتديَ م ا ناقبِ والفضائل ويتنكبَ عن سبلِ ا ثالبِ [1] والرذائلِ ليستعملَ ما يوردُهُ من أمثالِ ا كماءِ وأقوالِ البلغاءِ وليكنْ على ا ملةِ كما سبقَ وصيةِ العباسِ رضىَ ا ُ عنه لابنِه.

أو كما قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ من صحبَنا فليصحبْنا بأربعِ خصال يدُلُنا على عيوبنا، ويرفعُ إلينا حاجة من لا يصلُ إلينا، ولا يفش لنا سراً ولا يغتابن عندنا أحداً، وينبغي له أن يكونَ حسنَ ا ضرِ حقِ الغائبِ، تهداً بذلِ الشفاعةِ للمذنبِ وا طالبِ. قال ا تعا : ﴿ **مَن يَشفَع شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصِيب منهَا وَمَن يَشفَع شَفَاعَةً سَيئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ منهَا** ﴾ [2].

=

يعلموه موت ولده، فوضع حكماؤه الشطرنج ولعبوا ا ب يدي ا لك، فقال الغالب للمغلوب شاه مات، ففطن ا لك للمراد وأصل الشطرنج شش رنك ومعناها لغتهم ستة ألوان غرر ا صائص، ص ١٢٠.

(١) ا ثالب: ثلبه ثلباً عابه وتنقصه، وا ثلبة ا سبه وا مع ا ثالب/ ا صباح ا ن .

(٢) آية ٨٥ من سورة النساء. وأصل الشفاعة من الشفع وهو الزوج العدد ومنه الشفيع لأنه يص مع صاحب ا اجة شفعاً والشفع ضم واحد إ واحد وهي كما قال الإمام القرط إظهار نـزلة الشفيع عند ا شفع وإيصال ا نفعة إ ا شفوع له واختلف ا فسرون هذه الآية على أقوال نقلها الإمام القرط تفس ه لسورة النساء. فقال اهد وا سن وغ هم شفاعات الناس بينهم حوائجهم فمن يشفع، لينفع فله نصيب، ومن يشفع ليضر فله كفل. وقيل يع بالشفاعة ا سنة الدعاء للمسلم والسيئة الدعاء عليهم. وقيل ا ع من يكن شفعًا لصاحبه ا هاد يكن له نصيبه من الأجر ومن يكن شفعًا لآخر باطل يكن له نصيب من الوزر وكأن =

وقالَ صلى ا ُ عليهِ وسلمَ: ((اشفعْوا تؤجروا و ا ُ على لسانِ نبيهِ ما شاءَ)) [(١)]
وقالَ صلىَ ا عليهِ وسلمَ: "من كانَ وصلةً لأخيهِ إ ذي سلطانِ منهج برٍ أو تيسـ عسـ أعانَه ا ُ على إجازة الصراطِ يومَ تدحضُ فيه الأقدامُ" [(٢)] وقال زيادُ: اشفعوا لِمَنْ وراءكم فليس كلُ أحدٍ يصلْ إ السلطانِ ولا كلُ من يصلُ إليهِ يقدرُ على كلامِهِ. وقالَ بعض الكتابِ بقدحِ الشفيعِ تورى نارَ النجاحِ ومن كفِ ا غيضِ ينتظرُ فوزَ القداحِ.
وقال البحتريُ [(٣)]:

=

هذا القول جامع: تفس القرط ، سورة النساء. وذكر الأستاذ سيد قطب ظلال القرآن تفس هذه الآية أن معناها: فليشفع الإنسان الشفاعة ا سنة، ليصل خ اً إ من يستحق ا ، غ مضار ا ئ، أو مضيع حقاً على صاحب حق، أو معطل د من حدود ا فهذه هي الشفاعة ا سنة ال تنفع ولا تضر وليتق الشفاعة السيئة ال تؤدي إ أكل مال بالباطل أو تعويق صاحب مكان عن مكانه أو إهدار رمة من حرمات ا والناس فإن لصاحب الأو نصيباً طيباً من شفاعته ولصاحب الأخرى وزراً تمله من سيئته/ ظلال القرآن، ج ٥ ص ٥١؛ تفس سورة النساء.

(١) سنن أ داود، ج ٤ ص ٣٣٤؛ سنن الترمذي، ج ٤ ص ١٤٨، وقال هذا حديث حسن صحيح؛ صحيح البخاري، ج ٨ ص ١٥؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ٣٧، ومع ا ديث أنه إذا عرض ا تاج حاجته فاشفعوا له، فإنكم إن شفعتم حصل لكم الأجر، قبلت شفاعتكم أم لا فإن قضيت حاجته من شفاعتكم، فهو بتقدير ا وإن تقض فهو بتقدير ا أيضاً/ عون ا عبود؛ شرح سنن أ داود، ج ١٤ ص ٤٠.

(٢) السنن الك ى، ج ٨ ص ١٦٧. ا كان لا يصل إ السلطان كل أحد فقد تكون هناك حاجة لا تقضي إلا بعرضها على السلطان لذلك جعل الإسلام إيصا ا إ السلطان، وإ اء خ ها إليه، ليقوم لها مساعدة للمظلوم ورفعاً للحيف عنهم، وجعل ن قام ا، أن أعانه على اوز الصراط يوم العرض الأك .

(٣) البحتري: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن الطائي. أم شعراء العصر، ولد نبج سنة ٢٠٥ هـ، ونشأ ا ورحل إ العراق ومدح ا لفاء وأكثر مدح ا توكل على ا عاد إ الشام
=

وعطاء غ كَ أن بذا ـ ت عنايةَ فيه عطاؤك [١]

وقالَ آخرُ:

خليلي ماذا ار ي من غدٍ أمرئ طَوى الكَشحَ [٢] **ع اليومَ وهوَ مكـُ**

وإن أمرأً قد ضن يوماً نطق يســد بــه فقــر امــرءٍ لضنيــن [٣]

وقالَ آخرُ:

وأهونُ ما يُعطى الصديقُ صديقَهُ من ا ين ا وجودِ أن يتكلما [٤]

وليتجنب السعايةَ بكل حالٍ، فإ ا دناءةٌ وسخفٌ.

قالَ صلىَ ا ُ عليهِ وسلمَ: "لا يدخلِ ا نةَ قتاتٌ" [٥] (قلتُ القتاتٌ: النمائمُ" قال

=

بعد قتل ا توكل على ا ، تو سنة ٢٨٤ هـ؛ وفيات الأعيان، م ٦ ص ٢١؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ١٨٦؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٩٧؛ البداية والنهاية، ج ١١ ص ٧٦.

(١) ديوان البحتري، ج ٢ ص ١٥٠؛ اية الأرب، ج ٣ ص ٩٨؛ شرح ج البلاغة، م ٤ ص ٢٧٣.

(٢) الكشح: ما ب ا اصرة إ الضلع، والكاشح الذي يطوي كشحه على العداوة، وقيل الذي يتباعد عنك/ ا صباح ا ن .

(٣) زهر الآداب، ج ٢ ص ٦٩٦؛ ونسب الأبيات، لدعبل ا زاعي؛ والضن : ا يل ا تهم.

(٤) زهر الآداب، ج ٢ ص ٦٩٧.

(٥) صحيح البخاري، ج ٨ ص ٢١؛ السنن الك ى، ج ٨ ص ١١٦؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٥٣؛ وقال هذا حديث حسن صحيح، سنن أ داود، ج ٤ ص ٢٦٨، لا يدخل ا نة ام لأنه يتتبع عورات الناس ويفتش عن معايبهم ليتخذ من ذلك سلاحاً يطعنهم به من ا لف هو لا يبا باختلاق الكذب، واختراع الباطل سبيل ايذاء الأبرياء ولقد ذكر الأئمة وكل من كتب الأحكام السلطانية أخطار النميمة والسعاية بالناس إ السلطان بعد أن عرفوها وبينوا حكمها وحقيقتها فقد قال الغزا : "هي كشف ما يكره سواء كرهه ا نقول عنه، أو ا نقول إليه وسواء كان الكشف بالقول أو الكناية"، وقال البلا : "هي نقل مكروه ليفسد"، وحكمها التحر لتظافر الأدلة على ذلك، ومنعه من دخول ا نة ال جعلها ا داراً للمتق ، وحرمها عل

=

الأحنفُ بنُ قيس [(١)] ذكرِ السعاةِ، ما ظَنك بقوم الصدق مودٌ إلا منهم وقالَ لَهُ رجل، أخ ثقةَ عنك بسوء مقالَ الثقةُ لا ينم وقالَ بَعْضُهُمْ: الساعي كاذبٌ لِمَنْ يَسْعَى لَهُ أَوْ خَائِن لِمَنْ يَسْعَى عَلَيهِ وَقيل الساعي يَقْتُل ثَلاثَةً: نفْسَهُ وَسُلْطانَهُ وا سْعِي بِهِ. وَكَتبَ سِوارُ بنُ عَبدِ ا [(٢)] القاضِي إ ا نصورِ أن رَجُلاً مِنْ حِم يَشْتمُ السلَفَ فَكَتبَ إليهِ ا نصورُ: إنا بعثناكَ قاضِياً وَلَمْ نَبْعَثكَ ساعياً. وَرفعَ إ بعضِ ا لُفاءِ أن رجلاً ماتَ وترك مالاً كث اً وَلا وارثَ لَهُ إلا ولدٌ صغ فوقعَ عَلى ظَهْرِ الرقعِ ا رفوعِ إليهِ ا يت ر هُ ا

=

ا فسدين. كما بينوا مفاسدها وأ ا كث ة ومنها إفساد ا بة ب الناس وإيقاع الضرر بعباد ا الأبرياء، كما بينوا مضارها على السلطان وإ ا قد تسبب خراب ا لك ح قال ابن حزم: "ما هلكت الدول ولا انتقضت ا مالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغ النمامُ والكذب والواجب على السلطان عندها أن يكون يقظاً مثبتاً أمر العامة وا اصة وكل ما ينهى إليه وأن يكشف عن ذلك ويوبخ الساعي ح لا يعود إ مثله فقد يفسد الساعي با ضرة ما لا يفسد الساحر". انظر: بدائع السلك، ج ٢ ص ١٧- ٢٤؛ تصر منهاج القاصدين، ص ١٧٥- ١٧٦؛ سراج ا لوك، ص ١٣٣- ١٣٦.

(١) هو أبو البحر الضحاك بن قيس بن معاوية ا ري. ولد قبل ا جرة بثلاث سن ، وأدرك الن صلى ا عليه وسلم و يره، وكان ثقة مأموناً قليل ا ديث، وفد على عمر عندما آلت إليه ا لافة فاحتبسه حولاً قال يا أحنف قد بلوتك وخ تك فلم أرى إلا خ اً ورأيت علانيتك حسنة وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك وأمر أبا موسى الأشعري شاورة الأحنف والسماع منه وكان صديقاً صعب بن الزب وفد عليه بالكوفة وتو ا، ورؤى مصعب جنازته شي بغ رداء/ وفيات الأعيان، م ٢ ص ٤٩٩- ٥٠٦؛ الطبقات الك ى، ج ٧ ص ٦٦؛ ا عارف لابن قتيبة، ص ١٨٦- ١٨٧.

(٢) هو سوار بن عبدا القاضي تو قضاء البصرة للمنصور ع له ا نصور القضاء والصلاة بعد عزل وا البصرة ا يثم بن معاوية سنة ١٥٦هـ؛، وكان عادلا حكمه لا ا شكاه أهل البصرة للمنصور، فلم يستجب لطلبهم، تو سنة ١٧٥، وصلى على ابن دعلج/ الط ي، ج ١٠ ص ١٢٤، ٣٧٨، ٣٨٠؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٣٠.

واليتيم جَبَرُه ا ُ وا الَ أ اُه ا والساعي لعنهُ ا ُ .

وقالَ ا ـريري: زَينْ الرعاة مَقْتُ السعاةِ [١] وقالَ آخر: جزاءُ السعاةِ مَقْتُ الرعاةِ.

باب
اختيار الأجناد وا ماة
ووصف الإبطال منهم والكماة

قالَ الصا [٢]: ا َلكُ أحق باصطفاءِ رجالِهِ مِنْهُ باصطفاءِ أموالِهِ لأنهُ مَعَ اتساعِ الأمرِ وجلالةِ القَدْرِ لا َيكتفي بالوحدةِ ولا َيستغ عَنِ الكثرةِ وَمثلُهُ ذلكَ مِثل ا سافرِ الطريقِ البعيدةِ الذي َيجِبُ عليه أنْ تكونَ عِنايتُهُ بِفَرَسِهِ ا نوبِ [٣] مِثلَ عِنايتِهِ بفَرَسِهِ

(١) مقامات ا ريري، ا قامة السابعة عشر ا سماة القهقرية، ص ٩٤.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم ا ـرا الصا كاتب الرسائل للخليفة القادر با و عز الدولة تيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة اعتقله أطلقه وكان الصا على دين الصابئة ومات عليه ومع هذا كان يقرأ القرآن من حفظه ويستعمل منه رسائله تو سنة ٣٨٤ هـ وله من العمر ٧١ سنة ورثاه الشريف الرضي وقال: إ ا رثيت فضائله وعلق ابن كث على هذا القول: (بقوله ليس له فضائل ولا هو أهل ا ولا كرامة)/ وفيات الأعيان، م ١ ص ١٦٧؛ النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٦٧؛ البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣١٣.

(٣) ا نوب وا نيبة: الفرس تقاد ولا تركب فيقال جنبته أجنبه إذا قدته إ جنبك/ ا صحاح ا ـ .

ا ركوبِ.

قالَ الشاعرُ:

وَشَرطُ الفِلاحَةِ غرسُ الثمارِ   وشَرط الرياسَةِ غَرسُ الرجَالِ [(١)]

وَمِن كِتَابِ ا بهجِ أمورُ ا لكِ بأصحابِ الذرائِعِ والأقلامِ وأربابِ الدّروعِ والأعلامِ فأولئكَ للكُتبِ والآراءِ وهؤلاءِ للكتائِب والراياتِ للأعداءِ. وقال: إذا شَحَنَ ا لكُ قلوبَ جُنْدِهِ بالشّحناءِ فلا ينتظرَن مِنْهُمْ حُسْنَ البلاءِ وقالَ: خَادِمُ ا لكِ لا يتقدّمُ رضاه خطوةً إلا استفادَ بِهَا حَظْوَةً.

وقالَ: إذا اصطَنَعَ ا لِكُ أمراً فَلْيَثْبت قَدَمَهُ وَليبث قوادِمَهُ.

وقالَ غَيْرُهُ: أَفِضْ على جُنْدِكَ واصرِفْ إليهم حُسْنَ غِناكَ فإنهُم أهلُ الأَنفَةِ وا مية وحَفَظَة السادَةِ والرعيةِ وسيوفُ ا لكِ والسلطانِ وحصونُ ا مالِكِ والبُلدَانِ بِهم تُدفعُ العوادِي وتُقهَرُ ا عادي ويزولُ ا لَلُ وَيُضْبَطُ العملُ فَقَو ضعيفَهُم يَقْوَ أَمْرُكَ وأغنِ فق هُمْ يَشْتَدْ أزرُكَ وامْتحِنْهُمْ قَبلَ العَرْضِ واحترمْهُمْ قَبلَ الفَرَضِ ولا تَثبت مِنْهُم إلا على الو الكمي [(٢)] الذي لا يعدِلُ عنِ الوَفَاءِ ولا يَجْبن عِندَ ا يجَاءِ فإن ا رادَ بِهم قُوةُ العُدّةِ لا كثرةَ العَدة ومَنْ قُتلَ مِنْهُم طاعَتِكَ واستشهَدَ تَحْتَ رايَتِكَ فاكْفلْ بَنيهِ وذبْ عَنْ أهليهِ فإن ذلكَ ا يزيدُهم رَغبةً خِدمتكَ وَيُسَهلُ عَلَيهِمْ بذلَ ا هَجِ والأرواحِ نُصْرَةِ دَوْلَتِكَ.

وقالَ: مَنْ أبلى بدمِهِ خِدمَتِكَ وأوْفَى طَاعَتِكَ فارْعَ ذِمَامَهُ حياتِهِ واكفلْ أيتامَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فإن الوفاءَ لكَ بِقَدْرِ ا زاءِ مِنْكَ.

وقالَ: لا تُغْفِلْ مكافأةَ مَنْ يَعْتَقِدُ لَكَ الوفاءَ ويناضل عَنْكَ الأعداءَ فمن حرمتَهُ مكافأةَ مِثلِهِ زَهِدَ معاوَدَةِ فِعْلِهِ.

وَقيلَ: مَنْ حَفِظَ مالَهُ ضَيعَ رجالَهُ. أي مَلكٍ أَحْسَنَ إ كفاتِهِ وأعوانِهِ استظهَرَ مُلْكُهُ وسلطانُهُ وأي مَلِكٍ أساءَ إ جيشَهَ وجندِهِ أحْسَنَ إ عَدُوِهِ وَضِدِهِ.

---

(١) التذكرة السعدية الأشعار العربية، ص ٤٠٢؛ التمثيل وا اضرة، ص ١٢٧.
والبيت منسوب لأ الفتح البس .

(٢) الكمي: الشجاع ا تكمى سلاحه أي ا تغطي ا تستر بالدرع/ تار الصحاح.

قالَ الصا : الملكُ بِمن غَلِطَ من أتباعِهِ واتَعَظَ أَشَد انتفاعاً مِنْهُ بِمَنْ لَمْ يَغْلِطْ فَلَمْ يَتعِظْ لأن الأولَ كالقارِحِ (١) الذي أَدَّبَتْهُ الغرةُ وأصلحتْهُ الندامَةُ والثا كا ـذعِ ا نهوكِ الذي هُوَ راكبٌ للغرةِ وراكِنٌ إ السلامَةِ والعربُ تَزْعُمُ أن العَظْمَ إذا جُـ بَعْدَ كَسْرٍ عادَ صاحِبُهُ أَشَد بَطْشاً وأقوى أيداً. وقالتِ العجَمُ ينبغي أن يكونَ قائِدِ ا يش وَثبةُ الأسدِ وأسلابُ ا دإةِ (٢) وَخَتَلُ الذئبِ وَروغانُ الثعلَبِ وصَبْرُ ا مارِ و لةُ ا نـ زيرِ وَبكورُ الغرابِ وَحراسةُ الكركي (٣). ومن كتابِ ا بهجِ: أَحْسَنُ ا يوشِ ما كانَ ذَا أَفواجٍ كالأمواجِ وخيولٍ كالسيولِ ومراكبٍ كالكواكبِ. الفارسُ من يَسبِقُ فَرَسُهُ الرِّيحَ ورَ هُ الروحَ، الفارسُ من يَكمِنُ كُمونَ الأَسَدِ يـ رُزُ بروز الأسدِ.

البطلُ مَنْ يؤثرُ مقارعَةَ القَنا القوا على مُنَادَمَةِ القيناتِ والقيا . البطلُ من يَنْظُمُ جسومَ الأعداءِ بِرِمَاحِهِ وَيَنْثُرُهَا بِصفاحِهِ، البطلُ من إذا ضَرَبَ صَم وإذا رَمَى أَصْمى وإذا قَصَدَ أقصَدَ.

السلاحُ جُنةَ (٤) الأبدانِ ووقايةُ الأنفسِ، قد يَجْبُنُ الشجاعُ بِلا سِلاحٍ ويشْجعُ ا بانُ بالسلاحِ، استعصامُ الفارِس بالدرعِ السابِلِ والرمْحِ الذابِلِ. وقالَ غيرُهُ: السلاحُ ثُمَ الكفاحُ. قالَ وقبْلَ نـ زولِ ا ربِ تُملأ الكناين.

(١) يقال قرح ا افر انتهت أسنانه، أي بلغ من العمر س سن لأنه الأو حو جذع ث رباع قارح/ ا صباح ا نـ .

(٢) ا دأة: بكسر ا اء ا هملة، تعد من أخس الطيور وكنيته أبو ا طاف وا دأة تبيض بيضت ور ا ثلاث و ضن عشرين يوماً وهي لا تصيد، وإ ا طف، حياة ا يوان الك ى، ج ١ ص ٢٢٩.

(٣) الكركي: طائر كب وكنيته أبو عريان وهو أغ طويل الساق وهو من ا يوان الذي لا يصلح إلا برئيس لأن طبعه ا ذر والتحارص النوبة والذي رس يهتف بصوت خفي كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته قام الذي كان نائمًا رس مكانه حـ يقضي كل ما يلزمه من ا راسة/ حياة ا يوان الك ى، ج ٢ ص ٢٧٣.

(٤) جنة: بالضم كل ما وقى/ القاموس ا يط.

وقال الأمير شَمْسُ المعالي (١): قُوَّةُ الجناح بالقوادِمِ والخوافي، وعَمَلُ الرماحِ بالأسنةِ والعوالي.

بابُ
مَدحِ الاستشارَةِ
وذَم الاستبدَادِ بالرأي

قالَ الله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلّم: ﴿ **وَشَاوِرْهُم فِي الأمرِ** ﴾(٢).

(١) هو أبو قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زياد أمير جرجان وطبرستان أثنى عليه الثعالبي في يتيمة الدهر وقتل سنة ٤٠٣ هـ / وفيات الأعيان، م ٤ ص ٧٩؛ يتيمة الدهر، ج ٤ ص ٥٩.

(٢) آيةُ ١٥٩، سورة آلِ عمرانَ، وقَدْ نقلَ الإمامُ القرطبي في تفسيرِه لهذِهِ الآية عَنْ ابنِ عطيةَ قولَهُ والشوري مِنْ قواعِدَ الشريعةِ وعزائمِ الأحكام منْ لا يستشيرُ أهل العلم والدينِ فعزلُهُ واجبُ هذا ما لا خلافَ فيهِ ونقل عَنْ ابنِ خويز منداد أنَّهُ واجبٌ على الولاةِ مشاورة العلماء فيما لا يعلمونَ وفيما أشكلَ عليهمْ مِنْ أمورِ الدينِ ووجوهِ الجيشِ فيما يتعلقُ بالحربِ ووجوهِ الناس فيما يتعلقُ بالمصالِحِ ووجوهِ الكتابِ والوزراءِ فيما يتعلقُ بمصالِحِ البلادِ وعمارتها وفي هذه الآيةِ دليل على جوازِ الاجتهادِ في الأمورِ والأخذ بالظنون مَعَ إمكان الوحي فإن الله أذِنَ لرسولِهِ في ذلكَ واختلفَ أهلُ التأويل في المعنى الذي أَمر الله نبيهُ عليْهِ السلام أنْ يُشاوِرَ فيه أصحابَهُ فقالت طائفةٌ: ذلكَ في مكائِدِ الحروبِ وعِنْدَ لقاءِ العدو وتطييباً لنفوسِهم ورَفعاً لأقدارِهم وتألفاً على دينِهم وإنْ كانَ اللهُ تعالى قد أغناهُ عن رأيِهم بوحيِه. وقالَ الطبري في تفسيرِهِ بعدَ أن ساقَ الأقوالَ الكثيرة وأولَى الأقوال بالصوابِ في ذلك أنْ يُقالَ أن الله عز وجل أمرَ نبيهُ صلى الله عليه وسلم بمشاوَرَةِ أصْحَابِهِ =

قالَ ا سنُ [1]: كانَ النَّ صلى ا ُ عَلَيْهِ وسَلم غَنِياً عن مشاورَتِهم ولكنْ أرادَ أنْ يسـ بذلكَ ا كامَ. وقالَ غ ه: بَلْ أرادَ بذلكَ لما فيهِ مِنَ الفَضْلِ ولتأسي أمتِهِ بِذلِكَ بعدَهُ. وَقيلَ إنمَا أمْرُهُ بذلكَ تطييباً لقلوبِهم) وقيلَ إنما أُمِرَ أن يشاوِرَهُم فيما ْ يكُنْ عندَهُ وحيٌ لأنهُ قدْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهم فيه عِلْمٌ والناسُ قدْ يَعْرِفُونَ منْ أُمورِ الدنيا ما لَمْ تعرفْ

=

فيما حَزَبَهُ من أمر عدوهِ ومكايد حربِهِ تألفاً مِنْهُ بذلِكَ مَنْ لَمْ تكنْ بصـ تُهُ بالإسلامِ البصـ ةَ الـ يُؤْمَنُ عليه مَعَها فتنةُ الشيطانِ وتعريفاً مِنْهُ أمَتَه مآ الأمورِ الـ زُبُهُم مِنْ بعدِهِ ومطلَبها فيتشاوروا فيما بينهم كما كانوا يرونَهُ صلى ا عليه وسلمَ يَفْعَلُه فأما النَّ صلى ا ُ عليهِ وسلم فإن ا كان يُعَرِفُهُ مطالِبَ وجوهِ ما حَزَبَهُ مِنَ الأمورِ بوحْيِهِ وإ امِهِ إياهُ صوابَ ذلك وأما أمته فإ م إذا تشاوروا مستنـ بفعله ذلك على تصادُقٍ وتآخ للحقِ، وإرادةِ يعهم للصوابَ مِنْ غ ـِ ميلٍ إ هَوى، ولا حَيْدٍ عَنْ هُدى فا ُ مُسددُهُم وموفقُهم. وبين الرازي تفسـ ـِهِ الأمورَ الـ لا وز فيها ا شاورةُ. فقالَ انفقُوا على أن كُلّ ما نـ ـزلَ بِهِ وحي مِنْ عِندِ ا لَمْ يَجُزْ للرسولِ أن يشاورَ فيهَ الأمة لأنَّهُ إذا جاء النصُ بَطُلَ الرأيُ والقياسُ فأما ما لا نَص فيه فَهَلْ وزُ ا شاورةُ فيه يع الأشياءِ أمْ لا. قالَ الكلـ وكثـ ٌ مِنَ العلماءِ هذا الأمرُ صوص با شاوَرَةِ ا روبِ وحُجتُهُ أن الألِفَ واللامَ لفظِ الأمر ليسَا للاستغراقِ لِمَا بينَ أن الذي نـ ـزلَ فيهِ وحيٌ لا وز ا شاورة فيهِ فوجَبَ حَمْلُ الألِف واللامِ ها هُنا على ا عهودِ السابقِ وا عهودُ السابقُ هِذِه الآية إنما هُو ما يتعلقُ بأمرِ ا ربِ ولقاءِ العدوّ فكانَ قولُهُ ﴿ **وَشَاوِرْهُم فِي الأمرِ** ﴾ مُختصاً بذلك وظاهِرُ الأمرِ للوجوبِ فقولُهُ وشاورْهُمْ يقتضي الوجوبَ، و لَ الشافعي رَحِمَهُ ا ذلكَ على الندبِ فقالَ هذا كقوله عليه الصلاةُ والسلامُ: "البِكْرُ تُستأمَرُ نفسِهَا" ولو أكرهَهَا الأبُ على النكاحِ جازَ لكنْ الأو بذلكَ تطييباً لنفْسها فكذا ها هُنا.

انظر: تفسـ القرطـ ، م ٢ ج ٤ ص ٢٥٠؛ تفسـ الطـ ي، ج ٧ ص ٣٤٥- ٣٤٦؛ التفسـ الكبـ (تفسـ فخر الدين الرازي)، م ٣ ص ٨٢-٨٣.

(١) هو ا سن بن أ ا سن البصري أبو سعيد إمام أهل البصرة وخـ أهل زمانه، ولد لسنتـ بقيتا من خلافة عمر وشهد يوم الدار وقال ابن سعد طبقاته كان جامعاً عا اً رفيعاً فقيهاً حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثـ العلم فصيحاً يلاً/ شذرات الذهب، ج ١ ص ١٣٦- ١٣٧.

الأنبياءُ عليهم السلامُ.

قال ا تعا مَدْحِ ا ؤمن : ﴿ **وَأَمْرُهُم شُورَى بَيْنَهُم** ﴾ [١]. وقال صلى ا عليه وسلم: "ما خاب من استخار ولا ندم من استشار) وقالَ عليه السلام: "ما شَقِيَ عبدٌ شورةٍ ولا سَعُدَ مَنْ اسْتغ ِ برأيٍ".

وقال الشع [٢]: مكتوبٌ التوراةِ من ْ يستشرْ يندمُ.

قالَ أبو هريرةَ: ما رأيتُ مِن الناسِ أحداً أكثرَ مشورةً لأصحابِهِ مِنْ رَسُولِ ا صلى ا عَلَيْهِ وسَلَمَ [٣]. وَقَدْ صَحّ عَنْ رسول ا ِ صَلى ا عليه وسلمَ الاستشارةُ لأصحابِهِ قصَصٍ كث ةٍ مِنها أنَهُ لما أرادَ مُصالَحَةَ عيينةَ بنِ حصنٍ الفَزَاري [٤] وا ارثِ

(١) آية ٣٨ من سورة الشورى، ولقد ذكر سيد قطب تفس ه ذه الآية أن ا تعا جعل أمرهم شورى ليصبغ ا ياة كلها ذه الصبغة يقول إنه طابع ذا للحياة الإسلامية و ة يزة للجماعة ا ختارة لقيادة البشرية وهي من ألزم صفات القيادة أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً قالب حديدي فهو متروك للصورة ا لائمة لكل بيئة وزمان لتحقيق ذلك الطابع حياة ا ماعة الإسلامية، ظلال القرآن، ج ٢٥ ص ٤٧. وذكر الإمام القرط تفس ه ذه الآية أن ا مدح ا شاورة الأمور دح القوم الذين كانوا تثلون ذلك وقد كان الن صلى ا عليه وسلم يشاور أصحابه الآراء ا تعلقة صا ا روب وذلك الآراء كث و يكن يشاورهم الأحكام لأ ا منـزلة من عند ا على يع الأقسام من الفرض والندب وا كروه وا باح وا رام/ تفس القرط ، م ٨ ج ١٦ ص ٣٦- ٣٧. وقيل أن ذلك مدح من ا م بأ م كانوا إذا وقعت بينهم اجتمعوا وتشاوروا فأث ا عليهم أي لا ينفردوا برأي ما تمعوا عليه/ التفس الكب (تفس فخر الدين الرازي)، م ٧ ص ٣٩٩.

(٢) هو أبو عامر بن شرحبيل الشع تابعي جليل القدر وافر العلم ولد سنة ١٩ هـ تو السفارة لعبد ا لك بن مروان إ ملك الروم وخرج مع ابن الأشعث فلما ظفر م ا جاج اعتذر اليه فعفى عنه تو سنة ١٠٣هـ/ الطبقات الك ى، ج ٦ ص ١٧١؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٥٣.

(٣) سنن الترمذي، ج ٣ ص ١٢٩؛ السنن الك ى، م ٧ ص ٤٥.

(٤) هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري أسلم بعد الفتح وكان من ا ؤلفة قلو م اه

بن عوفٍ ا ري [١] حـ ـ حَصَرَهُ الأحزابُ ا ندقِ على أنْ يعطِيَهُمْ ثُلُثَ ا ار ا دينةِ ويرجعا نْ مَعَهُما مِنْ غطفانَ عنهُ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حـ أشاوِرَ السعودَ يع سَعْدَ بنَ معاذٍ [٢] وَسَعَدَ بنَ عبادة [٣] وسعدَ بنَ زرارة [٤] فاستشارَهُم فأشاروا عَلَيْهِ أن لا يُعطيهما فَلَمْ يُعطِهما شيئاً.

وَمِنْها أنَهُ استشارَ أسارَى بدْرٍ فأشارَ أبو بكر [٥] بالفداءِ وأشارَ عمرُ بالقتلِ

=

الرسول صلى ا عليه وسلم أ قاً مطاعاً/ الاستيعاب، ق/ ٣، ص ١٢٤٩؛ ا عارف، ص ١٣١.

(١) هو ا ارث بن عوف ا ري من بـ مرة يكـ أبا أ اء وهو صاحب ا مالة حرب داحس وأحد رؤساء ا شرك يوم الأحزاب أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وبعث معه رجلاً من الأنصار إ قومه/ الاستيعاب ق/ ١، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ ا عارف، ص ١٣٧.

(٢) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرء القيس من بـ عبد الإشهل. أسلم با دينة بـ العقبة الأو والثانية على يد مصعب بن عمـ وشهد بدراً وأحداً وا ندق ورمى يوم ا ندق بسهم فعاش شهراً انتقض جرحه فمات منه/ الاستيعاب ق /٢ ص ٦٠٢..

(٣) هو سعد بن عبادة بن ديلم ا زرجي الأنصاري أحد النقباء شهد العقبة ذكره اعة من أهل بدر كان سيداً قومه مقداماً جواداً وكانت. له راية رسول ا صلى ا عليه وسلم يوم الفتح. مات وران من أرض الشام سنة ١٥هـ / الاستيعاب، ق /٢ ص ٥٩٤؛ ا عارف، ص ١١٢.

(٤) هو أخو أسعد بن زرارة ذكر ابن عبد ا الاستيعاب، فقال: أخشى أن لا يكون أدرك الإسلام / الاستيعاب، ق/ ٢ ص ٥٩١.

(٥) هو عبد ا بن عبد الر ن لقبه رسول ا عتيقاً مال وجهه ويقال ي عتيقاً لأن رسول ا صلى ا عليه وسلم قال. له: أنت عتيق من النار و ي صديقاً لتصديقه خـ الإسراء يلتقي مع رسول ا صلى ا عليه وسلم مرة بن كعب وكان من أول من اتبع رسول ا من الرجال وأسلم على يده اعة وأعتق أعبداً افتداهم من أيدي ا شرك بويع له با لافة اليوم الذي قبض فيه صلى ا عليه وسلم تو يوم ا معة لتسع ليال بقـ من ادي الآخرة سنة ١٣ هـ فكانت خلافته سنتـ وثلاثة أشهر وتسع ليال/ شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٤؛ ا عارف، ص ٧٣.

فَعَمِلَ صلى ا عليه وسلمَ بَرَأْيِ أ بكرٍ رَضِيَ ا ُ عَنْهُ [١].

ولَما ن ـ زلَ رسولُ ا ِ صلى ا ُ عليه وسلمَ ببدرٍ ن ـ زلَ ِبأَدْنا ماءٍ فقال ا ُباب بنُ ا نذرِ [٢]: يا رسولَ ا أرأيتَ هذا ا ن ـ زلَ أمن ـ زلٌ أن ـ زلكهُ ا ليسَ لنا أنْ نتقدمَهُ ولا نتأخرَ عنهُ أمْ هُوَ الرأيُ وا ربُ وا كيدةُ، فقالَ: "بَلْ هُوَ الرأيُ وا ربُ وا كيدةُ"، قالَ: إن هذا ليسَ لَنا ن ـ زل. فا ضْ بالناسِ ح نأ َ أدْنى من ـ زلٍ مِنَ القومِ فنن ـ زلُهُ ثُمّ نغورُ ما وراءَه من القلْبِ ونب لك حوضاً فنملأُهُ ماءً نقاتِلُ الناسَ فَنشْرَبَ ولا يشربُونَ، فقالَ صلى ا ُ عليهِ وسلم: "لقَدْ أشرتَ بالرأيِ" فنهض صلى ا عليه وسلمَ بِمَنْ مَعَهُ حتّى أتى أد ماءٍ مِنَ القومِ فن ـ زلَ عليهِ وَفَعَلَ ما أشارَ بِهِ ا ُباب بن ا نذرِ. وشاوَرَ عليه أفضل الصلاةِ والسلامِ عليّاً بنَ أ طالب[٣] عليه السلامُ وأسامةَ بنَ زيدٍ [١] قصةِ الافْكِ

(١) مسند أ د، م ١ ص ٣٠- ٣١؛ السنن الك ى، م ١٠ ص ١٠٩.

(٢) هو ا باب بن ا نذر بن ا موح يك أبا عمر وشهد بدراً وهو ابن ثلاثاً وثلاث سنة وهو الذي أشار على رسول ا صلى ا عليه وسلم أن ين ـ زل على ماء بدر فكان يقال له ذو الرأي وشهد أحداً وا ندق وا شاهد كلها مات خلافة عمر/ الاستيعاب، ق/ ١ ص ٣١٦؛ أسد الغابة معرفة الصحابة رقم التر ة ١٠٢٣.

(٣) هو علي بن أ طالب رضي ا عنه يك أبا ا سن أول من آمن با ورسوله بعد خد ة وهو ابن سة عشرة سنة فقد قال علي رضي ا عنه صليت مع رسول ا صلى ا عليه وسلم كذا وكذا لا يصلي معه غ ي إلا خد ة وأ عوا على أنه صلى للقبلت وهاجر وشهد بدراً وا ديبية وسائر ا شاهد وأنه أبلى ببدر وبأحد وبا ندق و ي بلاء عظيمًا وكان لواء رسول ا صلى ا عليه وسلم بيده مواطن كث ة و يتخلف عن مشهد شهده رسول ا صلى ا عليه وسلم إلا تبوك فإنه خلفه فيها على ا دينة وعلى عياله، وقال له: (أنت م ن ـ زلة هارون من موسى إلا أنه لا ن بعدي) زوجه رسول ا صلى ا عليه وسلم ابنته فاطمة وقال ا: (زوجك سيد الدنيا والآخرة وإنه أول أصحا إسلاماً وأكثرهم علمًا وأعظمهم حلمًا) وكان رضي ا عنه من فقهاء الصحابة بويع له با لافة يوم قتل عثمان واجتمع على بيعته ا هاجرون والأنصار. قتل ليلة ا معة لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ٤٠ هـ وكانت خلافته أربعة سن وتسعة أشهر وستة أيام/ الاستيعاب، ق/٣ ص ١٠٨٩- ١١٣٣.

و أمرِ عائشةَ فقالَ أسامَةُ: أهْلُكَ يا رسول ا ولا نعلمُ إلا خ اً [٢]. ورَويَ أيضاً حديثِ الافْكِ أنهُ قالَ صلى ا عليه وسلم وَهوَ على ا نـ "ما تش ونَ علي قوم يسبون أهْلي ما علمتُ عليهمْ إلا خ اً" [٣]. وكانَ أبو بكرٍ رضيَ ا عنهُ إذا نـزلَ بِهِ أمْرٌ يريدُ فيه مشاوَرَة ذوي الرأي والفقهِ دعا رجالاً من ا هاجرينَ والأنصارِ، دعا عُمَرَ وعثمانَ وعليّاً وعبدَ الر نِ بنَ عَوْفٍ ومعاذَ بنَ جبل [٤] وأُ بنَ كعبٍ [٥] وزيدَ بنَ ثابتٍ [٦]، فمضى أبو بكرٍ رضي ا عنهُ على ذلك. ثُم وَلِيَ عُمرُ رضي ا عنهُ وكانَ =

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل مو رسول ا صلى ا عليه وسلم تو رسول ا صلى ا عليه وسلم وهو ابن عشرين سنة سكن بعد النـ صلى ا عليه وسلم وادي القرى عاد إ ا دينة ومات با رف آخر خلافة معاوية و ا فرض عمر بن ا طاب للناس فرض لأسامة سة آلاف ولابن عمر ألف وقال أن أسامة كان أحب إ رسول ا صلى ا عليه وسلم وأبوه كان أحب إ رسول ا من أبيك تو سنة ٥٤ هـ خلافة معاوية/ الاستيعاب، ق/ ١ ص ٧٥- ٧٨.

(٢) صحيح البخاري، ج ٩ ص ١٣٩؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ١١٥؛ س ة ابن هشام، ج ٣ ص ٢٥٥.

(٣) صحيح البخاري، ج ٩ ص ١٣٩؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ١١٥.

(٤) هو معاذ بن جبل بن عمر ا زرجي الأنصاري، يكـ أبا عبدالر ن أحد السبع الذين شهدوا العقبة من الأنصار، آخى الرسول صلى ا عليه وسلم بينه وبـ عبدا بن مسعود شهد بدراً وا شاهد كلها بعثه الرسول صلى ا عليه وسلم قاضياً ومعلماً مات بناحية من الأردن طاعون عمواس/ الاستيعاب، ق/٣ ص ١٤٠٢- ١٤٠٧ ا عارف، ص ١١١.

(٥) هو أ بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري يكـ أبا ا نذر شهد العقبة الثانية وبايع الرسول صلى ا عليه وسلم وكان أ من كتبة الوضى وشهد بدراً وهو أحد فقهاء الصحابة وأحد الذين عوا القرآن/ الاستيعاب، ق/ ١ ص ٦٥؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٢.

(٦) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري يكـ أبا سعيد قتل أبوه يوم بعاث وقدم الرسول وهو ابن ١١ سنة استصغره الرسول يوم بدر فلم يشهدها كان من كتاب الوحي وهو الذي ع القرآن =

يدعو هؤلاء النفرَ. وروى أن القراء كانوا أصحابَ مشورةِ عُمَرَ رَضِيَ ا ُ عَنْهُ كُهولاً كانوا وشباناً [١].

وَرويَ أنهُ استشارَ حَد ا مر فقالَ علي عليه السلامُ: تراهُ إذا سَكِرَ هذى، وإذا هذى افترى، وعلى ا فتري انونَ جلدةً، فعمل برأيه [٢]. واستشارَ قصةِ ا رأةِ ال بَعَث إليها فألقت جنيناً مَيتاً من الفزَعِ، فقالَ عثمانُ وعبدُ الر نِ بْن عَوفٍ: إنما أنتَ والٍ مؤدبٌ، وقـالَ علي عليهِ السلامُ: أرى عليـكَ دِيتَهُ لأنك أفزَعْتها. وأخذَ برأيه.

والأخبارُ هذا البابِ عَنْ رسولِ ا ِ صلى ا عليهِ وسلم وا لفاءِ الراشدينَ تكثُرُ جِداً و رجُ بِنَا عَنْ حَدَ الاختصارِ، فلنقتصرْ مِنهَا على هذا ا قدارِ، ولنذكرْ شيئاً مِن كلامِ ا كماءِ والْبلغاءِ.

فَمِنْ كِتابَ ا ُبهجِ: يَنبغي للملكِ إذا كانَ ذا رأيٍ أصيلٍ أنْ يستشـَ فيستنـَ ويستمد ولا يستبد فإن رةَ ا شورةِ أحلَى مِنَ العَسَلِ ا شورِ.

قال بعض البلغاءِ: مَنِ استشارَ استبصرِ ومن استخارَ استظهرَ، وقيل: من استبد برأيهِ خَفتْ وطأته على أعدائِهِ. وقالَ بعضهم: لا يَستغِني حليمٌ عن مشورةٍ ولا ذُو ربةٍ عن تَبصرٍ. وقالَ بعضُ العربِ: العاقِلُ مِنَ الرجالِ لا يستغ عَنْ مشورةِ ذَوِي الألبابِ ولا يستفزهُ الغَضَبُ عِندَ الأصحابِ. وقالَ آخر: إذا أنكرتَ عقلَكَ فامْزجْهُ بآخَرَ لعاقلِ ورُبما

=

خلافة الصديق استخلفه عمر على ا دينة ثلاث مرات تو سنة ٤٥ هـ/ الاستيعاب، ق ٢/ ص ٥٣٧؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٤؛ ا عارف، ص ١١٣؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٣٠- ١٣١.

(١) صحيح البخاري، ج ٩ ص ١٣٩.

(٢) صحيح مسلم، ج ٥ ص ١٢٥، وفيه أن الن صلى ا عليه وسلم أُ برجل قد شرب ا مر فجلده ريدت و أربع . قال: وفعله أبو بكر، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبدالر ن: أخف ا دود ان فأمر به عمر؛ موطأ مالك بشرح الزرقا ، م ٤ ص ١٦٧، وفيه قال ابن عبد ال وانعقد عليه إ اع الصحابة ولا الف م منهم، وعليه اعة التابع و هور فقهاء ا سلم .

احتاجَ السيفُ الصقيلُ إ مسنِ الصاقِل.

وقالَ ا سنُ [(١)]: وا ما تشاوَرَ قومٌ قَط إلا هداهُمُ ا لأفضلِ ما ضُرهم.

وقالَ مالِكَ بنُ أنس [(٢)]، رَ هُ ا ُ: ما تشاورَ قومٌ قط إلا هداهُمُ ا ُ إ رُشدِهم.

قالَ بعضُ البُلغاء: "مِنْ جَهْلِ ا رءِ وَسَفَهِ رأيِه، أنْ يتصورَ نَفْسِه ويتقررَ حِسِهِ أن استمدادَ الآراء واستشارةَ النصحاءِ ا يُزري بِهِ وَيَضَعُ من قدرِهِ فَيستبد بالتدبِ وَيعرِضُ عن ا ُشِ فيبقى ظُلمةِ ا يْرةِ و ضُلُ على ا م وا سرَةِ.

قالَ: مِن حَق العاقِلِ أنْ يُضيفَ إ رَأيِه رأيَ العلماءِ وإ عقلِهِ عقولَ ا كماءِ ويدَ الاسترشادَ ويتركَ الاستبدادَ، فَمَن استشاد العا فيما ينويه واسترشد العاقِلَ فيما

(١) هو أبو مد ا سن بن علي بن أ طالب. سيد شباب أهل ا نة وسبط رسول ا صلى ا عليه وسلم. كان ا سن أشبه الناس برسول ا صلى ا عليه وسلم، ما ب الصدر إ الرأس تواترت الآثار الصحاح عن الن صلى ا عليه وسلم أنه قال سن بن علي: إن اب هذا سيد وعسى ا أن يبقيه ح يصلح به ب فئت عظيمت من ا سلم . كان من ا بادرين إ نصرة عثمان والذاب عنه، بويع له با لافة بعد مقتل أبيه بالعراق وبويع عاوية الشام، صا ا سن معاوية ورجع إ ا دينة، فمات ا، ويقال أن امرأته ته، ودفن ببقيع الغرقد وصلى عليه سعيد بن العاص وكان أم أ با دينة تو سنة ٤٩ هـ. الاستيعاب، ق/ ١ ص ٣٨٣؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٥-٥٦؛ ا عارف، ص ٩٢.

(٢) هو الإمام أبو عبد ا مالك بن أنس بن مالك بن أ عامر الأصبحي ا د إمام دار ا جرة وأحد الأئمة الأعلام، أخذ العلم عن ربيعة الرائي، ولد سنة ٩٥ للهجرة وكان قد ل به ثلاث سن . روى عن غ واحد من التابع وحدث عنه خلق من الأئمة. قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر. وكان الشافعي يقول: إذا ذكر العلماء فمالك النجم وكان من أشد الناس انتقاداً للرجال و فظاً رواية ا ديث وكان إذا أراد أن دث توضأ وتطيب وسرح يته ولبس أحسن ثيابه، ومناقبه كث ة وفضله أشهر من أن يذكر، تو سنة ١٧٩هـ با دينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع. وفيات الأعيان، م ٤ ص ١٣٥- ١٣٩، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٩٦-٩٧؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٨٩- ٢٩٠؛ البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٤.

يأتيه وَضُحَتْ لَهُ الأمورُ وَصَلُحَ لَهُ ا مهورُ واستنارَ فيه القلبُ وسَهُلَ عليه الصعبُ. وقالَ: لا تأنفْ مِن الاسترشادِ ولا تستنكفْ مِنَ الاستمدادِ فَلأنْ تستش وتندَم خ ٌ من أن تَستَبد وتَسْلَمَ.

وقالَ آخرُ: ا شاوِرُ بِ َ إحدَى ا سنيد صوابَ يفوزُ بِهِ أو خطأ يشارك مكروهِهِ.

وقالَ ابْنُ ا عتز: مَنْ أكثَرَ ا شورةَ لَمْ يعدمْ عِندَ الصوابِ مادحاً وعندَ ا طإِ عاذِراً.

وقالَ: ا شورةُ راحةٌ لَكَ وَعَوْن على ا َطْبِ. وقالَ: ا شورةُ راحةٌ لكَ وتعبٌ على غ ِ كَ. وقالَ: ا ستش ُ على طَرفِ النجاحِ. وقالَ غ ُ ُهُ: ا شورةُ ع ُ ا دايةِ. وقال: خاطَرَ مَنْ استغ ِ برأيِهِ.

وقال: نصفُ عقِلِكَ مَعَ أخيكَ فشاوِرْهُ. وقالَ آخَرُ: إذا شاورتَ العاقِلَ كانَ لكَ نصفُ عَقلِهِ.

قال الشاعر:

الرأيُ كالليل مُسوَد جوانِبُهُ والليلُ لا يَنجلي إلا بإصباحِ
فاضمِم مصابيحَ آراءِ الرجالِ إ مِصباحِ رأيِك تزدَد ضَوءَ مِصباحِ

و ا قيلَ ذلكَ قولُ بشارٍ[1]:

إذَا بلغَ الرأيُ ا شورَةَ فاستَعِن بعزمِ نصيحٍ أو نصيحَةِ حازمِ
ولا علْ الشُورى عليك غضاضَةً فريشُ ا وافي نافع للقوادِمِ[2]

وقالَ رجل مِن عَبْسٍ: وَقَدْ سُئلَ ما أكثَرَ صوابَكُمْ فقالَ: نُ ألفُ رَجُل فينا رجلٌ واحِدٌ حازِمٌ فنحنُ نشاوِرُهُ فكأنا ألفُ حازِمٍ.

(١) بشار بن برد: هو أبو معاذ بشار بن برد العقيلي الشاعر ا شهور أصله من طخرستان من س ا هلب بن أ صفر، ولد أعمى جاحظ ا دقت ، رمي بالزندقة عند ا هدي فأمر بضربه ح مات سنة ١٦٧ هـ. وفيات الأعيان، م ١ ص ٢٧١؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٢٦٤؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٥٣.

(٢) ديوان بشار بن برد، ج ٤ ص ١٧٢-١٧٣. وا ع : إما أن تعمل برأي النصيح أو تترك الأمر بنصيحة ا ازم، وتنتظر زمان إمكانه.

وقيلَ: استشارَ قومٌ مِنَ العرَبِ شيخاً ـم قدْ قاربَ التسعـ فيما يُدْرَكُ بِهِ الثأرُ ويُنفَى بِهِ العارُ، فقالَ: إن وَهَنَ قِوايَ قدْ فَسَخَ هِمتِي وَنَكَثَ عزـ ولكنْ شاوِروا الشجعانَ مِنْ أولـ العزمِ والـ بناءَ مِنْ أولـ ـزمِ فإن الـ بانَ لا يألوا برأيِهِ ما يقي مهجكم والشجاعُ لنْ تعدَمُوا شورَتِهِ ما يشيدُ ذكرَكُم، ثُمَّ خَلصوا بـ الرأيِ بنتيجةٍ تنأى بِكُم عن مَعَرةِ تقصـ الـ بانِ وَتهورِ الشجاعِ، فإذا نَجَمَ الرأيُ ـذا العلمِ كان أنفَذُ على عدوِّكم من السهمِ الزاـ.

قالَ: شاوِر ـ أمرِكَ مَنْ تثقُ منهُ بعقلٍ صحيحٍ وَودٍ صريحٍ فالعاقلُ ما ينصَحُ ما يَصفُ وِده والوَدودُ لا يصفُ ما لَمْ يَصِح عقلُهُ.

قالَ بعضُ الشعراءِ:

خصائصُ من تشاوِرُهُ ثلاث فَخُذْ مِنهَا لنفسِك بالوثيقةْ

وِداد خالص ووفُورُ عَقْل ومعرفةٌ إليكَ ـا ـقيقةْ

فمن ـلُص لهُ هـذه الـعـا فتـابع رأيـهُ والـزَم طريقـةْ

وقال بعضُ البلغاءِ: الـرءُ إذا استشارَ الرشيدَ وعملَ ـشورتِهِ واستنصحَ الرشيدَ وَبَنى على نصيحتِهِ ـ يفُتْهُ حزمٌ و ـ يغلبْهُ عَزْمٌ.

وقالَ: مَنْ استوزَر غـ كافٍ خاطرَ ـلكِهِ ومن استشارَ غـ أمـ أعان على هُلكِهِ.

وقالَ عبدُ الـ بنُ الـسنِ [(١)]: إحذرْ مشورةَ الـاهلِ، وإنْ كانَ ناصحاً كما ـذرُ غيلةَ العاقِلِ، إذا كان عدوّاً، فيوشِكُ أن تورِّطُكَ مشورةُ الـاهِلِ ويسبِقُ إليكَ مَكْرُ العاقِلِ، وقيلَ: صوابُ الـاهل كزلةِ اللبيبِ.

وعَـ ابنِ شهابٍ [(٢)] قالَ: بَلَغ ـ أن عمرَ رَضيَ الـ عَنْهُ قالَ: استشرْ ـ أمرِكَ الذينَ

---

(١) هو عبدا ـ بن حسن بن حسن بن علي بن أ ـ طالب، أمه فاطمة بنت الـسـ ، وفد على عمر بن عبدالعزيز فأكرمه ووفد على السفاح فأعطاه ألف درهم، ـ عامله الـنصور بعكس ذلك، تو ـ سنة ١٤٥هـ. البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٩٥.

(٢) هو أبو بكر ـمد بن مسلم بن عبدا ـ بن شهاب الزهري من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الـدينة، حافظ زمانه، وأعلم الناس ـ وقته، ثقة، كثـ الـديث، ولد سنة ٥٨ هـ ـ آخر خلافة معاوية، تو ـ سنة ١٢٤هـ وله من العمر ٧٢ سنة. النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٢١-١٢٥؛ شذرات =

شون ا َ .

وقالَ علي عليه السلامُ: رأيُ الشيخِ خ ٌ مِنْ مَشْهَدِ الغلامِ.

وقالَ لقمانُ ا كيمُ [١]: شاورْ مَنْ جربَ الأمورَ فإنهُ يُعْطيكَ مِنْ رأيِهِ ما كان عليه بالغلاء وأنتَ تأخذُهُ با ّان.

وقيلَ: لِتَكُنْ مشورتُكَ بالليل، فإنه أ عُ لِلرأي والفكرِ، وأعونُ على الذكرِ.

=

الذهب، ج ١ ص ١٦٢.

(١) هو لقمان بن باعوداء بن ناحور بن تارح ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه السلام وكان يف قبل مبعث داود، فلما بعث قطع الفتوى. واختلف نبوته والراجح أنه يكن نبيًا رأي أكثر الناس ا عارف، ص ٢٥؛ ار القلوب ا ضاف وا نسوب، ص ١٢٤.

باب

مَدحِ العَدلِ وإيثارِهِ
وذم ا ورِ وآثارِهِ

العدلُ ميزانُ ا ِ أرضِهِ وَضَعَهُ للخلقِ ونصَبهُ للحقِّ فمن خالفهُ ميزانِهِ وعارَضَهُ سلطانِهِ فقد عرضَ دينَهُ للخبالِ ودولَتهُ للزوالِ وعِزهُ للذل وكَثْرَتَهَ للْقِل.

وقيلَ كُل دولةٍ بُنِيَ أساسُها على العدْلِ أمِنَتْ الانعدامَ وسلمتْ الا دامَ.

و الزبور [١]: العدلُ ميزانُ الباري فلذلك هو مُ أ مِنْ كُل زللٍ وميلٍ.

وقالَ صلى ا عليه وسلمَ: "عدلُ ساعةٍ حكومةٍ خ ٌ من عبادَةِ ست سنةٍ".

وقالَ بعضُ ا كماءِ: عدلُ السلطانِ خ ٌ من خِصْبِ الزمانِ. وقالَ أردش ُ: ا ملكةُ لا تصلحُ إلا بأعدادِ الأجنادِ ولا تعد الأجنادُ إلا بإدرارِ الأرزاقِ ولا تدر الأرزاقُ إلا بكثرةِ الأموالِ ولا تثمرُ الأموالُ إلا بعمارَةِ البلادِ ولا تعمُرُ البلادُ إلا بالأمنِ والعدلِ العبادِ.

وقالَ جعفرُ بنُ بنُ خالدٍ: ا راجُ عمادُ ا لكِ فما استغزرَ ثلِ العدلِ وما استنــزرَ ثلِ ا ورِ.

ومَما يدل على صِحةِ هذا الكلامِ ما رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بنِ ا طابِ رَضِيَ ا ُ عنهُ حـ َ جَبَى سوادَ العراقِ مِئَةَ ألفِ ألفٍ وتسعةً وثلاث َ ألْفِ ألفٍ ثُم جناهُ ا جاجُ زمانِهِ انيةَ

(١) الزبور: كتاب أنــزله ا على سيدنا داوود عليه السلام.

عشرَ ألفِ ألْفِ ثُم جناهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ خلافتِهِ مئَةَ ألفِ ألفِ وأربعةً وثلاثَ ألفِ ألفٍ وقالَ: إنْ عِشتُ إ قابل جنيتها كما جَنَاهَا عُمرُ بنُ ا طابِ رضيَ ا عنهُ.

فأنْظُر إ هذا التفاوُتِ العظيمِ بـ جَنْي العُمَرينِ وجـ ا جاجِ وَليسَ لزيادَتِهِ سببٌ ولا لنقصانِهِ سببٌ سِوى العدْلِ وا ورِ.

وقالَ أنو شروانَ [1]: إنَ ا لِكَ إذَا كَثُرَتْ أموالُهُ مِما يأخُذُ مِنْ رَعيتِهِ كانَ كَمَنْ يُعَمرُ سَطْحَ بيتِهِ ا يَقْتَلِعُ مِنْ قواعِدِ بُنيانِهِ.

وكَتبَ عَبْدُا لِكِ بنُ مروانَ إ ا جّاجِ أمِرِ أهْلِ السوادِ أبْقِ لَهُمْ وماً يعقِدوا ا شَحوماً.

وقالَ بعضُ ا كماءِ: لا يكونُ العمرانُ حيثُ ورُ السلطانُ.

وقيلَ العَدْلُ أقوى جيش والأمنُ أهنئُ عَيْشٍ. وقالَ بعضُهُم الدولُ إذا افْتَتِحَتْ بالعدلِ امتدت آمادُها وثَبَتَتْ أعمادُهَا.

ومَنْ كِتابِ ا بهجِ إذا مَلَكَ العادِلُ زالَ الروْعُ وأفرخَ [2] وإذا مَلَكَ الظالِمُ عَششَ الشر وفرخَ. وقالَ إذا نَطَقَ العدْلُ دارِ الإمارةِ فَلَهَا الْبشْرَى بالعز والعِمارةِ. وقالَ عَدْلُ السّلطانِ لدينِهِ أحْوَطُ وَلدُنياهُ أضبطُ ولأوليائِهِ أثبتُ ولأعدائِهِ أكبتُ. وَقيلَ إذا عَقَدَ السلطانُ بالعدل عقيدَتَهُ وَطَوَى على الإحسانِ طَوِيَتَهُ فَليبشرْ بالنجمِ الأسعدِ وا دِ الأصْعَدِ.

وقالَ ما أحْرى ا لكَ العادلَ بالارتفاعِ إ نفاعِ ا لكِ والصعودِ إ سُعودِ الفلكِ.

قالَ منْ عَدَلَ نَفذَ حكمُهُ وقرْطَس [3] ا طالِبِ سَهْمُهُ وَمَنْ ظَلَمَ تعجلَ زوالَ

(١) هو أنو شروان بن قباذ بن فـ وز ملك الفرس ان وأربعـ سنة وهو الذي قتل مزدك و ع أهل لمكته على ا وسية وكان يدعى كسرى ا وقد ذكرته الشعراء أشعارها كشعر عدي بن زيد/ مروج الذهب، ج ١ ص ١٩٩.

(٢) الفرخ: ولد الطائر وكل صغـ من ا يوان والنبات. وأفرخ الأمر استبان بعد اشتباه وأفرخ روعك أي سكن جأشك وفرخ بتشديد الراء الروع تفر أ ذهب/ القاموس ا يط.

(٣) القرطاس: ما يكتب فيه وكسر القاف أشهر والقرطس وازن جعفر لغة فيه والقرطاس أيضاً قطعة من أد تنصب للنضال فإذا أصابه الرامي قيل قرطس.

النَعمِ وحَلولَ النقمِ. وقِيلَ مَنْ عَدَلَ حَصنَ مُلْكُهُ وَمَنْ ظَلَمَ فَقَدْ استعجلَ هُلْكُهُ. وَقِيلَ مَنْ عَدَلَ زادَ قدرُهُ وَمَنْ ظَلَمَ نَقصَ عمرُهُ وَقِيلَ مَنْ عَدَلَ سُلْطَانِهِ اسْتَغْنَى عَنْ أعوانِهِ. وَقِيلَ أفضلُ الملوكِ مَنْ أَحْسَنَ فِعْلِهِ وَنِيَتِهِ وعَدَلَ جُنْدِهِ ورعَيَتِهِ. وقيلَ مَنْ ساءَتْ س تُهُ لَمْ يَأْمَنْ أبداً وَمَنْ حَسُنَتْ س تُهُ لَمْ يَخَفْ أحداً.

قالَ رسولُ ا صلى ا عليه وسلمَ:: (شَر الرعاةِ ا طَمَةُ)[1]، قلْتُ: ا طمة مِنْ الرعاةِ هوَ العنيفُ برغيةِ ا ال فكأنهُ يحَطمُها أيْ يكسُرها ويأتي عَليهَا وقالَ عيهِ الصلاةُ والسلامُ: "الظلْمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامَةِ"[2].

و التوراةِ مَنْ يَظلِمْ ربْ بيْتُهُ. و الزبورِ إذا ظلمتَ مَنْ دونَكَ فلا تأمَنْ مَنْ فَوْقَكَ.

(و ا ديث: دارُ الظا خرابٌ ولو بعدَ ح).

وقال مُعاوية[3]: أنقصُ الناسِ عَقْلاً مَنْ ظَلَمَ مَنْ هُوَ دونَهُ.

و بعضِ الأحادِيثِ اتقُوا ظُلْمَ مَنْ لا نَاصرَ لهُ إلا ا [4].

وقيلَ: ا أم الظلمِ ظُلْمُ الضعيفِ. (وَقيلَ: الظلمُ مَسلَبةٌ للْنَعمِ لبة للنقَمِ).

---

(١) ورد ا ديث كاملاً مسند أ د م ٥ ص ٦٤، بإضافة إياك أن تكون منهم، صحيح مسلم، ج ٦ ص ٩؛ السنن الك ى، م ٨ ص ١٦١؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١٠٩٠؛ وا طمة هو الراعي الظلوم ضربه مثلاً لوا السوء الذي يظلم الرعية ولا ير هم.

(٢) صحيح البخاري، ج ٣ ص ١٦٩؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ١٨؛ سنن الترمذي، ج ٤ ص ٣٧٧. وقال حديث حسن غريب مسند أ د، م ٢ ص ١٠٦؛ السنن الك ى، م ١٠ ص ٣٤، ومع قوله صلى ا عليه وسلم ظلمات يوم القيامة، قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيام سبيلاً ح يسعى نور ا ؤمن ب أيديهم وبإ ا م و تمل أن الظلمات هي عبارة عن الأنكال والعقوبات.

(٣) هو معاوية بن أ سفيان.

(٤) أجد حديث ذا اللفظ وإ ا ذكر صاحب كشف ا فاء حديثاً معناه بلفظ أشد غضب ا على من ظلم من لا د ناصراً غ ا) وقال رواه القضاعي والديلمي بسند فيه كذاب عن علي/ كشف ا فاء، ج ١ ص ١٤٣، مثله حديث ا عجم الصغ للط ا ، ج ١ ص ١٣١.

وَقِيلَ: أقربُ الأشياءِ صَرْعَةُ الظلومِ وأنفَذُ السهامِ دَعوةُ ا ظلومِ.

قالَ صلى ا ُ عليه وسلم: "اتقُوا دَعْوَةَ ا ظلومِ فإنهَا تُرْفَعُ على الغَمامَ". يقول ا ُ عز وجل: (وعِز وجَلالِي لأنصرنكَ وَلَو بَعْدَ ح ِ) [1].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتُ لا شَكَ فيهن، دعوةُ ا ظلومِ ودعوة ا سافِرِ ودعوةُ الوالد على وَلَدِه ". وقالَ عُمَرُ رَضِيَ ا ُ عَنْهُ لِمَوْ لَهُ وقَدْ استعمَلَهُ على ا ِمَى: اتقِ دَعوةَ ا ظلومِ فإ ا ابة.

وقالَ بعضُ ا كماءِ: مَنْ ساءتْ س تُهُ سرت منيتُه وَمَنْ قُبحَ مُلْكُهُ حَسَنُ هُلْكُهُ وَمَنْ طالَ تعدّيهِ كثُرَ أعادِيهِ ومَنْ طَالَتْ عداوَتُهُ زالَ سلطانُهُ مَنْ طالَ اعتداؤه قَربَ فناؤه من تَغدى بِسوءِ الس ةِ تَعَشى بِزوال القُدْرَةِ.

وَ بَعْضِ الآثارِ: ا ُلْكُ يبقى على الكُفْرِ ولا يبقَى على الظلمِ. وقالَ بعضُ البلغاء: مَنْ ظَلَمَ يتيماً ظَلَمَ أولادَهُ وَمَنْ أفسدَ أمرَهُ أفْسَدَ معادَهُ.

وَمِنْ كِتابٍ ا بهج أخلِقْ با لكِ الظلومِ أنْ يصد عِظَةً للرائ وع ةً للراوينَ. بشرْ ا لكَ الغشومَ با حَنِ مِنْ وجوهِ ا ِنَحِ والنوائِبِ مِنْ مواضِعِ ا واهِبِ والفتوقِ مِنْ جِهَةِ الفُتوحِ.

إذا كانَ ا ِلْكُ جائراً فَسَلامٌ على سلامةِ الرعيةِ.

أخلِقْ بالظالِمِ أنْ ينهارَ جُرْفٍ هارٍ.

وَمِنْ نَتائِجِ الظلْمِ قِصَرُ ا ُدّةِ وا سامُ ا ادةِ وانقطاعُ ا َدَدِ وانفصالُ العُدَدِ. ظِل ا ال ا ستثمرِ مِنْ ظُلْمِ الرجالِ كَسَحابٍ زقُهُ أيْدِي ا َنوبِ والشمالِ وتُفرقُهُ ذاتَ اليم ِ وذاتَ الشمالِ.

قيل: الظا ُ قليلُ (ا عونةِ) قبيحُ الذكرِ والأحدوثَةِ الظلمُ لا يُقالُ صريعُهُ ولا يساغُ ضريعُهُ ما أب سُوءَ الشؤم وَجْهِ الغَشومِ.

قال ابنُ ا عتز: الظالِمُ بَعيدٌ الوثبةِ قريبُ الصرعَةِ. قيلَ مَنْ لَمْ يعدلْ عَدَلَ ا فيه وَمَنْ حكَمَ لِنفْسِهِ حَكَمَ ا ُ عليهِ، وقالَ: اذكُرْ عِنْدَ الظلمِ عدلَ ا ِ فيكَ وعِنْدَ القُدْرَةِ قُدْرَةَ

(١) ورد ا ديث كاملاً مسند أ د، ج ٢ ص ٣٠٥؛ و سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٥٥٧؛ وسنن الترمذي، ج ٤ ص ٨٠، وقال فيه ا ديث ليس إسناده بذلك القوي وليس هو عندي تصل.

ا ِ عليكَ.

وقالَ: الظّلْمُ مِنَ اللؤمِ والإنْصافُ مِنَ السخاءِ. وقالَ آخَرْ الظلْمُ أَسْرَعُ ِإ تبديلِ نِعْمَةٍ وتعجيلِ نقَمَةٍ وقيلَ: الظلْمُ طريقٌ إ سُخْطِ ا ِ تعا ووقعَ يحـ بنُ خالدٍ اا مكي بِئْسَ الزادُ إ ا َعادِ (ظُلْمُ) العِبادِ.

قالَ أبو العتاهيّةِ [(١)]:

أَما وا ِ إن الظلمَ لُؤم — وما زالَ ا ُسيئُ هو الظلُومُ

إ ديانِ يومِ الدّيــن َنمضــي — وعنــدَ ا ِ تـَمـِـعُ ا ُصـُـومُ

وقالَ آخَرُ:

وَمَا مِن يَدٍ إلا يَـدُ ا ِ فَوقَهَا — ومــا ظالِم إلا سَيُبــلَى بظالـِـمِ

وقالَ آخرُ:

إذا جَارَ الأميرُ وكاتباهُ — وقاضي الأرضِ أسرفَ القَضَاءِ

فَوَيلٌ للأمـ ِ وكاتبـــــهِ — وقاضي الأرضِ من قاضي السماءِ

---

(١) هو أبو إسحاق إ اعيل بن قاسم الشاعر ا عروف ولد بعـ التمر سنة ١٣٠ هـ نشأ بالكوفة وسكن بغداد، كان أول أمره يبيع ا رار واتصل با لفاء ومدحهم ترك قول الشعر فسجنه ا هدي فعاد إليه فأطلقه تو سنة ٢١١ هـ/ وفيات الأعيان، م١ ص ١٩ ٢؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٥؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦٥.

فصلٌ

ذِكْرِ البَغيِ

قالَ ا ُ تعالَى: ﴿ ثُم بُغِيَ عَلَيهِ لَيَنصُرَنَهُ ا ُ ﴾ (١).

وقَالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "لَيْسَ شيءٌ أسرَعَ عُقوبَةً مِنْ بَغْيٍ" (٢).

وَفِي بَعضِ الآثارِ: لَوْ بَغَى جَبَلٌ على جَبَلٍ لَجَعَلَهُ ا ُ دَكاً (٣).

قالَ أبو بَكْرٍ الصديقُ رَضي ا ُ عَنْهُ: ثلاثٌ مَنْ كُن فيهِ كُن عَلَيهِ البغي والنكث وا كر.

(١) آية ٦٠، من سورة ا ج، ونصها كتاب ا : ﴿ ذَلِكَ وَمَن عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُم بُغِيَ عَلَيهِ لَيَنصُرَنَهُ ا ُ إِن ا َ لَعَفُو غَفُور ﴾

ذكر ابن كث أ ا نـزلت سرية من الصحابة لقوا عاً من ا شرك شهر رم فناشدهم ا سلمون أن لا يقاتلوهم الشهر ا رام فأ ا شركون إلا قتا م وبغوا عليهم فقاتلهم ا سلمون فنصرهم ا عليهم. وقد ذكر الأستاذ سيد قطب تفس ه ذه الآية أن الذين يقع عليهم العدوان من البشر لا لمون ولا يص ون ف دون العدوان ويعاقبون ثل ما وقع عليهم من الأذى فإن يكف ا عتدون وعاودوا البغي على ا ظلوم تكفل ا عندئذٍ بنصرة ا ظلوم على ا عتدين وشرط النصر هنا أن يكون العقاب قصاص على اعتداء لا عدواناً ولا تبطراً / ظلال القرآن، ج ١٧ ص ١١٥.

(٢) كنوز ا قائق حديث خ ا لائق على حاشية ا امع الصغ ، ج ٢ ص ٧٦، وقال. ا ناوي أخرجه البيهقي.

(٣) كنوز ا قائق، ج ٢ ص ٧٢؛ وقال أخرجه ا اكم؛ كشف ا فاء، ج ٢ ص ٢١٠، وقال رواه البخاري الأدب ا فرد وأبو نعيم عن ابن عباس موقوفاً، ومثله ييز الطيب من ا بيث، ص ١٣٤، وزاد طرقاً أخرى للحديث.

وَقِيلَ: مَنْ سل سَيْفَ البَغْي قُتِلَ بِهِ. وَقِيلَ: البَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمٌ.

وَقِيلَ: احذرْ مَصارعَ البغي: قالَ بعضُهُمْ: من سَلَّ سَيْفَ البَغْي أغْمَدَ رَأْسِهِ وَمَنْ أسسَ أساسَ السوءِ أسسَهُ عَلى نَفْسِهِ.

بَاب ذِكْرِ العفْو وَمَدحَ مُستعمِلِهِ كْثَرَ أحوالِهِ والانتقامِ وَمَحَل استعمالِهِ

اعلمْ أن ا لُمَ مودٌ مَحَلِهِ، والعفوَ مُسْتَحْسَنُ إذا اسْتُعْمِلَ مَعَ أهلِهِ. قالَ ا تعا : ﴿ **وَأَنْ تَعفُوا أقْرَبُ لِلتقْوَى** ﴾[1].

وقال جل وعلا: ﴿**وَالكَاظِمِ الغَيظَ وَالعَافِ عَن النَّاسِ وَا يُحِب المُحسِنِ** ﴾[2].

---

(1) سورة البقرة: الآية ٢٣٧. ونص الآية: ﴿ **وَإن طَلَّقتُمُوهُن مِن قَبل أن تَمَسوهُن وَقَد فَرَضتُم لَهُن فَرِيضَةً فَنِصفُ مَا فَرَضتُم إلا أن يَعفُونَ أو يَعفُوَ الذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النكَاحِ وَأَنْ تَعفُوا أقْرَبُ لِلتقْوَى وَلا تَنسَوُا الفَضلَ بَينَكُم إن ا بِمَا تَعمَلُونَ بَصِ** ﴾.

وهو خطاب للرجال والنساء قول ابن عباس فغلب الذكور، واللام ع إ أي أقرب إ التقوى. والآية تتحدث عن ا طلقة قبل الدخول، اا فرض ا مهراً معلوماً، و هذه ا الة ب ا نصف ا هر ا سمى، هذا هو القانون. ولكن القرآن يدع الأمر بعد ذلك للسماحة والفضل واليسر، فالزوجة ولوليها إن كانت صغ ة أن تعفوَ، وتترك ما يفرضه القانون، والتنازل هذه ا الة هو تنازل الإنسان الراضي، القادر العفو السمح الذي يعف عن مال رجل قد انفصمت منه عروته. ومع هذا فإن القرآن يظل يلاحق هذه القلوب كي تصفو، و لو من كل شائبة وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن ا ا تعملون بص / تفس القرط ، م ٢ ص ٢٠٤؛ الظلال، ج ٢ ص ٢١٢.

(2) آية ١٣٤ من سورة آل عمران ونص الآية: ﴿ **الذِينَ يُنفِقُونَ فِي السراءِ وَالضراءِ وَالكَاظِمِ الغَيظَ وَالعَافِ عَن الناسِ وَا يُحِب المُحسِنِ** ﴾

=

وقال تعا : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [(١)].

وَكانَ معاويةُ [(٢)] يقولُ: أنى لأنفِ أَنْ يكونَ الأرضِ جَهْلٌ لا يَسَعُهُ حِلْمِي، وَذَنْبٌ لا يسَعُهُ عَفْوِي، وحاجَةٌ لا يَسَعُهَا جُودِي. وأغلظْ لَهُ رجل أَسْمَعَهُ ما يكرَهُ وَجْهِهِ فقالَ: لَوْلا أني أ رِّع جُرْعَة قَطٌ، هِيَ أَلَذ عِنْدِي مِن جُرعَةِ غَيْظٍ وَحَنَقٍ، رَدَدْتُها بِعَفْوٍ، لَسَقيتُ الأرض مِنْ دَمِكَ، ارجِعْ إ أَهْلِكَ سَا اً. وَقَالَ أردش مَنْ عاقَبَ على الذَّنْبِ فَقَدْ عَدَلَ، وَمَنْ صَفَحَ عَنْهُ فَقَدْ تَفَضل، فاجعلْ لَكَ مِنَ العفْوِ ما تَسْتَدعِي بِهِ مِنَ ا النصْرَ، وتستنـ ـزلُ بِهِ جَميل الصُنْع.

وهذا نظ قولِ عبدِ ا ميدِ الكاتبِ [(٣)]: الانتقامُ عَدْلٌ، والتجاوزُ فَضْلٌ، وأَنا أعيذُكَ

=

تقرر هذه الآية بعض صفات ا تق ، الذين أعدت م ا نة فهم ينفقون العسر واليسر، ويعرفون حق ا أموا م ويكظمون غيظهم ويعفون عن الناس. وقد قال الإمام القرط العفو عن الناس أجل ضروب فعل ا حيث وز للإنسان أن يعفو، وحيث يتجه حقه وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفى عنه واختلف مع عن الناس فقيل هم ا ماليك وهو قول الكلا والزجاج، وقيل عن كل الناس وهذا هو ظاهر الآية.

ولقد ذكر الأستاذ سيد قطب تفس ه ذه الآية فقال: وكظم الغيظ هو ا رحلة الأو وهي وحدها لا تكفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن فيتحول الغيظ الغائر إ أحنة فائرة ويتحول الغضب الظاهر إ حقد دف ... لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك ا قد الكظيم نفوس ا تق إ ا العفو السمع العفو ا ميل/ تفس القرط ، م ٢ ج ٤ ص ٢٠٦-٢٠٧؛ ظلال القرآن، ج ٤ ص ٣٤.

(١) آية ٣٧ من سورة الشوري، وذكر الأستاذ سيد قطب تفس ه ذه الآية أ ا جاءت بعد الإشارة ا فية إ احة ا مع الإنسان ذنوبه وأخطاءه، فتحبب السماحة وا غفرة ب العباد. و عل صفة ا ؤمن أ م إذا ما غضبوا هم يغفرون/ ظلال القرآن، ج ٢٥ ص ٤٦.

(٢) هو معاوية بن أبو سفيان، ترد تر ته القسم الثا .

(٣) هو عبد ا ميد بن بن سعد، مو ب عامر، الكاتب البليغ الذي يضرب فيه ا ثل بالبلاغة فيقال: "فتحت الرسائل بعبد ا ميد وختمت بابن العميد". أصله من قيسارية، سكن الشام

=

با أنْ تَرْضَى لِنفسِكَ بأ س ا طّين، وأوكس (١) النصيب دُونَ أنْ تَبْلُغَ أعلى الدرجة .
واستشارَ ا أمونَ ا سنَ بنَ سَهلٍ (٢) قَتْل إبراهيمَ بن ا هدي (٣) فقالَ: يا أمَ ا ؤمن إنْ قتلتَهُ فَلَكَ نظ وإنْ عَفَوْتَ عَنْهُ فلا نظ لَكَ فَعفَى عَنهُ. وَمِما استُحْسِنَ مِنْ اعتذارِ إبراهيمَ بنِ ا هدي قولُهُ: إنْ بَلَغَ جُرْمِي استحلالَ دَمِي، فَحُلْمُ أم ا ؤمن وفضلُهُ، يبلغَا عَفْوَهُ و بَعْدَ ذَلكَ شُفْعَةُ الإقرارِ بالذْنبِ وَحَق الأبِ بَعْدَ الأبِ.

وقولُهُ شِعْراً:

أذنبتُ ذَنباً عَظيماً وأنتَ أعظَمُ مِنهُ
فَخُذْ قك أولاً فاصفع بِحلمكَ عَنهُ
إنْ لَم أكن في فعا مِنَ الكِرامِ فكُنهُ (٤)

وقولُهُ:

=

وكان أولاً يعلم الصبيان تقلبت به الأحوال إ أن أصبح وزيراً روان بن مد. وعنه أخذ ا ترسلون، ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا، قتل مع مروان ببوص سنة ١٣٢ هـ/ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٥٥؛ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٢٢٨؛ الفهرست، ص ١١٧.

(١) الوكس: النقص، و ا ديث: " ا مهر مثلها لأوكس ولا شطط أي لا نقصان ولا زيادة" / ا صباح ا ن ؛ تار الصحاح.

(٢) ا سن بن سهيل: هو أبو مد ا سن بن سهل الوزير. كان من بيت رياسة، أسلم أبوه خلافة الرشيد، تو الوزارة بعد أخيه الفضل، تزوج ا أمون بابنته بوران، مات بسرخس، سنة ٢٣٦/ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٨٦؛ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٨٧.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن ا هدي بن ا نصور، ويعرف بابن شكله. ولد سنة ١٦٢ هـ، ولاه الرشيد امرة دمشق مدة سنت عزله عنها، خرج خلافة ا أمون ودعا لنفسه، وبايعه أهل بغداد، ظفر به ا أمون وعفى عنه، تو سنة ٢٢٤ هـ. يسر من رأى وصلى عليه ابن أخيه ا عتصم/ وفيات الأعيان، م ١ ص ٣٩- ٤٢؛ الط ي، حوادث سنة ٢٢٤؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٩٠.

(٤) الآما ، لأ علي القا ، ج ١ ص ٢٤٣؛ العقد الفريد للملك السعيد، ص ١١١.

أذنبتُ ذنباً عظيماً	وأنتَ للعفوِ أهلُ
فَـإنْ عـفـوتَ فَـمَـن	وإنْ جـزيـتَ فَـعَـدلُ [(١)]

فَقَالَ المأمونُ: لَو لَمْ يكنْ حَق نَسَبِكَ، ما يُقومُ بالصفْحِ عنكَ، لبلغكَ مَا أملتَ: حسنُ تَنصلِكَ وَلُطْفُ توصلِكَ، وَأن ذنباً أولَهُ هفوة، وآخِرُه توبة لحَقيقٌ أنْ لا يكونَ عَلى مِثلِهِ عقوبة. وقالَ المأمونُ لإبراهيمَ بنِ المهدي لَقَدْ أشَارَ عَليَ كُلّ أحَدٍ بقَتْلِكَ، حَتى أخِي أبي إسحاقَ وابْ العباسِ فقالَ يا أمَ المؤمنِ إنهُم نَصَحوا لَكَ بِذَلكَ لوازِم الخلافَةِ، وَمَا جَرَتْ بِه أحكامُ السياسَةِ، وَلَكنْ يَأبَى أمُ المؤمنِ أنْ يَسْتَجْلِبَ النصْرَ إلا كَمَا عَوَدَهُ ا .

فَقَالَ المأمونُ: قَدْ ماتَ حِقْدِي، لِحياةِ عُذْرِكِ، وَعَفَوْتُ عَنْكَ. وأعْظَمُ مِنْ عَفْوي عَنْكَ أني لَمْ أجَرعْكَ امتنانَ الشافعِ. ثُم سَجَدَ المأمونُ طويلاً ثُمّ رَفَعَ رَأسَهُ فقالَ يا إبراهيمُ أتَدْري لِمَ سجدتُ فَقُلْتُ شكْراً لِظَفَرِك بِعدو دَولَتِكَ، فقالَ مَا أردتُ هَذا وَلكنْ شُكْراً على ما ألْهمنيهِ مِنَ العفوِ عَنْكَ فقالَ إبراهيمُ:

إنَ الذي خَلَقَ المكارِمَ حازَها	صُلْبِ آدمَ للإمامِ السّابِع
مُلِئت قلوبُ الناسِ مِنهُ مهابةً	وَيَضل يكلؤهم بِقَلْبٍ خَاشِعِ
فعفوتَ عَمن لَم يَكُن عَن مِثْلِهِ	عَفو وَلَم يَشفَع إليكَ بِشَافِعِ
وَر تَ أطفالاً كأفراخِ القَطَا	وَحن والِدِهِ بِقلبٍ جَازِعِ
رَد الحياةَ علي بَعدَ ذَهَابِهـا	كَـرَمُ المليكِ القادِرِ المتواضِعِ [(٢)]

فقالَ المأمون: لا تثريبَ عليكَ قَدْ عفوتُ عنكَ، وَرَددتُ مالَكَ وضياعَكَ. فقالَ ذلك:

(١) المستجاد من فعلات الأجواد، ص ٨١.

(٢) المستجاد من فعلات الأجواد، ص ٨٢- ٨٣، مع اختلاف البيت الثا . وذكر الط ي تار ه، ج ١١ ص ١٠٧٩، هذه الأبيات غ مرتبة مع اختلاف بعضها كالاختلاف الحاصل البيت الرابع فقد ذكره:

فر ت أطفالا كأفراخ القطا	وعويل عانسة كقوس النازع

.

رَددتَ ما و تبخلْ علي بِهِ ... وَقبلَ رَدكَ ما قَد حَقَنتَ دَمي
فأبتُ عنكَ وَقد خَوّلتَ نِعماً ... ا ا ياتان مِن مَوتٍ وَمِن عَدَمِ
فلو بذلتُ دَمي أبغي رِضاكَ بِهِ ... وا ـال حَ أسل النعلَ مِن قَدَمي
ما كانَ ذاكَ سِوَى عارِيةٍ رَجَعت ... إليكَ لو لَم تُعرها كُنتَ لَم تُلَمِ
فإنْ جحَدتُكَ ما أوليتَ مِن نِعَم ... إني لَفي اللوم أحظى مِنكَ الكرم[1]

وكانَ إبراهيمُ بنُ ا هدي قَدْ ادعَى الإمامَةَ لِنفْسِهِ، زَمنِ ا أمون وبُويعَ لَهُ ببغدادَ، وَمكَثَ عَلى ذلكَ مَدّةً وأصحابُ ا أمون يُحاربونَه إ أنْ ظَفِروا بِهِ فعَفَى عَنْهُ كَمَا تقدمَ. وَكانَ إبراهيمُ يقولُ: وا ما صَفَحَ ا أمونُ عني صِلةً لِر ِي، وَلكنْ طارَ لَهُ اسْمُ العفوِ، فَأَحَب أنْ يُسْدِيهِ إ .

وكانَ ا أمونُ يقولُ: لَقَدْ لَذِ لَيَ العفُو حَ حسبَتَ لا أثابُ عليهِ.

وَكَتبَ معمرُ مولَى سليمانَ مِن ا بسِ إ الرشيد: ليست عِقا إذا كنت سقيماً بأعظَم ثواباً مِنْكَ يلِتِي إنْ كُنتُ بريئاً.

وقالَ أردَشِ : وَجَدْنا للذة العَفوِ مَا لَمْ نَجِدْ لِلَذةِ العقوبةِ. وَأمر ا جاجُ بقتلِ أقوام، فَلما قُدمَ أحَدُهُم لِلْقتلِ بَعْدَ قَتلِ اعةٍ مِنْهُم، قَالَ: وا لأنْ كُنا أسأنا الذَنبِ، فما أحْسَنْتَ العَفوِ فقالَ ا جاجُ أمّا كانَ هؤلاءِ ا يفِ مَنْ يُحْسِنُ مِثْلَ هذا وَعَفى عَنْهُ وعمنْ بَقِيَ مِنْهُم. وقالَ عَبْدُ الصمَدِ [2] للّسفاحِ: إذَا قَتلتَ أكفاءك فبمنْ تباهي لمكَكَ.

وَقالَ معاويةُ: أوْ الناسِ بالعفوِ "أقدرُهم على العقوَبِة".

وقالَ عَبْدُ ا لكِ بنُ مروانَ [3]: أحق الناس بالإحْسَانِ مَن أحْسَنَ ا إليهِ وأولاهُم

---

(١) ا ستجاد من فعلات الأجواد، ص ٨٣، مع اختلاف البيت الأخ ، زهر الآداب، ج ١ ص ٥٧٠؛ وذكر الآما ، ج ١ ص ٢٤٣، الأربعة الأو ، وأغفل البيت ا امس.

(٢) هو عبدالصمد بن علي بن عبدا بن عباس، ولد سنة ١٠٤هـ، وكان القرب لعبد مناف نـزلة يزيد بن معاوية. و إمرة دمشق وا وسم وا دينة والبصرة، تو سنة ١٨٥هـ/ شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٠٧؛ النجوم الزاهرة، ج ١٠ ص ١٨٦؛ ا ختصر أخبار البشر، ج ٢ ص ١٦؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ١٨٦.

(٣) عبدا لك بن مروان ا ليفة الأموي، ترد تر ته القسم الثا .

بالعفوِ مَنْ بَسَطَ ا ُ بالقُدْرَة يَدَيْهِ.

وقالَ ابن ا عتز: كَفى بالظفَرِ شَفيعاً لِلْمذِنب إ ا ليم. وَقَالَ: حَسْبُكَ مِنْ عدوّك ذُلُّهُ قدرتكَ. وقالَ أيضًا: مَا عَفَى عَنِ الذْنب مَنْ قُرع ِبهِ. وقالَ: لا ُتشِن وَجهَ العفو بالتأنيب. وقالَ آخرُ: أو السائلَ بالإسعافِ مَنْ طَلَبَ العفوَ وقالَ آعف عَمّن أبطأ بالذْنبِ وأسْرَعَ بالندَمِ. وَقالَ الأم ُ شَمْسُ ا َعا : العفُو عَنِ ا رمِ مِنْ واجبِ الكرَمِ، وقبولُ ا عذرةِ مِنْ اسِنِ الشيَم، قِيلْ: اعْتذَرَ أ َ دُ ِبنُ هِشام الكاتبِ إ أ دَ ب أ خالدٍ[1] ِبعُذرٍ فقالَ لَهُ أ دُ ْبنُ خالِدٍ: وا ِ لا قبلتُ عذرَكَ حَتى أُسيئَ إليكَ. قالَ ابنُ هِشام: وا ِ لأنْ فعلتُ لاستعديتُ عليكَ إلا نَفْسَكَ ولا أطْمَعِني فيكَ إلا ظُلْمُكَ. فاستحيا مِنْهُ وَقبلَ عُذرَهُ. وقالَ بعضُ الْبلغاءِ: ليس مِنْ عادَةِ الكِرامِ إسراعُ الانتقامِ، ولا مِنْ شَرْطِ الكرامِ إزالةُ النعَمِ، ولا تأخُذْ بالسهوِ ولا تَزْهَدْ العفوِ وارحمْ منْ دُونَك ير ْ كَ مَنْ فَوقَكَ.

وَهذا ا عْ قريبٌ مِنْ قَولِ النَ صلىَ ا ُ عليهِ وسلمَ: "الرا ونَ يرحَمُهُمُ الر نُ: ارْحَموا مَنْ الأرضِ ير ُ كُم من السماء"[2]. وَقَالَ بَعْضُ ا ُكماءِ: عَفوُ ا لوكِ أبقَى للمِلْكِ.

---

(١) هو أ د بن أ خالد الأحول، وزير ا أمون، كان جليل القدر من عقلاء الرجال بص اً بالأمور كاتباً بليغاً، مات حتف أنفه سنة ٢١٠ هـ/ الفخري الآداب السلطانية، ص ٢٢٤- ٢٢٥.

(٢) سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢١٧، وقال حديث حسن صحيح؛ سنن أ داود، ج ٤ ص ٢٨٥؛ السنن الك ى، م ٩ ص ٤٠، تكفل ا ن رحم عباده بالر ة منه ومن ملائكته ور ة ا لائكة لأهل الأرض دعاؤهم م بالر ة وا غفرة والر ة مقيدة باتباع الكتاب والسنة، فإقامة ا دود والانتقام رمة ا تعا لا ينا كل منهم الر ة/ عون ا عبود، شرح سنن أ داود، ج ١٣ ص ٢٨٥.

فَصْلٌ: واعلمْ أنهُ ليسَ لِسُرْعَةِ الانتقامِ وتعجيلِ العقوبةِ والإعراضِ عَنِ الصفحِ وقلّةِ الرَّغبَةِ العفوِ سبب سوى قوةِ الغضب، فلنذكُرْ منهُ جُمَلاً موجزةً:

قالَ رسول ا ِ صلى ا ُ عليهِ وسلم: "ليس الشديدُ بالصرعةِ إنما الشديدُ الذي يمْلِكُ نفْسهُ عِند الغضبِ"[١].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "منْ كَظَمَ غيظاً وهُو يقدِرُ أنْ ضيهِ ملأ ا ُ قلبهُ أمناً وإ اناً"[٢]. وقالَ صلى ا ُ عليهِ وسلّم: إذا غَضِب أحدُكُم وكانَ قائِماً فليقْعُدْ أوْ كانَ قاعِداً فليضطَجِعْ[٣]. وقَالَ عليْهِ السلامُ: "إذا غضِبْت فَاسْكُتْ"[٤]. وقَالَ لَهُ

(١)صحيح البخاري، ج ٨ ص ٣٤؛ صحيح مسلم، ج ٨ ص ٣٠؛ موطـأ مالـك بشـرح الزرقا ، ج ٤ ص ٢٦٠؛ مسند أ د، م ٢ ص ٢٣٦. ومع ا ديث أنه ليس القوي هو الذي يصرع الرجال، بل القوي هو الذي يصرع غضبه، فيكظمه و لك نفسه ثـورة الغضب، فهذا هو صاحب القوة لأن قهر النفس شيء صعب، فإذا تغلب عليها يكون قـد قهر أقوى أعدائه وشر خصومه.

(٢)سنن أ داوود، ج ٤ ص ٢٤٨ باختلاف بعض الألفاظ؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٥، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣)سنن أ داوود، ج ٤ ص ٢٤٩؛ مشكاة ا صابيح، ج ٣ ص ١٤١٥؛ مع الزوائد، ج ٨ ص ٧٠، أمر الرسول صلى ا عليه وسلم بالقعود عند الغضب، لأن القائم متهيئ للحركة والبطش والقاعد دونه هذا ا ع وا ضطجع نوع منهما فيشبه أن يكون الرسول صلى ا عليه وسلم أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يبدر منه حال قيامه وقعود ما يندم عليه؛ عون ا عبود، شرح سنن أ داوود، ج ١٣ ص ١٤٠.

(٤)ا امع الصغ ، ج ١ ص ٣١، وقال: حديث حسن؛ مسند أ د، م ١ ص ٢٨٣ عن ابن عباس.

رجُلٌ: أوصِني، قال: لا تغْضبْ(١).

وقِيلَ: الغضبُ غُولُ العقْلِ. وقيلَ: الغضبُ مفتاحُ الشرِ. وقال بعض ا كماءِ: الغضبُ يُفْسِدُ الإ انَ كما يُفْسِد الصْبُر العسل. وقيلَ: إذا دخلَ الغضبُ على الرجُلِ العاقِلِ الورعِ، أذْهب مِنْهُ العقلَ والورع، فكيف بِمنْ لا عقْلَ ولا ورع.

وقالَ سهْلُ بنُ هارونَ(٢): ثلاَثة مِن ا ان ِ وإنْ كأنُوا مِن العقلاءِ: الغْيرانُ والغضبانُ والسكرانُ. وقالَ ابنُ ا عتز: الغضبُ يُصدِي العقلَ، ح لا يرى صاحبه صورة حسن فيفعلَه ولا صورة قُبح فيجتنبهُ وقالَ: أولُ الغضبِ جُنونٌ وآخِرُهُ ندم. وقالَ: لا ملنك ا َنقُ على اقترافِ إ ، فُتشفَى غيضك وتسْقِم دينك. وقالَ: قوةُ ا ُلْمِ على الغضبِ أفضل مِنْ قُوةِ الانتقامِ. وقالَ: أبقِ لرضاك مِن غَضبِك. وقالَ بعضُ ا ُكماءِ رأسُ الأدب قَطْعُ الغضبِ. وقالَ: أسرعُ الناسِ جواباً منْ لَمْ يغْضبْ. وقالَ آخرُ: منْ يمْلِكُ غَضبهُ ويكظِمُ غَيظهُ فَقَدْ كَمُلَ عقْلُه.

وقالَ بعضُهم: التباعُدُ مِن غَضبِ ا ِ أنْ لا يغضب العبدُ، فَإن بدءَ الغضبِ مِن الكِبْرِ وا ميّةِ والانفةِ. قالَ أبو الدرداءِ(٣): أقربُ ما يكونُ مِن العبدِ غضبُ ا ِ تعا إذا غَضب. ونظَر عبدُالر ن بنُ مُحمّدٍ إلى الرشيدِ وقدْ اشتد غَضَبُهُ على رجُلَ،

(١) صحيح البخاري، ج ٨ ص ٣٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٥٠- ٢٥١، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد تكلم الإمام الغزا الاحياء عن الغضب وب أسبابه وحقيقته وعلاجه فل جع إليه هناك.

(٢) سهل بن هارون: هو أبو عمرو سهل بن هارون بن راهابون من أهل نيسابور، انتقل إ البصرة وخدم ا أمون فكان صاحب خزانة ا كمة، وكان حكيما فصيحاً شاعراً فارسي الأصل، شعو ا ذهب شديد التعصب على العرب، له مصنفات تدل على بلاغته وحكمته، كانت وفاته بعد عام ٢٠٠ هـ. سرح العيون، ص ٢٤٣؛ فوات الوفيات، ج ٢ ص ٨٤؛ الفهرست، ص ١٢٠.

(٣) هو عو ر بن مالك وقيل عامر بن مالك وعو ر لقب ا زرجي الأنصاري أسلم بعد بدر وكان فقيهاً عا اً حكيما، آخى الرسول صلى ا عليه وسلم بينه وب سلمان الفارسي، وشهد ما بعد أحد من ا شاهد، و قضاء دمشق عاوية خلافة عثمان، تو سنة ٣١ هـ. الاستيعاب، ق/ ٤ ص ١٦٤٦؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٩.

فَخاف أنْ يستفزهُ الغضبُ، فقالَ يا أم ا ؤمن إنما تغْضبُ فلا تغضبْ ا (لا تغضبُ بِهِ لنفسِك فيغْضب عليك).

و بعضِ كُتبِ ا ا نـزلةِ: يا ابن آدم اذكُرني ح تغْضبْ أذكُرك ح أغضبُ.

(وقالَ بعضُ ا كماءِ: احتمالُ الصبْرِ عِنْد الغضبِ أَسْلَمُ من إطْفائِهِ) بإظهارِ السفهِ. وقيلَ: ينْبغي للسُلْطانِ العجُولِ أنْ يحْذَر الطيش والغضب وا د، فإن السلطانَ الغضُوب ا فرطَ العقوبةِ يُهْلِكُ نفْسهُ وسلطانهُ ورعيتهُ.

ودفَع أردش إ رجل كانَ يقومُ على رأسِهِ ثلاثةَ كُتب، وقالَ: إذا رأيت وقَدْ اشتد غَضبِي علَى أحدٍ فادفعْ إ الكتاب الأولَ، الثانِي، الثالثَ، فاشتد يوماً غَضبُهُ على رجُل فَدفَع إليهِ الأولَ فإذا فيه أَمسكْ فإنك لَسْت بِإلهٍ، وإنما أَنت جسد يوشِكُ أنْ يفنى، ويأكلَ بعضُك بعضاً، ودفَع إليه الثا فإذا فيه أرحِمْ العباد، تُرْحمْ ا عادِ، ودفَع إليهِ الثالثَ فإذا فيه ا لْ ا لق على ا ق، فلا يسعُك إلا ذلك. قالَ معاويةُ: ما غَض على منْ لا أملِكُ وما غَض على منْ أملِكُ.

فَصْلٌ:
الانتقامِ مِمنْ يجريهِ العفوُ
على الاقتحامِ ا رائِمِ والآثامِ

قالَ بعضُ البلغاءِ: لا يكنْ عفوُك وإغضاؤُك سبباً للجراءَةِ عليك، وعلةَ الإساءَةِ إليك، فإن الناس رجُلاَنِ، عاقلٌ يكْتفي بالعذْلِ[1] والتأنيبِ، وجاهِلٌ يُحوجُ إِ الضرْبِ والتأديبِ. وقالَ: العفوُ احتمالُ الذْنبِ الذي لا يكونُ عنْ عمْدٍ، ولا يقضِي بوجوبِ حد، فأما الذْنبُ الذي يُرْكَبُ عمداً ويوجِبُ حدّاً فذلك ما لا تحمِلُهُ السياسةُ ولا تطابِقُهُ الشريعة. قالَ رسولُ ا صلى ا عليهِ وسلم: "أقيلوا ذَوِي ا يئاتِ عثراتِهم إلا ا دودِ"[2]. قالَ ا نصورُ: إذا كانَ ا لْمُ مفسدةً، كانَ ا كْمُ

(١)عذلته عذلاً: تهْ فاعتذل، أي لام نفسه ورجع. ا صباح ا ن .

(٢)سنن أ داوود، ج ٤ ص ١٣٣؛ السنن الك ى، م ٨ ص ٣٣٤؛ كشف ا فاء، ج ١ ص ١٨٣. وقال الشافعي: ذوو ا يئات الذين يقالون عثرا م الذين لا يعرفون بالشـر يـزل =

مْعجزةً. وقيلَ: منْ عفى عمنْ يستوجبُ العقوبةَ، كانَ كَمنْ عاقَب منْ يستوجِبُ ا ثوبةَ، وقيلَ: العفوُ يُفْسِدُ من اللئيمِ، بقدر ؟ا يُصْلِحُ مِن الكر .

قال أبو الطّيِّبِ ا تن :

إذا أنتَ أكْرَمْتَ الكر َ مَلَكْتَه وأنْ أنتَ أكْرَمْتَ اللئيم تَمَردا

مُضِر كَوَضْعِ السّيْفِ وَوَضع الندى مَوْضَع السيفِ بِالْعُلى ؟وضِعِ النّدَا[1]

وقالَ أيضاً:

إذا قِيلَ رِفقاً كانَ للحِلمِ موضِع وَعِلْمُ الف غ ـ موضِعِهِ جَهـ ْـل[2]

وهذا مِنْ قولِ ؟للأحنفِ بنِ قيس، قيلَ لَهُ: أين ا ـلِمُ، فقالَ: عِند ا صي.

وقال أم ا ؤمن علي بنُ أ طالبٍ عليهِ السلامُ: ؟السيفُ أ َ ى عدداً وأكثَر ؟ولَداً.

وقولُهُ: القتلُ أنفَى لِلقتلِ. وهُو مع قَولِهِ تعا : **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**[3] ولَمّا أنشد النابغةُ ا عدي[1] رسُولَ ا ـ صلى ا عليه وآلِهِ وسلم،

=

أحدهم زلة.

(١)ديوان ا تن بشرح ا قوقي، ج ٢ ص ١١، ومع البيت : أن الكر يقدر الإكرام، فـإذا أنت أكرمته صار كأنه لوكاً لك. أما اللئيم فإنك إذا أكرمته زاد عتواً وجراءة عليـك. ويب البيت الثا ما ب أن يعامل به الناس فمن استحق العطـاء يسـتعمل معـه السيف ومن استحق القتل يكرم بالعطاء، ومن فعل هذا أضر بعلاه، وهدم أركان دولته.

(٢)ديوان ا تن بشرح ا قوقي، ج ٣ ص ٣٠٥. ومع البيت: أنه إذا طلب إليه الرفق ساحات الوغى وا رب قال، قال: موضع ا لم والرفق السلم أما ا رب فلا رفق فيها وا تحلم فيها جاهل أ ق يضع الشيء غ موضعه. والشطر الأول من البيت الديوان:

إذا قيل رفقاً قال للحلم موضع ....

(٣)آية ١٧٩ من سورة البقرة. ومع الآية الكر ة: أن القصاص إذا أقيم و قق ا كم فيه، ازدجر من يريد قتل آخر، افة أن يقتص منه فيحييا بذلك معاً. وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر ى قبيلا ا، وتقاتلوا وكان ذلك داعيا إ القتل الكث ، فلما شرع ا

=

القصاص قنع الكل به، فلهم ذلك حياة. وقال أبو العالية: جعل ا القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه افة أن يقتل. وكذا روي عن اهد وسعيد بن جب وا سن وغ هم. ولا شك أن هذه الآية أبلغ قولاً وأحسن بياناً وتفصيلاً وأوجز لفظاً ا كانت العرب تعتـ ه قمة البيان، و قو م السابق: القتل أنفى للقتل، فها هو صاحب كتاب العقد الفريد للملك السعيد يعقد مقابلة بـ قول العرب وبن ما صرحت به الآية. فيقول:

أ ع أرباب علم ا عا والبيان، على أن قو م: القتل أنفى للقتل أوجز كلمة كانت العرب تستعملها ويعدو ا واسطة عقد الإ از و مدو ا بلسان التفضيل والامتياز، فلما نـزل القرآن الكر وفيه قوله تعا : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ وقرعت آياته أ اعهم وقطعت فصاحته عن معارضته أطماعهم، أذعنوا له واعترفوا برجحان قول ا ا فيه من الكشف والبيان، والتكملة والإيضاح وأوجه التفضيل هي سة أمور:

الأول: أن قوله القصاص حياة، عري عن تكرار اللفظ، خلى عن إعادته، وقو م القتل أنفى للهول، مشتمل على تكرار لفظ القتل، وذكرها مرتـ والتكرار يسقط فصاحة الكلام وجزالته. الثا : أن الآية أوجز وأخصر العبارة وأقل تطويلاً فإن حروفها أقل عددا من حروف قو م.

الثالث: أن قول ا أحسن تأليفاً للحروف ا باينة، فإن ا روج عند النطق من الفاء إ اللام، قوله تعا القصاص أعدل من ا روج من اللام إ ا مزة، قو م القتل أنفى، وهي آخر القتل وأول أنفى، لبعد رج ما بـ ا مزة واللام، وكذلك أيضاً ا روج من الصاد إ ا اء آخر القصاص وأول حياة، أعدل من ا روج من الألف إ اللام، وهي آخر أنفى ولام تعريف القتل، إذ ا مزة تسقط وحسن تأليف ا روف أدخل الفصاحة.

الرابع: اشتماله على إقامة العدل والإنصاف بذكر القصاص الدال على ا ساواة، فإن القصاص مأخوذ من التساوي، ومنه ي ا قص مقصاً لاستواء جانبيه واعتدال طرفيه، ولا كذلك لفظة القتل، وما كان مشتملا على إقامة العدل والإنصاف كان أرجع.

ا امس: تصر ه بالغرض ا طلوب ا رغوب فيه، وهو ا ياة ولا كذلك قـو م فظهـر ـ ذه

قوله:

ولا خَيْرَ حلم إذا لَم تَكنْ له بوادرُ تَحْمِي صفوَهُ أن يكَدرا
ولا خيرَ في جهل إذا لَم يكنْ لَهُ حليم إذا ما أوْرد الأمرَ أصدرا[2]

فقالَ لَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لا يفُضَ فاك".

وللنعمانِ بن المنذِرِ[3]:

تَعفُو الملوكَ عَن الكبيرِ مِنَ الذنوبِ لِفضلِهَا
وَلَقَدْ تُعاقِبُ في القليل وليس ذلك لِجهلها
إلا ليُعرَفَ فضلُها ويُخافُ شدةُ نكْلِهَا

= الوجوه تفضيل أدلة الرجحان وتفضيل المجاز والإيجاز. العقد الفريد للملك العبد، ص ١٤٩ - ١٥٠؛ تفسير القرطبي، م ١ ج ٢ ص ٢٥٦؛ تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٢١١.

(١)هو قيس بن عبد الله بن عدس، يكنى أبا ليلى أحد القدماء المشهورين والشعراء المخضرمين، أقام ثلاثين سنة منقطعاً عن الشعر، ثم نبغ فيه ومن هنا سمي بالنابغة، وكان ممن أنكر الخمر والأوثان في الجاهلية. ورد على النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه بقصيدته التي مطلعها:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: فأين المظهر يا أبا ليلى، فقال إلى الجنة. فلما أتم القصيدة دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: "أجدت سلم فاك" وشهد مع الإمام علي كرم الله وجهه صفين وظاهره بيده ولسانه، توفي سنة ٥٨ هـ بعد أن عمر ١٨٠ سنة. الإصابة، ج ٣ ص ٥٣٧؛ تاريخ الطبري، ج ١٣ ص ٢٣٩٧؛ الشعر والشعراء، ج ١ ص ٢٨٩.

(٢) نهاية الأرب، ج ٦ ص ٥٦؛ إنسان العيون (السيرة الحلبية)، ج ٣ ص ٣٧١؛ معجم الشعراء، ص ١٩٥؛ الشعر والشعراء، ج ١ ص ٢٨٩.

(٣)هو أبو قابوس النعمان بن المنذر بن امرئ القيس أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية وهو ممدوح النابغة الذبياني، كان له يومان: يوم بؤس ويوم نعيم. وقتل عبيد بن الأبرص الشاعر يوم بؤسه وكان أتاه يمدحه ولم يعلم أنه يوم بؤسه. المعارف، لابن قتيبة، ص ٢٨٣؛ تاريخ اليعقوبي، م ١ ص ٢١٢- ٢١٤؛ الكامل في التاريخ، م١ ص ٢٨٦.

وقال آخرُ:

فلا يغـررْكَ طولُ ا لم ؟ـ ـ　　فمـا ا أبـداً تصادِفُني حَليمَا[١]

وقال آخرُ:

َبطِرتُم فطِرْ　والعصا زجْرُ مَن عَصا　وتقوُ عبدِ ا ون با ّون رادِعِ[٢]

وقال بشار:

ا رُ يُلحىَ والعصا للعبدِ[٣]　..........................

وقال ابنُ دريدٍ[٤]:

واللوْمُ لِلحُر مُقيم رادِع　والعبْدُ لا يردَعُهُ إلا العَصَا

باب (ذكِر) الأناةِ
وذم العَجِلة الأمورِ ا لا يستعقِبُ
فو ا ضرر ولا يُخشَى من تَأخ ِهَا غَرَر

قالَ رسولُ ا ِ صلَى ا ُ عليهِ وسلّم لأشج عْبدِ القيسِ[٥] إن فيك خصلتـ ِ

(١) التمثيل وا اضرة، ص ٤١٣؛ ا لخلاة، ص ١٣٣.

(٢) خاص ا اص، ص ١٥٩؛ زهر الآداب، ج ١ ص ٢٦٩؛ التمثيل وا اضـرة، ص ١٢٢ منسوب إ أ الفتح علي بن مد ا سـ بن العميد.

(٣) ديوان بشار، ج ٢ ص ٢٢٤؛ الشعر والشعراء، ج ١ ص ٣٥٥.

(٤) هو أبو بكر مد بن ا سن بن دريد بن عتاهية الأزي. ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ هـ ونشأ ا، وسكن عُمان عاد إ البصرة ورحل نواحي فارس وصحب ابن مكيال فقلـده ديوان فارس فأفاد مالا عظيما إلا أنه لسخائه يكن سك در أً، انتقل إ بغداد سنة ٣٠٨ هـ واتصل با ليفة ا قتدر با ، فأجرى عليه سـ ديناراً كل شـهر، تـو ببغداد سنة ٣٢١ هـ. وفيات الأعيان، م ٤ ص ٣٢٣؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ٢٨٩؛ النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ٢٤٠؛ تاريخ بغداد، ج ٢ ص ١٩٥.

(٥) اختلف ا ه فقيل هو عبد ا بن عوف الأشج، و الاستيعاب هو ا نذر بن عائذ بـن ا نذر بن النعمان من عبد القيس يعرف بالأشج سيد قومه وقائدهم إ الإسلام وفد علـى
=

بهُما ا ُ: ا لمُ والأناةُ[١]. وقالَ علَيهِ الصلاةُ والسلامُ "التوءدةُ والاقتصادُ والتثْبتُ جُزءٌ من سِتةٍ وعشرين جُزءاً من النبوّةِ"[٢].

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ "منْ تأنّى أصاب أو كاد، ومنْ عجلَ أخطأَ أو كاد". (وقالَ) الأناةُ حِصْنُ السلامةِ والعجلَةُ مِفتاحُ الندامةِ (وقالَ): منْ ركِب العجلَ أدْرك الزلَلَ.

قال القِطامي[٣]:

قدْ يُدْرِكُ ا تأنى بعضَ حاجتِهِ وَقدْ يكونُ مَعَ ا ستْعْجِلِ الزللُ

وقيلَ: التأ الأمورِ أولُ ا زمِ والتسرعُ الأمورِ ع ُ ا هْلَ.

وقيلَ: إذا ُتدركُ ا اجةُ بالرفقِ والدوامِ فَبأيّ شيءٍ تدْركُ.

وقيلَ: منِ استعملَ الرفق غنم، ومن استعملْ ا رق ندِم، ومن اقتحم الأمور لقي ا ذور، العجولُ مُخْطِئٌ وإنْ ملك، وا ُتأنِي مصيب وأنْ هلَك.

وقال ابنُ ا عتز: العجلَةُ تضمن العثْرةَ بكُلّ مكررهِ. وقال: ا رقُ بالرفقِ يلحمُ.

=

رسول ا ، صلى ا عليه وسلم، فقال له: "إن فيك خصلتا بهما ا ا لم والأنــاة"/ ا عارف، ص ١٤٧؛ الاستيعاب ق/ ٤ ص ١٤٤٨.

(١) السنن الك ى، م ١٠ ص ١٠٤؛ سنن ابن ماجه، ج ٢ ص ١٤٠١؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٤٧؛ مسند أ د، م ٤ ص ٢٠٦، وفيه ا لم وا ياء.

(٢) سنن الترمذي، ج ٣ ص ٢٤٧، ونص ا ديث (السمت ا سن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة) وقال حسن غريب ومع هذا ا ديث أن هذه ا لال من ائل الأنبياء وخصا م، وليس مع ذلك أن النبوة تتجزؤ ولا أن من ع هذه الأجــزاء كان فيه جزء من النبوة فإن النبوة غ مكتسبة ولا تلبة بالأسباب إ ا هي كرامة من ا تعا . وا ديث ذكره البخاري الأدب ا فرد بلفظ (ا دى الصا والسمت والاقتصاد جزء من سبع جزءاً من النبوة) فضل ا الصمد توضــيح الأدب ا فــرد، ج ١ ص ٥٥٥.

(٣) القطامي: هو عم بن شيم، من ب جشعم شاعر غزل، عده ابن سلام من الطبقة الثانيــة من شعراء الإسلام/ طبقات فحول الشعراء، ص ٤٥٢.

وقالَ غ ُ ه: (بالتأ) تُدرِكُ الغرض.

فَصلٌ:
اعلمْ أن الأناةَ
إ ا قُصِدت للاستظهار والاستبصارِ

والنّظَرُ العواقِبِ، وانفساحُ مذاهِبِ الرأي ا طالب، وبصْرُ أحْسنِ الأمرين، وأ ج ا سلك ، وعند العجلة وا غافصة يُفوّتُ ذلك (فا واطرُ) كاا وقِ ا واطِفِ ليس ا ثبات، فربما لاح لَهُ رأي وخطَر لَهُ فِكْر فَعمِلَ بِهِ قبلَ التّثبتِ والتأمّلِ، ثُمّ يتبُ لَهُ بعْد ذلك أن الصواب كانَ غ ِه، فيندمُ ح لا يُغنِي الندمُ ولا ينفعُ السدمُ[1]، فأما ما وضُح فيه وجهُ الصوابِ السّدادِ وأمن عواقِبه دواعي الفسادِ، فينبغي أنْ ينتهز فيِه الفرْصةَ عِند إمكانِها ويبادرها قبلَ تعذرِها وفواتِها.

قالَ السفاحُ: الأناةُ مودة إلا عِند إمكانِ الفرصةِ. وقَالَ غ ُه الفُرصُ ر مر السحابِ. وقَالَ آخرُ: رعْ مِنْ عدوك الغُصةَ، إ أنْ تجِد الفرصةَ فإذا وجدتها فانتهزْها قبلَ أن يفوتك الدركُ أو يعينه الفُلْكُ.

قال الشاعِرُ:

وإنْ فرصة أمكنتْ مرةً فلا تُبدَ فعلك إلا با

فإن تا ـج بآبهـا مُسـرعاً أتـاكَ عـدوكَ مـن بابِهـا(٢)

ولآخر:

إذا هبّتْ رياحُك فاغتِنمها فعق كُل عاصِفةٍ سكونُ

ولا تَغْفُـل تداركَهـا سريعاً فما تدري السَكونُ م يكون(٣)

ولابنِ الرومي[1]:

---

(١)السدم بفتحت الندم وا زن، ورجل سادم نادم، وسدمان ندمان/ تار الصحاح.

(٢)ديوان ابن ا عتز، ص ٣١. غرر ا صائص، ص ٢٠٤. ا لة الس اء، ج ١ ص ٣٤.

(٣)ديوان الإمام علي بن أ طالب، ص ١٢٦. اية الأرب، ج ٦ ص ١٣٨. قوان الوزارة، ص ١٥٦.

عيبُ الأناةِ وإن كانت مباركةً أنْ لا خلودَ وأنْ ليسَ الفَتى حَجَراً[٢]

قيلَ: من غافص الفرص أمِن الغصص. "وقيلَ إذا كانَ ا وتُ غ مأمونِ طرفةَ ع فمن ا رقِ تأخ ما أمكن" قالَ بعضُ ا كماءِ: من انتظر الفرصةِ، مؤاجلةَ الاستقصاءِ سلبتُه الأيامُ فرصته لأن صِناعةَ الأيام السلب وشرط الزمان الافاتة".

باب
إيثارِ السلمِ وا وادَعَةِ
على ا ربِ وا نازعةِ وكيفية الدخولِ على ا ربِ عِندَ ا ملِ عَليهَا والاضطرارِ إليهَا

اعلمْ أن السلم بابُ السلامةِ وسببُ الاستقامةِ.

قالَ الثعال : السلْمُ سُلمُ السلامة. قَالَ غ ه: اغْمِدْ سيفَك ما ناب عنه لسانُك واستعمِلْ عدوك ما مال به إحسانُك. وقيلَ: مِنْ أتم النصْح الإشارة بالصلْحِ. وقالَ بعْضُهم منْ استصلَح عدوهُ زاد عددِهِ ومن استفْسد صديقَه نقص مِنْ عددِهِ. و الزبورِ: منْ كثُر عدوهُ فليتوقْع الصرْعةَ. وقالَ داودُ[٣]، عليه السلامُ:

=

(١)هو أبو ا سن علي بن العباس بن جريج، ا عروف بابن الرومي، الشاعر ا شهور، صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، ولد سنة ٢٢١ هـ ببغداد، وتـو سـنة ٢٨٣ هـ مسموماً. وفيات الأعيان، م ٣ ص ٣٥٨. شذرات الـذهب، ج ٢ ص ١٨٨. البدايـة والنهاية، ج ١١ ص ١٧٤.

(٢)ديوان ابن الرومي، ج ٣ ص ١١٤٧.

(٣)هو داود بن ايشا بن عوبد بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم، آتـاه ا ا لـك والنبوة، بعد طالوت، فلما اجتمعت بنو اسرائيل على داود، بعد أن كان ملكاً على بـ ياهوذا خاصة أنـزل ا عليه الزبور، وعلمه صنعة ا ديد، وآلانه له و يعط ا فيمـا يذكرون أحداً من خلقه مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور فيما يذكرون ترنو له الوحش ح يأخذ بأعناقها، وكان شديد الاجتهاد دائب العبادة كث البكاء كما وصفه ا عز وجـل القرآن: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوابٌ** ﴾، [سورة ص: آية ١٧]. الط ي، ج

=

لا تشترِ عداوةَ واحدٍ بصداقةِ ألْفٍ.

قالَ الشاعرُ:

وليسَ كثـ اً ألفُ خِل وصاحِبٍ وإن عَدُواً واحِداً لكثـ ُ[١]

وقالَ بعضُهم: لا تفتحْ باباً يعيُيك سدهُ، ولا تُرْسِلْ سهماً يُعْجِزُك ردهُ، ولا تُفْسِدْ أمراً يعييك إصلاحُه، ولا تُغْلِقْ باباً يُعجزُك افتتاحُهُ.

وقيلَ: لا لا يغرنك ا رتقى السهلُ إذَا كانَ ا نحدرُ وعراً. وقيلَ: توق كُل التوقي ولا حارِس مِن الأجل، وتوكل كل التوكُل ولا عُذْر التغرير[٢]. ومِنْ كِتاب كَليلةَ ودمنةَ أرْبعة لا يركبُها إلا أهْوجُ ولا يسْلمُ منها إلا القليل، مناجزةُ العدُو، وركوبُ البحرِ، وشربُ السمِ للتجرِبة وأئتمانُ النساءَ على الأسرارِ[٣]. وفيهِ أيضاً القليل مِنْها كث النارِ والعداوة وا رض. وقيلَ: كُل شيءٍ يُنفَقُ عليهِ مِن ا ال، إلا ا ربُ فإن النفقةَ عليها من النفوس.

قال الشاعر:

كم ب فوم إ ا نفقا ـ ـ ـم مال وفوم ينفقون نفوسـ ـا[٤]

وكان السلف، رضي ا عنهم يستحسنون قول عمرو بن معدي[٥].

=

١ ص ٥٥٩-٥٦٦. اليعقو ، م ١ ص ٥١. ا عارف، ص ٢١.

(١)ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ص ٢٤٨. الصـداقة والصـديق، ص ١٣٣. أدب الـدنيا والدين، ص ١٨٢، ونسبة لابن الرومي. ا وشى أو الظرف والظرفاء، ونسبة إ علي بـن أ طالب، كرم ا وجهه ديوان الإمام علي بن أ طالب، ص ٦٧.

(٢) قوان الوزارة ص، ٤٥. وهذا القول مع حديث (لا يغـ حـذر مـن قـدر). رواه السيوطي، ا امع الصغ ، ج ٢ ص ٢٠٥.

(٣)كتاب كليلة ودمنة، ص ١٣٧. وفيه قالت العلماء إن ثلاثة لا ترئ عليهن إلا أهوج، ولا يسلم منهن إلا قليل وهي صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار وشـرب السـم للتجربة. التمثيل وا اضرة، ص ٤٧١. جة ا الس، ق ٢ / ٢ ص ١٢٩

(٤)ديوان أ ام، ص ١٥٥.

(٥)وهو عمرو بن معد كرب بن عبد ا الزبيدي، وكنيته أبو ثور، وفد على رسول ا صلى

ا ـرْبُ أولُ ما تَكُونُ فَتِيةً تَسْعى بِزينَتِهَا لِكُلِّ جَهُول
حَتى إذا اشتدت وشَب ضِرَامُهَا وَلتْ عجُوزاً غَيْرَ ذَاتِ حَليل
شَمْطَاءَ جَـزتْ رأسَهَـا وتنكَرَتْ مكروهـةً للشـم والتقبيـل[(١)]

وقال زهـ[(٢)]:

وَمَنْ يَعْص أطرافَ الرماح فإنهُ يُطيعُ العوا رُكبتْ لِكل لَهْذِمِ[(٣)]

يقولُ: من عصى الصلح وا وادعةَ، قبلَ القتالِ، طَلَب ذلك ورضي بِهِ وأطاعه، بَعْد أنْ ضرسَتْه ا ـربُ ونالتْ مِنْه الفتنةُ.

قالَ الشاعِرُ:

وساَمت ـّا طالتِ ا ـربُ بيننَا إذا تُظفرْك ا ـروبُ فسالِ[(٤)]

=

ا عليه وسلم السنة العاشرة، فأسلم ارتد مع الأسود العنسي، فسار إليه خالد بـن سعيد بن العاصي وأسره دفعه إ أ بكر، فأنبه واستتابه، وعاش إ أيام عثمان وأبلى وقائع الإسلام بلاء حسنا مثل يوم القادسية وا موك، تو سنة ٢٨ هـ، وهو من شعراء العرب وفرسا ا ا عدودين. طبقات ابن سعد، ت ٥ ص ٣٨٣- ٣٨٤. البداية والنهاية، ج ٧ ص ١١٩. الشعر والشعراء، ص ١٤٣. سرح العيون، ص ٤٣٦.

(١)الشعر والشعراء، ج ١ ص ٣٧٣. مروج الذهب، ج ١ ص ٥٣٧. عيون الأخبار، م ١ ج ٢ ص ١٢٧-١٢٨. صحيح البخاري، ج ٩ ص ٦٨، ونسبها إ امرئ القيس، ديـوان امرئ القيس، ص ٣٥٣. من زيادات نسخه ابن النحاس. غـرر ا صـائص، ص ٢٠٥. سـراج ا لوك، ص ١٥٣.

(٢)هو زهـ بن أ سلمى ربيعة بن رباح بن قرة من مزينة من مضر، أحد الثلاثة ا قدم على سائر الشعراء، وهم امرئ القيس، وزهـ ، والنابغة الذبيا ، وكان عمر بن ا طاب يسميه شاعر الشعراء. الأغا ، ج ٩ ص ١٤٦-١٥٨. الشعر والشعراء، ج ١ ص ١٣٧.

(٣)ديوان زهـ ، ص ٣٢، وفيه ومن يعص أطراف الزجاج، فإنه يطيع العوا ركبت لكل ذم. والعوا ع عالية، وهي ا يكون فيها السنان. واللهذم ا اد القاطع. ديوان ا ماسـة، للبحتري، ص ١٦٩.

(٤)يتيمـة الدهر، ج ٣ ص ١٥٠، ونسبه إ الشـريف الرضـي. التمثيـل وا اضـرة،

قال زهـُ يصِفُ ا ْرب:

وما ا ْرْبُ إلا ما علمُتم وذقْتُم   وَمَا هُوَ عَنْها بالْحديثِ ا رجمِ
ه تبعثُوها تبعثُوها ذميمةً   وَتضْرى إذا ضريتُموها فتَضْرمِ
فتعرُككُمْ عَرْكَ الرحى ِثفالِها   وَتلْقحْ كِشافاً ثُم تَحْمِلْ فتُتئِم
وَتنتجْ لكُمْ غِلمانَ أشأمَ كُلهم   كأ ر عادٍ ثُم تُرضعْ فتفطم
فتُغْلِلْ لكُم ه ـا لا تغ ـلُ لأهلِها   قرىَ بالعراق من قفيزٍ وَدِرْهَمِ[1]

فصل:

وينبغي لِمنْ ابتُليَ بعدو أنْ يكونَ مَعَهُ كما قالَ بعضُ وزراءِ العَجَمِ

=

ص ١٥٤.

(١)ديوان زه ، ص ٢٥-٢٦. ومع الأبيات، أن زه اً يقصد تنف قومه من ا رب وويلا ا، فمع البيت الأول: وما حديثي عن ا رب و ويفكم ويلا ا با ديث ا فترى، بل أنتم قد علمتم شر ا روب وبلائها فلا تقربوها.

ومع البيت الثا : أن ا رب إذا أنبعت وشب أوارها انبعثت ذميمة مكروهة من كل عاقل. ومع البيت الثالث: أنكم إن هيجتم ا رب وأشعلتم نارها، كنتم وقودها فتطحنكم كالرحى وتدوم عندها زمناً طويلا، فتكون كالناقة ال مل لت عام متتالي ، هي لا تلد إلا توأم .

ومع البيت الرابع: أن هذه ا رب قد يطول أمرها فتنتج لكم غلمان شؤم كأ ر عاد وهو خطأ من زه ، فإن الأ ر من ود وا ه قدار بن سالف عاقر الناقة، فكأن زه اً ع بعاد و ود، فنسب الأ ر إ عاد على ما توهم وهو من ود، وهو الذي ذكره ا القرآن سورة الشمس آية ١٢، بقوله ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾. قال ابن كث أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف. تفس ابن كث ، ج ٤ ص ٥١٧. ار القلوب، ص ٨٠.

ومع البيت ا امس: أن ا رب إن طالت غلت لكم غلة من نوع آخر لا كغلات قرى العراق وإ ا تغل لكم غلة هي ا وت وا لاك.

قالَ: ينبغِي لِلْمِلكِ أنْ يُ أمرُهُ مع عدوِهِ، على أربعةِ أوجُهٍ على اللّ ِ والبذلِ، والكيدِ، وا كاشفةِ، ومثلُ ذلك مثل ا ُراج أول علاجِهِ التمك ُ، فإنْ لَمْ ينفعْ فالانضاجُ والتحليل وإنْ ينفعْ فالضمادُ، فإنْ لَمْ ينفعْ فالكي، وهو آخِرُ العِلاجِ.

ومِن الدليلِ على التدابِ أمرِ العدو باللا ِ، حيْثُ يتوقعُ نُجْعُهُ، ويُرتجى نفعُهُ، أصوبُ وإ استبدالِ ا ودةِ عن العداوةِ أقربُ قال ا جل ذكرُهُ: **ادْفَعْ بِالَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنهُ وَلِي حَمِيم** [1].

(١)سورة فصلت: آية ٣٤، وقد قيل أن هذه الآية نسخت بآية السيف ولقي ا ستحب مـن ذلك، حسن العشرة والاحتمال والاغضاء فقد روي عن ابن عباس أنه قال تفسـ هذه الآية أي ادفع لمك، جهل من هل عليك وعنه أيضاً هو الرجل يسب الرجل فيقـول الآخر إن كنت صادقاً غفر ا وإنْ كنت كاذباً فغفر ا لك وقوله تعا : ﴿ **فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنهُ وَلِي حَمِيم** ﴾ قال مقاتل نـزلت أ سفيان ابن حرب كـان مؤذياً للن صلى ا عليه وسلم فصار ولياً الإسلام يما بالقرابة، وقيل كان هذا الأمر قبل الأمر بالقتال. وقد ذكر الأستاذ سيد قطب تفسـ ه ظلال القـرآن: (إن النـهوض بواجب الدعوة أمر شاق ولكنه عظيم الشأن.. ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض، أو بسوء الأدب أو بالتبجح بالإنكار، فهو إ ا يتقدم با سنة فهـو ا قـام الرفيع وغ ه يتقدم بالسيئة فهو ا كان الدون (ولا تستوي ا سنة ولا السيئة).. ولـيس له أن يرد بالسيئة، فإن ا سنة لا يستوي أثرها، كما لا تستوي قيمتها مع السيئة، والص والتسامح والاستعلاء، على رغبة النفس مقابلة الشر، يرد النفوس ا ا ـة إ ا ـدوء والثقة، فتنقلب من ا صومة إ الولاء ومن ا ماح إ اللا ﴿ **ادْفَعْ بِالَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنهُ وَلِي حَمِيم** ﴾ وتصدق هذه القاعدة الغالبية من ا الات، وينقلب ا ياج إ وداعة والغضب إ سكينة، والتبجح إ حياء على كلمة طيبة ونـ ة هادئة وبسمة حانية، وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام، ولو قوبل ثـل فعلـه ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً، ومروداً وخلع حياءه ائياً وأفلت زمامه وأخذته العزة بالإ / القرط ، م ٨ ج ١٥ ص ٣٦١-٣٦٢؛ تفسـ ابـن كث ، ج ٤ ص ١٠٠- ١٠١؛ ظلال القرآن، ج ٢٤ ص ١٣٥- ١٣١.

وقالَ محمدُ بنُ يندار[(١)] إذا لم تستطع أنْ تقطع يد عدوك فقبلْها. و مما يدل على أن البذلَ يُكْسِبُ المحبةَ وينفي العداوةَ ما روي عنْ صفوانَ بنِ أميةَ[(٢)] أنهُ قالَ: ما كانَ أحد أكره إليَّ مِنْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فما زالَ عليْهِ السلامُ يُعْطيني حتّى أنّهُ لأحبِ الناسِ إليَّ[(٣)].

ورُوِي أنهُ كانَ لعبدِ الله بنِ الزبيرِ[(٤)] أرض متاخِمةٌ لأرضِ معاويةَ قَدْ جعلَ فيها عبيداً مِن الزنوجِ يعمرونها فَدخلوا في أرضِ ابنِ الزبيرِ، فكتب إلى معاويةَ أمّا بعْدُ: يا معاويةُ فإنه عُبدانك عن الدخولِ في أرضي وإلا كانَ لي ولك شأنٌ فلمّا وقَف معاويةُ على الكتابِ دفَعهُ إلى ابنِهِ يزيد فَلَما قرأهُ قالَ لَهُ يا بني ما ترى، قالَ أرى أنْ تنفذَ إليهِ جيشاً، أولهُ عِنْدهُ، وآخِرُهُ عندك يأتوك برأسِهِ قالَ أو خير مِنْ ذلك يا بني علي بدواة

(١) محمد بن يزداد: هو محمد بن يزداد بن سويد المروزي أحد كتاب المأمون ووزرائه كان إماماً كاتباً فاضلاً، مات بسر من رأى سنة ٢٣٠ هـ بعد ما لزم داره سنين/ النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٥٨.

(٢)هو صفوان بن أمية بن خلف القرشي الجمحي، من أشراف قريش هرب يوم الفتح فاستؤمن له، فعاد وشهد حنيناً مع النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر له من غنائمها، فأسلم وأقام بمكة توفي سنة ٤١ هـ/ الاستيعاب، ق/٢ ص ٧١٨؛ شذرات الذهب، ج ١ ص ٥٢؛ الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٣٣٢؛ النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٢١؛ البداية والنهاية، ج ٨ ص ٢٣.

(٣)مسند أحمد، م ٣ ص ٤٠٣؛ الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٣٢٢؛ السنن الكبرى، م ٧ ص ١٩.

(٤)هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، يكنى أبا بكر على ما عليه أهل السير وأهل الأثر، وله كنية أخرى أبو خبيب، أمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين رضي الله عنها، وهو أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة. بويع له بمكة سنة أربعة وستين وبايعه أهل العراق وولى أخاه مصعباً البصرة واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخرسان وقتل رحمه الله أيام عبدالملك سنة ٧٣ هـ وهو ابن ٧٢ سنة وكان عبدالله كثير الصلاة كثير الصيام شديد البأس كريم الجدات والأمهات والخالات/ الاستيعاب، ق/٣ ص ٩٠٥- ٩١٠؛ وفيات الأعيان، م ٣ ص ٧١ -٧٥.

وقرطاس فكتب إليه وقفتُ على كتابِ ابن حواريِّ[1] رسولِ ا صلى ا ُ عليهِ وسلم وساء ما ساءه والدنيا عِندي بأسْرِها هينةٌ جْنبِ رضاهُ وقد كتْبتُ على نفسي صكًّا بالأرضِ والعُبدانِ لهُ وأشهدتُ علي فيه، فليسْتضيفَها مع عبدانِها إ (أرضِهِ وعِبدانِهِ) والسلامُ فلما وقَف عْبدُا بنُ الزّبـِ على كتاب معاويةَ كتب إليهِ وقفتُ على كتابِ أمـِ ا ؤمنـ أطالَ ا بقاءَهُ ولا عدِمه الرأي الذي أحله من قريش هذا ا ل والسلامُ فلما وقَف معاويةُ على كتابِ عبدِا بنِ الزبـِ رماهُ إ ابنِهِ يزيد فلما قرأهُ أسفر وجهُهُ وقال يا ُبني إذا بليت ِبمثلِ هذا الداءِ فداوِه ِبمِثلِ هذا الدواءِ.

فصل:

ف (أما) ِإذَا كان العدو ِممنْ لا يُرْجَى إنصلاحُهُ بالبذلِ واللا ـِ فيجبُ أنْ ُيسارِعَ بالكيدِ ا ـِ إ حسمِ مادتِهِ واستئصَالِ شأفَتِهِ

فقدْ ِقيلَ: إن الكيد أبلغُ ِمن الأيْدِ وقالَ: ا كيدةُ أبلغُ ِمن النجدةِ. وقالَ ابنُ ا عتز: أوهنُ الأعداءِ كيداً أظهرُهُم ِلعداوتِه.

وقالَ الشاعِرُ:

ِإذا كنتُ لا أرْمِي الضبـاءَ فإ أدُس ا َتحْتَ الترابِ دسايسا[2]

وبا ملةِ فينبغي أنْ لا يدخلَ ا ربِ ويكاشِف ِبها ما دام يطمعُ بلوغِ مآرِبه و احِ مطالِبه ا هو دونها.

(١)ذكر البخاري أن الزبـ كان من حواري رسول ا صلى ا عليه وسلم فعن جابر رضـي ا عنه قال، قال رسول ا صلى ا عليه وسلم: "من يأتي القوم يوم الأحزاب" قال الزبـ: أنا، قال: "من يأتي القوم"، قال الزبـ: أنا، فقال الن صلى ا عليه وسلم: "إن لكل ن حوارياً وحواريي" الزبـ: البخاري، ج ٤ ص ٣٣؛ سنن الترمذي، ج ٥ ص ٣١٠. وقال حديث حسن صحيح، مسند أ د، ج ٤ ص ٤.

(٢)الآما للقا ، ج ٢ ص ٢١٣، ونص البيت- كما أورده: فإن كنت لا أرمي الضباء فإن أدس ا ت التراب الدواهيا التمثيل وا اضرة، ص ٣٦١.

قال أبو الطّيب: وإنما ا ْربُ غاية ا كايدِ[١].

فحينئذٍ، ينبغيْ أن يعاجِلَه قبلَ أنْ تتمكن بوائقُهُ وتتسع طرائقُهُ فكل أمرٍ لا يُداوى مِن قبلِ أن يعضِلَ ولا يدبر قبلَ أن يستفحِلَ عيي بِهِ مداويهِ وصعُب تداركُه وتلافيهِ.

قالَ بعضهم: تفقدْ عدوك قبلَ أنْ تد باعُهُ ويطولَ ذِراعُهُ وتكبُر شكيمتُهُ وتشتد شوكتُهُ ويعضلَ داؤُهُ ويعجز دواؤُهُ. ومِنْ أمثالِ العربِ دواءُ للشق أنْ اصُ فيهِ. فيستع عليهِ حينئذٍ بالدخولِ ا يجاءِ ومكاشفةِ الأعداءِ.

قال الشاعِر:

إذا يكنْ إلا الأسنةُ مركباً فلا رأيَ للمضطرِ إلا ركوُبا[٢]

ولآخر:

ولا أ نى الشر والشر تاركِي ولكنْ م أ لْ على الشر أركبِ[٣]

وهذا مِثل قولِهِ صلى ا عليهِ وسلم: "لا تتمنوا لقاءَ العدو وإذا لقيتموهُ فاصـ وا"[٤].

---

(١)هذا عجز بيت قاله أبو الطيب من قصيدة له دح ا عضد الدولة أبا شجاع وصدر البيت:

يبْـدَأ مِـنْ كَيْـدِهِ بِغَايَتِـهِ وإنمـا الْحـَرْبُ غَـايَةُ الكَائِدْ

ومع ذلك، أن عدوكم إن بادر إ اربتكم من أول وهلة فيكون قد ابتدأ الكيد من آخـره لأن ا رب لا يلجأ إليها إلا إذا د الوسائل/ ديوان ا تن بشرح ال قـوقي، ج ٢ ص ١٧٧.

(٢) اية الأرب، ج ٣ ص ٧٤؛ عيون الأخبار، م ٢ ج ٧ ص ١١٢؛ زهـر الآداب، ج ١ ص ٣٨١، والبيت منسوب هذه ا راجع للكميت بن زيد الأسدي.

(٣) اية الأرب، ج ٣ ص ٧٣، ونسبة إ زياد بن زيد؛ العقد الفريد، ج ٢ ص ٢٩٤، ونسبه إ هدبة العذري؛ عيون الأخبار، م ١ ج ٣ ص ٢٧٦، ونسبه إ البعيث؛ شعر هدبة بن ا شرم العذري، ص ٦٩.

(٤)صحيح البخاري، ج ٤ ص ٧٧، بلفظ عن أ هريرة رضي ا عنه عن الن صلى ا عليه وسلم، قال: (لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصـ وا) سـنن أ داود، ج ٣ ص ٤٢، برواية أخرى؛ السنن الك ى، م ٩ ص ١٥٢؛ سنن الدارمي، ج ٢ ص ٢١٦؛ وحكمـة =

قال الشاعرُ:

أكـن فـي جنبانِهـا يَعْلَمُ ا ُ   وأنـي بِحَرهـا صَـا [١]

وقال آخرُ:

ا ربُ يلحق فيها الكارهونَ كما   تدنُو الصّحاحُ من ا رْ تُعديها [٢]

وقالَ أبو الطيب:

لا تلقَ أشجَعَ مِنْكَ تعرفُهُ   إلا إذا ما ضافتِ ا يَلُ [٣]

فصلٌ

و ب أنْ يُستعملَ ا زمُ تدبره،

ويلاحِظ العواقبَ يع أمـ ـورِه،

فمن نظـ ـرَ العواقِبِ سلِـمَ من

ا عاطِبِ،ومن أخرِ تدبره تقدمِ تدمـِه

وقيلَ: مَنْ نظَر بالرأي غَنِم ومَنْ نظَرَ العواقِب سلِم ومن أخْلَد إ التوا حصلَ على الأما ومَنْ ترك حزْمه أعان خصْمُهُ.

قالَ ابنُ دُريدٍ:

مَنْ ضَيعَ ا زمَ جَنى لِنفسِهِ   ندامةً ألذعَ مِنْ سَفْعِ الذّكي [١]

=

النهي أن ا رء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر. وقيل إ ا ى عن لقاء العدو، ا فيـه مـن صورة الإعجاب والاتكال على النفوس، والوثوق بالقوة وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ با زم/ عون ا عبود، شرح سنن أ داود، ج ٧ ص ٢٩٤.

(١)ديوان ا ماسة للبحتري، ص ٣٣؛ ٤٣؛ ا اسن وا سـاوي، ج ٢ ص ٢٨٧؛ منسـوب للحارث بن عباد فارس النعامة.

(٢) اسة ابن ام، ج ١ ص ١٥٤: التمثيل وا اضرة، ص ١٥٤ ويريد ذا البيـت أن شـر ا رب يعدي إعداء ا رب وتنال مضر ا غ ا ا إذا دخل مع ا ناة كما يدنو الصحيح إ الأجرب فيعديه.

(٣)ديوان ا تنـ بشرح ا قوقي، ج ٤ ص ٢٥، والبيت الديوان: لا تلق أفرس منك تعرفه.. يريد بذلك أن ا زم أن لا تعارض من هو أقوى منك إلا إذا اضطررت إ ذلك.

وقال آخرُ: ا زمُ إنْ ضيعته أبشرْ بقربِ التلفِ.

قالَ رسولُ ا صلى ا عليه وسلم: "ا زْمُ سوءُ الظن"[٢].

وقِيلَ لمعاويةَ: ما بلَغَ مِنْ حزْمِك قالَ لَمْ أَثِقْ بأحدٍ.

(قال بعضُ ا كماءِ: الاحتراسُ مِنْ كُلِ أحد حزم وقلة الاسترْسالِ إ الناسِ أَسْلَمُ). وكَتب طاهِر بنُ ا سـ [٣] إ إبراهيم بنِ ا هدّيّ هذه الأبيات

رُكوُبكَ ا ولَ ما تلقَ فرصةَ جَهْلٍ ورأيكَ الإفحام تغريرُ

ِ أهونُ بِدنيا ينالُ ا خطئونَ با حظ ا صيب ً وا غرورُ مغرورُ

فإنْ ظَفِرتَ بعجزٍ أو ّوتَ بِهِ فالوا جَهولٌ أعانَتْهُ ا قاديرُ

وإنْ حُرِمْتَ بِحَزْمٍ أو هلكـتَ بـهِ فأنتَ عِنْدَ ذَوي الألبابِ معذورُ[٤]

=

(١)مقصورة ابن دريد بشرح ا طب الت يزي، ص ٨٣.

(٢)كنوز ا قائق حديث خ ا لائق على هامش ا امع الصغ ؛ ج ١ ص ١٢٠، وقـال حديث ضعيف، ونسبه السيوطي تاريخ ا لفاء إ الإمام علي كرم ا وجهه، ورفعـه صاحب ا نهج ا سلوك سياسة ا لوك إ رسول ا صلى ا عليه وسلم من غ إسناد/ كشف ا فاء، ج ١ ص ٤٢٥، وقال أخرجه الديلمي مسنده عن علي من قوله وهـو ضعيف. وقال ا يدا مع الأمثال أنه من كلام أكثم بـن صـيفي، ج ١ ص٢٠٨، وكذلك قال النويري عنه غاية الأرب، ج ٣ ص ١٥؛ الفتح الكب ضم الزيـادة إ ا امع الصغ ، ج ٢ ص ٨٠؛ منتخب كنـز العمال، ج ١ ص ١٦٤.

(٣)هو أبو الطيب طاهر بن ا سـ بن مصعب نائب العراق وخرسان، ولد سنة ١٥٩هـ وهو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأم وقتله وخلع ا أمون أواخر أيامه وعـزم علـى ا روج عليه وخطب و يدعو للمأمون فوجد فراشه ميتاً، بعدما صلى العشاء الآخـرة فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجوده قتيلاً سنه ٢٠ هـ ـ/ وفيات الأعيان، م ٢ ص ٥١٧؛ شذرات الذهب، ج ٢ ص ١٦؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦.

(٤) ذب تاريخ ابن عساكر، ج ٢ ص ٢٧٤؛ مع ا كم والأمثال، ص ١٣٤؛ لباب الآداب، ص ٧٤ مع تقد وتأخ بعض الأبيات.

ولآخر في المعنى:

على كُل حال فاْجعَل الحزْمَ عُـدةً لِمَا أنتَ باغِيهِ وعوناً على الدهْرِ
فإنْ نلْـتَ أمـراً نلْتَـهُ بعزيمةٍ وإنْ قصرتْ عنك الحظوظُ فَعَنْ عذرِ[(١)]

(وهذا المعنى مأخوذ مِنْ قَوْلِ بعْضِ الحُكماءِ: استعملِ الحزم في الأمورِ وليس عليك ما قضى الله مِنْها فَإنْ قُدِّرت بِحّظ أحرزْت إليهِ حمداً وإنْ حُرِمْتَهُ عوضت عليه عذراً).

وقَالَ بعضُهم: أذكرْ حسراتِ التفريطِ يلذ لَكَ الحزْمُ. ومِن الحزْمِ أنْ لا تحتقر عدوهُ، وإنْ كانَ حقيراً، ولا يستصغرهُ وإنْ كان صغيراً، (فإن ذلك عنوانُ الخذلانِ وفيهِ تركُ لِلْحزمِ وتوهين لِلْعزم).

قالَ ابنُ نباتةَ[(٢)]:

فلا تحقرن عَدوّاً رَماكَ وَإنْ كانَ في سَاعديهِ قِصر
فـإن السيوف تحز الرقـابَ وتعجـزُ عـن ما تنالُ الأبَرْ[(٣)]

قيلَ لِلمُهلّبِ[(٤)]: مِنْ أحزمِ الناسِ قالَ منْ يوهمُ عليهِ الحزمُ مِنْ شِدة احتياطِهِ.

وكانَ في قتالِ الأزارِقةِ[(٥)] يبث الأحراس في الأمنِ كان يبثهُم في الأمنِ، ويذْكي

(١)غرر الخصائص، ص ٢٠٣.

(٢)هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد السعدي، من الشعراء المجيدين جمع بين حسن السبك وجودة المعنى. مدح الملوك والرؤساء وله في سيف الدولة بن حمدان جملة قصائد توفي سنة ٤٠٥ هـ، شذرات الذهب، ج ٣ ص ١٧٥؛ النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٢٣٨؛ البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٥٥.

(٣)ديوان ابن نباتة السعدي، ج ٢ ص ٧٣ وفيه فإن الحسام يحز الرقاب؛ يتيمة الدهر، ج ٢ ص ٣٩٥؛ خاص الخاص، ص ١٦٩.

(٤)المهلب: هو ظالم بن سراق بن صبح الأزدي، ولد عام الفتح في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كان جواداً شجاعاً ولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير وانتدب لقتال الأزارقة فشردهم، ولاه عبدالملك بن مروان خراسان توفي سنة ٨٣ هـ في خلافة عبدالملك بن مروان، الطبقات الكبرى، ج ٧ ص ٩٤؛ المعارف، ص ٧٥؛ البداية والنهاية، ج ٩ ص ٤٣.

(٥)الأزارقة: هم أتباع نافع بن الأزرق الذين خرجوا معه إلى الأهواز وغلبوا عليهـا في أيـام

العيون الأمصارِ كما يُذْكيها الصحاري ويأمرُ أصحابهُ بالتحرّزِ و وقُهم البيات وإن بَعْد عَنْهُم العدو ويقولُ أنظروا أنْ تكادوا كما تكيدونَ، ولا تقولُوا هذهِ مِنا ولا علينا، فإن القوم خائفونَ وجِلونَ وإن الضرورة تفتحُ باب ا يلَةِ.

فصلٌ

وينبغي لَهُ أنْ يكونَ حالِ اربتِهِ وقتالِهِ كَما قال عبدُا بنُ صا [(١)] وصّيةٍ لَهُ لقائدٍ مُقدّمِ جَيْش مضى إ بِلادِ الروم فقالَ إنك تاجِرُ ا لِعبادِهِ فَكُنْ كا ضارِبِ الكّيسِ إنْ رأيت رِ اً لا يشُك فيه ا رت وإلا احتفظت برأسِ ا الِ لا تطلبْ الغنيمةَ حـ رز السلامةَ وكنْ احتيالِك على عدوك أخوف مِن احتيالِ عدّوك عليك.

وكانت الفُرْسُ إذا بعثْت أم اً على جَيْش قالتْ احفظْ ما يُلْقَى إليك وانتهزْ الفرصةَ فإنها خلسةٌ، وأثبتْ عِند رأسِ الأمرِ لا عِند ذْنبِهِ، وإيّاك وشفيعاً مهيباً، وإيـاك والعجز فإنَّه أوطأُ مرْكَبٍ، وعليك بالصـ فإنَّهُ سببُ الظفَرِ، ولا ض الغمر[(٢)]، حـ تعرف القدر.

=

عبدا بن الزب فأنفذ إليهم عبدا بن حارث بصاحب جيشه مسلم بن عبـيس فقتلـه ا وارج وتو ا هلب أمر حر م مدة تسع عشرة سنة ومن بدعهم إباحة قتـل أطفـال ا خالف ونسائهم وإسقاط الرجم عن الزا وإسقاط حد القذف عمن قذف ا صنـ من الرجال وإن من ارتكب كب ة من الكبائر كفر كفر ملة خرج به عن الإسلام لة/ ا ا ـل والنحل، ج ١ ص ١١٨- ١٢٢.

(١)الصواب هو عبدا لك بن صا كما أطبقت على ذلك ا راجع كالعقد الفريـد، ج ١ ص ٩٤؛ وشرح ج البلاغة، م ٣ ص ٤٢٩. وغرر ا صائص، ص ٢١٧؛ وعبدا لك هذا هو أبو عبدالر ن عبدا لك بن صا بن علي بن عبدالله بن العباس رضي ا عنـه وكانـت منبج إقطاعاً له وكـان مقيماً ا وتو سنة ١٩٩ هـ بالرقة وله بلاغة وفصاحة، وفيات الأعيان، م ٦ ص ٣٠.

(٢)الغمر: بوزن ا مر الكث من ا اء وا غمر بضمها ا لقى بنفسه ا هالك والشدائد/ تـار الصحاح، القاموس ا يط.

وقال قَطَري بنُ الفُجاءَةِ[1]: وقَدْ ذَكَرَ ا هلبُ بنُ أ صُفْرةِ لأصْحابِه هُو منْ قَدْ عرفتموهُ، إنْ أخذْ بِطَرفِ ثَوْبٍ أخذ بِطَرفِهِ الآخرِ دهُ إذا أرْسلتموهُ ويرسلُهُ إذا مدد وهُ ولا يبدُؤكُم حتّى تبدؤوه إلا أنْ يجِد فُرْصةً فينتهزها فَهو الليثُ ا برزُ والثعْلَبُ الرّواغُ.

وقالَ مرةً: إنْ جاءكم ا هلبُ لا يُناجِزُكُم حتى تناجِزُوه، ويأخذ مِنْكُم ولا يُعطيكُم، فَهو البلاءُ اللازمُ وا كروهُ الدائمُ.

وكانت ا وارجُ[2] تُسميه الساحِر، لأنهُم كانوا يُدبرونَ الأمْر فيجدونه قَدْ احترس مِنْهُمُ، ويدبرونَ التدب لانفُسِهم فيجدونهُ قَدْ سبق إ بعضِ تدبـ هِم. وسألَ ا جاجُ بريداً ورد عليهِ مِنْ قبل ا هلبُ، أيام حربِهِ للأزارِقةِ عنِ ا هلبِ وا ندِ الذين معهُ فقالَ يسوسُهُم سياسةَ ا لوكِ ويقاتلُ م قتالَ الصعلوكِ.

وقَالَ عبدُا بن خالدِ بنِ الوليدِ عاويةَ إنك لتقدم إقداماً أراك تتعرضُ للقتلِ، وتتأخرُ تأخّراً أراك تهم با رب، فقالَ وا ما أتقدمُ لأقتلَ، ولا أتأخرُ لأهرُب، ولكن أتقدمُ إذا كانَ التقدمُ غُنماً وأتأخرُ إذا كانَ التأخرُ حزماً. كما قالَ الشاعِرُ:

شجاع إذا ما أمكنت فرصة وإنْ تكنْ فرصةٌ فجبانُ[3]

وقالَ بعضُهم: احتلّ للشمس والقمر والريح أنْ يكونا معك لا عليك. وقِيلَ:

---

(١)هو أبو نعامة قطري بن الفجاءة ا از أحد رؤساء ا وارج وفرسا م ا عدودين، معدود لة خطباء العرب ا شهورين حارب ا هلب بن أ صفرة سن وادعى أمـ رة ا ـ ؤمن وسلم عليه ا، ح توجه إليه سفيان الأبرد الكل فظهر عليه وقتله سـ نة ٧٨ هـ ـ / شذرات الذهب، ج ١ ص ٨٦- ٨٧؛ وفيات الأعيان، م ٤ ص ٩٣.

(٢)كل من خرج على الإمام ا ق الذي اتفقت ا ماعة عليه يسمى خارجياً سواء كان ا روج أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابع بإحسان والأئمة كل زمان إلا أن هذا الاسم غلب على بعض الفرق كالأزارقة والنجدات والعجاردة أصـ حاب عبدالكر العجرد والاباضية والصفرية/ ا لل والنحل، ج ١ ص ١١٤.

(٣)مروج الذهب، ج ٢ ص ١٤، ونسب البيت الذي استشهد به معاوية إ القطامي.

الإقدامُ أنفى لِلْعارِ وأدركُ للثأرِ. والشجاعُ موقى وا بانُ مُلْقَى.

وقال ا تنـ :

يُقْتَلُ العَاجِزُ ا بَانُ وَقَدْ يَعْجِزُ عَنْ قَطعِ بُخْنُقِ ا وْلُود

وَيوفى الفتى اِ خَش وَيَدْ خـوضَ فِي مـاءِ لبـة الصنْـدِيـدِ(١)

ومنْ أمثالِ العربِ: إن ا بانَ حتفهُ مِنْ فَوقِهِ. عصى ا بانِ أطولُ. مُحرضُ خ مِنْ ألفِ مقاتل. إذكاءُ العيونِ أنفى للظنونِ. لا تغفلْ ا سك(٢) إنْ كنت نازلاً، وا ندق إنْ كنت مُقيماً. إذا ابتليت بالبياتِ فعليك بالثباتِ. الانصرافُ قبلَ ا ز ةِ هز ة. ا ربُ سِجالٌ وعثراتُها لا تُقالَ.

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلام (ا رب خدْعة)(٣).

ومن أمثالِ العربِ: إذا لَمْ تغلب فاخلِبْ. ا اجزةُ قبل ا ناجزةِ.

التغريرُ مفتاحُ البؤسِ. لا نعْ عدوك السبيلَ هز يتِهِ.

ا ربُ لا يُعرج على صاحبٍ. الليل جنة ا ارب.

الفرار وقته ظفر. وقال بعضُهم الفرارُ عِند ا وفِ من سننِ ا رسلِ ، قال

---

(١)ديوان ا تنـ ، ج ٢ ص ٤٦ ومعـ البيت الأول: أن العاجز ا بان قد يقتل فـلا تظـنن أن العجز وا من أسباب البقاء، البخنق: خرقه يقنع ا الرأس وتشد ت ا نك ومعـ البيت الثا : أن الشجاع ا غوار قد يسلم وقد خاض ا روب حـ غاص دماء الصناديد ث على الإقدام كما ى عن ا قبله، وا خش: ا ريء الأمور وا روب وخوض: بالغ ا وض واللبة: أعلى الصدر وماؤها: دمها، والصنديد: الشجاع.

(٢)ا سك: حسك السعدان، وا سك أيضاً ما يعمل من ا ديد على مثاله وهو مـن آلات العسكر/ تار الصحاح.

(٣)صحيح البخاري، ج ٤ ص ٧٧؛ سنن ابن ماجة، ج ٢ ص ٩٤٥؛ سنن الترمذي، ج ٣ ص ١١٢. وقال حديث حسن صحيح قوله خدعة فيها ثلاث لغات مشـهورات أفصـحهن خدعة بفتح ا اء وإسكان الدال قيل هي لغة الرسول صلى ا عليه وسلم، والثانية بضـم ا اء وإسكان الدال، والثالثة بضم ا اء وفتح الدال. واتفق العلماء على جـواز خـداع الكفار ا رب كيف أمكن ا داع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا ل/ عـون ا عبود، شرح سنن أ داود، ج ٧ ص ٢٩٨.

ا ُ تعا حِكايةً عنْ موسى عليهِ السلامُ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ [(١)].

ومن أمثال العربِ: الفرارُ بقرابٍ أكيسُ.

ومن أمثالِ العامةِ فر أخزاهُ ا ُ خ مِنْ قُتِلَ ر هُ ا .

ومن أبلغِ ما قيلَ الاعتذارِ من الفرارِ. قولُ ا ارثِ بنِ هِشام[(٢)] حيثُ يقولُ:

فصدرتُ عَنْهُم والأحبةُ فيهُم طمعاً مْ بعقابِ يومٍ مُرصِدِ[(٣)]

ا ُ يعلمُ ما تركتُ قتالهم ح علوا فَرسي بأشقرَ مُزْبِدِ

وعلمت أ إنْ أقاتِلْ واحداً أقتلْ ولا يبكي عدوي شهَدِي

(وقال هب ةُ بنُ أ وهبٍ ا خزومي[(٤)]:

لعمركَ مَا وليْتُ ظَهْري مُحَمداً وأصحابِهِ جبناً ولا خِيفةَ القَتْلِ

وَلَكِنني قلّبتُ أمْري فَلَمْ أجدْ لِسَيْفِي غَنَاءً إن ضَرَبْتُ وَلا نَبْلِي

---

(١)سورة الشعراء: آية ٢١. ونص الآية ﴿ **فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾.

(٢)هو ا ارث بن هشام بن ا غ ة بن عبدا القرشي، شهد بدراً كافراً مع أخيه أ جهل وفر حينئذ وقتل أخوه وع بفراره فاعتذر عن هذا الفرار ا زعم الأصمعي أنه يسمع بأحسن من اعتذاره ذلك، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وشهد مع الرسول حنينا فأعطاه كما أعطى ا ؤلفة قلو م خرج إ الشام أيام عمر رغبة الرباط وا هاد مات طاعون عمواس سنة ١٨ هـ/ الاستيعاب، ق ١ ص ٣٠١؛ الطبقات الك ى، ج ٧ ص ١٢٦.

(٣) اية الأرب، ج ٣ ص ٣٥٢؛ ديوان ا ماسة للبحتري، ص ٤٠؛ اسة أ ام، ج ١ ص ٥٦-٥٧؛ الاستيعاب، ق ١ ص ٣٠١. ومع البيت الأول أنه ما ا زم ح جرح فرسه فعلاه دمه أو جرح هو فعلا فرسه دمه. ومع البيت الثا : أنه إذا بقيت وحدي ساحة الوغى أقتل لا الة لكثرة من فر ولا يضر ذلك عدوي شيئاً. ومع البيت الثالث: أنه أعرضت عن عدوي طمعاً مقابلتهم يوم آخر أدرك به ثأري.

(٤)هو هب ة بن أ وهب بن عمرو بن عائذ بن زوم أحد شعراء ا شرك هرب إ ران ا دخل رسول ا صلى ا عليه وسلم مكة فا أ وأقام هناك ح مات كافراً/ الط ي، ج ٣ ص ١٦٤٦- ١٦٤٧؛ س ة ابن هشام، ج ٤ ص ٣٤.

وَقَفْتُ فَلما خِفتُ ضيعةَ موقفي   رجعت بعودٍ كا زبر إ الفتل [١]

باب
ذَمّ ا ـِجاب

قالَ رسولُ ا ـِ صلى ا ُ عليْهِ وسلم: (من و ـِ مِنْ أُمورِ الناسِ شيْئاً فاحتجب عَنْهُم احتجب ا ُ عنهُ دونَ حاجتِهِ وفاقتِهِ وفَقْرِه) [٢]. و ا أخبر معاويةُ ـِبهذا ا ـديثِ، جعلَ على حوائجِ الناسِ رجلا [٣]. وقالَ الفضلُ بنُ سهْل ـِلثمامة بنِ [٤] الأشرسِ: ما أدْري ما أصنعْ كَثْرة طلابِ ا وائجِ وغاشيةِ البابِ فقالَ: زلْ عَنْ مَوضِعِك وعلي أنْ لا يلقاك أحد قالَ: صدقت وقعد لَهُم.

و معْ قولِ ثُمامةَ قولُ الشاعِرِ:

فلا تَعْتَذِرْ بالشغْلِ ء فإنما تُناطُ بكَ ا اجاتُ ما اتصَلَ الشغْلُ [٥]

وقولُ الآخرِ:

---

(١)نسبها البحتري ديوان ا ماسة لصاحبها، ص ٥٧؛ س ة ابن هشـام، ج ٣ ص ٢٢٣-٢٢٤ ويعتذر فيها عن فراره يوم ا ندق ويبكي عمرو بن عبدود.

(٢)سنن أ داوود، ج ٣ ص ١٣٥؛ سنن الترمذي، ج ٢ ص ٣٩٥، وقال حديث غريـب، وقد روى هذا ا ـديث من غ هذا الوجه؛ ا سـتدرك، ج ٢ ص ٩٤، وقـال صـحيح الإسناد؛ مشكاة ا صابيح، ج ٢ ص ١١٠٠.

(٣)سنن الترمذي، ج ٢ ص ٣٩٥؛ بدائع السلك، ج ١ ص ٣٧٠؛ الشفاء مواعظ ا لـوك وا لفاء، ص ٦٨.

(٤)هو أبو معن امة بن أشرس النم ي، من كبار ا عتزلة كان على اتصال بالرشيد ا أمون، وقال عنه الشهرستا ا لل والنحل أنه كان جامعاً ب سفاهة الدين وخلاعة النفس مع اعتقاده بأن الفاسق لد النار، تو سنة ٢١٣ هـ، تـاريخ بغـداد، ج ٧ ص ١٤٥؛ ا لل والنحل، ج ١ ص ٧٠.

(٥) اية الأرب، ج ٣ ص ٩٣، والبيت منسوب إ أ علي البص (الفضل بن جعفر الكو) ا تو سنة ٢٥١ هـ؛ زهر الآداب، ج ١ ص ٢٨٦؛ عيـون الأخبـار، م ٢ ج ٨ ص ١٢٥؛ أدب الدنيا والدين، ص ٢٠٣، مع اختلاف بعض الألفاظ.

افْرُغْ اجاتنا ما دمتَ مشغولاً فلو فَرَغْتَ لقد أصبحت لمولا[١]

قلنا وليْس المرادُ بتركِ الحجابِ، أنْ يـ ز السلطانُ إ العوامِ على الدوامِ، الطرقاتِ ويباشر بنفسِهِ أحوالَ الرعيةِ يع الأوقاتِ إنما المرادُ بذلك ألا جب عن مجْلِسِهِ خواص الناسِ، وذوي المروءاتِ وأربابِ الشرفِ والبيوتاتِ وأنْ يأذنَ للْعلماءِ وأهلِ الدينِ إذا استأذَنوا عليهِ لإبلاغِ نُصْحٍ، يرْجِعُ صلاحُهُ إليهِ وإ كافةِ المُسْلم . وأنْ يُصغي بنفسِهِ إ اطبتِهم ويأذَن لكلامِهم و اوراتِهم ولا يكلَ ذلك إ وُزرائِهِ وحُجّابِهِ وسائرِ منْ يعْتمِدُ عليهِ منْ نوابِهِ، فإن أهلَ العِلْمِ والفضلِ وذوي الرياسةِ والنبلِ قدْ يأنفونَ منْ رفْعِ حاجتِهم إ منْ لعلة دونهُم على الحقيقةِ القدرِ والمنـزلةِ، وإنْ كانَ الملكُ قد أهلَهُ من الرياسةِ لما هو أهْلُهُ وربُما استشعر بذلك عليهم شرفاً وفخراً و خ بأنفِهِ عليهم صلفاً وكِبْراً وذوي المناصبِ العلّيةِ قدْ لا تسمحُ أنفُسُهم الأبيةُ بقبولِ ذلك وإن عمتُهُم البليةُ ود تهم الرزيةُ[٢]، وربُما قلدهُم بما يرفَعُ من مآربِهم وينجحُ على يديهِ منْ مطالِبِهم منْه يصعُبُ على مثلِهم من مثلِهِ حملُها ويعسرُ عليهم تقلدها وأيضاً فقد لا ينقلونَ لفَظهُم على صيغتِهِ ولا يُصيبونَ المعنى المراد على حقيقتِهِ فيصيرونَ لسوءِ نقْلِهم ونقصانِ عقْلِهم، المدح قدحاً، والتلطّف تعسفاً، والتودد دُداً والإبانةَ نيابةً[٣]، والأمانةَ خيانة. ثُم ينبغي للملِكِ إذا اتخذَ حاجِباً أنْ يكونَ أميناً عاقِلاً، أديباً فاضِلاً عارفاً قادير النّاس ومنازِلهم وعالماً بقهم وحُرْمتِهم، ليأذَنَ لهُم على قدرِ أحوالِهم ويقدمهُم الدخول على حسب

(١)عيون الأخيار، م ٢ ج ٨ ص ١٢٥، والبيت من شعر المدو الس بن أيوب وا البصرة.

(٢)الرزية: المصيبة وا مع رزايا.

(٣)عناية، أول من رتب المراتب الدخول على السلطان زياد بن أبيه العراق، ولعله اقتبسها من الفرس فجعل الإذن للناس على البيوتات، على الأسنان، على الآداب، فصار ذلك قاعدة مرعية فإذا استأذن اعة الدخول، قدم أشرفهم نسباً، أك هم سناً، أكثرهم أدباً، وضلت هذه القاعدة مرعية سائر العصور الإسلامية.

درجاتِهم. قالَ عَبْدُا لِكِ بنُ مروانَ لأخيهِ عَبْدُالعزيزِ بنِ مروانَ[١] ح وجهَهُ إ مصر: اعرفْ حاجبك وكاتبك وجليسك فإن الغائب عَنْك ه عَنْك كاتُبك وا توسم لك يُعرفُك احِبك وا ارج يُعّرفك لبسِك. قَالَ رجل لزيادٍ أن حاجبك يبدأُ بالاذْنِ عارِفِه، فقالَ قَدْ أحْسن فا عرفةُ تنفعُ عِند الكلْبِ العقورِ وا َمل العضوضِ، كُنْ من معارِفِه أنت أيضاً. يُقيمُ وائِج الناسِ وتعريفَها إليه، مِنْ خواصِهِ أورعهم وآدبهم وأحرصهم على ا وطلبِ الأجرِ، و نبِ العارِ والوِزْرِ واكتِسابِ الثناءِ والشكْرِ، ثُمّ علُ لعوامِ الناسِ وكافةِ ذَوي ا وائِجِ وا تظلم يوماً الأسبوعِ، أوْ الشهْرِ، على قَدرِ ا اجةِ إليه، يأذَنُ لَهُم الدخولِ عليهِ ليستدرك كُل مُنهم ما عجز عن تداركِهِ بالوسائِطِ والذرائِعِ ويصلَ مِنْ حقِهِ إ ما يوصلُهُ إليهِ القضاة وأربابُ الصنائِعِ وعجِز عنْ إنصافِهِ ولاةُ ا ظالِمِ وكاد رجُ عما هُو فيهِ عنْ معلومِ ا عالِمِ. فهذِه أحمدُ السيرِ وأرْضاها عِند ذَوي الرأي والنظَرةِ و ا قيلَ ذَم ا جابِ قولُ أ العتاهيةِ[٢] أ د بن يوسف[٣] وقَدْ حُجب عَنْهُ.

لأنْ عدتُ بعدَ اليومِ أني لظا سأصرفُ وجهي حيثُ تُبتغَى ا كارمُ

م يظفر الغادي إليكَ اجة ونصفُك جوب ونصفُك نائمُ[٤]

وقال أيضاً: عمرِو بنِ العلاءِ[٥]:

---

(١)هو أبو عمر عبد العزيز بن مروان، و مصر عشرين سنة، وكان مولده با دينة وكان و العهد بعد عبد ا لك، عقد ما أبو ا كذلك، فلما مات عقد عبد ا لك البيعة لولده تو سنة ٨٥ هـ وتو مصر من بعده عبد اللهُ بن عبد ا لك بن مروان، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٧١- ١٧٤؛ شذرات الذاهب، ج ١ ص ٩٥.

(٢)أبو العتاهية.

(٣)هو أبو جعفر أ د بن يوسف بن القاسم بن صبيح، كاتب ا أمون على ديوان الرسائل كان من أفضل الكتاب عصره وأذكاهم وأ عهم ا اسن، يقول الشعر ا يد تو سنة ٢١٣ هـ، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٠٦؛ البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٦٩.

(٤)ديوان أ العتاهية، ص ٤١٠؛ ا اسن وا ساوئ، ج ١ ص ٢٦٧؛ عيون الأخبار، م ١ ج ١ ص ٨٥.

(٥)عمرو بن العلاء.

أتيتُكَ فأشددْ ما بقيتِ حِجابكا أكنتَ ترا حَيْثُ أبغِي بآبكا
وليس لشيءٍ غ ُ تسليمِ مرةٍ أتيتُكَ يا هذا فأغلقتَ بآبكَ
لك ا ألا جئتُ بآبك غ َ ما فعلـتُ ولا كلفتُ نفسي طِلابَكا

ولأ د بن عبدِا [(١)] مؤلّفِ كتابِ العقدِ آخِرِه:

ما بالُ بأبكَ جوب بنوابٍ تَحميهِ مِنْ طارقٍ يأ ومنتابِ
لا جبْ وجهَكَ ا مفوتَ مِنْ أحدٍ فا فتُ جُبه مِنْ غ حجاب
واعزلْ عَن البابِ مَنْ قدْ ظل رسُهُ فإن وجهَكَ طلسم على البابِ[(٢)]

وقال آخر:

حجابُكَ من مهابَتِهِ عسُ وخ ُكَ من بَر يدِهِ يسُ
خرجتُ كما دخلتُ إليكَ إلا تـراباً طارَ فـي جَفـ كثُ[(٣)]

---

(١)ابن عبد ربه وهو الصواب- كان من العلماء. ا كثرين من ا فوظات، والاطـلاع علـى أخبار الناس وصنف كتاب العقد وهو من الكتب ا متعة وله ديوان شعر وكانت ولادتـه سنة ٢٤٦ هـ، وتو سنة ٣٢٨ هـ ودفن مق ة ب العباس بقرطبة، وفيات الأعيان، م ١ ص ١١٠- ١١٢.

(٢)ديوان ابن عبد ربه، ص ٢٤، والبيت الأول الديوان ورد:

ما بال بابك روساً ببواب ميه من طارق يأ ومنتاب

العقد الفريد، ج ١ ص ٥٧.

(٣)العقد الفريد، ج ١ ص ٥٥- ٥٦، والشعر منسوب مود البغدادي مع اختلاف البيت الأول فقد روى كتاب العقد:

حجابك من مهابته عس وخ ك اليدين غدا يس ا

القسمُ الثاني من الكتابِ :في الحكاياتِ عنِ الخلفــاءِ والوزراءِ والعمالِ والأمراءِ الدالِةَ علـى مناقبِهِم وارتفاعِ مراتِبهِم ولنبدأْ بذكرِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ، رَضيَ اللهُ عنهُ، لقربِ عهــدِهِ ثُمّ من بعدِهِ على ترتيبِ وجودِهِم وتعـاقُبِ أزمنتِهِم إلى حيث ينتهي بنا الكلامُ وباللّه التوفيقُ..

رُوِيَ أنَّ معاوية ()كانَ يجلسُ ويأذنُ كُلَّ يوم خمسَ مراتٍ كانَ إذا صلَّى الفجرَ جلسَ فيقرأ القصصَ)ويقضي حاجَة مَنْ حَضَرَ ثُمّ يأخُذ المصحَفَ فيقرأ أجزاءً مِنَ القرآنِ الكريمِ(، ثُمَّ .يَدْخُلُ بيتَه فيأمُر وَيَنْهَى وَيُصلَّي أَرْبَعَ ركعاتٍ، ثُمَّ يقعُدُ في مَجْلِسِه وَيدْخُلُ إليهِ خاصةُ الخاصةِ ويدْعُو بالغداء الأصغرِ مِنْ فضلاتِ العشاءِ، ثمَّ يأمُر بكرسيِّهِ حيثُ المقصورةُ مِنَ المسجدِ، فيأتيه ابنُ السبيلِ والأعرابيُّ، وَمَنْ تُستدعَى من الاماءِ والعجائزِ والصبيانِ فيقضي حوائجَهُم، ولا يضجَرُ، ثُمَّ يدخُلُ منـزلَهُ فيأتِيه أشرافُ النَّاسِ والعلماءِ فيقضِي لَهُم الحوائِج، ثُمَّ يدعُو بغدائِهِ الأكبَرِ، فيطيلُ الأكلَ وَيُصْغِي لِكل أصحابِ الحوائج، ثُم يدخُلُ منـزلَهُ إلى الظُّهرِ فلا يراهُ أحدٌ، ثُمَّ يخرُج يُصلي الظُّهرَ ويدخلُ إليهِ الخواصُ، فإنْ كانَ أيامُ الشِّتاء دَعا بالحلواتِ اليابسةِ وإنْ كانَ صيفاً دعا بالفواكِهِ، فيأخذ من الأكل إلى العصْرِ، ثم يَجْلِسُ على سريرِهِ ويأذنُ للنَّاسِ إلى الغروبِ، ثم يأذنُ لخاصتهِ إلى ثُلُثِ الليلِ يسامرونَهُ، وينامُ الثلثَ الأوسطَ، ويصلي الثلثَ الأخيرَ، فلم يزَلْ على ذلكَ حَتى قَبَضَهُ اللهُ تَعالى .قِيلَ سَمرَ معاويةُ ذاتَ ليلةٍ، فَذكَرَ كلامَ الزرقاءِ بنتِ عديٍّ، امرأةٍ مِنْ أهْلِ الكوفةِ ممنْ نَصرَ عليًّا -عليه السلامُ -يومَ صِفِينَ ()فقالَ لأصحابِهِ :أيّكُم يحفَظُ كلامَ الزرقاءِ، فقالُوا :كُلّنا يا أميرَ المؤمنينَ نحفظُهُ فقالَ فما تُشيرونَ عليَّ فيها، فقالوا :نشيرُ بقتلِها، فقالَ :بِئْسَ الرأيُ رأيتُمْ أيحْسنُ بِمثْلي أنْ يتحدَّثَ الناسُ على، أني قَتَلْتُ امرأةً بعدَما ملكتُ فظفرتُ ثُمّ دَعا بكاتِبِه، فَكَتبَ إلى واليهِ بالكوفةِ أنْ أوفدْ إلى الزرقاءِ بنتِ عَدِيّ مَعَ نفرٍ من عشيرتِهَا وعدةٍ مِنْ فرسانِ قومِها وَمَهّدْ لَها وِطاءً لَيناً فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الكتابُ رَكِبَ إليهَا فأقرأهَا الكتابَ، فقالت :أَمَّا أنَا فغيرُ زائغةٍ عَنْ الطاعةِ، فإنْ كانَ أميرُ المؤمنينَ جَعَلَ الاختيارَ إليَّ لَمْ أرم منْ بَلَدي، وإنْ كانَ حَتَّمَ الأمرَ فالسمعُ والطاعةُ لَهُ، فَحَمَلَها على أَحْسَنِ مَطيةٍ في هَودَجٍ وَجَعَلَ غشاءَهِ خزاً مُبَطّناً، وأحسَنَ صحبتَها فَلَمَّا قدِمْت على معاويةَ، قالَ لها :مَرْحباً وأهلاً

خيرَ مقدمٍ قَدِمَهُ وافدٌ كَيْفَ حالُكِ يا خالةُ، وَكَيْفَ رأيتِ مَسيرَك فقالتْ خيرَ مسيرٍ كَأَنّي ربيبةُ بيتٍ أو طفل في مهد، فهلْ تعلمينَ لِمَ بعثتُ إليكِ، فقالتْ :لا يعلَمُ الغيْبَ إلا اللهُ فقالَ :ألستِ راكبةَ الجملِ الأحمرِ يومَ صفينَ، وأنت بينَ الصُّفينِ تُوقدينَ نارَ الحربِ، وتحضينَ على القتالِ، قالتْ :بلى قالَ :فما حملَكِ على ذلكَ، فقالتْ :يا أميرَ المؤمنينَ إنهُ قدْ ماتَ الرأسُ وَبترَ الذنبُ، والدَّهْرُ ذو غِيَرٍ ()، ومنْ تفكرَ أبصرَ، والأمرُ يحدثُ بعدة الأمرُ .قالَ :صدقتِ فَهلْ تحفظينَ كلامَكِ، قالتْ :لا واللهِ، قالَ :للهِ أبوكِ لَقدْ سمعتُكِ تقولينَ :أيها النّاسُ إنكُم في فِتنَةٍ عمياءَ صماءَ غشيتُكم جلابيبُ الظُّلمِ، وجارتْ بِكُم عنْ قَصْدِ المحجَّةِ فيا لَها من فَتنَةٍ لا يُسمعُ لقائِلِها، ولا تنقادُ لسائِقِها، أيُّها الناسُ إن المصباحَ لا يضيئُ في الشَّمْسِ وإنَّ الكواكِبَ لا تنيرُ مَعَ القَمرِ وانَّ البغلَ لا يَسبقُ الفرسَ، ولا يقطَعُ الحديدَ إلا الحديدُ، ألا مَنْ استرشَدَ أرشدْنَاهُ وَمَنْ سألنَا أخبرناهُ أنَّ الحق كانَ يطلبُ ضالتَهُ فوجدَها فصبْراً يا معاشرَ المسلمينَ من المهاجرينَ والأنصارِ على الغصصِ فكأنّه قدْ التأمَ شعبُ الشّتَاتِ وَظَهَرَتْ كلمةُ العدْلِ وَغَلَب الحقُ باطِلَهُ، فلا يُعَجِّلَنَّ أحدُكُم يقولُ :كيفَ ذلكَ لِيقضَيَ اللهُ أمراً كانَ مفعولا، إن خِضابَ النّساءِ الحناءُ، وخضابَ الرّجالِ الدماءُ، والصَّبرُ خَيْر في الأمورِ عواقب، أيها ()إلى الحربِ قُدَماً غيرَ ناكصينَ فهذا يومٌ لَهُ ما بعدَهُ، قالَ :يا زرقاءُ لقدْ شاركتِ عليًا -عليهِ السلامُ -في كلِ دَمٍ سَفَكَهُ، قالتْ :أحسنَ اللهُ بِشارتَكَ يا أميرَ المؤمنين وأدامَ سلامَتَكَ مِثْلُك بشَّرَ بخيرٍ وَسرَّ جَليسَه قالَ لَها وقدْ سرَّكِ ذلكَ، قالتْ :نَعَمْ واللهِ سرَّني قولُكَ وأنَّى لِي بتصديقِهِ قالَ معاويةُ :واللهِ لوفاؤُكُم لَهُ بَعْدَ موتِهِ، أعجَبُ إليَّ من حُبِّكُمْ لَهُ في حياتِهِ، اذْكِري حاجَتَكِ فقالَت :يا أميرَ المؤمنينَ إنّي آليتُ على نَفْسِي أنْ لا أسألَ أحداً أعنتُ عليه شيئاً أبداً، ومثلُكَ مَنْ أعطَى مِن غَيرِ مسألةٍ، وجادَ مِنْ غيرِ طَلَبةٍ قالَ :صدقتِ ثُمّ اقطَعَها ضيعةً استغلَّتْ مِنْها أولَّ سَنة عَشَرَةَ آلافِ درهم.

وَذُكِرَ أنَّ سَوْدَة بنتَ عمارةَ ()بنِ أسَدٍ استأذَنتْ عَليهِ فَلَمَّا أذِنَ لها قالَ :هيهِ يا بنتَ الأسَدِ ألسْتِ القائلةُ يومَ صِفّين:

يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقران	**شَمِّرْ كفعْلِ أبيك يا بن عِمارةٍ**
واقصِدْ لهِندٍ وابنِها بهَوَانٍ	**وانصرُ علياً والحسيْنَ ورَهطَه**
عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمان	**إن الإمام أخو النبيِّ محمدٍ**
قدُماً بأبيضَ صارم وسِنانٍ	**فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائِه**

فقالت بَلى يا أميرَ المؤمنينَ فَما مِثلي مَنْ رَغِبَ عَنِ الحقِّ ولا اعتذَرَ بالكذِبِ

قالَ :فَما حملكِ على ذلكَ، قالتْ :حُبُّ عليٍّ واتباعُ الحق، فقالَ :واللهِ ما أرى عَلَيكُمْ مِنْ أثَرِ علي شيئاً، فقالَتْ :نشدتُكَ اللهَ يا أمير المؤمنينَ مَن إعادَةِ ما مضَى وتذكارِ ما خَلا، فقالَ :هيهاتَ ما مِثْلُ مقامِ أخيكِ يُنْسَى، وما لقيتُ مِنْ أَحَدِ ما لقيتُ مِنْ أخيكِ وقومِكِ، قالت: صدقت يا أميرَ المؤمنينَ لَمْ يكُنْ أخِي واللهِ دَهِش ()المقالِ، ولا خفيٍّ المكانِ، وكانَ والله كما قالتِ الخنساءُ :()

وإنّ صخراً لتأتَمُ الهُداةُ بِهِ كأنّـ ـه علَمٌ في رأسِه نارُ ()

وأنا أسألُ أمير المؤمنين إعفائِي مما استعفيتُه مِنْه،، فقالَ :قد فعلتُ فما حاجتُكِ فقالتْ :يا أمير المؤمنينَ إنكَ أصبحتَ لِلناسِ سيِّداً، وَلأمرِهِم والياً، واللهُ سائلُك عَنْ أمورِنا، وما افترضَ اللهُ عليكَ من حَقِّنَا، وما يزالُ يقدِّمُ علينَا مَنْ يهجُمُ بعزكَ ويبطِشُ بسُلْطانِكَ، فيحصدنَا حَصْدَ السُّنْبلِ ويَدوسنَا دَوْسَ البقَرِ، ويسومنا الخِسْفَ، هَذا ابن أراطة ()قدِمَ عَلَينَا فقتَلَ رجالاً وأخَذَ أموالا، ولولا الطاعةُ لكانَ فينا عِزٌّ ومنعةٌ، فإما عزلته فشكرنَاك، وإلا عرفنَاكَ فقالَ معاويةُ :أبقومِك تُهدِّديني لَقدْ هممتُ أحملك على قتبٍ أشرس ()فاردُّك إليهِ فينفذَ فيكِ حُكْمَهُ، فاطرقتَ وَبَكَتْ .وأنشأتْ تقولُ:

صلّى الإلهُ على قبر تَظمَّنَهُ قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مدْفونا

قد حالَفَ الحقّ لا يَبغِي به بدلاً فصار بالحـق والإيمانِ مقْرُوناً

قالَ :ومنْ ذلكَ قالتْ :أميرَ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالب عَليهِ السلامُ قالَ وما علمكِ بذلكَ، فقالت أتيتُهُ في رَجُل ولاهُ عَلَينا .لمْ يكُنْ بينَنَا وبينَهُ إلا ما بينَ الغَثِّ والسمينِ، فوجدتُهُ قائماً يُصَلّي فلمَّا نَظَرَ إليَّ انفتلَ مِنْ صلاتِهِ فقالَ برأفةٍ ورحمةٍ ألكِ حاجةٌ، فأخبرتُهُ فَبَكى وقالَ :اللهمَّ أشهدْ عليَّ وعليهِم إني لَمْ أمرْهُم بظُلْمِ أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلا بِتَرْكِ شَيءٍ مِنْ حَقّكَ، ثُمّ أخْرَجَ مِنْ جيبِه قطعةَ جِلْدٍ، وكَتَب فيها ﴿ :**بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** ()﴾

﴿**وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** ﴾ .()إذا قرأتَ كتابِي هَذا فاحتفظْ بما في يدِكَ، حَتّى يقدِمَ عليكَ من يقبضُه مِنْكَ والسلامُ .فأخذْتُه مِنْهُ واللهِ ما حَزَمَهُ بحزامِهِ، ولا خَتَمه بطينٍ فعزَلَهُ بِهِ .فقالَ معاويةُ : اكتبوا لَها برَدَّ مالِها، والعدلِ علَيْهَا، فقالتْ :إليَّ خاصةً أمْ لِقومي عامةً فقالَ :ما أنتِ وقومك فقالتْ :هِي واللهِ الفَحْشَاءُ إذن اللؤمُ، إنْ كانَ عَدْلا شامِلاً، وإلا فَأنا كسائرِ قومِي .قالَ :هيهاتَ يا أهلَ العراقِ لمظكم ()علي بنُ أبي طالب الجرأةَ على

السُلطانِ، اكتُبوا لها بحاجَتِهَا ولسائِر قومِهَا .وَرُويَ أَنَّهُ أُتِيَ معاويةُ برجلٍ مِنْ أصحابِ أمير المؤمنين عليّ بْنِ أبي طالب عَلَيهِ السلامُ كانَ قد أَبْلَى معه بلاءً حسناً فقالَ معاويةُ :الحمدُ للهِ الذي أَمكَن مِنْكَ فقالَ :لا تَقُلْ ذلكَ ولكنْ قُلْ :إنا لله وإنا إليهِ راجعونُ، فإنها مُصيبَةٌ، قالَ :وأيُّ نعمةٍ هي أكبَرُ مَنْ أنْ الله قَدْ أظفَرني برَجُل، قَتَلَ بساعَةٍ واحدةٍ جماعةً مِنْ أصحابي، اضربا عنقَه فقالَ :اللهمَّ اشهدْ أَنَّ معاوية لمْ يقتلْني فيكَ وَلا أنَّك رضيتَ قتْلي ولكنْ يقتلُني على سبيلِ الغلَبةِ علَى حُطامِ هذه الدُّنيَا، فإنْ فَعَلَ فافعلْ بهِ ما هو أهلُهُ وإنْ لَمْ يفعلْ فافعلْ بهِ ما أنتَ أهلُهُ، قالَ معاويةُ : قاتلكَ اللهُ لقدْ سببتَ فابلغتَ بالسَّبِّ ودعوتَ فابلغتَ في الدُّعاءِ خليا عَنْهُ.

وَرويَ عَنْ معاوية أنة قالَ :اجْعَلوا لِلشعرِ أكثرَ هَمكُم وأحد دأبكم فإن فيه مآثرَ أسلافكُم، ومواضِعَ إرشادِكم، فَلَقدْ رأيتُني يومَ الهريرِ ()وقد عزمتُ على الهربِ، فما يَردُّنى إلا قولُ عَمْروِ بنِ الاطنابةِ ()حيثُ يقولُ:

وأخْذي الحمدَ بالثَّمنِ الربيح — أبتْ هِمَّتي وأبى حيائِي
مكَانِك تُحْمدي أو تستريحي — وَقَولي كُلما جشأتْ وجاشَت
وَضربي هامَةَ البطلِ المُشيح — وإقدامي على المكروهِ نَفْسِي
مسافَةَ بَينَ جُثماني ورُوحي () — لأني عالمٌ أنْ سوفَ تُنئا

وقال معاوية:

يُدافِعُ عَنْهُ الفرارُ الأجلْ — كأنَّ الجبانَ يَرى أنَّهُ
ويسلمُ منها الشجاعُ البطلْ() — فقد تدركُ الحادثاتُ الجبانَ

وقالَ معاويةُ لعبدِ الرحمنِ بنِ الحكمَ ()يا ابنَ أخي إنَّكَ لَقدْ لَهِجْتَ تقولُ الشَّعْرَ، فإياكَ والتشبيبَ، فَتُعِرَّ شريفَاً، وإياكَ والهجَاء، فتهجِي كريماً أو تثر بَهُ لئيماً، وإياكَ والمدحَ، فإنَّه كسبُ الخسيسِ، ولكنْ أفخرْ بمآثِرِ قومِكَ وقل في الأمثالِ، ما تزِّينُ نَفْسَكَ وَتَؤدَّبُ بِهِ غيرَكَ، فإنْ لَمْ تجدْ بُدّاً مِنْ المديحِ، فكنْ كالمبرار حينَ مَدَحَ، فإنه شَفَعَ بنفسِهِ حينَ بدأ بغيرِهِ فقالَ:

إن الكريمَ للكريمِ مُحِلٌّ () — أنزلتُ نَفسي في بني ثُعَل

وقيلَ :حَجَّ معاويةُ فلمّا دَخَلَ المدينةَ، قالَ الحسينُ ()بنُ علي لأخيهِ الحسنِ بن علي صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ :لا تَلْقَهُ ولا تُسلِّمْ عَليهِ فَلَمَّا خَرَجَ قالَ الحسنُ :إنْ علينَا دَيْناً ولا بدَّ مِنْ إتيانِه، فَرَكِبَ في أثرِهِ فَلَحِقَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وأخبَرهُ بدْينِه، فمروا عليهِ بُبختيٌ ()عليهِ ثلاثونَ ألفِ دينارٍ، قَدْ أعيى وتخلَّفَ عن الإبلِ وقومُ يسوقونَهُ فقالَ معاويةُ ما هذا؟ فَذكرَ لَهُ فقال :اصرِفُوا ما عَلَيْهِ لأبي مُحَمَّدٍ.

قالَ زيادٌ :ما غَلَبني معاويةٌ في شيءٍ منْ أمورِ السِّياسَةِ قطُّ، إلا في شي واحدٍ، وذلكَ أنِّي استعملتُ رجلاً، على دَستْ ميسانِ ()فكسر عليهِ الخراجُ فلحقَ بمعاوية، فكتبتُ إليهِ أسألُهُ تسليمَهُ إليَّ فكتبَ في جوابه :أمَّا بَعْدُ فليسَ ينبغِي لِمثلي ومثلكَ، أنْ نسوسَ الناسَ جميعاً بسياسةٍ واحدةٍ لكنْ تكونُ أنتَ للغلظَةِ والفظاظةِ، وأكونُ أنا للرأفةِ والرَّحمةِ، فإذا هَرَبَ هاربٌ وَجَدَ لَهُ باباً يلِجُ فيه والسلامُ.

وقيلَ لمعاويةَ آنتَ أدْهى أمْ زيادٌ؟ فقالَ :إن زياداً ليس يدعُ الأمورَ تتفرَّقُ عليهِ، بلْ يجمعُها قبلَ ذلكَ، وإنها لتتفرقُ عَليَّ ثُمَّ أجمعُها.

قالَ قومٌ لزيادٍ :بِمَ ضبطتَ العِراقَ، ؟قالَ :بالسَّيفِ، قال :أنا ضبطت العراقَ والشَّامَ والحجازَ بالحِلْمِ.

وَلَمَّا هَمَّ معاويةٌ بالبيعةِ لابنِهِ يزيدَ، كتبَ إلى زيادٍ يستشيرُهُ فيه فدعا زيادُ .عبدَ بنَ كَعْبِ النميري ()، فأوفَدُه على معاويةٌ فقالَ :إن لِكُلِّ مستشيرٍ ثِقَةٌ، ولكُل سِر مستودَعاً، وإنَّ الناسَ قدْ ابْتُدِعَتْ لَهُمْ خِصلتان، إضاعةٌ السرِّ وإفسادُ النَّصيحةِ، وليست يُستْودَعُ إلا عِندَ رَجلين :رجلٌ يَرجُو ثوابَ الآخِرَة، ورجل لَهُ حَسَبٌ وعقلٌ، يصون حَسَبهُ وعقلَهُ، وإن أميرَ المؤمنينَ يستشيرني، وعلاقةٌ الإسلامِ وضمانهُ شديدٌ، لأنَّ يزيدَ صاحِبُ لَعِبٍ وتهاونٍ، مَعَ ما أولعَ فيهِ من الصَّيدِ .فألقَ أميرَ المؤمنينَ مؤديّاً عَنِّي، فَأخبرْهُ وَقُلْ لَهُ رويدَكَ في الأمرِ يستقيمُ، فإن دَرْكاً في تأخيرٍ خير مِنْ تعجيل أخافُ عاقبَتَهُ ولا تدرِي إلى ما يصيرُ الأمرُ فلمَّا بَلَّغَة الرسالةَ، أخذَ معاويةٌ برأيِ زيادٍ وأخَّرَ بيعتَهُ .()وكتبَ إلى سعيدِ بنِ العاصِ ()يستشيرُه، فرجَعَ جوابُه إليهِ أنهُ قد بَقِيتْ مشيَخة مِنْ أصحاب رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّمَ فرويداً بهذا الأمرِ، لعلَّهُم ينقرضونَ .فقال معاويةٌ :صَدَقَ سعيدٌ فأخَّرَ البيعة ولم يزلْ يُداري الناس، بعدَ ذلكَ سبعَ سِنينَ، إلى أنْ تَمَّ لَهُ الأمرُ.

وقيلَ :إنَّهُ استشارَ الأحنفَ بنَ قيس، فقالَ :أدخلُ على يزيدَ فأدخَلَهُ عليهِ، فلَمَّا خرجَ قال لَهُ معاويةٌ :كيفَ رأيتَ يزيدَ، فقالَ :رأيتُ شباباً وجلداً ونشاطاً، ثُمّ قالَ : نخافُكم إنْ صدَقنا ونخافُ اللهَ إنْ كَذبنَا، وأنْتَ أعلمُ يا أمير المؤمنينَ بليلِهِ ونهارِهِ، ومدخلِهِ ومخرجِهِ، وسرّهِ وجهارِه، وإيرادِهِ وإصدارِهِ، فإنْ كنتَ تعلَمُ أن فيهِ للهِ رِضىً، ولهذه الأمةِ صلاحاً، فلا تشاوِرْ الناسَ، وإنْ كنتَ تعلَمُ مِنهُ غيرَ ذلكَ، فلا تزوِّدْهُ الدّنيا وأنت عائِدٌ إلى الآخرة وإنما علينَا السَّمعُ والطاعة فقالَ معاوية :جزاكَ اللهُ عن الطاعةِ خيراً.

ولما أخذَ معاويةٌ في البيعَةِ ليزيدَ، قالَ لَهُ :يا بُني، لَقَدْ ذَللت لكَ الشدَّةَ، ومنحتُكَ

اللينَ، وتحملت دونَك الغِلظَة، وقد وليتُكَ أمراً عظيماً مِنْ أمرِ الأمةِ، وليسَ حيٌّ مِنْ أحياءِ العربِ إلا ولَهُ عِندي ترةٌ ()قدْ كنتُ أشغِلُهُ عنَها بحسنِ الوفادَةِ، وجزيلِ الرّفدِ، حَتّى تركتُ قلوبَهُم كالطينَةِ المؤتثةِ فلا تخالفن فعْلِي فِيهِم فعليكَ بإدرارِ عَطيّتكَ، ومباشرَةِ أمورِكَ، ولا تشغَلْ نفسَكَ بمفاكهة الإماءِ ومداعبتِهن، فإن ذلكَ من فِعْلِ ضعفَةِ الرِّجالِ .وانْظُرْ هؤلاءِ الأربعةِ مِنْ قريشٍ، أما الحسين بنُ عليّ فإني قد أوصيتكَ فيهِ بِحفْظِ قرابتِهِ ورعايةِ حَقِّ رَحِمِهِ فإن القلوبَ إليهِ جانحةٌ فاجعلْ لَهُ عِندَ ظَفَرِكَ نصيباً من رحمكَ، واطوي كشحاً عَن ابنِ عُمَرَ، وابنِ أبي بَكرٍ، فإنّهما كمثْلِ الهقلِ ()لا يحملُ ثقلاً ولا يجمعُ نهوضاً وأما ابنُ الزبيرِ فكالثعْلَبِ رواغَ بالحيلةِ وكالليثِ صال بالجراءةِ .()

وفي روايةٍ أُخرَى أنَّه قالَ :أمّا عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ ()فقدْ شغلتْه العبادَةُ

وأمّا عبدُالرحمنِ بنُ أبي بكرٍ ()فليسَ لَه هِمةٌ إلا في النِّساءِ واللهو.

فَلمَّا بُويعَ يزيدُ ()حَجّ بالنَّاسِ وَقسَّم بمكة والمدينةِ أموالا كثيرةً وقالَ لَهُ عبدُاللهِ بنُ الزبير :إذا خرجْتَ فاخرِجْ مَعَكَ الحسينَ بنَ عليّ، واطلبْ من مروان دارَه فإنَكَ لا تأتي بفائدةٍ مِثلَها، فقالَ ما اتَّهُم رأيكَ، أما الحسينُ فإني أوفدُ إليهِ فإنْ خَرج مَعَهُم وأقامَ بالشامِ، عرفنا حَقَّهُ، ورعينا قرابتهُ وإن رجعَ إلى أهلِهِ، لم ندعْ صِلَتَه، فقدْ أقام دهره بالمدينةِ، لم يأتِنا مِنْه ما نكرهُ.

وكَتبَ معاوية إلى سعيدِ بنِ العاصِ، وهو أميرُ بالمدينةِ، بالقبضِ على مالِ مروانَ بنِ الحكمِ ()، فَلَمْ يفعلْ فراجَعَهُ فيهِ، ثُمّ كَتب كتاباً ثانياً فدافَعَه واحتفظَ بالكتابينِ، فَلَمّا عُزِلَ سعيدُ وَولِيَ مروانُ بن الحَكَمِ المدينة وَكَتَبَ إليهِ بالقبْضِ على أموالِ سَعيدٍ فأرسل مروانُ بالكتابِ مع ابنِهِ عبدِ الملكِ إلى سعيدٍ وقالَ :لو لَمْ يكنْ الكتابُ لتجافيتُ عَنْ ذلكَ، فَدعَا سعيدٌ بالكتابينِ، فَأعطاهُما عَبْدَ الملكِ فَجَاءَ بِهما إلى مروانَ، فَلَما قرأهُما قالَ :هو أفضلُ مِنّا فكفَ عن قبضِ أموالِ سعيدٍ.

وقالَ سعيدٌ لولدِهِ :مَنْ أتاكُم في مجالِسِكم، فقد وَجَبَ حَقُّهُ عليكُم ومن أتاكُم في منازِلِكم، فقد وَجَبَتْ حُرمتُهُ عليكُمْ، ومن أتاكُم في حاجةٍ فَلاَ تدخروهُ شيئاً، فمنّتُهُ عليكم أعظمُ إذ رأكم موضعاً لحاجتِهِ.

وَلَمّا حَضَرتْ سعيدَ بنَ العاصِ الوفاة، قالَ لبنيهِ أيّكُم يكفلُ بديني فقالَ ابنُهُ عمروٍ الأشدقُ ()، :وكَمْ دينُكَ، قالَ :ثمانون ألفاً، قالَ :وفيمَ استدنتها قالَ :سَدَدْتُ بِها خلةً من كريمٍ واشتريت بِها عِرضْي مِنْ لئيمٍ، فإذنْ أنَا بها زَعيمٌ، قالَ :هَذِهِ خصلة واحدةٌ يا بُنيَّ وخصلتانِ قالَ :ما هُما قالَ :بنَاتي لا تزوجوهُن إلا من الأكفاءِ، ولو

تعلّقَ حبلٌ مِن الشَّعْرِ، قالَ عَلَيَّ :يا أبتي قالَ :وإخواني إنْ فقدُوا وَجْهي لم يفقُدوا مَعروفي قالَ :عليَّ :يا أبتي قالَ :واللهِ يا بُنيَّ، ما زلتُ أعرفُ الكرمَ في وجهِكَ، وحماليقِ عينيكَ، وأنتَ في المهدِ، واللهِ يا بُنيَّ ما شتمتُ أحداً، منذُ كنت رَجُلاً، ولا زاحمتُ بركبتي رجلاً ولا كلفت من يرتجيني أنْ يسألني .وقالَ زيادُ :استوصوا بثلاثةٍ منكُم خيراً الشريفِ، والعالمِ، والشيخِ واللهِ لا يأتيني شريفٌ بوضيع، استخف بهِ إلا ضربتُهُ، ولا يأتيني شَيْخٌ بشابٍ استخف بهِ إلا أوجعْتُهُ، ولا يأتيني عالِمٌ بجاهِلٍ استخفَّ بهِ إلا نكلتُ بهِ .ولهذا قالَ :ارحموا ثلاثةً :غنيَّ قوم افتقرَ، وعزيزَ قوم ذلَّ، وعالماً بينَ جُهّالٍ.

واختصمَ إلى زيادٍ رَجلان، فقالَ أحدهما :أصلَحَ اللهُ الأميرَ إنَّ هذا يدُّلُ بخاصتِهِ، يَزْعَمُ أنها لَهُ مِنكَ، قالَ :صَدَقَ وسأخبرُكَ بما ينفعُهُ عندي مِنْ مودتِه، إنْ كانَ الحق لَهُ عليكَ أخذتُكَ بهِ أخذاً عنيفاً، وإنْ كانَ الحق لكَ عليهِ أقضي عليهِ، ثم أقضِي عَنْهُ.

وكانَ زيادٌ إذا وَلَّى رَجُلا، قالَ لَهُ :خُذْ عَهْدَكَ وَسِرْ إلى عَمَلِكَ، واعلمْ أنكَ مصروفُ رأس سنتك، وأنتَ تصيرُ إلى إحدَى ثلاثِ خصال، فاخترْ لِنفسِكَ، إنْ وجدناكَ أميناً ضعيفاً استبدلْنَا بِكَ لِضَعفِكَ وَسلَّمتكَ من معرَّتِنا أمانتُكَ وإنْ وجدنَاكَ خائناً قوياً استهنَا بقوتكَ وأحسنَا على خيانتِكَ أدبَكَ وأوجعنا ظَهرَكَ وإنْ وجدناكَ قويَّاً أميناً زِدنَا في عَمَلِكَ ورَفعنَا لَكَ ذِكْركَ وأوطئنَا كعبكَ وَكثْرنا مالكَ.

وكانَ لزيادٍ سياسةٌ عظيمة، حتى إنَّهُ كانَ لا يُغْلِق أبوابَ الحوانيتِ في الليلِ . وَمَا ذُكِرَ مِن حُسْنِ تدبيرِهِ أنهُ أُتيَ بإمرأةٍ كانتْ قدْ خَرَجتْ مَعَ الخوارجِ في الحرْبِ، فقتَلَها ثُمّ عرَّاها .فلَمْ يخرجْ النساءُ عليه بَعْدَ ذلكَ وكُنَّ إذا دعينَ إلى الخروجِ قُلْنَّ لولا التعريةُ لسَارعنَا إلى الخروج .وكان يقتُلُ المظاهرِ بالخروج، ويستصلِحُ المسر مِنْهُم، حتَّى يستكفي شرهُم، وخروجَهم عَلَيهِ وكان يبعثُ إلى الجماعةِ مِنهْم، فيقولُ ما أحسَبُ الذي يمنُعُكم مِن إتيانِي إلا الرُّجلةُ ()فيقولونَ أجَلْ، فيحملُهُم فيقولُ أغشوني الآنَ، واسمرُوا عِنْدِي.

وكَانَ عُمَرُ بنُ عبدِالرحمنِ رَحِمَهُ الله يقولُ :قاتلَ اللهُ زياداً جمعَ لَهُم كما تجمعُ الذرةُ، وحاطَهُمْ كما تحوطُ الأمُّ البرَة، وأصلَحَ العراقَ بأهلِ العراقِ، وتَرَكَ أهْلَ الشامِ في شامِهِم.

ولمّا وَلّيَ يزيدُ بنُ معاويَة سَلْمَ بن زيادٍ ()قالَ :إن أبي استكفَى أباكَ كبيراً، وقَدْ استكفيتُكَ صغيراً، فلا تتكلنَّ عليَّ عُذْر مني فقدْ اتكلتُ على كفايةٍ منكَ، وإيَّاكَ مِنِّي

قبلَ أنْ أقولَ إيايَ مِنكَ، فإنَّ الظَّنَّ إذا أخلفَ مِنْكَ أخلفَ لَكَ، وأنتَ في أدنى حَظِّكَ، فاطلبْ أقصاهُ وَقَدْ أتعبَكَ أبوك، فلا تريحنَّ نفسَكَ، واطلبْ في يومِكَ أحاديثَ غَدِك، وَكُنْ لِنفسِكَ تَكنْ لَكَ.

وَدَخَلَ عبدُاللهِ بنُ جعفرٍ ()على يزيدَ بنِ معاوية فأكرَمَهُ، وقالَ بِكَمْ كان يصلُكَ معاويةُ، فقالَ كان يصلُني بألفِ ألفِ درهم وترَّحمَ عليهِ .قالَ يزيدُ :وَقَدْ زدناكَ ألفَ ألفٍ أخرى، لتَرَحُّمِكَ عَلَيْهِ

أَخَذَ مُصْعَبُ بنُ الزبيرِ ()رَجُلاً مِنْ أصحاب المختارِ ()، فأمرَ بضربِ عُنقِهِ فقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، ما أقبحَ مِنْ أنْ أقومَ يومَ القيامةِ إلى صورتِكِ هذه الحسنةِ، ووجهِكَ هذا الحسنِ، الذي يُستضاء بِهِ فأتعلَّقُ بأطرافِكَ فأقولُ :أي رَبِّ سَلْ مُصْعَباً فيمَ قتلَني، فقالَ :أطلقوهُ، قالَ :أيُّها الأميرُ اجعلْ ما وهبتَ لي مِن عُمْرِي في خفض، قال :قد أمرتُ لك بمائةِ ألفِ درهم، فإني أشهدُ الله تعالى وأشهدُ الأميرَ، أنَّ لابنِ قَيْسِ الرقياتِ ()نصفَها، قالَ :ولَمَ قالَ لِقولِه:

إنما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ	تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَحمةٍ ليسَ فيهِ	جبروتُ مِنْهُ ولا كِبْرِياءُ
يتقي اللهَ في الأمورِ وَقَدْ	أفلَحَ مَن كَانَ هَمُّهُ الاتِّقاءُ ()

فَضَحِكَ مصعبُ، وقالَ :أرَى فيكَ مَوْضِعاً للصنيعةِ، فأحْسَنَ جائزَتَهُ.

ولَمّا بَلغَ عَبدَالله بنُ الزبيرِ، قتلُ أخيهِ مُصعَبٍ خطبَ الناسَ فقالَ :الحمد لله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء إنه لم يذل من كانَ الحقُّ مَعَهُ، وإنْ كَانَ فرداً، ولم يُعز مَنْ كان مِن أولياءِ الشيطانِ وإنْ كانَ مَعَهُ الثَّـقلانِ .أتانا خبرٌ من العراقِ، أحزنَنَا، وأفرَحَنا، قتلُ مُصْعَبٍ يرحمه اللهِ، فأما الذي أحزَنَنا، فإن لفراقَ الحميمَ لَوعةٌ، يجدُها حميمُهُ عندَ المصيبةِ، ثمَّ يَرْعوي ذَوي الرأي، إلى جميلِ الصَّبْر وكريمِ العزاء، وأمَّا الذي أفرَحَنا فَعَلِمْنَا أنَّ قَتْلَهُ شهادةٌ، وأن ذلكَ لَنا ولَهُ فيه الخيرةُ . ألا وإنَّ أهلَ العراقِ أهلُ الشِّقاقِ والنِّفاق؛ باعوهُ بأقلِّ ثَمَنٍ كانوا يأخذونَهُ مِنْهُ، إنَّا واللهِ ما نموتُ حبجاً، وما نموتُ إلا قصعاً بالرماحِ، وتحتَ ظلالِ السيوفِ وليسَ كما يموتُ بنو مروانَ، حبجاً، واللهِ إنْ قُتِلَ منهم رجلاً في جاهليةٍ ولا إسلام ألا وإن الدُّنيا عاريةٌ مِن الملكِ الأعلى، فإنْ تُقْبِلْ عليَّ لا آخذُها أخذَ البَطِرِ الأشرِ ()، وإنْ تدبرْ عنِّي لا أبكي عليها بكاءَ الحَزِنِ المهترِ.

قلتُ الحبجُ، إنْ ينتفخ بطنُ الدابة، مِنْ كثرةِ الأكل فتموتَ .والقصْعُ أنْ يطْعَنَ ويضربَ، فيموت مكانَهُ في الحالِ .والمهترِ الذي يسقطُ في كلامِهِ من الكِبَرِ .وقالَ

المهلّبُ :بنُ أبي صفرةَ لبنيه :يا بنيَّ إن ثيابَكم على غيرِكم أحسنُ مِنْهَا عليكُم، وإنَّ دوابَكم تحْتَ غيرِكم، أحسنُ منها تحتَكم.

وقالَ أيضاً لبنيهِ :لا تتكلوا على ما سبقَ من فِعْلِي، وافعَلوا ما يُنسَبُ إليكُم . وأنشد:

وأحيا فِعالَهُ المولودُ 0	إنما المجدُ ما بنا والدُ الصِّدْقِ

وقالَ لابنِهِ يزيدَ :0اخفضْ جناحَكَ، واشتدَّ في سلطانِكَ فإنِّي رأيتُ الناسَ للسلطانِ، أهيبَ مِنْهم للقرآنِ.

ومرَّ في الكوفةِ بحيٍّ من همدانَ، في نادٍ لَهُم فقالَ رجلٌ مِنْهُم واللهِ ما يساوي إلا خمسمائةِ درهم، وكانَ المهلبُ أعوراً، فنظر إلى الرجلِ حتى أثبتَه، فلما خَرَجَ بالعشى، حَمَلَ في كَفّهِ خمسمائةِ دِرْهمٍ، ثُمَّ ضَرَبَ دابتَه حتى وقفَ في نادي همدانَ، فبصرَ بالشَّاب فقالَ :افتحْ حِجْرَكَ، وقالَ دونَكَ يا ابنِ أخي قيمةَ عمّكَ .فَواللهِ لَو قوَّمتَهُ بأكثرَ مِنْ هذا لجاءتك فقالَ الفتى :واسوأتاهُ قالَ المهلبُ :لا ضيرَ، فقالَ شيخٌ من همدان :ما أخطأ من سَوّدَكَ.

وَقَدِمَ زيادُ بنُ الأعجمِ، على المُهلّبِ بن أبي صُفْرَةَ الأزديّ بخرسانَ فنـزلَ على ابنه حبيبٍ 0فَجَلَسَا على شرابٍ، وفي الدَّارِ شجرةٌ عليهَا حمامةٌ فَجَعَلَتْ تغَرِّدُ فقالَ زيادُ:

وذِمَّة والدي أن لا تُضاري	تَغّنيْ أنتِ في ذِمَمِي وعَهْدِي
ذكرتُ أحبّتي وذكرتُ داري	إذا غنيت أو طربت يوماً
بقتلِهم لأنّـكَ فـي جِواري	فإمَّا يَقتلـوك طلبتُ ثأري

فَأخَذَ حبيبُ سَهْماً، فَرَماهَا فأثبتَها، بهِ فماتَتْ .فقالَ زيادُ :قَتَلْتَ جاري، بيني وبينَك المهلّبُ، ثُمَّ أتى المهلّبَ، فأخبَرَهُ فقالَ :يا حبيبُ ادفعْ إلى أبي أمامةَ ألفَ دينارٍ، فقالَ حبيبُ :أعزَّ اللهُ الأميرَ إنَّما كُنْتُ ألْعَبُ، فقالَ :مَعَ هذا اللّعِبِ جارُ أبي أمامةَ جارِي، فَدَفَعَ حبيبُ إليهِ ألْفَ دينارٍ، فَأنْشَأ زيادُ يقولُ:

قضاهَا فَأمْضَاهَا الأميرُ المهلّبُ	فَلِلهِ عَينا مَنْ رأى مِنْ قضيَّة
مِنَ الطّيرِ حَضانٌ على البيْضِ يَنْعَبُ	قضَى ألفَ دينارٍ لجارٍ أجرتُه
	رماهُ حبيبٌ بنَ المهلّبِ رميةً
فأنفذَهُ بالسَّهْمِ والشمسُ تغربُ	فألزَمَهُ عقلَ القتيلِ بأسْرِهِ
فقالَ حبيبُ إنَّما كنتُ ألْعَبُ	فقالَ زيادُ لا يـروعُ جـارَهُ
وجـارُهُ جاري بل من الجارِ أقربُ	

فَلَمَّا سَمِعَها المهلَّبُ أجازَهُ بجائزةٍ حَسَنَةٍ وصرفه مكرَّماً .فَبَلَغَ ذلك الحجاجَ فقالَ :ما أخطأتَ العربِ إذْ جَعَلَتْ المهلَّبَ شَيْخَها.

وَقفَ أعرابي على عَبدِ الملِكِ بْنِ مروانَ [0]، فَسَلَّمَ ثُمَّ قالَ :يَرْحَمُكَ اللهُ أنَّهُ مَرَّتْ بِنا سنونَ ثلاثٌ أمّا إحداها فأخذَتِ المواشيَ وأمَّا الثانِيَةُ فنَفَضتِ اللَّحمَ، وأمَّا الثالِثَةُ فخَلَّصت إلى العظمِ، وعِنْدَكَ مالٌ فإن يكنْ للهِ فأعطِهِ عِبادَ اللهِ وأنْ يكُنْ لَكَ فَتَصَدّق علينا، إن اللهَ يَجْزِي المتَصَدِّقينَ فَأعْطَاهُ عشَرَةَ آلافِ درهمٍ وقالَ :لَوْ كانَ النَّاسُ يُحْسِنُونَ يَسْألُونَ ما حَرَمنا أحداً .قصةَ إبراهيمَ بنِ محمدٍ بنِ طلحةَ مع الحجاج الواردَةَ في صَفْحَةِ ١٤٦-١٤٤في هذا الموضِعِ ولَمّا كنتُ أُحقّقُ الأصلَ فَقدْ اكتَفَيْتُ بذكرِهَا هُناكَ وَكَما وَرَدَتْ في الأصْلِ مراعاةً لِحرمةِ الأصلِ.(

ولمَّا وَلّى عبدُ الملِكِ [0]، الحجَّاجَ [0]كَتَبَ إليهِ إني قَدْ استعملتُكَ على العراقينِ، صَدْمَةً فَأَخْرِجَ إلَيْهِمَا كميشَ الأزارِ، شديدَ العذارِ، مُنْطويَ الخصيلةِ، قليلَ الثميلةِ، غرارَ النومِ، طويلَ اليومِ.

فَلَمَّا دَخَلَ الحجاجُ الكوفةَ، أتاهُم آتٍ فقالَ :إنَّ الحجاجُ قَدْ قَدِمَ أميراً على العراقِ فاشْرَأَبَّ الناسُ نَحْوَهُ، وتطاوَلُوا ثم أفْرَجُوا لَهُ فُرْجَةً عَنْ صَحْنِ المسجِدِ، فإذا هو يَتَبهنسُ في مِشيتِهِ، مُتَلَثماً بعمامةِ خزٍّ حمراءَ، مُتنكباً قَوْساً عربيةً يؤمُّ المنبرَ فرقاهُ وجلَسَ .وأهلُ الكوفةِ إذْ ذاك لَهُمْ مَنَعَةٌ وفي المسجِدِ عُميرُ بنُ ضابيٍ [0]، فقالَ لِمحمّدٍ بن عطاءٍ :هَلْ لَكَ أنْ أحصبَهُ فقالَ :لا حتى نسمَعَ كلامَهُ، فقالَ :لَعَنَ اللهُ بَني أمية حيثُ يستعملونَ علينَا هذا لو كَانَ هذا كُلُّه كلاماً، لم يكُن شيئاً.

فقالَ الحجاجُ :يا أهلَ العراقِ أنَا لا أعْرِفُ قَدرَ اجتماعِكُمْ أفقدْ اجتمعتُمْ، فقالَ رَجُلٌ :قد اجتَمَعْنا أعَز اللهُ الأميرَ فَسَكَتَ هنيهةً لا يتكلَّمُ، فَقَالوا يمنعُهُ العيُّ والحَصَرُ ثُمَّ قامَ فَحدَّرَ اللثامَ وقالَ:

مَتى أضَعُ العمامَةَ تَعْرِفُوني — أنا ابْنُ جَلا وطلاعُ الثنايا
كَنصلِ السَّيفِ وضاح الجبينِ — صليبُ العود من سَلَفِي نـزارِ
ونجذني مداورةَ الشّؤونِ [0] — أخو خمسينَ مجتمعٌ أشدي

يا أهلَ العراقِ إنِّي أرَى رؤوساً، قدْ أينعتْ وحانَ قطافُها، وإنِّي لصاحِبُها وكأني أنظرُ إلى الدماءِ، بين العمائِمِ واللِّحَى.

ليسَ أوانٌ يكثُرُ الخِلاطُ — ليس أوانُ عشكِ فادَّرجي
أرْوَع خَراجٍ مـن الـدَوّيِّ — قد لَفّهـا اللّيْلُ بعصْلَبيٍّ

مُهاجرٍ ليس بأعرابيٍّ

قد لفَّها الليلُ بسواقٍ حُطَمْ ....

ولا بجزارٍ على ظهْرِ وَضمْ () لَيْسَ براعِي إبلٍ ولا غَنَمْ

إني واللهِ يا أهلَ العراقِ، ما يُغْمَزُ جانبي من اللّينِ، ولا يقعقعُ لي بالشّنانِ () ولقد فررتُ عن تجربةٍ، وأجريتُ مع الغايةِ، وأنَّ أميرَ المؤمنينَ نكثَ كِنانَتَهُ بينَ يديهِ، فَعَجَمَ عيدانَها، فوجدَني أمرَّها عُوداً، وأصلبَها مَكْسِراً فوجهني إليكُم .

فوالله لاعصبنَّكم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولألحونَّكم لَحْوَ العودِ، وَأضربنَّكمُ ضَرْبَ غرائبِ الإبلِ، وَلآخذنَّ الوليَّ بالولي، حتى تستقيمَ لي قناتُكم، حَتَّى يَلقَى أحدُكم أخاهُ فيقولُ انجُ سعدُ فَقَدْ قُتِلَ سُعَيْدُ ألا وأيايَ وَهذه السقفاءَ والزرافاتِ، فإني لا أجِدُ أحداً من الجالسينَ في زرافةٍ، إلا ضربتُ عُنُقَهُ .فاستوسِقُوا واعتدِلوا، ولا تميلُوا وأطيعُوا .واعلمُوا أنَّه ليس مِنِّي الاكثارُ والإهذارُ ولا معي ذلكَ الفرارُ والتعرارُ، وإنَّما هو انتضائِي هذا السيفَ، ثُمّ لا أغمدُهُ الشتاءَ ولا الصيفَ حَتّى يَظْهَرَ أمرُ اللهِ، ويذلَّ لأميرِ المؤمنينَ صعبُكُم، ويستقيمَ له أودُكُم وصعرُكم، وإن أميرَ المؤمنينَ أمَرني بأعطياتِكُم، وأشخاصِكُم إلى مجاهدةِ عَدوّكُم، وقد أمرتُكم بذلكَ، وأجلتُكم ثلاثاً، وأعطيتُ الله عهداً لأنْ تَخَلَّفَ أحدٌ مِنْكُم، بعدَ قبضِهِ عطائِهِ يوماً واحداً لأضربَّن عنقَهُ، ولأنهبنَّ مالَهُ .يا غلامُ اقرأ كتابَ أميرِ المؤمنينَ، فقرأهُ ثُمّ دَخَلَ دارَ الإمارةِ.

وهذه الحكايةُ قَدْ اشتملتْ على ألفاظٍ كثيرةٍ، من الغريبِ، وأنا أُشيرُ إلى بيانِها على سبيلِ الاختصارِ .قولُهُ صَدْمَةً، أي ضربةً واحدةً ودفعةً واحدةً، وكميشَ الازارِ، مُشمَرَ الازارِ ويقالُ في المَثَلِ لِمنْ جَدَّ في الشيءِ وَشَمّرَ فِيهِ :هو كميشُ الازارِ، شديدُ العذارِ، والخصيلةُ، لَحمُ الفخذينِ وَلَحْمُ السَّاقينِ وأراد بذلكَ الاسراعَ والجدَّ في الأمرِ .والثميلةُ، البقيةُ مِن الطَّعامِ والشرابِ في بطنِ الإنسانِ، أرادَ أنْ لا يستكثرَ مِنَ الطعامِ ويشتغلَ بصنوفِهِ، ولكن اقتصرَ على ما لا بُدَّ مِنْهُ فعلَ الجادِّ المُشَمِّرِ وغرارَ النَّومِ، قليلَهُ ويقالُ لِمنْ عَمِلَ في يومِهِ وَجَدَ فيهِ، وَلَمْ يشتغلْ بِلهوٍ ولا لَعِبٍ :هو طويل اليومِ، فَإنْ اشتغلَ بالشَّرابِ واللهو قِيلَ :هُوَ قصيرُ اليومِ .واشرأبَّ الناسُ تطاولوا وأشرفوا .تبهنَسَ :تمايلَ في مَشيَتِهِ وتخايلَ وَيُقالُ لِمنْ كانَ ظاهِراً مشهوراً غيرَ خافٍ ولا خاملٍ هُوَ ابنُ جَلا .والثّنايا :ما ارتفعَ مِنَ الأرضِ وَغَلُظَ ويقالُ لِمنْ لَم يزلْ يفعلُ أفعالاً شريفةً هُو طلاّع الثنايا .ويقالُ للقوِّي في أمرِهِ :هو صليبُ العودِ، والأشدّ، جَمْعُ شِدّةٍ وهو القوةُ، يقالُ لِمنْ جَرَّبَ الأمورَ وأحكَمَها :هو

منجِدٌ والناجدُ :أقصى الأضراسِ، والشؤونُ جمعُ شأنٍ يقالُ أينعتِ الثمرةُ إذا أدركتْ وبلغت وقطْفُ الثمرةِ أخذُهَا فَشَبَّه الرؤوسَ بذلك، ليسَ أوان عشك فادّرجي يُضْرَبُ مَثَلا لِلْمطمئنِّ وَقَدْ أظلَّهُ أمرٌ عظيمٌ يحتاجُ إلى مباشرتِهِ والقيامِ بأمرِهِ .والخلاطُ الفسادُ وهو شبيهٌ بالمثلِ الأولِ .ويقالُ :العصلبيُّ الشديدُ مِنَ الرجالِ فَجَعَلَهُم بمنزلةِ ناقةٍ أو إبل لِرَجُلٍ قَوِّي شديدٍ يسري عليها ويتبعُها ولا يَرْكَنُ إلى دَعَةٍ ولا سكونٍ، فجعلَ ذلكَ كذلك ولَفَّ :جمع وأروعُ :جميع، والدَّاوي :جمع داويةٍ وهي الفلاةُ يريدُ أنّهُ صاحبُ أسفارٍ وَرَحْلٍ، والحُطَمُ :العنيفُ من السَّوقِ وهو شبيهٌ بالمثلِ الأولِ : والوضِمْ :كل ما وقيتْ بِهِ اللحمُ من خَوانٍ أو حصيرٍ أو غيرِه، يقالُ يُقعقِعُ بالشِّنانِ : أيْ يُحَرِّكُ الشنانَ وهو ما خَلُقَ من الأسقيةِ وأصلُهُ أنْ يُحَرك الشّنَ، حَتى يُسْمَعَ لَهُ صَوْتٌ، لِيَفِّرَ بِهِ الوحوشَ ويجلِبَ بِهِ على الطّيرَ وشَبَهَهَا، يقولُ :لستُ مِمّنْ يروعُ بالأباطيلِ وَيقرعُ بالتخيلاتِ، وقولُهُ فررتُ عن تجربةٍ أصلُهُ أنْ يفرَّ الدابَة أي يكشِفُ جَحْفَلَتها، لينظرَ إلى أسنانِها فيعرفَ بها سِنَّها والكنانةُ التي يكونُ فيها السِّهامُ، وَنَكَتْها أي كَبَّها وصبَّ ما فيها، والعجْمُ الاختبارُ يُريدُ أنَّه اختبرَهَا، لِيعلَمَ صلابَتها من خَوَرِهَا وقويِّها من ضعيفِها، وعصْبُ السَّلَمةِ يقالُ إنَّ الرجلَ إذا حَطَبَها شَدَّها بنسعَةٍ لئلا يصيبُه شوكُها، يَضرَبُ مَثَلا لِمَنْ عصبْتُه بِشَرٍ وأمرٍ شديدٍ، يُقالُ : لحوتُ العودَ ولَحيتُهُ إذا قَشَرْتُهُ، يُقالُ في المَثَلِ :ضربَهُ ضَرْبَ غرائِبِ الإبلِ والأصلُ فيه أن الإبلَ إذا وَردتْ فدخَلَ فيها غريبُهُ ليستْ مِن الإبلِ عن الماءِ وضربتْ حتى تَخْرجَ عَنها، ويقالُ في المثلِ لمنْ يُعنى برحمه أو حميمه :أنجُ سعدٌ فَقَد قُتلَ سُعَيدٌ وَأصلُه أنَّ سعداً وَسُعَيْداً ابني ضَبّهُ خرجا يطلبان أباهما فَرَجَعَ سَعْدٌ ولم يرجعْ سعيدٌ، والزرافاتُ :الجماعاتُ، وأمّا السقفاءُ فلم يذكرْ أحدٌ لَها تفسيراً . وقالَ بعضُهم :إنّها تصحيفٌ وإنما هو الشُفعاءُ وَهُمْ الذينَ يَشفعونَ عندَ السلطانِ في المذنب فنهاهُم عنْ ذلك .()

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لكثيرِ بنِ هراثة الكلابيِّ :هذا الحجاجُ قادماً منَ العراقِ، وَقَدْ شمخَ بأنفِهِ ونفخَ الشيطانُ في منخرِهِ، فإذا دخلَ عليّ فتعرضْ لَهُ بما يكرهُ، قالَ :أفعلُ يا أميرَ المؤمنينَ .فلمّا دخلَ الحجاجُ وأخذ مجلسَهُ وأفاضوا في الحديثِ، قال لَهُ عبدُ الملكِ :ما تقولُ في ثقيفٍ يا حجاجُ فَقَد زَعمَ أُناسٌ أنهم من إيادٍ وقالَ آخرونَ مِنْ قيس، :وأنتَ أعرفُ بقومِكَ فقال :أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ الحق أبلجُ وطريقُ الرّشدِ أبهجُ وَلَنْ يجدَ مَنْ ركبَ الحقَّ وقصدَ الصدِّقَ نحنُ مِنْ قيس ثابتُهُ أصولُنا، نابتةٌ غصونُنا باسقةٌ فرُوعنا فَعَلى ذلكَ قومُنا .فقالَ كثيرُ :لَقَدْ كانَ لَكَ

مُنذُ دَهْرٍ طويلٍ، وهو على أهلِهِ عارٌ وبيلٌ، وخطبٌ جليلٌ، دخولُ رجل في قوم ليس مِنْهُم وتركُهُ قومَه رغبةً عَنْهُم .قالَ الحجاجُ :أمّا واللهِ لولا مكانُ أميرِ المؤمنينَ لاستوعرتُ موطنَكَ، ولاستعظمتُ مركَبكَ، ولأوردتُكَ مورداً يعباً بالاصدارِ عَنْهُ ذوو القوةِ .فقالَ كُثيرُ :أنتَ أضعفُ كوعاً وأملى روعاً، ولن تنالَ ذلك بشيءٍ يا حجاجُ على ما ضيعْتَ مِنَ الأمانةِ وأظهرتَ من الخيانةِ مَعَ سوءِ سيرةٍ وقبح - سياسةٍ، فإنَّكَ خربتَ وما عمّرتَ، وأفسدْتَ وما أصلحتَ، وجرْتَ وما عدلتَ وتركتَ الحقَّ إذ حكمتَ .فقالَ الحجاجُ :أمّا إنّكَ يا كثيرُ لتمدُّ يداً قصيرةً، وأناملَ حقيرةً .لا يستعادُ بكَ في المظالِمِ ولا يستعانُ بكَ في المغارمِ ولا تؤهلُ لدفعِ المظالِمِ .
فلمَّا خَشِيَ عبدُ الملكِ أنْ يعْظُمَ بينَهُما الخطبُ عزَّمَ عليهما أنْ يسكتا، فخرجَ كُلُّ واحدٍ مِنْهما ممليأ غيظاً وَحِقْداً ولم يلبثِ الحجاجُ أنْ خرجَ إلى العراقِ وَقَدِمَ وفدٌ مِن العراقِ على عبدِ الملكِ فلما أرادوا الانصرافَ .قالَ لكثيرِ بنِ هراثة :انطلق مَعَ هؤلاءِ القومِ، إلى الحجاجِ حتى تقومَ خطيباً، وتذكرَ السَّمعَ والطاعة لولاة الأمرِ، وكيفَ ينـزلُ بأهل الخلافِ والشّقاقِ مِنَ النقمةِ في العاجِلِ والآجِلِ .فقالَ لَهُ كثيرُ : إنكَ قد علمتَ يا أميرَ المؤمنينَ ما بيني وبينَه وأنتَ لي ملجأٌ إنْ قهرتُ، وعزًّا إنْ أذللتُ فإنْ أصابتني جائحةٌ أو حلّتْ بي مصيبةٌ مِنَ الحجاجِ فأنتَ المطالبُ بثأري، وأنتَ بَعْدَ اللهِ ثِقَتي، وقد بعثني أميرُ المؤمنينَ إلى بلدٍ أتخوفُ أهلَهُ وأميراً أحذرُ فعلَهُ، وقدْ شمخَ بأنفِهِ نحوَ السماءِ واجترأ على سفكِ الدماءِ، وليسَ بحضرتي حفدة () يعينونني عليه ولا أنصارٌ ينصرونني .فقالَ لَهُ عبدُ الملكِ :أنفذْ لأمري، فلعمْري الحجاجُ أحكُم رأياً أنْ يأخذَكَ بأحنةٍ ()ويعرفَكَ بسيئةٍ، ولعمري لأنْ فعلَ لأحولنَّ زعامتَه، ولأنبذنَّ منـزلتَهُ وليفارقنَّ كرامَتَهُ وبالحرَى أنْ يكونَ قد أحكمتْهُ تجاربُهُ، وقصدَتْ بِهِ مذاهبُهُ وعزبَ عنهُ جهلُهُ وثابَ إليه حِلمُه فخرَج إليه كثيرُ في أصحابِهِ حتى قَدِمَ عَلَيهِ فلما دخل إليه قالَ لَهُ :مرحباً بكثيرِ بنِ هراثة من قومِ سادةٍ كِرامٍ قادةٍ بها ليلِ ()زاده .قالَ لَهُ هراثة :قَدْ كانتْ بيني وبينَ الأميرِ أشياءُ امتلأتُ منها رُعباً، وَضِقْت بهَا ذَرْعاً، والأميرُ صحيحُ الأديمِ في الحَسَبِ الصميمِ والشرفِ القديمِ، لا يشتكي مِنهُ الضعفُ، ولا يخافُ منهُ العنفُ .فقال الحجاجُ :ما احتجنَا إلى ثنائِكَ، ولا رغَبنا في دُعائِكَ ولا تلامُ على فِعْلِكَ ولا يعاقَبُ مِثْلُكَ وأجازَهُ وفضلَّهُ على أصحابِهِ فَلَمّا قَدِمَ على عَبْدِ الملكِ قالَ :كيفَ رأيتَ رأيي في الحجاجِ يا كثيرُ ألم تجدْهُ مُصيباً، لا يأخذُ في أمرِهِ بالعجلةِ حتَّى يرى من عدوِّه الغرةَ .قالَ بلى يا أميرَ المؤمنينَ ما أحسنَ لفظَهُ، وأدومَ لحظَهُ وأسكَنَ فورَهُ وأبعدَ غورَهُ .واللهِ لو لَمْ يسهلْ من أمرِهِ ما

توعرَ لطحنَني طَحْنَ المروةِ الململمةِ ()، متساقطَ حبِّ الجمجم .()

وكانَ الشعبيُّ مِمّنْ خَرَجَ ومع ابنِ الأشعثِ ()، فلَمّا قَدِمَ على الحجّاجِ بعد قتلِ ابنِ الأشعثِ، قالَ :وأنتَ أيضاً مِمنْ خرجَ علينَا يا شعبيُّ قالَ :أحزنَ المنـزلُ، وأجدبَ الجنابُ، واكتحلنا السَّهرَ، واستحلَسنا الخوفَ، ووقعنَا في حربِهِ لمْ نكنْ فيها بررةٌ أتقياءُ، ولا فجرةً أقوياءَ .قالَ صدَقَ واللهِ ما بروًّا بخروجهم علينا، ولا قوَّوا إذْ برزوا إلينَا، أطلقا عنه.

ودخلَ عليهِ ابن أبي ليلَى ()وقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، مشهور النصيحةِ صحيحَ الأديمِ، شاكرَ اللسانِ خرجَ أبي مع ابنِ الأشعَثِ فهدَمَ مَنـزلي وَحلَّقَ على اسمي () وَحُرِمتُ عَطائي، فقالَ :أو ما سمعتَ الشاعرَ حيثُ يقولُ:

جانيكَ مَنْ يَجْني عَلَيْكَ وَقَدْ تُعْدِي الصِّحَاحَ مبَارِكُ الجُرْبِ
ولَرُبَّ مأخوذٍ بِذَنْبِ قريبه ونَجا المُقارِفُ صاحِبُ الذَّنْبِ

قالَ :لا ولكنِّي سمعتُ الله يقولُ :غَيرَ هذا في إخوةِ يوسفَ ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** .() ﴾

فقالَ :يا غُلام علي بيزيدِ بنِ أبي مُسَلِم ()فأتاهُ فقالَ :ابنِ لَه دارَهُ واردِدْ اسمَه واعطِه عطاءه.

وقالَ عبدُ الملكِ بنَ مروانَ لأسماءَ بنِ خارجةَ :()بَلَغني عَنْكَ خِصالٌ فحدثني بهَا قالَ :هِي مِنْ غيري أحسنُ مِنْهَا مِني فقالَ :عزمتُ عليكَ ألا حدثتني فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ ما مددتُ رجلي بينَ يدي جليس لي قطُّ ولا صنعتُ طعاماً فدعوتُ عليه قوماً إلا كانوا أمَنَ عليّ مِنْهُمُ ولا نَصَبُ لي رَجُلَ وَجْهَهُ يسألني حاجةً فاستكثرتُ شيئاً أعطيتُه إياه.

وَلما وُليَّ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ ()بنُ مروانَ الخلافةَ عَدَلَ في الرعيةِ، وأحسنَ السيرةَ، وأعطَى المحرومينَ، وقالَ :لا تسألُوا الناسَ شيئاً .وأعطى كُلَّ مُقعَدٍ خادِماً وَكلَّ ضريرٍ قائداً .وكانَ يَمرُّ بالبقَّالِ فيقفُ عليهِ فيأخذُ حزمةَ البقلِ، فيقولُ :بكمْ هذِه، فيقولُ :بفلسٍ فيقولُ :زِدْ عليها.

ورويَ عن الزهريّ ()أنَّهُ قالَ :دخلتُ على عبدِ الملكِ مسجدَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّم بالمدينةِ، عامَ حَجَّ، فتفرَّقَ النَّاسُ منَ المسجدِ، وبقيَ سعيدُ بنُ المسيبِ ()قاعداً في مجلِسِه، فلم يتحركْ عَنْهُ فجعلتُ أطوفُ بالوليدِ، في نواحِي بعيداً عن مجلِسِ سعيدٍ واشغِلُهُ بالحديثِ، مخافةَ أنْ يَرى مكانَهُ، فحانتْ مِنْهُ التفاتةٌ

فرآهُ .فقالَ لي :يا محمدُّ مَنْ هذا الشيخُ، قلتُ :سعيدَ بنَ المسيبِ، وَقَدْ كَفَّ بصرُهُ، ولا عِلْمَ لهُ بمكانِ أميرِ المؤمنينَ، وَلَوْ عَلِمَ لكانَ قَدْ أدَّى الواجبَ عليهِ، من الحقِّ فقالَ : بلْ نحنُ أحقُّ بالمصيرِ إليهِ، والزيارةِ لَهُ .فجاءهُ الوليدُ فَسَلَّمَ عليهِ وجلَسَ عِنْدَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حالِهِ .فواللهِ ما قامَ لَهُ سعيدُ، ولا تزحزحَ عَنْ مكانِهِ فلما انصرفَ الوليدُ قالَ لي :يا محمدُّ هذا مِنْ بقِّيةِ الناسِ.

وَرَوَى الشافعيُّ ()رَحِمهُ اللهُ، عَنْ عمِّهِ محمَّدِ بنِ عليٍّ بْنِ شافِعٍ قال :دخلَ سليمانُ ()بنُ يسارٍ، عَلَى الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ، فقالَ لَهُ :يا سليمانُ مَنْ الذي تولَّى كِبَرَهُ ()، فقالَ :عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سلول ()، فقالَ :كذبتَ لا أمّ لَكَ هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ، قالَ :أنتَ أعلَمُ وما تقول؟ قالَ :فَمّا حديثُ حدّثنا بِهِ أهلُ الشامِ أين اللهَ عزَّ وجلَّ إذَا استرعَى عبداً رعيةً، كَتَبَ لَهُ الحسناتِ ولم يكتبْ عليهِ السيئاتِ، قالَ :لا أدري، ثُمَّ دَخَلَ مُحَمَّدُ بنُ شِهابِ الزُّهري فقالَ له الوليدُ :يا محمدُّ مَنِ الذي تَولَّى كِبَرَهُ، فقالَ :عبدُ اللهِ بنُ أُبيِّ بنُ سَلولٍ، فقال :كَذبتَ لا أُمَّ لَكَ، هو علي بنُ أبي طالبٍ كرمَ الله وَجهَهُ فقالَ :واللهِ لو كانَ الكذبُ مكتوباً بَينَ الدَّفتينِ بأنَّ اللهَ تعالى قَدْ أباحَهُ لي أو نادَ منادٍ مِنَ السَّماءِ، أنَّ الله قَدْ أَباحَ الكذبَ ما رآني أتحلَّى بِهِ.

حدثني عددٌ مِنَ الرجالِ، مِنْهُم سعيدُ بنُ المسيِّبِ، وعلقمةُ بْنُ وَقاصٍ ()وعروةُ بنُ الزبيرِ ()وَأبو سلَمَة بنُ عبدِ الرحمن ()وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنُ عتبةَ بنُ مسعودٍ ()عن عائشة رَضيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ الذي تولَّى كِبَرُه عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سَلِول، قالَ: صدقتَ .إنَّما أردتُ أنْ أعلَمَ، هَلْ أحدٌ ينكر باطِلاً ثمَّ قالَ :يا محمدُ، ما حديثٌ حَدَّثَنا بِهِ أهلُ الشَّامِ، قالَ :وما الحديث، قالَ :حدَّثونَا أن اللهَ إذا استَرعى عبداً رَعيَّةً كتبَ لَهُ الحسناتِ ولمْ يكتبْ عليهِ السّيئاتِ، قالَ :كذبتَ والله يا أميرَ المؤمنينَ .قالَ :وكيفَ ذلكَ، قالَ :آتيكَ بحديث من كتابِ اللهِ الَّذي لا يأتيهِ الباطِلُ مِنْ بينَ يديهِ ولاَ مِنْ خلفِهِ، قالَ اللهُ عَز وجل ﴿ :**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ.**()﴾

فهذا وعِيدُ اللهِ لنبيٍّ هُوَ خليفةٌ، فيكفَ وعيدُهُ لخليفةٍ غَيرَ نَبيٍّ، قالَ :صدقتَ، ثُمَّ نـزلَ عَنْ سريرِهِ ووضعَ خَدَّهُ في التُّرابِ، وقالَ :يغرونَنا عن دِينِنَا، ثُمَّ أغرَى جلساءَهُ بابنِ شهابٍ فقالَ :عَنْ مثلِ هذا يُؤخَذُ الدينُ.

ولمَّا وُلّيَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ ()أطلَقَ المحبسينَ، وأحْسنَ إلى الناسِ وسموهُ مفتاحَ الخيرِ .وفي أيامِهِ فُتِحَتْ القسطنطينيةُ، وَلَوْ لَمْ يكنْ لهُ حسنة إلا استخلافَ

عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ بعدَهُ لكانَ كافياً.

وَرُوِيَ أن أعرابيّاً وَقَفَ بينَ يَديّ سليمانَ، فقالَ :إنِّي مُكلِّمُكَ يا أميرَ المؤمنين بكلامٍ فاحتملْهُ، وإنْ كرهتْهُ فَإنَّ وراءَهُ ما تُحِبُّ إنْ قبلتَهُ .قالَ :هاتِ، قال :إنِّي سأطلقُ لِساني، بِمَا خرستْ عنهُ الألسنُ مِنْ عِظَتِكَ، تأديةً بحقِّ اللهِ تعالى وحق إمامتِكَ، إنّهُ قَدْ اكتنفكَ رِجالٌ، أساءُوا الاختيارَ لأنفسِهم، فابتاعُوا دنياهم بدينِهم، وَرِضَاكَ بِسخطِ اللهِ، خافوكَ في الله، ولَمْ يخافُوا اللهَ فيكَ، فهم حَرْبٌ للآخرةِ، سِلْمٌ الدَّنيا، فَلا تأمنْهُم على ما ائتمنكَ اللهُ عليهِ، فإِنَّهُمْ لم يألُوا الأمانة تضييعاً، والأمةَ خسْفاً، وأنتَ مسؤولٌ عَمَّا اجترَحوا، وليُسوا مسؤولين عما اجترحتَ، فَلا تُصْلِحْ دُنياهم بفسادِ آخرتِكَ فإنَّ أعظمَ الناسِ غُبناً، مَنْ باعَ آخرتَهُ بِدُنيا غيرِهِ .فقالَ :أمَّا أنتَ يا أعرابي فقد سللت لسانَكَ وَهُوَ أقطعُ مِنْ سيفِكَ، قال :أجَلْ يا أميرَ المؤمنينَ لكَ لا عليكَ.

وَرُوِيَ أنَّ سعيدَ بنَ خالدٍ ()، دَخَل على سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ وكانَ سَعيدُ جواداً، فإذا لَمْ يجدْ شيئاً كَتَبَ لِمَنْ يسألُه الصِّكاكَ على نفسِهِ حَتَّى يخرجَ عطاؤُه فَلَمَّا نَظَرَ إليهِ سليمانُ تَمَثَّلَ بِهذا البيتِ:

يَا مَنْ يُعينُ على الفتى المِعوانُ إني سمعت مَعَ الصَّباحِ منادياً

ثم قالَ :حاجتك، قالَ :دَيْنِي، قالَ :فَكَمْ هُوَ؟ قالَ :ثلاثونَ ألفِ دينارٍ، قالَ :لكَ دَيْنُكَ وَمِثْلُهُ.

وَرَوَى رجاءُ بنُ حيوةَ ()أن سُليمانَ بَنَ عَبدِ الملِك، لَمَّا كَتَبَ العهْدَ لِعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ()وَمَنْ بَعْدَهُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ()وخَتَمَهُ وَدَفَعَهُ إليهِ، قالَ :اخرجْ إلى النَّاسِ، فمرهُمْ بالمبايعَةِ على ما فيهِ مختوماً، فَلَمَّا دَعاهُم رجاءُ إلى ذلكَ، وأخبرَهُم بقول سليمانَ امتَنَعُوا، وقالوا :لا نبايعُ حتَّى نعلمَ مَنْ فِيهِ، فَرَجَعَ إلى سليمانَ فأخبَرَهُ، فقالَ سليمانُ :انطلقْ بأصحابِ الحرسِ ونادِ الصَّلاةَ جامعةً، فإذا اجتمعَ النَّاسُ، فمرْهُمْ بالبيعةِ على ما في الكتابِ فمَنْ أَبَى فاضْرِبْ عُنقَه، ففعلتُ ذلكَ فبايعوا على ما فيهِ .

قالَ رجاءُ :فلما خرجوا خرجتُ إلى منزلي، فبينَما أنا في الطَّريقِ إذْ سمعتُ جَلبةَ موكبٍ فالتفتّ فإذا هشامُ بن عَبدِ الملكِ، فقالَ :يا رَجاءُ قد علمتَ موقعَك مِنَّا وأرَى أمير المؤمنينَ قَدْ صنَعَ شيئاً، ما أدري ما هُوَ، وأنا أتخوَّفُ أن يكونَ قَدْ أزالَها عَنِّي، فإنْ يكن أزالَها عَني فاخبرْني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، حتَّى أنظرَ في هذا الأمرِ، قبلَ أنْ يموتَ سليمانُ .فقلتُ :سبحانَ اللهِ، يَسْتكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلَعَكَ عليهِ، لا يكونُ ذلكَ أبداً، فداراني فأبيتُ فانصرفتُ، فبينَما أنا أسيرُ سمعتُ جلبه خلفي،

فالتفت فإذا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، فقالَ :يا رجاءُ إنَّه قد وَقَع في نفسِي، أمرٌ كبير مِنْ هذا الرَّجُلِ، أتخوَّفُ أن يكونَ قدْ جَعَلَها إليَّ ولستُ أقومُ بِهذا الشَّأنِ، فأعلمني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، لَعلِّي أتخلَّصُ ما دامَ حَيّاً .فقلتُ :سبحانَ اللهِ العظيمِ، يستكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلَعَكَ عَليهِ، فداراني فأبيتُ، قالَ رجاءُ :فلمَّا ماتَ سليمانُ أجلستُهُ وهيأتُهُ، وخرجتُ إلى النَّاسِ فقالوا :كيفَ أميرُ المؤمنينَ، فقلتُ :قَد أصبحَ ساكِتاً، وَقَدْ أَحَبَّ أنْ تُسلِّموا عليهِ وتبايعُوا على ما في الكتابِ بينَ يديهِ، فَدخلوا عليهِ، وأنَا قائمٌ عندَهُ، فلما دنَوا قلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركم بالوقوفِ، ثُمَّ تقدَّمت إليهم بالكتاب، فقلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركـم أنْ تبايعُوا على ما في هذا الكتابِ بمرأىَ مِنْهُ ومسمعٍ فبايعُوا أجمعينَ.

فلمَّا فَرغوا عِنْ مبايَعتِهِم، قالَ لَهُم :أجركُم اللهُ في أميرِ المؤمنينَ .قالُوا :فَمَنْ ففتحوا الكتابَ فإذا فيه العهدُ لِعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فلما قرأوا عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ تغيرتْ وجوهُهم فلما قرأوا منْ بعدِهِ يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ تراجعوا، فقالوا :أينَ عمرُ بن عبدِ العزيز فطلبُوه فلمْ يجدوهُ في القومِ، فَنَظرُوا فإذا هُوَ في مُؤخّرِ المسجدِ، فأتوهُ فسلَّموا عليه بالخلافةِ، فَعَقَرَ فلمْ يستطعِ النُّهوضَ حتى أخذُوا بضبعيهِ فَساروا إلى المنبَرِ فلمْ يقدرْ أنْ يَرقَى حتى أصعدوهُ، فجلسَ طويلاً لا يتكلَّمْ .فلما رآهُم رجاءُ جلوساً قالَ :ألا تقومونَ فتبايعونَ لأميرِ المؤمنينَ فنهضَ القومُ إليه فبايعوهُ رَجُلاً رجلاً قالَ :فَما مَدَّ يَدَهُ إليهم .فَلمّا صَعَد هِشامُ مَدَّ يَدَهُ إليهِ .وقالَ هشامُ :إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ، فقالَ عُمَرْ :نَعَمْ إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ حين صارَ يلي هذا الأمرَ أنا وأنتَ ثُمّ قامَ فَخَطَبَ فحمَدَ اللهَ وأثنَى عليهَ وقال" :أيُّها النَّاسُ إنِّي لستُ بقاض ولكنَّي مُنَفذٌ، ولستُ بمبتدع ولكني متبعٌ وإنَّ حولَكُم كثيراً مِنَ الأمصار والمدنِ، فإنْ هُم أطاعُوا كما أطعتُم فأنا وليُّكم وإنْ هُمْ امتنعُوا فلستُ عليكُم بوالي"، ثُمَّ نـزل يَمشي فأتاهُ صاحبُ المراكبِ، قالَ :ما هذا قالَ :مراكبُ الخليفةِ، قال لا :حاجةَ لي بهذا فَأْتوني بدابّتي فأتوا بدابتِهِ، فركِبَهَا ثُمَّ خرجَ وخَرَجُوا مَعَهُ، فقالوا :نسيِّرُها هُنا قال :إلى أينَ؟ فقالوا :إلى البيتِ الذي يُهيّأُ للخليفة، فقال :لا حاجةَ لي فيهِ، انطلقُوا بي إلى منـزلي، فأتى منـزلَهُ فنـزلَ عَنْ دابتِهِ، ثُمَّ دَعا بدواةٍ وقِرطاس وجَعَل يكتُبُ بيدِهِ إلى العُمَّالِ والأمصارِ ويملي على نَفْسِهِ .وقيلَ :أنه كان رُبَّما اشتريْتُ لَهُ الحِلة بِألفيْ دِرْهَمٍ قبل الخلافةِ فيقولُ :أَمَا وجدتُم ألينَ مِنْ هَذه فلمّا وُليَ الخلافَةَ كانَ يشتري لَهُ الحلّةَ بأربعةِ دَرَاهِمَ فيقولُ :أما وجدتُم أغلظَ منها، فقيل لهُ :في ذلك فقالَ :إنَّ لي نفساً توّاقةً لا تصلُ إلى منـزلةٍ إلا تاقت إلى ما هُوَ أعلى مِنْهَا، فَلَمّا نالتِ الخلافَةَ تاقتْ إلى ما

هُوَ أعلى مِنْهَا فلم تجدْ في الدُّنيا ما هو أرفعُ مِنَ الخلافة فتاقتْ إلى الآخرة وإلى ما أعدَّ الله فيها.

وقيلَ :إنَّ ثيابَهُ قُوّمَتْ عَلَيْهِ يومَ الجمعةِ، وهُوَ يخطبُ باثني عشرَ دِرْهَم وكانَت قميصاً وسراويلَ وعِمامةً ورداءً .ملأ الأرض عَدْلاً ورَفَعَ السَّبَّ عن أميرِ المؤمنينِ عليٍّ بنِ أبي طالب كَرمَ الله وجهَهُ على المنابرِ وأَمرَ الخطباءَ أن يقولوا في آخرِ الخطبةِ، في الموضعِ الذي كانوا يذكرونَ اللَّعْنَ فيهِ ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ .() ولَما حضرتْهُ الوفاةُ دَعَا بنيه وكانوا أحدَ عشر رجلاً، ولمْ يُخَلِّفْ غيرَ بضع عَشَرَ دينار، فأمرَ أنْ يُكَفّنَ وُيشتَرى لَهُ موضعُ يُدْفَنُ فيه بخمسةِ دنانير وَيُقصدُ المالُ على وارثيهِ فأصابَ كلُّ ابن مِنْهم نِصفَ دينارٍ وربع دينار وقالَ :يا بنيَّ ليسَ لي مالٌ فأوصي فيهِ ولكنَّي قَدْ تركتُكُمْ وما لأحدٍ عِنْدَكُمْ تَبِعَةٌ ولا يقعُ على أحَدٍ مِنكم عينُ أحَدٍ إلا ويرى لَكُم عليهِ حقاً .فقالَ له مُسلِمةُ بنُ عبدِ الملكِ :()أوْ خيرٌ مِنْ ذَلِكَ يا أميرَ المؤمنينَ قال :ومَا هُوَ قال هذهِ ثلاثُ مائةِ ألفِ دينار، فرقها فيهم وإن شئتَ فتصدَّقْ بِها، وأوصِ فيها بما شئتَ، فقالَ أوْ خيرٌ من ذلكَ يا مسلمةُ تردُّها إلى مَنْ أخذتها مِنْهُ، فإنَّها ليستْ لَكَ بحقٍّ .ثم قالَ :إن وَلَدي أحدُ رجلين، فإمَّا صالحٌ فاللهُ يتولى الصالحين، وإمَّا فاسقٌ فلا أحِبُّ أن أتركَ لهُ ما يستعينُ بِهِ على معصيةِ اللهِ فقال مسلمةُ :يرحمُكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنينَ حيّاً وميِّتاً، فقدْ ألنتَ لنا قلوباً قاسيةً وذكَّرتَها وكانت ناسيةً وأبقيتَ لنا في الصالحاتِ ذكراً، فيقالُ :إنه ما رُؤِيَ أحدٌ مِنْ أولادِ عُمَرَ بنِ عبد العزيزِ إلا وهو غنيٌ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهُم وقد جَهَّزَ مِنْ خالِص مالِهِ، مائة فارس على مائةِ فَرسٍ في سبيلِ اللهِ تعالى .ولمّا حضرتْ هِشامُ بنُ عبدِ الملكِ () الوفاةُ، خَلَّفَ أحَدَ عشر ابناً، كما خَلَّف عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزَ، وأوصى فأصابَ كُلُّ ابنِ ألفَ ألفِ دينارٍ .فيقالُ :إنَّه ما رُؤيَ أحَدٌ مِنْهُم إلاَّ وهُوَ فَقيرٌ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهم وهو يوقدُ في الأتونِ .ووجدتُ في كتابِ تفاوتِ التواريخِ أنَّ هِشامَ ابن عبد الملكِ، كانَ يأكلُ من بيتِ المالِ كلَّ سَنَةٍ مائتي دِرْهَم وأنّهُ كانَ ديوانُهُ من بيتِ المالِ، كديوانِ بعضِ الجُنْدِ .وحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أنَّهُ قالَ :أرسلَني هشامُ إلى خرسانَ وكانَ عليهِ إذْ ذاك، قِباءُ أخضرُ، فلمّا رَجعتُ مِنْ خرسانَ رأيتُهُ عليه، قال تنظرُ إلى هذا القباءِ، والله كانَ عليّ قبلَ الخلافةِ ومالي غيرُهُ .وَفقدَ بعضُ أولادهِ في الجمعةِ فسألَهُ عن تأخّرِهِ فقالَ :نفقتْ دابتي، يَعني ماتتْ، فقال: أعجزْتَ عَنِ المَشْيِ، ثُمّ تسقُطُ عنكَ الجُمعةُ فمنعَهُ الركوبَ سنةً .ورَويَ أنَّ عُروهْ بنَ أذينَة ()أتَى مَعَ جَماعةٍ من

الشُّعراء إلى هشامِ بنِ عبدِ الملكِ فانتسبَهم فانتسبُوا فلما انتسبَ له عِروةُ قالَ ألست القائلُ:

لقد علمت وما الإسرافُ من خلُقي	**أن الذي هُوَ رزقي سَوْفَ يأتيني**
أسعى إليه فيُعْيِيني تطلُّبه	**ولو أقمتُ أتاني لا يُعيّني**

فقالَ :نعمْ أنا قائلُها، قالَ :أفلا قعدتَ حتى يأتيكَ رزقُكَ، وغفل عَنْهُ هِشامُ فخرَجَ مِنْ وقتِهِ وَركِبَ راحلَتَهُ ومَضى منصرِفاً .فتفقَّدهُ هشامُ فَعرف خبرَهُ فاتبعَهُ بجائزتِهِ وقالَ لِلرسول: قلْ لَهُ أردتَ أَنْ تكذّبَنا وتُصدِّقَ نفسَكَ، فمضى الرسول فَلَحِقَهُ، وقدْ نـزلَ على ماءٍ يَتَغَدَّى عليهِ فأبلَغَهُ رسالَتهُ ودَفَعَ إليهِ الجائزةَ، فقالَ :قُلْ لـهُ قد صَـدَقنِي ربي وكذّبَكَ.

وَوَفدَ على هشام وفدٌ أهلِ الحجازِ فتكلّموا رَجُلاً رجُلاً حتى قامَ محمّدُ بنُ أبي الجهمِ [()]بنِ حذيفةَ العَدَويّ وكانَ أعظم القومِ قَدْراً وأكبرَهُمْ سناً، فقالَ :أصلحَ الله الأميرَ إنَّ خُطباءَ قريش، قدْ قالتْ فيكَ فأقلّتْ وأكثَرَتْ وأطنبتْ، ووالله ما بلغَ قائلُهُم قدْرَكَ، ولا أحصَى مُطْنِبُهم فضلَكَ، فإنْ أذِنْتَ في القوْلِ قلتُ قالَ :قُلْ وأوجِزْ قالَ : تولاكَ الله بالحُسنى وزَيَّنَكَ بالتّقوى وجَمَعَ لَكَ خَيْرَ الآخرَةِ والأولى .إنَّ لي حوائجَ فأذكُرُها قالَ :هاتِها :قالَ كبُرَ سني ودَقَّ عَظْمي ومالَ الدَّهرُ مِني فإنْ رَأى أميرُ المؤمنينَ أَنْ يُجْبَرَ كَسْرِي ويُنْفَى فقْرِي فَعَلَ قالَ: وما الذي يَنفي فقرَكَ، ويجبرَ كسرِكَ، قالَ :ألفُ دينارٍ وألف دينارٍ وألفُ دينارٍ فأطرقَ هِشامُ قليلا، ثُمّ قالَ :هيهاتَ هيهاتَ يا ابن أبي الجهْمِ بيتُ المالِ لا يحتَمِلُ ما سألتَ، ثُمّ قالَ :هيه وما هِيه أما والله إن أميرَ المؤمنينَ لواجِدٌ، ولكن اللهَ آثركَ لمجلسِكَ، فإنْ تُعطِنَا فحقّنا أدّيْتَ، وإنْ تمنَعَنا فنسألَ الذي بيدِهِ ما حَوَيْتَ يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ اللهَ جعلَ العطاءَ محبة والمنعَ مبغَضَةً والله لئِنْ تُعْطِني فأُحبك أحبُّ إليّ مِنْ أنْ تحرَمني فأبغضُكَ قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أقضِي بها دَيْناً عليَّ حَمَّ قضاؤه وآذاني حَمْلُهُ وأضر بي أهلُهُ، قالَ :فلا بأسَ بتنفيسِ كُربةٍ وتأيدةِ أمانةٍ، وألفُ دينارٍ لماذا قالَ :أزوّجُ بها مَنْ بَلَغَ مِنْ أولادي، قالَ نَعَمْ المسلكُ سلَكتَ، غضضتَ بصراً، وأعففتَ فرَجاً، ورجوتَ نسْلاً . قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أشتَري بها أرضاً يعيشُ بها وَلَدي، وأستعينُ بفضلِهَا على نوائِبِ دَهري، وتكونُ ذُخراً لِمن بَعْدي .قالَ :فإنَّا قدْ أمرنا لَكَ بِما سألت فقالَ :الحمدُ لله على ذلكَ فأتبعَهُ هِشامُ بصرَهُ وقالَ :إذا كان القرشيُّ، فليكُن مِثلَ هذا، ما رأيتُ رَجُلا أوجزَ في مقالٍ مِنْهُ ثمّ قالَ :أما والله إنَّا لَنعرفُ الحقَّ إذا نـزلَ ونَكرهُ الإسرافَ والبخلَ، فلا نُعْطي تبذيراً، ولا نمنع تقتيراً، وما نَحْنَ إلا خُزانُ اللهِ في بلادِهِ،

وأمناؤُهُ على عِبادِهِ، فإن أَذِنَ أعطينا، وإنْ مَنَعَ أبينا، فلو كانَ كُلَّ قائِلٍ يُصَدَّقُ وكلُّ سائِلٍ يستَحِقُّ ما حَرَمَنَا سَائِلاً ولا جبهنا قائلاً .فنسأَلَ مَنْ بيدِهِ ما استخفضنَاه أَنْ يجريه على أيْدينا فإنَّهُ يفتحُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاء ويقدِرُ إنَّهُ بعبادِهِ خبيراً بصيراً .فقالوا : يا أميرَ المؤمنينَ لَقَدْ تكلَّمتَ فأبلغتَ، وما بَلَغَ في كلامِهِ ما قصصتَ فقالَ :إنَّه مبتدئٌ وليسَ المقتدِي كالمبتدي .وخَطَبَ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القسريِّ ()وَقَدْ أُرْجِفَ بموتِ هِشام بنِ عبدِ الملكِ فقالَ: ما هذهِ الجماعةُ التي قد أَلِفها الطيْشُ واستخفَّها الجهلُ وأقبلتْ دبرَ الوجوهِ قد أشْخَصَ لها الرجيمُ نصباً فأوقصتْ إليهِ وأناخَ قعودَ الضلالةِ فاحتملتْ عليهِ أوْ كُلَّما خَطَرَتْ للشياطينِ بينَ أظهرِكُمْ خطوةً أو كَادَ كم ينكر، أو بَعَثَ فيكُمْ مُنكراً، أقبلتُم قمصاً ()، وسعيتُم حرصاً .فتُعْساً ونُكْساً قلتُم ماتَ هِشامُ، أفبدعٌ الموت أو مستنكَرٌ أو مبرّأٌ مِنْهُ أَحَدٌ قَدْ ماتَ الذي خلقَهُ اللهُ ونفخَ فيهِ مِن رُوحِه وأسجَدَ له ملائكَتَهُ أخرُجوا يا فراشَ النَّارِ وبَقِيَّةَ الأشرار.

وخَطبَ مَرَّةً فارتجَّ عليهِ ()فقالَ :أيُّها الناسُ إن القولَ يجيئُ أحياناً، ويعزُبُ أحياناً، فيتيسرُ عندَ مجيئِهِ سببُهُ، ويعزُّ عِنْدَ ذهابِهِ طَلَبُهُ، وربَّما طلبَ فأبَى وَكُوبِرَ فعَصى، فالتأنِّي لمجيئهِ أيْسَر مِنَ التَّعاطي لأبِيِّهِ وقَدْ يختَلِجُ مِن الجريءِ جَنانُهُ، ويرتجُّ على البليغِ لسانُهُ فَلاَ يغيُرُهُ المنطقُ إذا امتنَعَ كما لا يبطِرُهُ القولُ إذا اتَّسَعَ.

ودخلت امرأة مِنْ بَنِي كِلاب، على خالدِ القِسْرِيِّ، وهُوَ في مَجْلِسِهِ فَسَلَّمْتَ عليهِ وأنشدَتْهُ شِعْراً .فقالَ لها خالدُ :ما حاجتكَ، قالتْ :عندِي للأميرِ نصيحةٌ .قالَ : وَمَا هِيَ قالت :أكَبَّ على دَهْرُ بجرانهِ ()، وعضّنا بنابِهِ، فما تركَ لنا سَبْداً، ولا لُبَداً ()ولا ماهياً()، ولا صافياً()، فما بِنا خفضٌ ولا نَبضٌ فكنتَ أنتَ المنتجعُ ()وإليكَ المفزَعُ .فنصيحتي أصلحَ اللهُ الأميرَ، أنْ تأمرَ لي بخادِمٍ، وما يُصْلِحني وإياهُ فواللهِ لقد عُودتُ الرّخاءَ، وما قاسيتُ الشّقاءَ .قالَ خالدٌ :هذه نصيحةٌ لكِ دونَنَا قالتْ أيُّها الأميرُ ليستْ لي دونَكَ، لَكَ أجرُها وذِخْرُها، وحمدُها وشكرُها، ولي منفعتُها معَ أنَّ الأجوادَ لوْ لَمْ يَجِدوا، مَنْ يقْبلُ العطاءَ ما ذُكروا بالسَّخاءِ قال صدقت فَهَلْ لَكِ مِنْ زوجٍ، قالتْ :واللهِ ماليَ زوجٌ، ولا وجدتُ كُفئاً ولا أتزوّجُ دَنِيّاً، وإنْ كانَ مُتْرَفاً غنيّاً، ولئنْ كنتُ فقدتُ نسباً، ما فقدتُ حسباً، وما كنتُ أشتري عاراً يبقى، بمالٍ يفنى . أعوذُ بجلالِ اللهِ مِنْ ذَلِكَ، وماليَ أبقَ اللهُ الأميرَ بزوجٍ مِنْ أربٍ .فأمرَ لَها بِخادمٍ، وما يصلُحُها، وأمَر صاحبَ نفقاتِهِ أن يُجري لهما ما وَسِعَهُما.

وَرُوِيَ عَنِ الوليدِ بنِ يزيدَ ()مَعَ ما كانَ فيهِ مِنَ الخلاعَةِ واللعب، والتهاوُنِ بالدّينِ أنه لما وُلّى أجرَى على الزّمنَى والعميانِ، وكساهُمْ وأعطى كلَّ واحدٍ مِنهُم

خادماً، وزادَ النَّاسَ، على ما كانَ يُعطيهم هشامُ، ولَمْ يسألْ سائِلاً قطُّ، إلا قالَ :نَعَمْ وأعطاهُ .وكانَ أديباً شاعراً، فَمِنْ أحسنِ قولهِ :ما)حدَّثني (اسحاقُ الموصليُّ ()قالَ : دخلتُ يوماً على الرَشيدِ، وَهُوَ مستلْقٍ وَهُوَ يقولُ :أحسنَ واللهِ أظرفُ قريشٍ، وأفتاها)وأسْخاها(، وأشعرُها وأغزلُها .فقلتُ :مَنْ هُوَ يا أميرَ المؤمنينَ وفي أيِّ شيءٍ، فقالَ :أمَّا بَعْدُ ما سمعتَ مني في وَصفِهِ فلا أُسمِّيهِ ولكنْ أذكرُ الشعرَ فإنْ كنتَ تعرفُهُ فاكتمْ عنِّي ما سمعتَ مِني وهو الذي يقولُ:

نامت وإن أسهرت عَيْنيَّ عَيْناها	**لا أسألُ اللهَ تغييراً لِما صنعتْ**
والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها	**فالليلُ أطولُ شيءٍ حين أفقدُها**

أتعرِفُه قلتُ :لا بصوتٍ ضعيفٍ، قال :بحياتي، فقلتُ :بَلى وحياتِكَ هُوَ الوليدُ بنُ يزيدَ، فضحكَ وقالَ :ما قلتُ في وصفِهِ إلا دونَ ما يستحِقَّ وَلكنَّ المُلكَ عقيمٌ.

وكتبَ إلى هشامِ بنِ عبدِ الملكِ برسالةٍ وفي آخرها شِعْرٌ:

ولو كنتَ ذا حزم لهدمتَ ما تبني	**رأيتُكَ تبني دائماً في قطيعَتي**
فويلٌ لَهُم إنْ مِتُّ منْ شَرِّ ما تَجْني	**تثير عليَّ الباقينَ مني ضغينةً**
ألا ليتنا كنـا إذا ليت لا تُغْني ()	**كأنّي بهِمْ واللَّيْتَ أكثر قولهمْ**

وقالَ أيضاً وَقَدْ رَجَعَ إليهِ جوابُ هشامِ بما يكرهُهُ:

حياضَكَ يوماً صادراً بالنَّوافِلِ	**أليسَ عجيباً أن أرى كلَّ واردٍ**
بتخلِّيه عَنْ وردِ تلكَ المناهلِ ()	**وأرجع مجذوذَ الرَّجاءِ مُصرَّداً**

وقال أيضاً فيه:

إلى المَقاريف ما لَمْ يَخْبُرِ الدَّخَلا	**أنَا النَّذِيرُ لمُسْدِي نِعْمَةٍ أبَداً**
وإنْ أهَنْتَهُمْ ألْفيْتَهُمْ ذُلُلا	**إنْ أنْتَ أكْرَمْتَهُمْ ألْفيْتَهُمْ بُطُراَ**
سَتَعْلَمُونَ إذا كانَتْ لَنا دُوَلا	**أتَشمُخونَ ومِنّا رأسُ نِعْمَتِكُمْ**
سِوَى الكلْبِ فاضرُبْهُ لهم مَثَلا	**انْظُرْ فإنْ أنت لم تقدر على مَثَل لهم**
حَتَّى إذا ما قوي من بعدما هزلا	**بَيْنما يُسَمِنُهُ للصَّيْد صاحبُهُ**
ولَـوْ يطيق له أكْلاً لَقَدْ أكلا ()	**عدا عليـه فلمْ تَضْرُرْهُ عَدْوَتُهُ**

وذلكَ أن يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ، كَان قَدْ أخذَ البيعةَ لأخيهِ هشام، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لابنهِ الوليدِ .ولَمّا قَتل يزيدُ بنُ الوليدِ بنُ عبدِ الملكِ ()، الوليدَ بنَ يزيدٍ وَوُلي الخِلافةَ خَطَبَ فَحَمَدَ اللهَ وأثنَى عليهِ :أيُّها الناسُ واللهِ ما خرجتُ بَطِراً ولا أشِراً، وَلا رياناً ولا

حِرْصاً على الدُّنيا، ولا رغبةً في الملكِ .وما بي إطراءٌ لنفسي إني لظلومٌ لَها إلا ما يرحمُني اللهُ عزَّ رجلَّ .ولكني خرجتُ غَضَباً للهِ عزَّ وجلَّ ولدينِهِ، داعياً إلى اللهِ وإلى سنَّةِ نبيهِ صلَّى اللهُ علَيْهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ، لَمَّا هُدِّمتْ معالمُ الدِّينِ، وأُطْفِئَ نورُ التَّقوى، وَظَهَرَ الجبارُ العنيدُ، مُستخفاً بِكلِّ حرمةٍ وراكباً لِكلِّ بدعةٍ، الكافرُ بيومِ الحسابِ وإنَّهُ لابنُ عمِّي في النَّسَبِ وَكُفئي في الحَسَبِ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ، استخرتُ اللهَ تعالى في أمرِهِ، وسألْتُهُ أنْ لا يكِّلني على نفسي، ودعوتُ إلى ذلكَ مَنْ أجابني مِنْ أهلِ ولايتي حتَّى أراحَ الله مِنْهُ العبادَ، وطهَّرَ مِنْهُ البلادَ، بحولِهِ وقوّتهِ، لا بحولي وقوَّتي .أيُّها الناسُ إنَّ لكم عليَّ أنْ لا أضعَ لبنةً على لبنةٍ ولا حجَراً على حجرٍ ولا أكنـز مالاً ولا أُعطيه زوْجاً ولا ولداً ولا أنقُلُهُ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ أخرى حتى أسُدَّ فقرَ تِلك البلدِ ولا أجبرُكم في ثُغورِكُم، حَتَّى أفتتنَ أهليكُم، ولا أُغلِقُ بابي دونَكم، فيأكلَ قويَّكُم ضعيفَكم، وَلا أحمِلُ على أهل جِزْيتكُم، ما أجلِّيهم به عَنْ بلادِهِم، وأقطَعُ بِهِ نسلَهُم، ولكنْ أُدرِ العطاءَ في كلَّ سنةٍ، والرزق في شَهْرٍ حتى تستوي بِكم الحالُ، فيكونَ أفضلُكم كأدناكُم .فإنْ أنا وفيتُ لكُم، فعليكُم السَّمْعُ والطاعةُ، وَحُسْنُ المؤازَرةِ والمكاتفةِ، وإنْ لَمْ أفِ لَكُم، فلكُم أنْ تخلعوني إلا أنْ تستتيبوني فإنْ تبتُ، قبلتُم توبتي، وإنْ عرفتُم أحداً بالصلاحِ، يُعطيكُم مِنْ نفْسِهِ مثلَ الذي أعطيتُكُم، فأردتُم أنْ تبايعُوه، فأنا أولُّ من يبايعُهُ، ويدخلُ في طاعتِهِ أيْها الناسُ إنهُ لا طاعة لِمخلوقٍ في معصية الخالقِ أقولُ هذا واستغفرُ الله لي ولَكُم، ولجميعِ المسلمينَ انَّهُ غفورٌ رحيم((

وكتبَ إلى مروانَ بن مُحَمّدٍ ()وقدْ بلغَهُ تلكؤُهُ في بيعتِهِ .أمَّا بَعْدُ :فإنِّي أراكَ تُقَدِّمُ رِجلاً، وَتؤخِّرَ أُخرى، فاعتمدْ على أيِّهما شِئْتَ، والسلامُ.

ولما تفرّقَ الأمرُ على مروانَ بنِ مُحَمّدٍ وأيقنَ بزوالِ مُلْكِهِ، وَغَلَبَةِ بني هاشم عليهِ، قالَ لِعبدِ الحميدِ بنِ يحي كاتبهِ :إني قدْ احتجتُ، أنْ تكونَ مَعَ عدَوي عليَّ، وَتظْهِرَ لَهُم الغدرَ بي فإنَّ إعجابَهُم بأدبِكَ، وحاجتِهِم إليكَ تدعوهُم إلى حُسْنِ الظَّنِ بكَ .فإنْ استطعتَ أنْ تنفعَني في حياتي، وإلا لمْ تعجزْ عَنْ حِفظِ حُرْمتي بَعَدَ وَفاتي . فقالَ عبدُ الحميدِ :إن الذي أمرتَني بِهِ أنفعُ الأمرينِ لَكَ وأقبحُهما بي .وما عِنْدي إلا الوفاءُ، حتى يفتَح اللهُ لكَ أو أُقتلَ مَعَكَ، ثُمَّ قالَ:

أسرُّ وفاءً ثُمَّ أظهرُ غـدْرةً ()　　**فمن لي بعذرٍ يوسعُ النَّاسَ ظاهرُهُ**

وقالَ مروان إذا انقضتِ المدةُ لم تنفعِ العدَّةُ

وكتبَ إلى عبدِ اللهِ بنِ عليّ ()، يوصيهِ في حرَمِهِ، فكتبَ إليهِ عبدُ اللهِ يا مابق

الحقَّ لنا في دَمِكَ، وَعَلينا في حرَمكَ.

وَلَمَّا استُخلِفَ أبو العباسِ السّفاح()، وَهُوَ أولُ ملوكِ بني العباسِ .

رويَ أن أولَ خُطْبَةٍ، خَطَبَها السفاحُ، في بلدةٍ تُسمَّى العباسيَّةِ، فلَمَّا صارَ إلى موضعِ الشهادةِ قامَ رَجلٌ من الطالبيينَ في عُنقِهِ مُصْحَفٌ، فقالَ :أذكِّرُكَ الذي ذكرتَهُ، إلا أنصفتني مِنْ خَصْمي، وحكمتَ بيني وبينَه، بما في هذا المُصْحَفِ، فقالَ : ومنْ خصمُكَ، قال :أبو بَكرٍ الذي منَعَ فاطمة فدكاً .قالَ :وأقامَ على ظُلمِكُم، قالَ : نَعمْ، قالَ :وهلْ كانَ بعدَهُ أحدٌ، قالَ :نعمْ، قالَ :مَنْ، قالَ :عُمرَ، قالَ :وأقامَ على ظُلمِكُم، قالَ :نعم، قالَ :وهلْ كان بعدَهُ أحدٌ، قالَ :مَنْ، قال :عثمانُ، قالَ :وأقامَ على ظلمِكُم، قالَ :نعمْ، قالَ :وَهَلْ كانَ بعدَه أحدٌ، قالَ :نَعَمْ قالَ :مَنْ، قال :علي قال وأقام على ظلمِكُم، فأسكتَ الرّجُلُ، وجَعَلَ يتلفتُ إلِى ورائه يطلبُ تَخلّصاً .وأقبلَ السَّفاحُ على خُطبتِهِ وَصَعَدَ المنبرَ بوجهٍ كأنَّهُ مصحفَ، فلم يستطعْ الكلامَ مِنَ الحياءِ، فنهضَ عَمُّه داوود ُبنُ عليٍّ ()حَتى صَعَدَ المنبَر، فقالَ المنصورُ :فقلتُ في نَفسي، هذا شيخُنا وكبيرُنا، يدْعو إلى نفسِهِ، فلا يختلفُ عليه اثنان .فانتضبتُ سيفي وغطيّتُه بثوبي، وقلتُ :إنْ فَعَلَ ناجزتُه فلما رَقى استقبلَ النّاسَ بوجهِهِ أبي العبّاسِ.

فقال :أيُّها الناسُ إن أميرَ المؤمنينَ يكرهُ أنْ يتقدَّم قولُه فعلَه، وأثرُ الفعالِ عليكُم أجدى من تشقيقِ الكلامِ، وحسبُكم بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ متلوٌ فيكم وابنَ عَمِّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّمَ خليفةً عليكم .فواللهِ قسماً باراً ولا أريدُ بهِ إلا اللهَ ما قامَ هذا المُقامَ، أحدٌ بَعْدَ عليّ بنِ أبي طالِب، عليه الصلاةُ والسلامُ عليه وعلى آلِهِ، أحق مِن أميرِ المؤمنين هذا فليطمأن ظائُكم، وليهمسْ هامِسُكم قالَ المنصُورَ :فَشممتُ () سيفي.

وخطبَ داوودُ بن علي فقال:

شِنْشِنَةٌ أعْرِفُهَا مِنْ أخْزَمِ	من يلق آساد الرجال يكلم ()

مهلاً مهلاً يا روايا ()الأرجاف، وبقايا النفاق، وأنسال الأحزاب عن الخوض فيما كفيتم، والتخطي إلى ما حذرتم، قبل أن تتلف نفوس، وتحز رؤوس .ألم تجدوا ما وعدكم ربكم حقاً، من إيراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها .لا والله بل ضب مضمر ()وحسك ()وكمد، رغما للمعاطس وبعداً للقوم الظالمين .

وصعد المنبر مرة فارتج عليه الكلام فقال أما بعد :فقد يجد المعسر ويعسر الموسر، ويثقل الحديد، ويقطع الكليل .وأن الكلام بعد الأفحام كالاشراق بعد الاظلام وقد يعزب البيان ويعقم الصواب وإنَّما اللسان بضعة من الإنسان يفتر بفتوره إذا

أكتل وينبسط بانبساط إذا ارتجل .وإنا لا ننطق أشراً، ولا نسكت حصراً، بل ننطق مرشدين، ونسكت معتبرين .فإنا أمراء القول، فمنا وشجت [0]أعراقه، وإلينا تعطفت أغصانه وعلينا تهدلت ثمرته فنجنى منه ما أحلو لي وعذب، ونترك منه ما أملولح وخبث .ومن بعد مقامنا مقام، ومن بعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل الكلام .إن شاء الله وهو أحمد مستعان.

وخطب سليمان بن علي [0]بن عبد الله بن العباس فقال :إياكم أن يتكلم الرجل في ما لا يعنيه ويرعى ما لا يسترعيه .فينـزل به منا فاقرة ليست لها باقية، وإياكم إياكم .واحذروا مصارع الحائنين فإني وإياكم لا قال الأول:

فلما كفرتم شكر ما كنت أصنع — بدأتكم بالخير حتى بطرتم

فإن عدتم فالسيف عندي مقنع — سنعطيكم صابا ومرا وعلقما

وما بعد السوط، إلا السيف، فأبقوا على أنفسكم أو ذروا.

وخطب المنصور [0]فحمد الله وأثنى عليه، فلما انتهى إلى قوله أشهد أن لا إله إلا الله .وثب رجل من أقصى المسجد قال أذكرك الله ما تذكر .فقال :سمعاً لمن فهم عن الله عز وجل وذكر به، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عصياً، وأن تأخذني العزة بالاثم .وقد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين .وأنت والله أيها القائل ما أردت بها الله ولكنك حاولت أن يقال قام، فقال :وعوقب فصبر، وأهون بقائلها لقد هممت فاهتبلتها .[0]ويلك إذ عفوت، وإياكم معاشر الناس وأختها .فإن الموعظة علينا نـزلت، ومن عندنا أنبئت، فردوا الأمر إلى أهله يصدروه كما أوردوه .ثم رجع إلى خطبته فأتمها.

وصعد المنبر مرة فحمد الله وأثنى عليه، ثم سكت طويلا .فقال رجل :ما لأمير المؤمنين لا يتكلم، فإنه والله ممن يهون عليه صعب الكلام، فأكمل خطبته ثم قال:

ولو شتمتُ بني سَعْدٍ لقد سكنوا — مالي أكَفْكِفُ عن سَعْدٍ وَيشْتِمُني

لبئست الخُلّتانِ الجَهْلُ والجُبُنُ [0] — جهلا علينا وجبنا عن عدوكم

ثم حسر رأسه وقال:

لأكْشِفَـهُ إلا لاحْدَى العَظائم — وألقيت عن رَأسِي القِناعَ ولم أكُنْ

ثم قال :والله لقد عجزوا، عن أمر قمنا به، فما شكروا، ولقد مهدنا ما استوعروا وأعطينا الحق وغمطوا .[0]والله لا أكرم أحداً، بمهانة نفسي، والسعيد من وعظ بغيره، لأن سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

وقام عمرو بن عبيد ()بين يدي المنصور فقال :إن الله عز وجل أعطاك الدنيا بأسرها فاشتري نفسك ببعضها .واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة فيه فوجم أبو جعفر في قوله فقال الربيع ()له يا عمرو غممت أمير المؤمنين فقال عمرو :أن هذا قد صحبك عشرين سنة لم ير عليه أن ينصحك، يوماً واحداً .وما عمل وراء بابك، بشيء من كتاب الله عز وجل ولا سنَّة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله .فقال أبو جعفر :فما أصنع قد قلت لك خاتمي بيدك، فتعال أنت وأصحابك فاكفوني هذا الأمر . فقال عمرو :أدعنا بعد ذلك تسمح نفوسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق .

وقيل بينما المنصور يطوف بالبيت ليلا، إذ سمع قائلا يقول :اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي، والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع . فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة .فقال له المنصور :ما الذي سمعتك تذكر، من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي بما أرمضني .فقال :يا أمير المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالأمور على جليتها، ومن أصولها، وإلا احتجزت على نفسي . فقال :أنت آمن على نفسك، فقال :إن الذي دخله الطمع، حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغى والفساد أنت .فقال :ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي .قال وهل دخل أحد من الطمع مثل ما دخلك، إن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجاباً، من الجص والآجر وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح والكراع، وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، نفر سميتهم ولم تأمرهم بإيصال الملهوف والمظلوم، ولا الجائع ولا العاري، ولا الضعيف ولا الفقير وما أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك جباء الأموال وأمرتهم بجمعها ولا يقسموها، قالوا :هذا قد خان الله عز وجل، فمالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه فأتمروا بينهم أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا .ولا يخرج لك عامل، فيخالف أمرهم إلا أقصوه ونفوه، حتى تسقط منـزلته ويصغر عندك قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم، فكان أول من صانعهم، عمالك بالهدايا والأموال، ليتقووا به على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك، ذوو القدرة والثروة من رعيتك، لينالوا به ظلم من دونهم .

فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل .وإن جاء متظلم حيل بينه، وبين الدخول عليك، فإذا رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدك وقد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل، فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، فإن للمتظلم منه حرمة عندهم، فأجابهم خوفاً منهم فلا يزال المظلوم، يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث، وهو يدافعه ويماطله، ولا يقبل عليه .فإذا أجهد وأحوج وظهرت، صرخ بين يديك فيضرب ضرباً عنيفاً شديداً مبرحاً، ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر، فلا تنكر فما بقاء الإسلام على هذا .ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة، وقد أصيب ملكها بسمعه فبكى يوماً بكاء شديداً فحثه جلساؤه على الصبر .فقال :أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكنى أبكي للمظلوم بالباب يصرخ، فلا أسمع صوته .ثم قال أما إذا ذهب سمعي :فإن بصري لم يذهب فأذنوا في الناس، أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم .ثم كان يركب الفيل طرفي النهار، ينظر هل يرى مظلوماً، فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله عز وجل غلبت رأفته على المشركين وأنت تؤمن بالله واليوم الآخر ثم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه واسم غلب شح نفسك عليك .فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عز وجل، الطفل يسقط من بطن أمه وما له على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله جل ثناؤه يلطف بذلك للطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست بالذي يعطي، بل الله يعطي من يشاء بغير حساب .
وإن قلت أنا أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عز وجل عبراً في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع، حين أراد الله بهم ما أراد .وإن قلت أنا أجمع المال لطلب غاية، هي أجسم من الغاية التي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منـزلة لا تنال الا بالطاعة يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأكثر من القتل والصلب .قال المنصور :لا قال : فكيف يصنع أمير المؤمنين يوم القيامة عند لقاء الملك الذي خولك ملك الدنيا، ولا يعاقب من عصاه من عبيده، وعمل بخلاف ما أمره به في كتابه بالقتل ولكن يعاقبه بالخلود في العذاب الأليم وقد رأى ما عقد عليه قلبك، وتحملته جوارحك، ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه قدماك، ممن يعني ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يديك، ودعاك إلى الحساب على ما خولك .فبكى المنصور وقال :ليتني لم أخلق، ويحك فكيف احتال لنفسي .فقال :يا أمير المؤمنين إن للناس

أعلام يفزعون إليهم، في دينهم ويرضون نفوسهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددوك .قال :قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال خافوا أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وأنا الضامن عليهم، أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد إلى مجلسه، فطلب الرجل فلم يوجد .وقال المنصور لبعض عماله وقد بلغه أنه خانه :يا عدو الله وعدو أمير المؤمنين، أكلت مال الله .فقال :نحن عباد الله، وأنت خليفة الله والمال مال الله، فمال من تأكل إذاً .فأعجبه جوابه فقال :خلوا عنه ولا تولوه شيئاً.

ووجد على بعض الكتاب فأمر بتجريده وضربه فقال:

فهبنا للكرام الكاتبين ونحن الكاتبون وقد أسأنا

وروى أن بعض أهل العبث كان قد خرج بفلسطين، فكتب إلى العامل بها، دمه بدمك مرتهن، إنْ لم توجه به إلي، فظفر به فأشخصه إليه، فأدخله الربيع عليه فقال : "أنت المتوثب علينا عمال أمير المؤمنين "لا يوزن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك فقال بصوت ضعيف:

وَمِنَ العَنَاءِ رياضَةُ الهَرَمِ أتَرُوضُ عِرْسَكَ بَعْدَمَا هَرِمَتْ

فلم يتبين المنصور ما قال، لضعف صوته .فقال :يا ربيع ما يقول قال يقول:

فهل عذابُك عنّي اليَوْمَ مصروف الْعَبْدُ عَبْدُكُمُ والمالُ مالُكُمُ

فعفى عنه وخلى سبيله.

وكان يقول عقوبة الحليم التعريض، وعقوبة السفيه التصريح.

وروي عن الربيع أنه قال :جمع المنصور مالكاً وأبا حنيفة ()وابن أبي ذؤيب () رضي الله عنهم فقال :كيف ترون في هذا الأمر، الذي أعطاني الله تعالى .فقال ابن أبي ذؤيب :ملك الدنيا يؤتيه الله من يشاء وملك الآخرة يؤتيه، من وفقه له، وأن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها، وأنت وأعوانك خارجون من التقوى، عالين على الخلق فإن سألت الله السلامة، كان في ذلك نجاتك، وإلا أنت المطلوب . فقال لأبي حنيفة :ما تقول، قال :المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب، وأنت إذا نصحت نفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا فنقول بما تهواه، خوفاً من سيفك وحبسك ولقد وليت الخلافة، وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى .فقال لمالك :ما تقول؟ فقال :لو لم يرك الله أهلا لذلك، ما قدر لك أمر الأمة، أعانك الله على ما

ولاك .ثم أمر بانصرافهم، قال الربيع :ثم أعطاني ثلاث بدر()، وقال :اتبع القوم فإن أخذ ابن أبي ذؤيب وأبو حنيفة منها شيئاً، فأتنى برؤوسهما وإن أخذها مالك كلها فادفعها إليه .فأتيت ابن أبي ذؤيب وعرضت عليه، فقال :ما أرضى له هذا المال، فكيف أرضاه لنفسي، وقال أبو حنيفة :لو ضربت رقبتي ما مسست منها درهماً واحداً، فأتيت بها مالكاً فأخذها كلها .قال الربيع :فأعلمته ما جرى، فقال :بهذه الصيانة حقنوا دماءهم.

وروي عن الربيع قال :ما رأيت رجلا أربط جأشاً، من رجل رفع عليه إلى المنصور أن عنده ودائع، وأموالاً لبني أمية، فأمرني بإحضاره فأحضرته فدخلت به عليه .فقال له المنصور :قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي لبني أمية عندك، فأخرج إلينا منها .فقال :يا أمير المؤمنين أوَارِثٌ أنت لبني أمية، فقال :لا، فقال :فوصي لهم في أموالهم وربايحهم، قال :لا، قال :فما مسألتك عما في يدي من ذلك .قال :فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه فقال :إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل للمسلمين في حقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فأجعله في بيت مالهم، فقال :يا أمير المؤمنين تحتاج إلى إقامة البينة العادلة، على أن ما في يدي لبني أمية، مما خانوه وظلموا، دون غيره، فقد كان لبني أمية أموال غير أموال المسلمين .قال :فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال :صدق يا ربيع، ما يجب على الشيخ شيء، ثم قال :هل لك من حاجة، فقال :نعم، حاجتي يا أمير المؤمنين أن تنفذ كتابي على البريد إلى أهلي، ليسكنوا إلى سلامتي، فإنهم قد راعهم إشخاصي . وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين، قال :قل، قال :تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله ما لبني أمية في يدي مال، ولا وديعة، ولكني لما مثلت بين يديك، وسألتني عما سألتني عنه، قابلت بين هذا القول وما قبله، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة .فقال :يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فقال :هذا غلام لي، سرق علي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق .()فشد المنصور على الغلام، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه، وسعى به خوفاً وكذباً حتى لا يقع في يده .فقال المنصور للشيخ :نسألك أن تصفح عنه، فقال :قد صفحت عنه وأعتقته ووهبت الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف دينار، فقال المنصور :ما على ما فعله الشيخ من مزيد، فقال :يكون هذا بحق شفاعتك يا أمير المؤمنين وانصرف .فكان المنصور يتعجب منه كل ما ذكره، ويقول :ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وقيل :كان المنصور في صدر نهاره، يأمر وينهى، ويدبر الملك والنظر في النفقات، ومعاش الرعية، فإذا صلى العصر، جلس لأهل بيته، فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه، من كتب الثغور والآفاق، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه فنام، فإذا بقي الثلث الأخير من الليل، قام فأسبغ وضوءه وصف قدميه في محرابه، حتى يطلع الفجر ثم يخرج ويصلي.

حديث زينب ابنة سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ()، قالت :كنت عند الخيزران ()، وعادتها إذا كنت عندها أن تقعد في عتبة الرواق المقابل للإيوان، وأجلس بإزائها، وفي الصدر مجلس المهدي ()، يقعد فيه وهو يقصدنا في كل يوم، فيجلس ساعة ثم ينهض .فبينما نحن كذلك إذ دخلت جارية من جواريها، اللواتي يحجبنها .فقالت :أعز الله السيدة، امرأة لها جمال وخلقة حسنة، وليس من وراء ما هي عليه، من سوء الحال غاية، تستأذن عليك .وقد سألتها عن اسمها، فامتنعت أن تخبرني، فالتفتت إلى الخيزران فقالت :ما ترين، فقلت :أدخليها، فإنه لا بد من فائدة أو ثواب .فدخلت امرأة كأجمل النساء وأكملهن، لا تتواري فوقفت إلى جانب عضادتي الباب، ثم سلمت متضائلة، ثم قالت :أنا مزنة بنت ()مروان بن عبد الملك، فقالت زينب :وكنت متكئة، فاستويت جالسة، فقلت :مزنة، فلا حياك الله ولا قربك، والحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلّك، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك، في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد ()، فوثبت عليهن وأسمعتهن، وأمرت بإخراجهن على الحالة، التي أخرجن عليها، فلا أنسى حسن ثغرها، وعلو صوتها بالقهقهة .وقالت :أي بنت عم، أي شيء أعجبك من حسن صنع الله في العقوق، حتى أردت أن تنافسيني فيه والله إني فعلت بنسائك الذي فعلت، فأسلمني الله عز وجل إليك، ذليلة جائعة عريانة، فكان هذا مقدار شكرك لله على ما أولاك فيَّ .ثم قالت :السلام عليكم وولت، فصاحت بها الخيزران :ليس هذا لك، عليَّ استأذنت وإليَّ قصدت فما ذنبي .فرجعت وقالت : لعمري فقد صدقتني يا أخيَّة .

وكان مما ردَّني إليك، ما أنا عليه من الضرر والجهد .قالت زينب فنهضت إليها الخيزران لتعانقها، فقالت :ليس فيَّ لذلك موضع، مع الحال التي أنا عليها . فقالت الخيزران لها :فالحمام إذاً، وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام، فدخلت وطلبت ماشطة ترمي ما على وجهها من الشعر .فلم تزل حتى خرجت من الحمام، فوافتها الخلع والطيب، فأخذت من الثياب ما أرادت، ثم تطيَّبت

وخرجت إلينا، فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي إذا دخل، فقالت لها الخيزران :هل لك في الطعام فأنا لم نطعم بعد، فقالت :والله ما فيكن أحد أحوج إليه منّي، فعجلوه، فأُتِيَ بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة وتلقّمنا وتضع بين أيدينا، إلى أن اكتفت، ثم غسلنا أيدينا .فقالت لها الخيزران :من وراءك ممن تعنين به، فقالت :ما خارج الدار أحد من خلق الله، بيني وبينه سبب، فقالت الخيزران :إن كان هذا هكذا، فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا، ونحول إليه جميع ما تحتاجين إليه، ثم لا نفترق حتى يفرق الموت بيننا .فقالت :فطفنا بها في المقاصير، فاختارت أوسعها وأنزهها، ولم نبرح حتى حوِّل إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكساء والجواري والرقيق، ثم تركناها وخرجنا عنها .فقالت الخيزران :إن هذه المرأة كانت فيما قد كانت فيه، وقد مسها ضرّ، وليس يغسل ما في قلبها، إلا المال، فاحملوا إليها خمس مائة ألف درهم، فحُمِلَت إليها .ووافانا المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته حديثها، وما لقيته به، فوالله ما انتظر أن أعرِّفه جوابها حتى وثب مغضباً في وجهي، وقال :يا زينب، هل هذا مقدار شكر الله على نعمه، وقد مكَّنك من مثل هذه المرأة، على هذه الحال التي هي عليها فوالله لولا محلك من قلبي، لحلفت أن لا أكلمك أبداً .قالت :فقلت :قد اعتذرت إليها، ورضيت ثم قصصنا عليه قصتها كلها، وما فعلت الخيزران لها، فقال لخادم معه :إحمل إليها مئة بدرة، وادخل إليها وأبلغها السلام عني .وقل لها، والله إني ما سررت منذ دهري سروري بمكانك، وأنا أخوك وممَّن يوجب حقك، لا تدعي حاجة إلا سألتيها .ولولا أني أكره أن أحشمك ()لصرت إليك مسلماً عليك، وقاضياً حقك .فمضى الخادم إليها بالمال والرسالة، فأقبلت إلينا معه، فسلمت على المهدي، وشكرت له فعله، وأثنت على الخيزران عنده .وقالت :ما على أمير المؤمنين حشمة ()، أنا في عِداد حرمه، وقعدت ساعة، ثم قامت إلى منـزلها فخلفتها عند الخيزران كأنها لم تزل في ذلك القصر.

وقيل :إن المهدي لما حج، أنفق في حجِّه ثلاثين ألف ألف درهم، وخمسمائة ألف دينار .وفرق من الثياب مائة ألف وخمسين ألف ثوب، وهو الذي وسَّع المسجد الحرام، وبناه على ما هو عليه اليوم.

وقيل :نذر ()المهدي، دم رجل من أهل الكوفة، كان يسعى في فساد دولته، فجعل لمن دلَّ عليه، أو جابه مئة ألف درهم .فأقام الرجل متوارياً ثم إنه ظهر يوماً ببغداد، فبينما هو يمشي في بعض نواحيها، بصر به رجل من أهل الكوفة، فرفعه

فأخذ بمجامع ثيابه، وقال :هذا بغية أمير المؤمنين، فبينما الرجل على تلك الحال، إذ سمع وقع الحوافر من ورائه فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال :يا أبا الوليد ()، أجرني أجارك الله، فوقف، فقال للرجل الذي هو متعلق به :ما شأنك؟ قال :بغية أمير المؤمنين، نذر دمه وبذل لمن دل عليه مئة ألف درهم .فقال :يا غلام، انـزلْ عن دابتك واحمل الرجل عليها، فصاح المتعلق بالرجل :يا للناس أيحال بيني وبين طلبة أمير المؤمنين، فقال له معين :اذهبْ فاخبره أنه عندي، فانطلق الرجل إلى باب المهدي، فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدي، فأخبره فأمر بإحضار معن، فأتته الرسل، فدعا أهل بيته ومواليه، وقال :لا يخلصن إلى هذا الرجل، وفيكم عين تطرف .ثم سار إلى المهدي، فدخل فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام .وقال :يا معن أتجير علينا، قال :نعم يا أمير المؤمنين، قال :ونعم أيضاً !فاشتد غضبه .فقال :يا أمير المؤمنين، قتلت في طاعتكم في اليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً، إلى أيام كثيرة قد تقدم بلائي وحسن غنائي، فما رأيتموني أهلاً أن يوهب لي رجل واحد، فأطرق المهدي طويلاً، ثم رفع رأسه وقد سرى عنه .وقال :قد أجرنا جارك، فقال معن :إن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه .قال :قد أمرنا له بخمسين ألف درهم، قال معن :إن صِلات الخلفاء لا تكون إلا على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له العطية .فقال :قد أمرنا له بمائة ألف درهم، قال :تعجَّلها يا أمير المؤمنين، فإن خير البر عاجله، فأمر بتعجيلها له . وانصرف معن بالمال إلى الرجل وقال له :خذ صلتك والِحقْ بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

ذكر المنصور لمعن بن زائدة بعد كلام له :قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء، لولا مكانك عنده ورأيه فيك لصعب عليك الأمر قال :وما ذاك يا أمير المؤمنين، فوالله ما تعرضت به منك، قال :إعطاؤك مروان بن أبي حفص ()ألف دينار في قوله فيك:

مَعْنُ بنُ زائِدةَ التي زِيدتْ به	**شَرَفاً عَلَى شَرَفٍ بَنُو شيْبَانِ**
أنْ عُدَّ أيّـامُ الرجـال فإنها	**يَـوْمَاهُ يَـومُ نـدا ويوْمُ طِعَانِ**

فقال :ما أعطيته لهذا ولكن لقوله:

ما زِلْتَ يومَ الهاشِميَّةِ مُعْلِماً	**بالسيفِ دونِ خليفة الرحمان**
فحميت حوزته وكنت وقاءه	**مِن وقْعِ كلُّ مُهَندٍ وسِنانِ**

فاستحيا المنصور فقال ما أعطيته إلا لهذا .قال :نعم يا أمير المؤمنين فوالله

لولا مخافة الشنعة، عندك لمكنته من مفاتيح بيوت أموالي وانحلته إياها .قال المنصور :لله درك من أعرابي ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم قيل أقام أعرابي على باب معن بن زائدة فلما طال مقامه كتب إليه رقعة فيها :

وفي الأرض أسباب وفيها مذاهب فما في يديك الخير يا معنُ كله

إذا افتتحت عند الإياب الحقائب سيأتي بنات العم ما أنت صانع

ووكل من يوصلها إليه وسار فلما وصلت الرقعة إليه وقرأها أمر برده وقال : والله لتفتشن عن خير كثير وأمر فملئت حقيبته دراهم.

وحضر ببابه شاعر فأقام مدة لا يتهيأ له الدخول عليه، فقال يوماً لبعض خدمه :إذا دخل الأمير البستان فعرفني فلما دخله أعلمه .فكتب بيتاً على خشبة وألقاها في الماء، الذي يدخل البستان .فلما نظر معن في الخشبة أخذها فقرأها فإذا فيها مكتوب:

فمالي إلى معن سواك رسول أيا جود معن ناج معنا بحاجتي

فقال من صاحب هذه، فدعا بالرجل فقال له :كيف قلت أنشد البيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فأخذها ووضع الخشبة تحت بساطه .فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت بساطه، وقرأها فدعا بالرجل، فأمر له بمائة ألف أخرى، وكذلك في اليوم الثالث فلما أخذها الرجل، تفكر في عظم ما أخذ وخاف أن يسترجعها منه فخرج فلما كان في اليوم الرابع قرأ ما فيها ودعا بالرجل فلم يوجد .قال معن :حق عليّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

قيلَ :خرجَ على هارونَ الرشيدِ () بعضُ الخوارج، فأنهضَ إليهِ جيشاً فَظَفِرَ بِه، فلمّا دخلَ عليهِ، قالَ لَهُ :ما تريدُ أنْ أصنعَ بِكَ قالَ :الذي تريدُ أن يصنعَ اللهُ بكَ، إذا وقفتَ بينَ يديه .فأطرقَ مليا ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ وأمرَ بإطلاقِهِ فَلَمَّا خرجَ قالَ بعضُ مَنْ حَضَرَ :يا أميرَ المؤمنينَ يقتلَ أهلَكَ ويُفنِي أموالَكَ وتطلقُهُ لِكلمةٍ واحدةٍ، تأمل هَذا، فإنّه يُجَرّئُ، عليكَ أهلَ الشّر .فأمرَ بردِّهَ فلمّا مَثَل بينَ يديهِ، عَلِمَ أنه قَدْ سعَى بِهِ عِنْدَهُ، فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ لا تطعْهُ فَلَوْ أطاعَ الله فيكَ، ما استخلَفَك لحظةً واحدةً فأمرَ بإطلاقِهِ وقالَ :لا تعاودْوني في بَابِه .()

وَعَنْ جُريمِ بن أبي يَحيى المُزَنيِّ قالَ :دَعاني، يوماً للأكْلِ مَعَهُ فلَمَّا توسَّطَ الأكلَ، رفع رأسَهُ إلى رَجُل، يكلّمُهُ بالفارسيّةِ قُلْتُ :يا أمير المؤمنينَ إنْ كنت تريد أنْ تُسِرَّ إليهِ، فإنِي أفهمُ الفارسيَّة، فَأمرْني أتنحَّى إلى أنْ تُقّدم إليهِ بما تُريدُ فَاعجبَ

الرشيدَ كرمُ أخلاقِهِ وَصدَّقَهُ وَخَاطَبَ الرَّجلَ سرًّا بما أرادَ وأمرَ لجريمِ بصِلَةٍ سَنِّيةٍ.

وَقيلَ استزار إبراهيمْ بنُ المهدي، أخاه هارون الرشيدَ بالرّقةِ، فَلَمَّا حَضَرَ الطعامُ وكانَ الرشيدُ لا يأكلُ حاراً قَبْلَ باردٍ .فوضعَتْ البواردُ بينَ يديهِ على المائدةِ، فَرَأى فيما قرب مِنهُ جاماً ()فيهِ قريشُ السَّمكِ، فاستصغرَ القِطَعَ فقالَ لإبراهيم لِمَ يُصَغّرْ طباخُك السَّمكَ .فقالَ :إنَّهُ لَمْ يُصغِّرْ القِطَعَ، وإنَّما هذه ألسنةُ السَّمكِ، فقالَ : شَبيهٌ أنْ يكونَ في هذا الجامِ مائةُ لِسانٍ فقالَ لَه مراقبُ خادِمِ إبراهيمَ يتولى قهرمتَه، فيه يا أمير المؤمنينَ أكثرُ مِنْ مائةِ لسانٍ فاستحلَفه على مبلغ ثَمنِ السَّمكِ، الذي مِنها هذهِ الألسنةُ .فأخبَرُ أنَّهُ ألفُ دِرهم فَرَفَعَ هارونُ يدَهُ مِنَ الطعامِ وَحَلَفَ أنْ لا يطْعَمَ دونَ أنْ يُحْضِرَ مراقبُ ألفَ دينارٍ، فأحضرَها فأمَرهُ أنْ يتصدَّقَ بِها .وقالَ لإبراهيمَ : أرجو أنْ يكون هذا كَفارةً لِسَرفِكَ في انفاقِكَ، على جامِ سَمَكٍ ألفَ دِرْهم، ثُمَّ أخذَ الجامَ بيدِهِ، وَدَفَعَهُ إلى بعضِ خَدَمِهِ .وقالَ :أُخرجْ :مِنْ دارِ أخي، ثم انظرْ أوَّلَ سائِلٍ تراهُ، فادفعْهُ إليه .قالَ إبراهيمُ :وكانَ شراءُ الجامِ على مائتين وسبعينَ ديناراً فغمزتُ بعضَ خَدَمِي أنْ يَخْرُجَ مَعَ الجامِ فيبتاعَهُ مِمّنْ يُدْفَعُ إليهِ، وكأنَّ الرّشيدَ فَهِمَ ذلكَ مِني فهتَفَ بالخادِمِ، وقالَ :إذا دَفعت الجامَ الى السائِلِ، فقلْ لهُ يقولُ لكَ أميرَ المؤمنين :احذرْ أن تبيعَ الجامَ بأقل من مئتي دينار فإنّه يُساوي أكثرَ مِنْها .فَفَعَلَ الخادِمُ ما أمَرهُ، قالَ :فواللهِ ما أمكَنَ خادِمُ إبراهيمَ أن يشتريَهُ، ويردَّهُ إلى الدّارِ إلا بمائتي دينارٍ، كما أوصى أميرُ المؤمنينَ .

وَلمّا حُمِلَ الشَّافِعِي رَحمهُ اللهُ مِنَ اليمن إلى الرشيد، حينَ وُشِيَ بِهِ إليهِ فجرَى لَهُ مَعَهُ كلامٌ كثيرٌ إلى أنْ قالَ لَهُ الرشيدُ، هَلْ مِنْ موعِظَةٍ تَعِظُ بها أميرَ المؤمنينَ . قالَ :نَعَمْ على تركِ الحشمَةِ وَرَفعِ الهيبَةِ، وقبولِ النُّصحِ والقاءِ رداءِ الكِبْرِ عن منكبِكَ .قالَ الرشيدُ :لَكَ ذلك، فَجَثى الشافعي على ركبتيهِ .وقالَ :يا ذا الرَّجلِ، إنَّه مَنْ أطالَ عِنَانَ الأمرِ في العِزّ، طَوى عِذارَ الحذَرِ بالمهلةِ، وَمَنْ لَمْ يعوّلْ على طريقِ النجاةِ، كانَ بجانِبِ قِلّةِ الاكتراثِ بالمراجَعَةِ إلى اللهِ مُقيماً .وَمَنْ أرثَ الظَّنَّ، كَانَ مِنْ أَمَنَةِ المحذورِ، في مِثْلِ نسج العنكبوتِ، لا تأمنُ على نفسِهَا، وَتَحْجِزُها عن سَعْيِها، فَلَوْ جَرَّعَها مخالفَتها وبادرَ خوفَ المراجعةِ، بالتزوّدِ إلى دارِ المقامةِ، إنْ لَوْ فعلتَ ذلكَ يا رَجُلُ ما اهتدتْ إليكَ يَدُ النَّدامةِ وَلأبدَرْتكَ غداً في القيامةِ، لكنَّكَ أتيتَ مِنْ حيثُ لا يُؤدِّي إلى فَهمِكَ، مَنْ أذنَ لمجِّ الكلامِ بسمعِكَ فَمِن ثَمَّ أعقبكَ التَّواني، والاغترارُ بنفسِكَ وَلَوْ كانَ لَكَ أميرٌ مِنْ عقلِكَ ينقد لكَ ما سقَطَ من عيوبِكَ، لشغلَكَ ذلكَ عن النَّظَرِ في عيوبِ غيرِكَ وَلكنْ ضَرَبَ الهَوى عليكَ رِواقَ الحيْرَةِ فتركَكَ إذا

خرجْت يدْ موعِظتِكَ، لم تكدْ تراها وَمَنْ لَمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً، فَما لَهُ مِنْ نورٍ .فَبَكى الرشيدُ حتى بَلَّ مِنديلاً كانَ في يدِهِ، ثُمَّ قالَ لَهُ خاصةٌ مَنْ يقومُ على رَأسِهِ :اسكتْ فقدْ أبكيتَ أميرَ المؤمنينَ فالتفتَ إليهِمُ الشَّافعيُّ، رَحِمَهُ اللهُ، وقالَ :يا عبيدَ الدَّنيا، الذينَ باعوا أنفسَهُم لمحبوبِ الدُّنيا، أمَا رأيتُم ما استُدرجَ بِهِ مَنْ كانَ قَبْلَكُم مِنَ الأمم بالأمانِي ألَمْ تَروا كيفَ فَضَحَ اللهُ مستورَهُم، وأمطرتْ بواكيرُ الهمومِ عليهم، بَعدَ سُرورِهِمَ فأصبحُوا بَعْدَ خِفضِ عيشِهِم، ولينِ رفاهيتِهِم، في نسيم روضةِ البطَّالينَ حصائِدَ النَّقَمِ ومدارجَ المثولاتِ .فقالَ لَهُ الرشيدُ :لَقَدْ سللتَ علينا لسانك وهو أمضى من سيفك فقال له الشافعى :إن قبلتَهُ فهو لَكَ، وإلا عليكَ .قالَ :فَهَلْ مِنْ حاجةٍ خاصة بعد العامةِ، قالَ :بعدَ مكنونِ النصيحةِ، وتجريدِ الموعظَةِ تأمرني أن أسود وجه موعظتي بالمسألةِ قالَ :ثُمَّ ماذا قال :النظر في أمورِ الرعيةِ والقِسمَةِ بينَهُم بالسويةِ، قالَ :وَمَنْ يُطيقُ ذلكَ، قالَ :مَنْ تُسمى باسمِكَ، وَنُسِبَ إلى موضعِكَ .قال :ثم ماذا قالَ :الحب أحبِبْ الله،، وجيران قبر رسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وعلى آلهِ، أما واللهِ لَو أردتَ عِمارَةَ قَبْرِ رَسولِ اللهِ صلىَ الله عليه وعلى آلهِ وسلم للزمك في ذلك مؤنةٌ . قالَ :فأمَرَ الرشيدُ بمال للمهاجرينَ والأنصار والعلويةِ، وأمرَ للشافعي، رحمه الله، بخمسينَ ألفِ دينارٍ، وحمله على فَرَس.

وكانَ الرشيدُ يُصلي في كُلِ يَوم مِئَة ركعةٍ، إلى أنْ تُوفيَ ويتصدقُ في كُل يَوم بمائةِ ألف درهم، فإذا حَج حَج مَعَهُ مائة مِنَ الفقهاءِ كل فقيهٍ منهُم بزادِهِ وَراحِلَتِهِ . وُجِدَ ذلكَ في كِتابِ تفاوت التواريخ واللهُ أعلمُ.

قالَ الأصمعي :()قصدتُ في بعض الأيام، رجلا كنت أغشاهُ لكرمه، فوجدتُ على بابِهِ بوّاباً، فمَنعنِي مِنَ الدخولِ عَلَيه .فقالَ البوّابُ :واللهِ ما أوقفَنِي على بابِهِ، لأمنعَ مِثلَكَ الدخولَ عليهِ، لرقة حاله وقصور يده، فكتبت رقعة أقول فيها:

فما فضلُ الكريمِ على اللَّئيم　　　إذا كانَ الكريمُ لَهُ حِجابٌ

ثم قلتُ أوْصِلْ رقعتي هذِهِ إليهِ ففعلَ .فعادتْ الرقعة، وقد كتب على ظهرِها:

تَستَّرَ بالحجابِ عَنِ الغريم　　　إذا كان الكريمُ قليلَ مالِ

ومع الرقعةِ صُرة فيها خمسمائةِ دينارٍ وَعذْرٌ .فقلتُ :واللهِ لا تحفِن أميرَ المؤمنينَ بِهذا الحديثِ، فجئتُ إلى الرشيدِ فَلَمّا رآني قالَ :مِنْ أين يا عبد الملك قلت : من عند رجل، أكرمَ الأحياءَ حاشا أمير المؤمنين، قال :ومن هو قلتُ :رَجُلٌ قَراني عِلمَهُ مالَهُ، ثم دفعت إليهِ الرقعة والصرة .قالَ هذا ختم بيتِ مالِي فلا بد لِي من الرجل، الذي دفعها إليكَ .قلتُ :يا أميرَ المؤمنينَ واللهِ إني لأستحي أنْ أروعَهُ

برسلك، فقالَ لِبعضِ خاصته امض معَ الأصمعيِّ، فإذا أراكَ الرجلَ فقل له :أجبْ أميرَ المؤمنينَ مِنْ غيرِ ازعاج .قالَ فلما حضر الرجلُ بين يدي الرشيدِ، قالَ له :أما أنتْ بالأمس، وقفتَ بموكبنا وشكوت رقة حالك وأن الزمان أناخَ عليكَ بكلكله، فدفعنا إليك هذه الصرةَ لتصلح بها حالَكَ فقصدَكَ الأصمعي ببيت واحد فدفعتها إليهِ، قال :والله ما كذبتُ فيما شكوتُ يا أميرَ المؤمنينَ مِن رِقةِ الحالِ وصعوبةِ الزمانِ وَلكني استحيت مِنْ اللهِ تعالى أنْ أعيدَ قاصِدِي، إلا كما أعادَني أميرُ المؤمنينَ .فقالَ: لله درُّك فما ولدت العربُ أكرمَ مِنْكَ، ثُمّ أمَرَ له بألفِ دينارٍ، فقلت :ألحقني به يا أمير المؤمنين فتبسم وأمر أن تكمل لي ألف دينار، وعاد الرجل من جملة ندمائه.

وقيل لما حج الرشيد، ورجع قافلاً دعا صالحًا، حين تنكر للبرامكة، فقال : أخرج إلى منصور بن زياد ()، فقل له :قد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم، فاحملها إلي من يومك، فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا، وإلا فاحمل إلي رأسه، وإياك ومراجعتي في شيء مِنْ أمره .قال صالح :فخرجت إلى منصور فعرفته الخبر، فقال :إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي ثم حلف أنه لا يعرف موضع ثلاثمائة ألف درهم، فكيف عشرة آلاف ألف درهم، فقال له صالح خذ في عملك .()قلت له :امض إلى منـزلي حتى أوصي وأتقدم في أمري فما هو إلا أن دخل حتى ارتفع الصراخ من منازله، وحجر نسائه، فأوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم .فقال :امض بنا إلى أبي علي، يعني يحيى بن خالد، فلعل الله أن يأتينا بفرج من جهته، فمضيت معه فدخل على يحيى بن خالد، فقال له يحيى :ما وراءك فقص عليه القصة فقلق يحيى لأمره وأطرق مفكرا ودعا جارية وقال لها : كم عندك من المال قالت :خمسة آلاف ألف درهم قال :هاتيها فأحضرتها ثم وجه إلى ولدها الفضل ()إنك كنت أعلمتني، فداك أبوك أن عندك ألفي ألف درهم وددت أنك تشتري بها ضيعة، وقد وجدت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها وتحمد ثمرتها فوجه إلي بالمال، وقال للرسول امض إلى جعفر فقل له :ابعث لي، فداك أبوك، بألف ألف درهم، لحق لزمني فوجها إليه فقال :هذه ثمانية آلاف ألف درهم، ثم أطرق طويلا، لأنه لم يكن بقي معه من المال شيء ثم رفع رأسه إلى خادم له، فقال :امض إلى دنانير ()فقل لها :وجهي إليَّ بالعقد الذي كان أمير المؤمنين، وهبه لك فجابه فإذا هو عقد كعظم الذراع، فقال لصالح :اشتريت هذا بمائة ألف وعشرين ألف دينار، فوهبه أمير المؤمنين، لدنانير وقد حسبناه بألفي ألف درهم وهذا تمام المال، فانصرف وخل صاحبنا، لا سبيل لك عليه .قال صالح :فأخذت ذلك ورددت

منصورا معي، فلما صرنا بالباب أنشد متمثلا:

ولكن خفتما صرد (0)النبال   فما بقيا علي تركتماني

قال صالح فقلت ما على وجه الأرض، رجل أنبل من رجل خرجنا من عنده ولا سمعت بمثله، فيما مضى ولا يكون فيمن بقي، ولا على وجه الأرض، رجل أخبث سريرة، ولا أردأ طبعا، من هذا النبطي، إذا لم يشكر من أحياه .قال :ثم صرت إلى الرشيد، فقصصت عليه قصة المال، وطويت عنه ما قال منصور، لأني خفت إن سمعه أمر بضرب عنقه .قال الرشيد :أما إني قد علمت، من نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت .وقال :اقبض المال، واردد العقد على دنانير لأني لم أكن لأهب هبة، فترجع إلي .قال صالح :فلم أطب نفساً، بترك تعريف يحيى ما قال منصور، فقلت له بعد أن أطنب في شكره، ووصف ما كان منه لقد أنعمت على غير شاكر، قابل أكرم فعل بالأم قول .وكيف ذلك فأخبرته بما قال، فجعل والله يطلب له المعاذير .وقال :يا أبا علي إن المخوف القلب ربما سبق إلى لسانه ما ليس في ضميره، وقد كان الرجل في حال عظيمة .فقلت والله ما أدري أي أمريك أعجب، أمن أوله أم من آخره، لكني أعلم أن الدهر لا يخلف مثلك أبدا.

قال يحيى بن خالد :من أحسنت إليه، فأنا مرتهن به، ومن لم أحسن إليه فأنا مخير فيه .وقال :في ذكر النعمة من المنعم تكدير، ونسيان المنعم عليه كفر .وقال : يدل على كرم الرجل، سوء أدب غلمانه .وقيل له :لم لا تقول الشعر فقال :شيطانه أخبث من أن أسلطه على عقلي .وقال :إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة.

وقيل :ركب محمد بن إبراهيم (0)دين فركب إلى الفضل بن يحيى، ومعه حُق فيه جواهر، فقال له :قصرت بنا غلاتنا وأغفل أمرنا خليفتنا وتزايدت مؤنتنا فلزمنا دين احتجنا إلى أدائه وهو ألف ألف درهم وكرهت بذل وجهي للتجار، وأذالة (0) عرضي منهم .ومعي رهن وثيق بذلك، فإن رأيت أن نأمر بعض غلمانك بقبضه، وحمل المال إلينا فعلت، فدعا الفضل بالحق، فرأى ما فيه وختمه بختم محمد بن إبراهيم، ثم قال له :نجح الحاجة، أن

تقيم اليوم عندي في منـزلي، فقال له :إن المقام على مشقة فقال :له ما يشق عليك من ذلك إن رأيت أن تلبس بعض ثيابنا، دعوت به وإلا أمرت بإحضار ثياب من دارك .فأقام ونهض الفضل فدعا بوكيله، وأمره بحمل المال وتسليم الحق الذي فيه الجوهر إلى وكيل محمد بن إبراهيم وأخذ خطه بذلك .ففعل الوكيل ذلك، وأقام محمد عنده إلى الليل، وليس عنده خبر بشيء من الأمر ثم انصرف إلى منـزله فأحضر

الوكيل المال والحق فغدا على الفضل ليشكر له فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد فوقف منتظرا له، فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، فاتبعه فوجده سبقه إلى دار ابنه فوقف ينتظره فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، قاصدًا إلى منـزله، فانصرف عنه فلما عاد إلى منـزله وجه الفضل إليه بألف ألف أخرى فغدا عليه فشكره وأطال، فأعلمه الفضل أنه بات بليلة طالت غما بما شكاه إلى أن لقي الرشيد، فأعلمه بحاله وأمره بالتقدير له، فلم يزل يماكسه إلى أن تقرر الأمر معه على ألف ألف درهم، فقال :إنه لم يصلك بمثلها قط ولا زادك على عشرين ألف دينار فشكرته، وسألته أن يصك بها صكا بخطه ويجعلني الرسول ففعل فشكره محمد . وقال صدق أمير المؤمنين أنه لم يصلني بأكثر من عشرين ألف دينار، وهذا إنما تهيأ بك وعلى يديك، وما أقدر على القيام بحقك ولا على شكر أجازي به معروفك غير أن عليَّ وَعَليَّ أيمانا مؤكدة إن وقفت بباب أحد سواك ولا سألت غيرك حاجة أبدا، ولو سففت التراب .فكان لا يركب إلى غير الفضل، إلى أن كان من أمرهم ما حدث، فكان لا يركب إلى غير دار الرشيد ويعود إلى منـزله فعوتب بعد تقضي أمرهم، في ترك الركوب إلى الفضل بن الربيع، فقال :والله لو عمرت ألف عام ومصصت الثماد، ما وقفت بباب أحد، بعد الفضل بن يحيى، ولا سألته حاجة أبدا حتى ألقى الله تعالى، فلم يزل ذلك حاله حتى مات.

وقيل :دخل مسلم بن الوليد ()على الفضل بن يحيى، وقد كان ورد عليه خبر سره، فجلس للشعراء فمدحوه وأثابهم، ونظر في حوائج الناس فقضاها، وتفرق الناس عنه، وخلا في منـزله، ولم يحضر مسلم ذلك، وإنما بلغه حين انقضى المجلس، فدخل عليه فاستأذنه في الإنشاد فأذن له فأنشده قوله:

عَلَيْهَا فتًى كالنَّصلِ يُؤنِسُهُ النَّصلُ   **أتَتْكَ المطايَا تهتدي بمَطِيَّةٍ**

فحطَّ الثناءِ الجزلِ نائلُهُ الجزلَ   **وردتُ رواق الفضل آملُ فضلهُ**

إذا كَانَ مَرْعَاهَا الأمانيُّ والمطلُ   **فتًى تَرْتَعِي الآمالُ مُزْنَةَ جُودِهَ**

الردى وعيونُ القَوْلِ مَنْطِقُهُ الفصل   **تُساقِطُ يُمْنَاهُ الندى وَشِمالُهُ**

على مَنْهَجٍ ألفى أباهُ بِهِ قبْلُ   **ألحَّ عَلَى الأَيَّامِ يَفْري خُطُوبَها**

فَلَيْسَ لَهُ مِثْلُ وَلا لَهُما مِثْلُ   **أنَافَ على العَلياءِ يَحْيَى وخالد**

وأصلاً فطابت حيث وجهها الأصل   **فروع أصابت مغرساً متمكناً**

وَتُسْتَنزلُ النّعْمى ويُسْتَرْعَفُ النَّصْل   **بَكفِّ أبي العباس يُسْتَمْطَرُ الغِنَى**

فطرب الفضلُ طربا شديدا، وأمر بأن تعد الأبيات، فعدت فكان مبلغها ثمانين

بيتا .فأمر له بثمانين ألف درهم وقال :لو لا أنه أكثر ما وصل به شاعر لزدتك ولكنه شيء لا يمكن تجاوزه يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة.()

وروى أن مروان بن أبي حفصة دخل على الرشيد فأنشده مدحا فيه، فقال :من أنت قال :شاعرك مروان بن أبي حفصة فقال :ألست القائل:

مقاما لا نُريدُ به زوالا — أقمنا بالمدينة بعد مَعْن

وقدْ ذَهَبَ النَّوالُ فلاَ نَوالاَ — وَقُلْنِا أيْنَ نذهب بعد معنٍ

إلَــى أنْ زَارَ تـربَتَـه عِيـالاَ — وَكَانَ النَّــاسُ كُلُّهُمُ لِمَعْنٍ

فقد ذهب النوال كما زعمتم .فلم جئت تطلب نوالنا .لا شيء لك عندنا جروا برجله، فجروا برجله حتى أخرج فمكث سنة ثم دخل عليه في جملة من الشعراء فأنشده قوله:

بَيْضَاءُ تَخْلِطَ بالحَياءِ دَلالَها — طَرَقَتْكَ زائرةً فَحَيِّي خَيَلَهَا

بــأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرُونَ هِلاَلَها — هَلْ تَطْمِسُونُ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومُها

حتى بلغ قوله:

جِبرِيلُ بَلَّغَها النَّبيَّ فَقَالَهَا — أوْ تَجْحَدُونَ مَقَالَةً مِنْ رَبِّكُمْ

ٍ بتُراثِهِمْ سفَأرَدْتُمْ إبطالَـها — شَهِدَتْ منَ الأنْفالَ آخِرُ آية

فزحف الرشيد حتى صار على البساط .وقال :كم هي قالوا هي مائة بيت فأمر له بمائة ألف درهم.

وقيل :دخل يزيد بن مزيد ()على الرشيد فقال له :من الذي يقول فيك:

ولا يُمَسِّحُ عينيه من الكحل — لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خديه ومفرقه

فهن يَتْبَعْنَـهُ في كل مُرْتَحَل — قد عود الطير عادات وثقن بها

فقلت له :لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له :أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تعرف قائله؟ فخرج من عنده خجلا، فلما صار إلى منـزله دعا حاجبه، وقال : من بالباب من الشعراء؟ قال :مسلم بن الوليد .قال :فكيف حجبته عني، فلم تعلمني به، قال :أخبرته أنك مضيق، وأنه ليس في يدك مال تعطيه، وسألته الإمساك والمقام أياما، إلى أن يتسع عليك الحال، فقال :أدخله إليَّ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

كَأَنَّهُ أجَلُ يَسْعَى إلى أمَلَ — مُوفٍ على مُهَج في يوم ذِي رَهَج

لا يَأْمنُ الدَّهْرَ أنْ يُدْعَى على عَجَلِ — تَراهُ في الأمْنِ في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ

وَلا يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الكُحُلِ   لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرِقهُ
فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحَلِ   قدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثقْنَ بها
وَأنْتَ وَابْنُكَ رُكْنَا ذَلِكَ الجَبَلِ[0]   للهِ مِنْ هاشِمٍ في أرْضِـهِ جَبَلٌ

فقال له :قد أمرت لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر، فخرج الحاجب فقال :قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه بمائة ألف درهم، خمسون ألفا منها لك، وخمسون ألفا لنفقته، فأعطاه إياها .فكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد فأمر له بمائتي ألف درهم وقال :اقبض الخمسين ألف درهم، التي أخذها الشاعر وزده مثلها، وخذ مائة ألف لنفقتك، فافتك ضيعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى.

وروى عن مسلم بن الوليد أنه قال :جاءني رسول يزيد بن مزيد فجئته فوجدته خارجا من الحمام، وهو على كرسي وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة، والمرآة بيده وهو يسرح لحيته فقال لي :أنشدني فأنشدته حتى بلغت قولي:

ولا يمسحُ عينيه مِنَ الكُحْلِ   لا يعبقُ الطيبُ خَدَيه ومفرقه

فوضع المرآة من يده وقال للجارية :انصرفي فقد حرم علينا مسلم الطيب والكحل .فلما فرغت من القصيدة، قال لي :يا مسلم أتدري ما الذي حداني على أني وجهت، إليك قلت :لا والله ما أدري، فقال :كنت عند أمير المؤمنين فقال لي :يا يزيد من الذي يقول فيك :

يَمْضِي فيقتطعُ الأجْسَادَ وَإلهامَا   سَل الخليفةُ سَيْفاً مِنْ بنَى مَطَرِ
قدْ أوْسَعَ النَّاسَ إنْعَاماً وإرْغاما[0]   كالدَّهْر لا يَنْثنِي عمّا يَهُمُّ بـهِ

فقلت والله ما أدري، فقال الرشيد :يا سبحان الله إنك مقيم على أعرابيتك أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تدري من قائله .فسألت عن قائله فأخبرت أنك هو، فقم حتى أدخلك على أمير المؤمنين، ثم قام فدخل على الرشيد، فما علمت حتى خرج الآذن علي، فدخلت على الرشيد فأنشدته ما لي فيه من الشعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم، فلما انصرفت أمر لي يزيد بمائة ألف وتسعين ألف درهم أخرى وقال :لا يجوز أن أعطيك مثل ما أعطاك أمير المؤمنين، وأقطعني إقطاعات تبلغ غلتها مائتي ألف درهم.

وروي عن إسحاق بن إبراهيم، قال :كنت عند المأمون [0]بدمشق، وقد كان المال عنده قليلا، حتى ضاق وشكا ذلك إلى أخيه أبي إسحاق [0]، فقال :يا أمير المؤمنين قد أمرت بمال يحمل إليك، وهو موافيك بعد جمعة، فلما ورد المال من

النواحي التي كان يتولاها، وكان ثلاثون ألف ألف، قال المأمون ليحيى بن أكثم :()
اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قال يحيى :فخرجنا حتى أصحرنا ووقفنا ننتظره .
وقد كان هئ بأحسن هيئة، وحليت أبا عره، وألبست الأحلاس الموشاة والجلال المصبوغة، وقلدت العهن .()فنظر المأمون إلى شيء استحسنه وعظم ليحيى في عينه، واستشرف الناس ينظرون إليه، ويتعجبون منه ويستظرفونه فقال المأمون ليحيى يا أبا محمد :ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين نراهم إلى منازلهم خائبين، وننصرف نحن بهذا المال، دونهم، إنا إذا للئام، ثم دعا إلى محمد بن يزداد وقال : وقع لفلان بكذا، ولفلان بكذا، فوالله ما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف، ثم أمر أن يصرف الباقي في عطاء الجند.

وقيل :كان بالبصرة شاعر من بني تميم، فأراد جعفر بن سليمان أن يتقدم إلى المأمون، مادحا له ومعرضا بشكر الوالي .فأعطاة بختيا ()ونفقة، قال فركبت بختي ومضيت أروم العسكر، قاصدًا إليه، فإذا بكهل على بغل هملاج()، قد تلقاني مواجهة، وأنا أردد نشيد أرجوزتي فقال :السلام عليك يا هذا بصوت جهوري ولسان فصيح، فرددت السلام، فقال لي :قف إن شئت فوقفت فتضوعت منه رائحة المسك والعنبر، فقال لي :ممن أنت فقلت :رجل من مضر، قال :ثم مِنْ مِنْ قلت من بني تميم، ثم من بنى سعد، ثم قال فما أقدمك هذه البلد قلت قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله قبله أطول باعا، ولا أندى راحة منه، قال :فما الذي قصدته به قلت : شعر طيب، يلذ على الأفواة، وتقتفيه الرواة ويحلو في آذان السامعين .قال :فأنشدنيه قال :فغضبت وقلت :له يا ركيك العقلى أخبرك أني قصدت الخليفة بمدح حبرته فيه، تقول أنشدنيه، قال :وما الذي تأمل منه قلت ألف دينار إن كان على ما ذكر عنه، قال لي :فأنا أعطيك ألف دينار، إن رأيت الشعر جيدا، والكلام غضا، وأضع عنك العناء والترداد ومتى تصل إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح وسيف فقلت له :بالله عليك أنت تفعل، قال :نعم قلت :ومعك الساعة ما تعطيني قال :لك الله على أن أعطيك الساعة ألف دينار فأنشدته أرجوزةً فيها:

وَصَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْمُنيفة	مَأْمُونُ يَا ذَا الْمِنَنِ الشَّرِيفَهْ
هَلْ لَكَ في أَرْجُوزَةِ ظَرِيفَهْ	وَقَائدَ الْكَتِيبَةِ الْكَثِيفَهْ
لاَ والَّذِي أَنْتَ لَهُ خَلِيفَهْ	أَطْرَفَ مِنْ فِقْهِ أبي حَنِيفَهْ
أَمِيرُنَا مُؤْنَتُهُ خَفِيفَهْ	ما ظُلِمَتْ في أرْضِنَا ضَعِيفَهْ
واللصُّ والتاجِرُ فـي قطِيفَهْ	والذئـبُ والنعجةُ في سَقِيفَهْ

قال :فوالله ما أتممت إنشادها، حتى أقبل عشرة آلاف فارس، قد سدوا الأفق وهم يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال :فأخذني والله الأفكل .يعني الرعدة ونظر إلي بتلك الحال، فقال لا بأس عليك ثُمَّ التفتُ إلى خادم نظيف الوجه والملبس كان قريبا منه فقال :أعطه ما معك فأخرج الخادم كيسا وجدت فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال لي :هاك أيها الرجل ثم قال :سلام عليك ومضى فكان آخر العهد به، فسألت عنه بعد ذلك فقيل "لي المأمون أمير المؤمنين لم يرد أن يعرفك بنفسه"، لكرم طباعه وخلائقه .وقيل إن المأمون كان في مجلسٍ له بدمشق فغناه علوية :()

أتاكَ بهِ الواشونَ حَقًّا كَما قالوا　　برئتُ مِن الإسلامِ إنْ كانَ ذا الذي

تواصوا بالنميمةِ واحتالوا　　ولكنهم لما رَأوكَ سريعةِ لهجري

فقال :يا علوية لمن هذا الشعر قال :لقاضي دمشق .فقال لأخيه :يا أبا اسحاق أحضره، فلم يكن بأسرع من أن حضر شيخ قصير مخضوب، فقال له المأمون :من تكون قال أنا فلان بن فلان، قال :أنت الذي تقول الشعر قال :نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وكل شيء يملك في سبيل الله، إن كان قال شعرا منذ ثلاثين سنة إلا في زهد ومعاتبة صديق .فقال لأخيه :أعزله، ما كنت لأولى رقاب المسلمين، من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام .ثم قال لعلوية :لا تقل برئت من الإسلام ولكن قل حرمت مناي منك .وقال عمارة بن عقيل ()أنشدت المأمون قصيدة، فكنت أبتدئ بصدر البيت، وهو يبادرني إلى عجزه .فقلت :والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها مني أحد قبلك، فقال :هكذا ينبغي أن يكون ثم أقبل عليَّ وقال :أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة ()، أنشد عبد الله بن عباس قصيدته التي يقول فيها:

....　　تَشُطُّ غدًا دَارُ جيرانِنا

فقال ابن عباس:

وللدَّارُ بَعْدَ غـدٍ أبْعَدُ　　.....................

حتَّى أكمل القصيد، كلما أنشد صدر البيت أكمله ابن عباس، ثم قال :أنا ابن ذلك .وقال ابن المبرد :()قال لي عمارة قال لي عبد الله بن أبي السَمَطِ يا عمارة أما علمت أن المأمون لا يبصر الشعر، فقلت له :ومن أفرس منه فيه، أنا أنشدته البيت، فيسبقنا إلى عجزه، من غير أن يكون سمعه .قال :إني أنشدته بيتا أجدت فيه، فلم يحركه قلت وما هو قال:

بالدّين والنَّاسُ بالدُّنيا قد اشتغلوا　　أضْحَى إمَامُ الْهَدَى المأْمُون مُشْتَغِلا

فقلتُ :ما صنعت شيئا، ما زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها مسبحتُها في يدها، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولا عنها، هلا قُلْتَ كما قال جرير ()في عمر بن عبد العزيز :()

ولا عَرَضُ الدُّنْيا عن الدِّينِ شاغِلُهُ | **فَلا هُوَ في الدُّنْيَا مُضيعٌ نَصِيبَهُ**

وجاءت امرأة إلى المأمون فقالت:

ويا إماماً به قد أشْرَقَ البَلَدُ | **يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى به الرَّشَدُ**
عَدَا عليها فلم يَتْرُكْ لها لُبَدُ | **تشكُو إليك عَمِيدَ الخلق أرملةٌ**
ظلما وفرق منها الأهلُ والولدُ | **وابتز منها ضِياعاً مَنْعَتِها**

فأجابها وقال:

عَني وأقْرَح مِنَيّ القلبُ والكبدُ | **في دون ما قُلْتِ زَالَ الصَّبرُ والْجَلَدُ**
واحْضِرِي الخَصْمَ في اليوم الذي أعِدُ | **هذا أوان صلاة العصر فانْصرفي**
انصفك منه وإلا المجلس الأحَدُ | **والمجلسُ السبتُ أن يقضي الجلوسُ لنا**

فلما كَانَ يومُ الأحدِ جَلَسَ فجاءته، فقالت :السَّلامُ عَليكَ يا أميرَ المؤمنينَ، فردَّ وقالَ :أينَ خَصْمكِ، قالت :واقفُ على رَأسِكَ، وأومأت إلى العبَّاس ()ابنه فقال لأحمد بن أبي خالد :خذ بيده وأجلسه معها، ففعل فجعل كلامها يعلو كلامه، فقال لها أحمد بن أبي خالد :يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وتكلمين الأمير فاخفضي من صوتك .فقال المأمون :دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، ثم قضى على ابنه.

ومن شعر المأمون:

وَأَغْفَلْتَنِي حتَّى أسَأتُ بكَ الظَّنَّا | **بَعَثْتُكَ مُرْتَاداً ففُزْتَ بنَظْرةٍ**
فيا لَيْتَ شِعْرِي عن دُنُوك ما أغْنا | **فنَاجَيْتَ مَنْ أهْوَى وَكُنْتُ مُبَاعَداً**
لقد سرقت عيناك من عينها حُسْنا () | **أرَى أثراً منها بعَيْنَيْكَ لم يكن**

وله أيضاً :()

عَيْنُ رَسُولي وَفُزْتُ بالْخَبَر | **إنْ تَشْقَ عَيْني بهَا فقدْ سَعُدَتْ**
رَدَّدت عَمْداً في طرْفِهِ نَظَري | **وكُلَّما جَاءَني الرَّسُولُ بها**
قدْ أثَّرَتْ فِيهِ أحْسَنَ الأثر | **يَظْهَرُ في وَجْهِهِ مَحَاسِنُها**
فانظرْ بهَا واحتفظ على بَصَري | **خُذْ مُقْلَتي يا غُلام عارِيةً**

واعتل الفضل بن سهل فتأخر في بيته، فوردت عليه رقعة من المأمون بخطه

يسأله عن حاله وفي آخرها:

كَيفَ أصبحتَ بالسلامةِ يا فضلُ وبالخيرِ رَبُّنا مَسَّاكَا

لا أراني الإله فقدَك يا فضلُ وعافاكَ عاجلاً وشافكَا

قد أردتُ المجيء إذْ غلبَ الشوق وَقلبي لو يستطيعُ أتاكَا

فتذكرتُ عندَ ذاك بِأني لستُ أستطيعُ أنْ أراكَ كَذاكا

فأينَ يا وقتُ فيـك حَـذاري كيفَ أنتَ الغداةَ مِن شكواكا

باب
في خطبهِ ومناقِبه

قيلَ خَطَبَ يومَ جمعةٍ فقال :الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه، واستوجبه على خلقه، أحمده واستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون :أوصيكم عباد الله بتقوى الله، والعمل لما عنده، والانجاز لوعده والخوف من وعيده، فإنه لم يسلم إلا من اتقاه، وخافه ورجاه وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا سراعا فقد جد بكم الرحيل، واستعدوا للموت فقد أضلكم ما تحذرون، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم والجنة أو النار إلا الموت أن ينـزل به، وأن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة، وأن غائبًا يحدوه الجديدان لحري بسرعة الأوبة وإن قادمًا يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه، ونصح نفسه، وقدم توبته وغلب شهرته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خاذله، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويمنيه التوبة ليسوفها، حتى تهجم عليه منيته، أغفل ما يكون عنها، فيالها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة، أو تؤديه أيامه إلى شقوة .نسأل الله أن يجعلنا وإياكم، ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعته غفلة، ولا تحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء، وبيده الخير وهو فعال لما يريد.

وخطب يوم أضحى فقال بعد التكبيرات الأولى والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والوصية بتقوى الله عز وجل:

إن يومكم هذا، يوم أبان الله عز وجل فضله، وأوجب تشريفه، وعظم حرمته ووفق له من خلقه صفوته وابتلى فيه خليله وفدى فيه من الذبح نبيه وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام، في شهر حرام، يوم الحج الأكبر، ويوم دعا الله عز وجل إلى مشهده، ونـزل القرآن بتعظيمه .قال عز وجل ﴿ :**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** () ﴾فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله واجعلوها من أطيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول عز وجل :

﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ()﴾الآية ثم قال بعد التحميد والتكبير وذكر الجنة والنار الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب، وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان، والحساب والقصاص والصراط، ثم الثواب والعقاب .من نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة والشر كله في النار.

وخطب يوم الفطر فقال بعد التكبير :ألا وأن يومكم هذا يوم عيد وسنة، وابتهال ورغبة، يوم ختم الله فيه صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتما للشهر، وأول شهور الحج، وجعله معقب المفروض من صيامكم، ومتنفل قيامكم، أحل فيه الطعام لكم، وحرم فيه الصيام عليكم .فاطلبوا إلى الله عز وجل حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال :لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .فاتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي فيه عدل بينكم ولم يحتضر الشك فيه أحد منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، وإنه لا يقال ()بعده عثرة ولا تقبل عنده توبة .واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه على غصصه وعلزه ()وكربه، ولا يعين على القبر وظلمته، ووحشته وضيقه وهول مطلعه، ومساءلة ملائكته إلا العمل الصالح، الذي أمر الله عز وجل به فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته وفاتت استقالته ودعا من الرجعة بما لا يجاب إليه، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه .فالله الله عباد الله وكونوا قوما سألوا الرجعة، فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها فإنه ليس يتمنى المتمنون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم، واحذروا ما حذركم الله عز وجل، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة له وعليه فقد حكى الله عز وجل لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضكم عنها وهو قوله عز وعلا ﴿ :**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ** ()﴾الآية .وقال تعالى ﴿ :**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ()﴾الآية.

ولست أنهاكم من الدنيا، بأعظم مما نهتكم به الدنيا عن نفسها، فإنه كل مالها ينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته عيونكم من عجائبها ذم كتاب الله عز وجل لها، ونهي الله جل ثناؤه عنها، فإنه يقول تبارك وتعالى ﴿ :**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ** ()﴾، وقال ﴿ :**إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ﴾ .. ()الآية، فانتفعوا بمعرفتكم، وبإخبار الله عز وجل عنها .واعلموا أن قوما من

عباد الله أدركتهم عصمة الله، فحذروا مصرعها وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله تبارك وتعالى فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها.

وروي عن واقد ()بن محمد الواقدي عن أبيه أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها دينه، وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر الرقعة، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، سخاء، وحياء، أما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك وأما الحياء فهو الذي يمنعك تبليغنا ما أنت فيه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك، وإن لم تصب فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق ()عن الزهري عن أنس ()أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام " :()يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر الله عليه ومن قلل قلل الله عليه ()وأنت أعلم .قال الواقدي :فوالله لمذاكرة المأمون إياي الحديث، أحب إلي من الجائزة.

قال يحيى بن أكثم القاضي :تغدينا في يوم عيد، عند المأمون فظننته أنه وضع على المائدة، أكثر من ثلاثمائة لون، فكلما وضع لون، نظر إليه فيقول هذا نافع لكذا، وضار من كذا، فمن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلب عليه السوداء فلا يأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه، فليأكل من هذا .فوالله ما زال يقول كذلك، في كل لون حتى رفعت المائدة .فقلت :يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب، كنت جالينوس ()في معرفته، وإن تكلمنا في النجوم، كنت هرمسا ()في حسابه، أو في الفقه كنت عليا بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه .فقال :يا أبا محمد أين فضل الإنسان على غيره من الحيوان إنما هو بعقله، ولولا تفاضل العقول لتساوى الناس.

قال يحيى بن أكثم :كان المأمون يجلس للناس، في يوم الثلاثاء للمناظرة فإذا حضر الفقهاء ومن يناظر من أهل المقالات، أدخلوا حجرة مفروشة وقيل انـزعوا أخفافكم، وأحضرت الموائد، وقيل أصيبوا من الطعام، وجددوا الوضوء ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها .فإذا فرغوا أتوا بالمجامر ()وتطيبوا، ثم خرجوا إليه فاستدناهم حتى يقربوا منه، فيناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين، فلا يزال كذلك إلى أن تزول الشمس ثم يقوم إلى الصلاة فبينما هو يوما جالس، إذ دخل عليه علي بن ()صالح حاجبه، فقال :إن في الباب رجلاً، عليه ثياب غلاظ مشمرة، يطلب الدخول للمناظرة .قال :ائذن له فدخل ونعله في يده، فوقف

على طرف البساط، وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .فقال المأمون :وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قال :أتأذن في الدنو منك، قال :نعم، فدنا منه، فقال له : اجلس فجلس، فقال :أتأذن في كلامك قال :تكلم، قال :أخبرني عن هذا المجلس، الذي أنت فيه جالس، أجلسته بإجماع المسلمين واختيار لك ورضى بك، أم بالمغالبة لهم، والقوة عليهم بسلطانك .قال المأمون :لم أجلسه بواحد منهما ولكن كان يتولى أمرهم سلطان قبلي احتمله إما على رضى منهم، وإما على كره، فعقد)لي ولاية الأمر بعده (باتفاق من حضر من المسلمين، فأعطوا ذلك إما طائعين، وإما كارهين، فلما صار الأمر إلي، علمت أني محتاج إلى إجماع كافة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها على الرضى بي، ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن هذا الأمر اضطرب المسلمون، وغلب على الناس الهرج والفتنة، ووقع التنازع فتعطلت أحكام الله ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم، وانقطعت السبل ولم يحج بيت الله ولم يجاهد في سبيله إذ لم يكن سلطان يجمعهم ويسوسهم، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به، وأسلم الأمر إليه وأكون أنا كرجل من المسلمين.

وأنت أيها الرجل، رسولي إلى جميع المسلمين بهذا .فقام وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .قال :فأمر المأمون علي بن صالح أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد، ففعل ثم رجع، فقال :مضى إلى مسجد فيه جماعة على هيئته وزيه، فقالوا :لقيت الرجل، قال :نعم، وقص عليهم القصة، فقالوا :ما نرى بهذا بأسا وافترقوا .فأقبل المأمون على يحيى بن أكثم وقال :يا أبا محمد قد كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر خطب .قال ابن أكثم :ما رأيت ولا سمعت بأكرم من المأمون، وأخذ في الحديث عنه، قال :بت عنده ليلة فانتبه بالليل فظنني نائما، فجعلت أراعيه وقد عطش فلم يدع بالغلام، لئلا ينبهني، فقام متسللا حافيا، يقارب الخطو، حتى أتى البرادة فتناول كوزا منها فشرب، ثم رجع يخفي وطئه كأنه لِصٌّ حتى اضطجع في مضجعه، وأخذه سعال فرأيته يجعل كمه في فيه، لئلا أسمع سعاله فأنتبه، وطلع الفجر وأراد القيام وقد تناومت إلى أن كادت الصلاة تفوت، فتحركت، فقال :الله أكبر، يا غلام هات نعل أبي محمد، فقلت :يا أمير المؤمنين إن بعيني جميع ما كان الليلة من صنعك ولذلك جعلكم الله لنا موالي وجعلنا لكم عبيدا .قال :ولقد سايرته يوما إلى البستان، فحاذيته من جهة الشمس لأستره منها، فلما عاد في طريقه دار في الموضع الذي كنت فيه، وقال :من حق المسايرة، أن آخذ بنصيب من الشمس،

كما أخذت أنت منها، فقلت :والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك هول المطلع لفعلت، فقال :لا بد، فسترني من الشمس حتى عدنا.

قال :وكان ابن أبي خالد يعرض الكتب بين يديه يوما فجاءته عطسة شديدة، فأدخل وجهه في كمه وكتمها، فكادت تأتي على نفسه وفطن المأمون له، فقال :يا أحمد بئس ما صنعت بنفسك، إنا لا نحمد أحدا على هذه الخطة، فقال :يا أمير المؤمنين ما سمعت لأحد من الملوك بمثلها، فقال المأمون :بلى، أراد الأبرش ()أن يعمم سليمان بن عبد الملك ()، فقال :إنا لا نتخذ الإخوان خولا .قال يحيى بن أكثم : وتوضأت يوما عنده، فلما أتيت بالوضوء إذا بالإبريق له أنبوب طويل، نحو من أربع أذرع، فجعلت أتعجب منه وأدير فيه الفكر وأحد النظر، فقال لي المأمون عند ذلك :يا أبا محمد كأنك تعجب من طوله، قلت :نعم يا أمير المؤمنين، فقال :إن هذا الغلام قد اعتاد أن يوضئني، وله صحبة قديمة، وهو يأكل البصل كثيرا، فنهيته عنه غير مرة، فلم ينته، فأمرت بعمل هذا لئلا أقطعه من شهوته وأتباعد عن رائحته . وروي أن دعبلا ()هجاه فقال:

أوَ مَا رَأى بالأمْسِ رَأسَ مُحَمَّدِ ... وَيَسُومُنِي المأمُونُ خطَّةَ عَارِفٍ

يُوفِي الجِبَالُ على رؤُوسِ القَرْدَدِ ... يُوفِي كلى رؤوس الخلائق مثلما

قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد ... إني من القوم الذين هم هم

واسْتنقذُوكَ من الحضيض الأوهَد () ... شادُوا بذكرك بَعدَ طول خُمـوله

فبلغه ذلك فقال :قبحه الله ما أبهته، متى كنت خاملا ومن حجر بالخلافة درجت وبدرها غذيت .وظفر به بعد ذلك فعفا عنه.

ولما حبس يحيى بن أبي خالد كتبت إليه أم ولد له :إن جميع أمهات أولادك، قد نالوا فضل أيامك سواي، فوقع لها :قد أعددت لك الفضل بن سهل، فلما ورد الفضل بن سهل، وبلغ ما بلغ، دفعت الجارية توقيع يحيى ين خالد إليه، فلما رآه بكى، وأمر لها بعشرة آلاف دينار وقال :إذا فني منك فطالعينا .قال أحمد بن أبي خالد :ما رأيت مثل الفضل بن سهل، أصبر على الجلوس، ولا أقوى على كتاب، ولا أنزه نفسا، ولا أشد ارتفاعا عن الدنيا، ولا أطلب لجميل الذكر، وحسن الأحدوثة منه، ما جمع مالا قط ولا ادخره، وكـان يلبس من ثياب المأمون، ويركب من دوابـه وما وجد له يوم قتل شيء.

وكان الفضل بن سهل في الحمام، فهجم عليه جماعة من غلمان المأمون ()، فقتلوه فيه فارتفعت الضجة وركب المأمون إلى الحمام حتى وقف على باب الحمام،

فأخرج الفضل فنـزل المأمون فوقع عليه، وقبل وجهه وهو يبكي ومشى المأمون من الحمام إلى الدار، ثم وقف عليه حتى غسل وكفنه بيده وحنطة وركب حتى صلى عليه، وغلبته العبرة حتى ارتفع صوته، فلما انصرف طلب قاتليه فقتلهم، ثم التفت إلى علي بن موسى الرضى ()عليه السلام، فقال :لقد أصبحت والله بعد فقد ذي الرياستين ()، بمنـزلة رجل في فلاة، إن دهمه الليل خاف من السباع، وإن وافاه نهار :خاف العدو وهو ما بين ذلك معدم من الزاد .وجعل يبكي وأخذ بيد علي بن موسى الرضى، ودخل على أم الفضل ()يعزيها فقال :أتجزعين يا أمة وقد خلف لك ذو الرياستين ابنا، فقالت :كيف لا أجزع على من جعلك ابني.

رجعنا إلى الكتاب قال دخل أبو إسحاق المعتصم ()على المأمون فقال له :إن عبد الله بن طاهر ()يميل إلى ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد إليه بمثل ذلك، فدس المأمون إليه رجلا وقال له :امض إلى عمالة عبد الله بن طاهر، إلى مصر على هيئة الناسك، فادع أهلها إلى القاسم ()بن إبراهيم بن طباطبا العلوي واذكر مناقبه وعلمه، ثم إئت عبد الله بن طاهر، فادعه ورغبه وابحث لي عن دفين نيته، بحثا شافيا وجئني بما تسمع منه، فأتى الرجل مصر فدعا جماعة من الرؤساء، وقعد لعبد الله بن طاهر فلما انصرف من مركبه، قام إليه فأخرج رقعة من كمه فدفعها إليه، وأدخله عليه فقال :هات ما عندك قال : بأمان منك قال :نعم، فأظهر له ما أراد ودعاه إلى القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وأخبره بفضائله وعلمه وزهادته، فقال عبد الله بن طاهر أتنصفني قال :نعم، قال : هل يجب شكر الله على العباد، قال :نعم، قال :فهل يجب شكر بعضهم بعض على الإحسان؟ قال :نعم، قال :فتجيء إليَّ وأنا في هذه الحال التي تراها، ينفذ خاتمي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ما ألتفت يميني ولا شمالي، ولا قدامي ولا خلفي، إلا رأيت منة منه ونعمة على ختم بها رقبتي، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول لي أغدر بمن ولاك هذا كله، واسعى في إزالة ملكه، فسكت الرجل فقال له عبد الله بن طاهر :قد بلغني خبرك، وبالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذه البلد فإن الخليفة إن بلغه أمرك .كنت الجاني على نفسك، فرحل من وقته حتى وافى المأمون، فأخبره بما سمع من عبد الله بن طاهر، فاستبشر به وقال :ذلك غرس يدي ونشو أدبي، فلم يظهر لأحد من ذلك شيء ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون.

وقيل اجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنـزل العتابي ()فقال أليس هذا منـزل كلثوم، قيل :بلى، فثنى رجله ودخل عليه، فألفاه جالسا في بيت كتبه فحادثه وذاكره

ثم انصرف، وتحدث الناس في ذلك، فقالوا :إن الأمير لم يقصده، وإنما اجتاز به فأخطر بتلك الزيارة فكتب إليه:

بَعْدَ الخمولِ نَباهةَ الذكْرِ	يا مَنْ أفَادَتْني زيارَتَهُ
وبحارُ برِّكَ لَيْسَ بالخطرِ	قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ عرضت
تستَنْفِذ المجهودَ مِنْ شُكري	فادفعْ مقالَتَهُم بثانيةٍ
إنَّ الثلاثَ تتمةُ الوِتْرِ	لا تجعلَنَّ الوِتْرَ واحدةً

فبعثه الأبيات إلى أن زار ثلاثا.

وحدث صالح بن علي وكان من وجوه الكتاب، قال :طالت بي العطلة، وبلغ بي ذلك أعظم الحاجة، فبكرت يوما إلى أحمد بن أبي خالد، الوزير، لأعلمه بجليل أحوالي وأسأله لم شعثي، فخرج من بابه وبين يديه قاصدًا باب المأمون، فلما نظر إلي أنكر بكوري وعبس في وجهي وقال :في الدنيا أحد بكر هذا البكور ليشغلنا، قال :فقلت ليس العجب منك أصلحك الله فيما لقيتني به، إنما العجب مني إذا أسهرت ليلتي وأسهرت جميع أهلي، يرقبون الصبح حتى أصير إليك، في صلاح أحوالي بعد وقوع الاختيار عليك فيما آمله عندك، ولكن علي وعلي أن وقفت لك بباب أو سألتك حاجة، إلى أن تصير إلي معتذرا مما لقيتني به، وانصرفت مغموما مفكرا فيه نادما على ما فرط مني من اليمين، آيسا من الفرج لاستبعاد مجيء الوزير إلي واعتذاره مني، راجعا على نفسي باللوم، فإني لكذلك إذ دخل علي بعض الغلمان، فقال :إن الوزير أحمد بن أبي خالد آخذا في شارعنا ودخل آخر فقال :إنه دخل دربنا، ودخل ثالث فقال :إنه قرب من دارنا ثم دخل رابع فقال :إنه دخل دارنا، فخرجت مستقبلا له فلما استقر به المجلس قال لي :كان أمير المؤمنين قد أمرني بالبكور إليه، في بعض مهماته فدخلت إليه وقد غلبني الهم والغم بما فرط مني إليك، حتى أنكر حالي فقصصت عليه القصة، فقال :قد أسأت إلى الرجل ولا عليك أن تعتذر إليه قلت :فامضي إليه فارغ اليد، قال :فتريد ماذا قلت تقضي دينه، قال :وكم ذلك قلت مائة ألف درهم فأمرني بالتوقيع لك بها، قلت :فإذا قضى دينه فيرجع إلي ماذا قال فوقع له بمائة ألف درهم أخرى، يصلح بها حاله .قلت :فولاية يشرف بها قال :له مصر أو غيرها مما يشبهها، قلت :فمعونة يستعين بها على سفره، فأمر بأن يوقع لك بمائة ألف درهم وهذه التوقيعات لك بكل ذلك فنثرها وانصرف.

وقال محمد بن عباد المهلبي :[0]دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها، فأخبر المأمون بذلك فلما عاد إليه عاتبه في

ذلك، فقال :يا أمير المؤمنين منع الجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائتي ألف درهم.

وأنهى إلى المعتصم أن الحسن بن سهل قد أضاف إلى ضياعه التي أقطعها، ضياعا كثيرا خراجية، فتكرم المعتصم أن يأمر بمناظرته دون سائر أصحاب الإقطاعات، فأمر بكشف الإقطاعات كلها، فدخل الحسن بن سهل لما بلغ إليه ذلك عن المعتصم، فقال :يا أمير المؤمنين ما كانت لي ضياع ولا لأبي من قبلي، ولكن هي نعمتكم التي أنعمتم بها علي وقد رددت جميعها، إلى أيدي عمال أمير المؤمنين، وما كان لي فيها ملكا فأمير المؤمنين منه في حل، ولا أكون سببا لهلاك الناس وضررهم فاستحيا المعتصم وغض طرفه، وقال :لا أكشف إقطاعاتك ولا إقطاعات غيرك ولم يزل على بر وإكرام .وقال أحمد بن أبي داوود ()القاضي :ما رأيت أجمع لفضيلة ولا أوصل لرحم، ولا أرق قلبا على ذي حاجة، وأصدق وأوفى بقول واكظم لغيظ وأعفى عن مسيء، وأشد تفقدا للصاحب والخادم، وأشجع قلبا وأحسن سياسة من المعتصم، فأما صلته للرحم، فكان إبراهيم بن المهدي أعدى خلق الله له وأشدهم استخفافا له في أيام المأمون وكان المأمون زوج المعتصم لبابة بنت إبراهيم فمنحه وقال لا أرضاه لها فلما صارت إليه الخلافة بره وآثره وكان أحضى الناس عنده.

وقال المعتصم :يا أبا عبد الله لقد كنت ألقى من جماعة في أيام المأمون، كل ما أكره ويذكرونني له بأسوء الذكر، ويقولون في أقبح القول فظننت أني متى قدرت عليهم، لم أبق على أحد منهم، وكان أشدهم قصدا لمكروهي وعيي إبراهيم بن المهدي، وكأن يذكرني بالقبح إذا غبت وينتقصني إذا حضرت، ويحكي كلامي في مجلس المأمون، ويهجوني بأقبح الهجاء حتى هممت مرة بعد أخرى، أن أفتك به في مجلس المأمون، فأقطعه إربا إربا، فلما قدرت وصار إلى السلطان، ذهبت الحفيظة من قلبي عليه وعلى أمثاله، ممن تقدمت إساءته فرأيت العفو عنهم أحسن من المكافأة وأنفع في الآخرة.

وقال إبراهيم بن المهدي لما ولي المعتصم :والله لقد ظننت أنه يأمر بضرب عنقي إذا وقعت عينه علي ولو أمكنني الهرب منه لهربت فما دخلت عليه يوما إلا جدد لي بشرا وإكراما ولا خرجت إلا بصلة وخلع وحملان.

وقال ابن أبي داوود وكان محمد بن قاسم العلوي ()خرج عليه بخراسان، فحمله عبد الله بن طاهر في الحديد إلى حضرة المعتصم، فاطلع عليه يوما من

مشرفه، فرآه وعليه جبة صوف وفي رجله الحديد، وقد تغير لونه فرق له ودمعت عيناه، ثم قال لي :يا أبا عبد الله هذا ابن عمي وأدنى الناس رحما، وما يحتمل قلبي أن أراه على هذه الحال، ثم دعا بعض الذي كان قائما على رأسه، فقال :اذهب فقل له ما الذي دعاك إلى الخروج علي، ولم ينلك مني سوء قط، فمضى الرسول فأبلغه، فقال :رأيت جورا شديدا، لم يسعني فيما بيني وبين الله إلا إنكاره فقال المعتصم : ارجع إليه فقال له هل هذا جور أحدثته أنا، أم كان شيئا فعله سلفي قبلي، قال :بل كان فعله سلفك قبلك وسلكت سبيلهم، فقال :ارجع وقل له أيما أفضل أنت أم من تقدم من سلفك، فقال محمد :بل من تقدم من سلفي، فقال :قل له يا هذا كيف وسع سلفك مع فضلهم وسابقتهم، أن لا يخرجوا على سلفي، ولم يسعك أنت إلا الخروج علي، فأبلغه ذلك فسكت ولم يجبه .فرجع الرسول فعرفه ذلك .قال :لي يا أبا عبد الله ما أصنع بهذا، أخاف والله إن أطلقته معاودة مثل الذي كان منه، فيسفك دماء المسلمين بيننا وبينه، قال قلت :الحبس الذي يؤمن مكروهه، قال فأمر بفك قيوده في الوقت، وأنـزلت عنه ثقل الحديد، ونقله إلى دار ووسع عليه في مطعمه ومشربه وملبسه.

قال :وكنت يوما عنده وقد امتلأ غيظا فدعى بعمر بن فرج ()وهو يتناوله بالشتم، فلما جاءه قال :يا ابن اللخناء، متى أمرتك بجعل أصحاب أخبار علي الطالبيين وتتبع أمرهم، قال :يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلا منهم كاتبه أهل خراسان وأرمينيا، فأردت أن أعرف وأتيقن حقيقة ذلك وأنهيه إلى أمير المؤمنين، فقال :وما الذي عليك منهم، فوالله لأغفرن ذنوبهم، ولأصلن أرحامهم، ولأعفون عن مسيئهم ولأعطفن على كبيرهم وصغيرهم، فإن أرادوني بسوء فالله بيني وبينهم.

قال :ودخلت إليه فقلت إن أهلك، وذوي رحمك من آل أبي طالب في ضر شديد بالمدينة، وقد نالتهم مجاعة شديدة وسنة مجدبة، وتأخرت أرزاقهم، فدعا ابن الزيات ()وقال :يا محمد احمل إليهم الساعة ولا تتوقف مائتي ألف درهم، ووالله لإن أخرت إلى غدٍ، لأنهكتك عقوبة فحمل إليهم ذلك من وقته.

قال :وكنت عنده يوما فدخل عليه بعض من يحضر مجلسه فقال إني كنت بالأمس عند عبد الله بين أيوب ()، قال فما كانت حالتكم فقال :أطعمنا ثلاثة ألوان ليس فيها لحم، فقال ويلك :ذلك حسن المروءة وكثير الطعام قال انفذْ إلى القصَّاب رقعة يعطه وظيفته من اللحم وإلا لم يأكل هو ولا أولاده لحما فأطرق مفكرا وقال بلغت به الحال إلى هذا قلت نعم فدعا بإيتاخ ()فقال احمل إلى عبد الله بن أيوب

مائتي ألف درهم وقل للرسول لا يأخذ منه شيئا فإذا رجع من عنده فاعط رسولك ألفي درهم.

قال :ورأيته وقد حاصر عمورية، وأنه لواقف والحجارة تأتي من كل موضع حتى يناله بعضها وهو لا يزول، فقلت :الله الله يا أمير المؤمنين نشدتك الله لما تنحيت، فقال :والله ما من موضع يأتيني فيه الموت أحب إليَّ من هذا الموضع، فقلت :إن أرواح المسلمين بروحك معلقة، فإن حدث حادث فإنهم مضيعة جازر فما التفت إلى قولي وثبت مكانه.

وقال :وخرجنا في تلك الغزاة، فكنت على جمل في محمل، وكان يجيء على فرسه حتى يصير تحت محملي ويحدثني، فأقول :انـزل واركب دابة وأكون بين يديك يا أمير المؤمنين، فيقول :لا والله لا فعلت، المحمل أبر بك وأرفق.

وصرنا إلى مخاضة فقال للجمال :قف ثم إنه تقدم حتى عرف مقدار الماء وجعل يقول للجمال :خذ كذا خذ كذا بلطف ورفق حتى عبرت.

وقال يوما ونحن بعمورية :ما تقول في البسر يا أبا عبد الله، فقلت :نحن ببلاد الروم والبسر بالعواق، فقال :قد جاءنا عذقان .فقال :يا ايتاخ هات أحد العذقين، فجابه فمد المعتصم يده وحسر عن ذراعه، وقال :بحياتي عليك كل ين يدي فقلت : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، بل تضعه فآكل منه كما أريد، قال :لا والله إلا من يدي، قال أحمد :فوالله إن زال حاسرا مادا يده وأنا أجتني، حتى رمى به وما به بسرة واحدة.

قال :ووقف يوما على الدور بعمورية، رجل فصيح بالعربية فجعل يشتم النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك على المعتصم وعلى المسلمين، وحاولوا قتله وراموه بكل مرام، من النشاب والعرادات ()وغيرها ولم يلحقه شيء حتى رمى رجل من الناشبة، فأصاب نحوه فوقع اللعين من السُّورِ إلى خارج، وكبر المسلمون وسر المعتصم بذلك سرورا عظيما، وقال :أخبروني عمن رمى هذا السهم المبارك، فأوتى بالرجل فأدخل عليه، فقال له :سألتك بالله لتبعني ثواب هذا السهم بمائة ألف درهم، فقال الرجل :يا أمير المؤمنين ليس الثواب مما يباع، قال :فما زال يرغبه حتى بلغ معه خمسمائة ألف درهم، فقال ما أبيعه بالدنيا بأسرها وما فيها، ولكني أشهد الله أني قد جعلت نصف ثوابه لك يا أمير المؤمنين، فقال :قد رضيت بهذا أحسن الله جزاءك، وأمر للرجل بمائة ألف درهم، فقبضها من ساعته .وقيل لما وقع الحريق في الجانب الغربي ببغداد وجه المعتصم ابنه هارون ()فقام بأمرها حتى

أطفيت، وأمر بكتب أسماء من احترق له شيئا، ومبلغ ما ذهب لهم ثم أعطى كلا منهم على قدر حاله فبلغ إعطاؤهم عشرين ألف دينار وخمسماية ألف ألف درهم.

وقال ابن أبي داوود الماضي :ما رأيت رجلا عرض على الموت فلم يكترث به ولا عدل به عما أراد، إلا تميم بن جميل الخارجي ()وكان قد خرج على المعتصم، فرأيته وقد جيء به أسيرا، فأدخل عليه في يوم مركب، وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما فدعا بالسيف والنطع ()فلما مثل بين يديه، نظر إليه المعتصم فأعجبه حسنه وقده، ومشيته إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكر فيه ثم استنطقه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال :يا تميم إن كان لك عذر فأت به، فقال :أما إذا أذن أمير المؤمنين في الكلام فأني أقول :الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الإسلام، ولم بك شعث الأمة، وأخمد بك شهاب الباطل، وأنار بك سبيل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق ثم أنشد:

يلاحظني مِنْ حيثُ ما أتلفتُ ... أرىَ الموتَ بينَ السَّيف والنَّطع كامناً

وأيُّ امرئ عما قضَى اللهُ يُفلتُ ... وأكثرُ ظنِّي أنكَ اليومَ قاتِلي

وسيفُ المنايا بينَ عَيْنيه مُصْلَتُ ... فمَنْ ذا الذي يأتي بعُذْرٍ وحُجَّةٍ

يسل علّي السيفُ فيه وأسكتُ ... يعز على الأوس بن ثعلبة موقفي

لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ مؤقَّتُ ... وما حزني مِنْ أن أموتَ وإنني

وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتَّتُ ... ولكنّ خَلْفِي صِبْيةً قد تركتهم

وقد لطموا تلك الخدود وصوّتوا ... كأني أراهم حين أنْعَى إليهمُ

أذُودُ الرَّدَى عنهم وإن متّ موَّتوا ... فإن عشتُ عاشُوا خافضين بغِبْطةٍ

وآخرَ فرحانُ يُسَرُّ وَيشْمَتُ ... وكم قائل لا يُبعدِ اللهُ دارهُ

قال :فبكى المعتصم ثم قال :إن من البيان لسحرا ()كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال :يا تميم كاد والله يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله تعالى وللصبية، وعفوت عن زلتك .وعقد له ولاية على عمله وخلع عليه وأعطاه خمسين ألف دينار.

قيل :وكان الأفشن ()مغضبا على أبي دلف العجلي ()، وحاسدا له على فضله فحمل نفسه يوما على قتله، فاستدعاه باستحثاث وإزعاج .وكان صديقا للقاضي

أحمد بن أبي داوود فبعث إليه أن أدركني، فمن أمري كيت وكيت فركب مسرعا واستحضر من حضره من الشهود، فلما ورد باب الأفشين قال له الغلمان :نستأذن لك، فقال :الأمر أعجل من ذلك، ونـزل ودخل على الأفشين وهو جالس في مجلسه، وقد أقيم أبو دلف بين يديه في الصحن، فلما رأى الأفشين القاضي قد دخل بلا إذن بهت فقال" :إن أمير المؤمنين أمرني إليك أيها الأمير "أن لا تحدث في أمر القاسم حدثا، إلا بإذنه ثم التفت إلى الشهود، فقال :اشهدوا أني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين، ثم خرج فأتى باب المعتصم مسرعا، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه قال :يا أمير المؤمنين قد كذبت عليك واحدة، ثم أرجو بها الجنة، ولك الفخر، قال :وما هي، قال :كان من الأمر كيت وكيت، فضحك المعتصم وقال :أحسنت أحسن الله إليك، ثم لم يلبث أن جاء الأفشين مستأذنا فأذن له، فلما استقر مجلسه قال : يا أمير المؤمنين جاءني رسالة منك مع قاضي القضاة في معنى أبي دلف، فما تأمرني في شأنه، قال :نعم أنا أرسلت إليك فيه فاحذر أن تتعرض له إلا بالخير، فأفلت من يده بذلك.

وروي أن بعض العمال رفع على خالد بن يزيد بن مزيد [0]، أنه اقتطع أموالا واحتجز بعضها فغضب المعتصم وحلف ليأخذن أموال خالد وليعاقبنه، فلجأ خالد إلى القاضي أحمد بن أبي داوود فاحتال أحمد حتى جمع بينه وبين خصمه الذي رفع عليه، فلم تقم على خالد حجة، فعرف ابن أبي داوود المعتصم بذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفع فأحضر خالد وأحضرت آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك قبض على أمواله وضياعه وصرفه عن العمل، فحضر ابن أبي داوود المجلس فجلس دون مجلسه الذي كان يجلس فيه، فقال له :المعتصم ارتفع إلى مكانك، فقال :يا أمير المؤمنين ما استحق إلا دون هذا المجلس، قال :وكيف قال الناس يزعمون أنه ليس محلي محل من يشفع في رجل قذف ليس بما ليس فيه، ولم يصح عليه فلم يشفع . قال :فارتفع إلى موضعك قال :مشفعا أو غير مشفع، قال :بل مشفعا قد وهبت لك خالدا ورضيت عنه، فقال :إن الناس لا يعلمون بهذا، قال قد وهبت عليه جميع ما قبض عليه من ضياعه وأمواله، قال :فمن له بفك قيوده والخلع عليه ففعل ذلك، قال :قد استحق هو وأصحابه رزق سنة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجعلها صلة له لتحمل معه ففعل ذلك .ثم خرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه، والناس ينتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال سروا بذلك، وصاح به رجل نحمد الله على خلاصك يا سيد العرب، فقال :مه سيد العرب والله بعد أمير المؤمنين أحمد بن أبي

داوود الذي طوقني هذه المكرمة.

قال أبو عبد الله النديم :()لقد رأيت الملوك في مقاصيرها ومجامعها، وما رأيت أغزر أدبا من الواثق ()، خرج إلينا ذات يوم وهو يقول لعمري لقد عرض عرضه من عرضه لقول الخزاعي:

طوى الكشحُ عَني اليومَ وهو مكينُ　　　خليليَّ ماذا أرْتجِي مِنْ غَدِ امرىءٍ

يَسُدُّ بـهِ فقْرَ امـرئٍ لضنـينُ　　　وإنَّ امـرءًا قـدْ ضَنَّ يوماً بمنطق

فانبرى أحمد بن أبي داوود كأنما أنشط من عقال يسأله في رجل من أهل اليمامة فأسهب في الشفاعة وأطنب وذهب في القول كل مذهب .

فقال له الواثق :يا أبا عبد الله لقد أكثرت في غير كثير وأطنبت فقال :يا أمير المؤمنين إنه صديقي وأنشد:

مِنَ الهيِّنِ الموجودِ أنْ يتكلَّما　　　وأهونُ ما يُعطي الصَّديقُ صَدِيقَهُ

قال الواثق :ما قدر هذا اليمامي أن يكون صديقك، وإنما أحسبه أن يكون من بعض خولك، فقال :يا أمير المؤمنين إنه قد اشتهر بالاستشفاع بي عندك وجعلني بمرأى ومسمع من الرد والإسعاف، فإن لم أقم له هذا المقام، كنت كما قال أمير المؤمنين:

يَسدُّ بهِ فقرَ امرئٍ لضنينُ　　　وإنْ امرىءٌ قدْ ضَنَّ يوماً بمنطقٍ

فقال الواثق لمحمد بن عبد الملك الزيات، بالله يا محمد ألا عجلت لأبي عبد الله حاجته، ليسلم من هجنة المطل، كما سلم من هجنة الرد.

وقال أحمد بن إسرائيل ()فرق الواثق في الصدقة ووجوه البر على المساكين والفقراء واليتامى الذين أقيمت لهم الكفايات للتعليم، خمسة ألف ألف دينار وفرق على التجار الذين ذهبت أموالهم في الحريق في زمانه سنة إحدى وثلاثين ومائتين خمسمائة ألف ألف دينار، وكان عمر بن فرج يقول .أمر الواثق بحمل الأرزاق لآل أبي طالب إلى المدينة وكان يصل إليهم في سنة مائتا ألف دينار فكان مبلغ ما حمل إليهم ألف ألف دينار .ونظر عمر بن فرج فيما تصدق به الواثق في علته التي توفي فيها، فكان ثلاثة ألف ألف دينار، فأنهى ذلك إليه فاستقله .وكان الواثق قد أمر أن تبنى حضائر فيها بيوت، يجمع فيها المساكين فيجرى لهم الطعام والكسوة، ويمنعوا من السؤال في الطرق والأسواق والأبواب ببغداد وبسر من رأى، وأمر بكتاتيب للصبيان الأيتام والمساكين فيتعلمون القرآن .وقال ابن أبي داوود :لقد فرق الواثق من الأموال، ما خفت أن يخلي بيوت الأموال، فلا يوجد فيها شيء إن جرى أمر أو

حدث حادث، ولقد كنت أعجب من تفرقة المعتصم الأموال، فلما رأيت الواثق وما فعل أنساني فعل المعتصم .قال وكنت لا أذكره بشيء من الخير وأبواب البر، وما فيه ثواب وقربة إلى الله تعالى إلا سره ذلك، وشكرني عليه وجزاني خيرا، وحضني على أن أذكره به.

وكان يجلس للمظالم فيكون غايته انصاف الناس، والإحسان إليهم ودفع الظلم عنهم ورد حقوقهم إليهم، فإذا فعل من ذلك شيئا حمد الله على ما وفقه وأجرى على يديه من الإنصاف .وكان ابن الزيات ربما تكلم عند تظلم المتظلمين بما يريد أن يدافعهم به الواثق النصيحة والإشفاق فينتهره ويؤنبه ويحذره الظلم.

ونال الناس بالعراق غلاء شديد سنة إحدى وثلاثين ومائتين حتى بلغ الكر () الدقيق مائة دينار، فجهد الناس فأمر الواثق بتفرقة الأموال ببغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة فكان ذلك ستمائة ألف دينار .وبلغ إليه أن العمال يأخذون من السفن، التي ترد من الهند والصين العشر، فقال هؤلاء تجار مسلمون، يغدون بأموالهم وأنفسهم، ويركبون البحر فيطول مكثهم فيه، فأمر بإسقاط العشر عنهم .قيل وكان يصلي في داره الصلوات كلها جماعة، يوؤذن المؤذن فيقوم فيركع ثم يتقدم فيصلي، ويصلي خلفه من حضر من أصحابه وقواده وغلمانه، وكان يركب إلى الجامع فيخطب ويصلى وكان كثيرا ما يخطب بخطبة المأمون المشهورة التي تقدم ذكرها في هذا الكتاب .ولما اعتل علته التي مات بها، اجتمع القواد إلى ابن أبي داوود فقالوا :كلمه، يعقد العهد لابنه محمد، فذكر له ذلك فأعرض عنه بوجهه فكلمه ثانية، فقال :يا أبا عبد الله أما كفاني أني تقلدت الأمر في حياتي حتى أتقلد تبعته وأثمه بعد وفاتي، إن عمل من أعهد إليه صالحا، كان له ثوابه، وإن عمل سيئا كان علي وزره، إذ صيرت أمور المسلمين إليه، ومن أين أجد رجلا أرضى دينه وأمانته وفضله، وجمع القواد فقال لهم :عليكم بتقوى الله وأحسنوا الاختيار لأنفسكم بعدي والله خليفتي عليكم وعلى جميع المسلمين .

ولما أزمع المتوكل ()على الرحيل إلى دمشق أمر ابنه محمد ()المنتصر المهلبي يزيد

فقال بيتين على لسانه، ودفعهما إلى من يحسنهما وغنى بهما المتوكل وهما:

وَلَوْ قدْ حدَى الحادي بطلبٍ يحذرُ إلى اللهِ أشكو عَبْرةً نتخيرُ

مقيماً وفي الشامِ الخليفةُ جعفرُ فواحسرتَنا أنْ كنتُ في سُرَّ مَنْ رأى

فأعجب بهما المتوكل وارتاح وبكى ثم قال :من يقول هذا فقيل قاله محمد المنتصر فقال هو على لسانه :لكن من قائله قالوا :يزيد المهلبي فقال ادعوه فوالله لأضحكنه كما أبكاني فلما دخل عليه أمر له بخمسين ألف درهم.

وروي أن محمد بن عبد الله بن طاهر ()كان مولودا بحد السرطان ()، فلما كان ذات ليلة جمع أهل بيته، فقال لهم :إني مولود بحد السرطان وإن طالع السنة السرطان وإن القمر ينكسف الليلة بالسرطان وهي ليلة الأحد فان نجوت في هذه الليلة فسأبقى سنتين وإن كانت الأخرى فإني ميت لا محالة قالوا :بل يطيل الله عمرك، قال :فلما كان الليل دعا غلاما له كان قد علمه النجوم ()، فأصعده إلى قبة له فأعطاه بنادق وأسطرلابا ()، وقال له خذ الطالع فكلما مضى من انكساف القمر دقيقة فاقذف إلي ببندقة حتى أعلم بذلك .وجلس محمد مع أصحابه وجعل الغلام كل ما مضى من انكساف القمر دقيقة قذف إليه ببندقة، فلما انكسف من القمر ثلثه قال لأصحابه :ما تقولون في رجل معكم قاعد يقضي ويمضي وقد ذهب منذ جالسكم ثلث عمره قالوا :بل يطيل الله عمرك .فلما مضى من الليل ثلثاه، عمد إلى جواريه فأعتق منهن من أراد عتقها، ووقف من ضياعه ما أوقف .وقال لهم :ما تقولون في رجل معكم يقضي ويمضي، وقد ذهب جل عمره، فقال القوم :بل يطيل الله عمرك وبقاك أيها الأمير فلما مضى من الثلث الثالث دقيقتان، قال لهم :إذا استغرق القمر فامضوا إلى أخي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ()، ثم قام فاغتسل ولبس أكفانه وتحنط ودخل إلى بيت له، ورد عليه الأبواب واضطجع فلما استغرق القمر في الكسوف فاضت نفسه فدخلوا عليه فإذا هو ميت، فانطلقوا إلى عبيد الله أخيه ليعلموه، فإذا عبيد الله على طيار له على باب القصر قد سبقهم، فقال لهم :مات أخي، قالوا :نعم .قال :ما زلت آخذ الطالع حتى استغرق القمر في الكسوف فعلمت أنه قد قبض ثم دخل فأكب عليه طويلا.

ثم خرج وهو يقول:

زالَ عنها السّرادِقُ الممدودُ   **هُدَّ ركنُ الخلافةِ الموطودُ**

جَدَّ أطنابَها فمالَ العمودُ   **حطَّ فسطاطَها المحيطَ عليها**

والناد شبَّ منها الوقود   **أحد كان خدّه مثل حدِّ السيف**

حدَّها إليهِ الأجودُ   **أحدٌّ كان خدُّهُ مِن نُحوسِ جُمِعَتْ**

فانجلى البدرُ والأميرُ عميدُ   **كُسِفَ البدر والأميرُ جميعاً**

ونورُ الأمير مالا يعودُ   **عاودَ البدرَ نورُهُ لتجليه**

فالدُّنيا عليها كآبةٌ وجمودُ   **أظلمتْ بَعدَهُ الخلافةُ**

قدْ قضى وَمنها عتيدُ   **الأمورُ قدْ كانَ دَبَّرَ منها مبرمٌ**

والغربُ فمنها تهائِمٌ ونجودُ ()   **قدْ بكاهُ العراقُ والشرقُ**

فلما حُمِلَ على سريرِه أنشأ يقولُ:

ألا للهِ ما حَمَلَ السريرُ   **تُداولُهُ الأكفُّ على سريرِ**

إذا رَجعتْ وأطولُها قصيرُ   **أكفٌّ لو تُمدُّ إليه حيّاً**

تبكيهِ الأرامِلُ والفقيرُ   **تباشرتِ القبورُ بِهِ وأضحى**

حكي أن محمد بن زيد العلوي ()الداعي بطبرستان كان إذا افتتح الخراج نظر في بيت المال، من خراج السنة التي قبلها، وفرقه في قبائل قريش على دعوتهم، وفي الأنصار وفي الفقهاء، وأهل القرآن وسائر طبقات الناس، إلى أن يفرق جميع ما بقي .فجلس في سنة من السنين ففرق مثل ذلك على عادته، فلما بدأ ببني عبد مناف وقد فرغ من بني هاشم، دعا بسائر بني عبد مناف، فقام إليه رجل فقال له : من أي بني عبد مناف أنت؟ فقال :من بني أمية، قال :من أيهم فسكت فقال لعلك من ولد معاوية قال :نعم فقال :من أيهم فسكت فقال :لعللك من ولد يزيد .قال :نعم .قال : بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلدا ولايته إلى آل أبي طالب وعندك ثأرهم في سيدهم، وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك، فإن كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك شيء وإن كنت جئت مستهزئا بهم فقد خاطرت .فنظر إليه العلويون نظرا شديدا وهموا به، فصاح بهم محمد، فقال :كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون في قتل هذا، دركا وثأرا بالحسين بن عليٍّ عليهما السلام وأي جرم لهذا إن الله تعالى حرم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت .والله لا يعرض له أحد إلا أقدته به، واسمعوا حديثا أحد ثكموه به يكون لكم قدوة فيما تستأنفون، حدثني أبي عن أبيه قال :عرض علي المنصور سنة حج جوهرا فاخرا فعرفة وقال :كان هذا لهشام بن عبد الملك وهذا بعينه قد بلغني خبره عند ابنه محمد ()، وما بقي منهم أحد غيره، ثم قال للربيع :إذا كان غدا، وصليت بالناس في المسجد الحرام وحصل الناس به، فأغلق الأبواب كلها، ووكل بها ثقاتك من الشيعة واقفلها وافتح للناس بابا واحدا وقف عليه، ولا يخرج أحد إلا من قد عرفته، فلما كان من الغد فعل الربيع ذلك .وتبين محمد بن هشام القصة، فعلم أنه المطلوب وأنه مأخوذ، فتخير وأقبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام على أثر ذلك، فرآه متحيرا وهو لا يعرفه فأنكر أمره، فقال

له :يا هذا أراك متحيرا متلددا فمن أنت ولك أمان الله تعالى العام التام، وأنت في ذمتي حتى أخلصك بعون الله عز وجل .قال :أنا محمد بن هشام بن عبد الملك فمن أنت قال :أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي قال :فعند الله احتسبت نفسي، قال :لا بأس عليك يا ابن عم فانك لست قاتل زيد، ولا في قتلك إدراك ثأره، وأنا الآن بخلاصك أولى مني بإسلامك، ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه وقبح مخاطبة، يكون فيه خلاصك بمشيئة الله وعونه .فقال :يا سيدي أنت وذاك، فطرح رداءه على رأسه ووجهه ولبَّبَهُ ()به، وأقبل يسحبه فلما وقعت عين الربيع عليه، لطمه لطمات وجاء به إلى الربيع، وقال يا أبا الفضل أن هذا الخبيث جمال من أهل الكوفة، أكراني جماله ذاهبا وعائدا، وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى بعض القواد الخرسانية ولي عليه بذلك شهود فضم إلى حرسيين يصيران به معي إلى القاضي ويمنعان الخرساني من اعتراضه إن اعترضنا .فضم إليه حرسيين وقال :امضيا به معه فلما بعد عن المسجد، قال له :يا خبيث تؤدي إليَّ حقي، قال : نعم يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .فقال للحرسيين :انصرفا في حفظ الله، فلما بعدا أطلقه، فقبل محمد بن هشام يده ورأسه وقال :بأبي أنت وأمي، الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم أخرج جوهرا له قيمة وقدر عظيم، ودفعه إليه وقال شرفني يا سيدي بقبوله مني، فقال :اذهب بمتاعك يا ابن عم، فإنا أهل بيت لا نقبل على المعروف مكافأة، وقد تركت لك دم زيد وهو أعظم قدرا من ذلك، فانصرف راشدا ووار نفسك عن هذا الرجل إلى أن يخرج، فإنه مجد في طلبك .
فمضى وتوارى ثم أن محمد الداعي أمر للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمرهم أن يخرجوه إلى الري ويأتوه بكتابه بسلامته فقام الأموي وقبل رأسه ومضى ومعه القوم حتى وصل مأمنه وجاؤه بكتابه بسلامته .تقطيع بالأصل وصلاته على سيدنا محمد وعلى آله ورضي الله عن أصحابه.

القسمُ الثاني من الكتابِ :في الحكاياتِ عنِ الخلفــاءِ والوزراءِ والعمالِ والأمراءِ الدالِة علـى منـاقبهِم وارتفاعِ مراتِبهِم ولنبدأ بذكرِ معاويـةَ بنِ أبي سفيانَ، رَضي اللهُ عنـهُ، لقرب

عهـدِهِ ثُمّ من بعدِهِ على ترتيبِ وجودِهِم
وتعـاقُبِ أزمنتِهِم إلى حيث ينتهي بنا الكلامُ
وباللّه التوفيقُ..

رُوِيَ أنَّ معاوية () كانَ يجلسُ ويأذنُ كُلَّ يوم خمسَ مراتٍ كانَ إذا صلَّى الفجرَ جلسَ فيقرأ القصصَ)ويقضي حاجَة مَنْ حَضَرَ ثُمّ يأخُذ المصحَفَ فيقرأ أجزاءً مِنَ القرآنِ الكريمِ(، ثُمَّ .يَدْخُلُ بيتَه فيأمُر وَيَنْهَى وَيُصلِّي أَرْبَعَ ركعاتٍ، ثُمَّ يقعُدُ في مَجْلِسِه وَيدْخُلُ إليهِ خاصةُ الخاصةِ ويدْعُو بالغداء الأصغَرِ مِنْ فضلاتِ العشاءِ، ثمَّ يأمُر بكرسيِّهِ حيثُ المقصورةُ مِنَ المسجِدِ، فيأتيه ابنُ السبيلِ والأعرابيُّ، وَمَنْ تُستدعَى من الاماءِ والعجائزِ والصبيانِ فيقضي حوائجَهُم، ولا يضجَرُ، ثُمَّ يدخُلُ منـزلَهُ فيأتِيه أشرافُ النَّاسِ والعلماءِ فيقضِي لَهُم الحوائِج، ثُمَّ يدعُو بغدائِهِ الأكبَرِ، فيطيلُ الأكلَ وَيُصغِي لِكل أصحابِ الحوائجِ، ثُم يدخُلُ منـزلَهُ إلى الظُّهرِ فلا يراهُ أحدٌ، ثُمَّ يخرُج يُصلي الظُّهرَ ويدخلُ إليهِ الخواصُ، فإنْ كانَ أيامُ الشِّتاء دَعا بالحلواتِ اليابسةِ وإنْ كانَ صيفاً دعا بالفواكِهِ، فيأخذ من الأكل إلى العصْرِ، ثم يَجْلِسُ على سريرِهِ ويأذنُ للنَّاسِ إلى الغروبِ، ثم يأذنُ لخاصتهِ إلى ثُلُثِ الليلِ يسامرونَهُ، وينامُ الثلثَ الأوسطَ، ويصلي الثلثَ الأخيرَ، فلم يزَلْ على ذلكَ حَتى قَبَضَهُ اللهُ تَعالى .قِيلَ سَمِرَ معاويةُ ذاتَ ليلةٍ، فَذَكَرَ كلامَ الزرقاءِ بنتِ عديٍّ، امرأةٍ مِنْ أهْلِ الكوفةِ ممنْ نَصَرَ عليًّا -عليه السلامُ -يومَ صِفِينَ () فقالَ لأصحابِهِ :أيّكُم يحفَظُ كلامَ الزرقاءِ، فقالُوا :كُلُّنا يا أميرَ المؤمنينَ نحفظُهُ فقالَ فما تُشيرونَ عليَّ فيها، فقالوا :نشيرُ بقتلِها، فقالَ :بِئْسَ الرأيُ رأيتُمْ أيحْسنُ بِمثْلي أنْ يتحدَّثَ الناسُ على، أني قَتَلْتُ امرأةً بعدَما ملكتُ فظفرتُ ثُمّ دَعا بكاتِبِه، فَكَتَبَ إلى واليهِ بالكوفةِ أنْ أوفدْ إلى الزرقاءِ بنتِ عَدِيّ مَعَ نفرٍ من عشيرتِهَا وعدةٍ مِنْ فرسانِ قومِها وَمَهّدْ لَها وِطاءً لَيناً فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الكتابُ رَكِبَ إليهَا فأقرأهَا الكتابَ، فقالت :أَمَّا أَنَا فغيرُ زائغةٍ عَنْ الطاعةِ، فإنْ كانَ أميرُ المؤمنينَ جَعَلَ الاختيارَ إليَّ لَمْ أرم منْ بَلَدي، وإنْ كانَ حَتَّمَ الأمرَ فالسمعُ والطاعةُ لَهُ، فَحَمَلَها على أَحْسَنِ مَطيةٍ في هَودَجٍ وَجَعَلَ غشاءَهِ خزاً مُبَطَناً، وأحسَنَ صحبتَها فَلَمَّا قَدِمْت على معاويةِ، قالَ لها :مَرْحباً وأهلاً خيرَ مقدمٍ قَدِمَهُ وافدٌ كَيْفَ حالُكِ يا خالةُ، وَكَيْفَ رأيتِ مَسيرَك فقالتْ خيرَ مسيرٍ كَأَنّي ربيبةُ بيتٍ أو طفل في مهد، فهلْ تعلمينَ لِمَ بعثتُ إليكِ، فقالتْ :لا يعلَمُ الغيْبَ إلا اللهُ فقالَ :ألستِ راكبةَ الجملِ الأحمرِ يومَ صفينَ، وأنت بينَ الصُّفينِ تُوقدينَ نارَ الحربِ، وتحضينَ على القتالِ، قالتْ :بلى قالَ :فما حملَكِ على ذلكَ، فقالتْ :يا أميرَ

المؤمنينَ إنهُ قدْ ماتَ الرأسُ وَبترَ الذنبُ، والدَّهْرُ ذو غِيَرٍ ()، ومنْ تفكرَ أبصرَ، والأمرُ يحدثُ بعدة الأمرُ .قالَ :صدقتِ فَهلْ تحفظينَ كلامَكِ، قالتْ :لا واللهِ، قالَ :للهِ أبوكِ لَقدْ سمعتُكِ تقولينَ :أيها النّاسُ إنكُم في فِتنَةٍ عمياءَ صماءَ غشيتْكم جلابيبُ الظُّلمِ، وجارتْ بِكُم عنْ قَصْدِ المحجَّةِ فيا لَها من فَتنَةٍ لا يُسمعُ لقائِلِها، ولا تنقادُ لسائِقِها، أيُّها الناسُ إن المصباحَ لا يضيئُ في الشَّمْسِ وإنَّ الكواكِبَ لا تنيرُ مَعَ القَمرِ وانَّ البغلَ لا يَسبقُ الفرسَ، ولا يقطَعُ الحديدَ إلا الحديدُ، ألا مَنْ استرشَدَ أرشدْنَاهُ وَمَنْ سألنَا أخبرناهُ أنَّ الحق كانَ يطلبُ ضالتَهُ فوجدَها فصبْراً يا معاشرَ المسلمينَ من المهاجرينَ والأنصارِ على الغصصِ فكأنّه قَدْ التأمَ شعبُ الشَّتاتِ وَظَهَرَتْ كلمةُ العدْلِ وَغَلَب الحقُ باطِلَهُ، فلا يُعَجِّلَنَّ أحدُكُم يقولُ :كيفَ ذلكَ لِيقضَي اللهُ أمراً كانَ مفعولا، إن خِضابَ النّساءِ الحناءُ، وخضابَ الرّجالِ الدماءُ، والصَّبرُ خَيْر في الأمورِ عواقب، أيها ()إلى الحربِ قُدَماً غيرَ ناكصينَ فهذا يومٌ لَهُ ما بعدَهُ، قالَ :يا زرقاءُ لقدْ شاركتِ عليًا -عليهِ السلامُ -في كلِ دَمٍ سَفَكَهُ، قالتْ :أحسنَ اللهُ بِشارتَكَ يا أميرَ المؤمنين وأدامَ سلامَتَكَ مِثلُك بشَّرَ بخيرٍ وَسرَّ جَليسَه قالَ لَها وقدْ سرَّكِ ذلكَ، قالتْ :نَعَمْ واللهِ سرَّني قولُكَ وأنَّى لِي بتصديقِهِ قالَ معاويةُ :واللهِ لوفاؤُكُم لَهُ بَعْدَ موتِهِ، أعجَبُ إليَّ من حُبِّكُمْ لَهُ في حياتِهِ، اذكري حاجَتَكِ فقالت :يا أميرَ المؤمنينَ إنّي آليتُ على نَفْسِي أنْ لا أسألَ أحداً أعنتُ عليه شيئاً أبداً، ومثلُكَ مَنْ أعطَى مِن غيرِ مسألةٍ، وجادَ مِنْ غيرِ طَلبةٍ قالَ :صدقتِ ثُمّ اقطَعَها ضيعةً استغلَّتْ مِنْها أولَّ سَنة عَشَرَةَ آلافِ درهم.

وَذُكِرَ أنَّ سَوْدَة بنتَ عمارةَ ()بنِ أسَدٍ استأذَنتْ عَليهِ فَلَمَّا أذِنَ لها قالَ :هيهِ يا بنتَ الأسَدِ ألسْتِ القائلةُ يومَ صِفِّين:

يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقرانِ	**شَمِّرْ كفعْلِ أبيك يا بن عِمارةٍ**
واقصدْ لهندٍ وابنِها بهَوانِ	**وانصرُ عليّاً والحسيْنَ ورَهطَه**
عَلَمُ الهدى ومنارة الإيمان	**إن الإمام أخو النبيِّ محمدٍ**
قدُماً بأبيضَ صارم وسِنانِ	**فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائِه**

فقالت بَلَى يا أميرَ المؤمنينَ فَما مِثلي مَنْ رَغِبَ عَنِ الحقِّ ولا اعتذَرَ بالكذِبِ قالَ :فَما حملكِ على ذلكَ، قالتْ :حُبُّ عليٍّ واتباعُ الحق، فقالَ :واللهِ ما أرى عَلَيكُمْ مِنْ أثَرِ علي شيئاً، فقالَتْ :نشدتُكَ اللهَ يا أمير المؤمنينَ مَن إعادَةِ ما مضَى وتذكارِ ما خَلا، فقالَ :هيهاتَ ما مِثْلُ مقامِ أخيكِ يُنْسَى، وما لقيتُ مِنْ أحَدٍ ما لقيتُ مِنْ أخيكِ وقومِكِ، قالتْ: صدقت يا أميرَ المؤمنينَ لَمْ يكُنْ أخِي واللهِ دَهِشَ ()المقالِ، ولا خفيِّ

المكانِ، وكانَ والله كما قالتِ الخنساءُ :()

وإنّ صخراً لتأتَمُ الهُداةُ بِهِ كأنّـ ـه علَمٌ في رأسِه نارُ ()

وأنا أسألُ أمير المؤمنين إعفائِي مما استعفيتُه مِنْه،، فقالَ :قد فعلتُ فما حاجتُكِ فقالتْ :يا أمير المؤمنينَ إنكَ أصبحتَ لِلناسِ سيِّداً، ولأمرِهِم والياً، واللهُ سائلُك عَنْ أمورِنا، وما افترضَ اللهُ عليكَ من حقِّنَا، وما يزالُ يقدّمُ علينَا مَنْ يهجُمُ بعزكَ ويبطِشُ بِسُلْطانِكَ، فيحصدنَا حَصْدَ السُّنْبلِ ويَدوسنا دَوْسَ البقرِ، ويسومنا الخِسْفَ، هَذا ابن أراطة ()قدِمَ عَلَينَا فقتَلَ رجالاً وأخَذَ أموالا، ولولا الطاعةُ لكانَ فينا عِزٌّ ومنعةٌ، فإما عزلته فشكرنَاك، وإلا عرفنَاكَ فقالَ معاويةٌ :أبقومِك تُهدِّديني لَقدْ هممتُ أحملك على قتبٍ أشرس ()فارُدّك إليهِ فينفذَ فيكِ حُكْمَهُ، فاطرقَتَ وبَكَتْ .وأنشأتْ تقولُ:

صلّى الإلهُ على قبر تَظَمَّنَهُ قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مدْفونا

قد حالَفَ الحقّ لا يَبغِي به بدلاً فصار بالحق والإيمانِ مقْرُوناً

قالَ :ومنْ ذلكَ قالتْ :أميرَ المؤمنينَ عليٌّ بنُ أبي طالب عَليهِ السلامُ قالَ وما علمكِ بذلكَ، فقالت أتيتُهُ في رَجُل ولاهُ عَلَينا .لمْ يكُنْ بيننَا وبينَهُ إلا ما بينَ الغَثِّ والسمينِ، فوجدتُهُ قائماً يُصَلّي فلمَّا نَظَرَ إليَّ انفتلَ مِنْ صلاتِهِ فقالَ برأفةٍ ورحمةٍ ألكِ حاجةٌ، فأخبرتُهُ فَبَكى وقالَ :اللهمَّ أشهدْ عليَّ وعليهِم إني لَمْ أمْرهُم بظُلْمِ أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلا بتَرْكِ شَيءٍ مِنْ حَقّكَ، ثُمّ أخْرَجَ مِنْ جيبِه قطعةَ جِلْدٍ، وكَتَب فيها ﴿ :**بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾()

﴿**وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** ﴾ .()إذا قرأتَ كتابِي هَذَا فاحتفظْ بما في يدِكَ، حَتّى يقدِمَ عليكَ من يقبضُه مِنْكَ والسلامُ .فأخذْتُهُ مِنْهُ واللهِ ما حَزَمَهُ بحزامِهِ، ولا خَتَمه بطينٍ فعَزَلَهُ بِهِ .فقالَ معاويةٌ : اكتبوا لَها برَدِّ مالِها، والعدلِ علَيْهَا، فقالتْ :إليَّ خاصةً أمْ لِقومي عامةً فقالَ :ما أنتِ وقومك فقالتْ :هِي واللهِ الفَحْشَاءُ إذن اللؤمُ، إنْ كانَ عَدْلا شامِلاً، وإلا فَأنا كسائرِ قومِي .قالَ :هيهاتَ يا أهلَ العراقِ لمظكم ()علي بنُ أبي طالب الجرأةَ على السُلطانِ، اكتُبوا لها بحاجَتِها ولسائِرِ قومِها .وَرُويَ أنَّهُ أُتِيَ معاويةٌ برجلٍ مِنْ أصحابِ أمير المؤمنين عليّ بْنِ أبي طالب عَلَيهِ السلامُ كانَ قد أبْلى معه بلاءً حسناً فقالَ معاويةٌ :الحمدُ للهِ الذي أمكَن مِنْكَ فقالَ :لا تَقُلْ ذلكَ ولكنْ قُلْ :إنا لله وإنا إليهِ راجعونُ، فإنها مُصيبَةٌ، قالَ :وأيُّ نعمةٍ هي أكبَرُ مَنْ أنْ الله قَدْ أظفَرني برَجُل، قَتَلَ

بساعَةٍ واحدةٍ جماعةً مِنْ أصحابي، اضربا عنقه فقالَ :اللهمَّ اشهدْ أنَّ معاوية لمْ يقتلْني فيكَ ولا أنَّك رضيتَ قتْلي ولكنْ يقتلْني على سبيلِ الغلَبةِ علَى حُطامِ هذه الدُّنيَا، فإنْ فعَلَ فافعلْ بهِ ما هو أهلُهُ وإنْ لَمْ يفعلْ فافعلْ بهِ ما أنتَ أهلُهُ، قالَ معاويةٌ : قاتلكَ اللهُ لقدْ سببتَ فابلغتَ بالسُّبِّ ودعوتَ فابلغتَ في الدُّعاءِ خليا عَنْهُ.

وَرويَ عَنْ معاوية أنة قالَ :اجْعَلوا لِلشعرِ أكثرَ هَمكُم وأحد دأبكم فإن فيه مآثرَ أسلافكُم، ومواضِعَ إرشادِكم، فَلَقدْ رأيتْني يومَ الهريرِ (1)وقد عزمتُ على الهربِ، فما يَردُّنى إلا قولُ عَمْروِ بنِ الاطنابةِ (1)حيثُ يقولُ:

وأخْذي الحمدَ بالثَّمنِ الربيح	أبتْ هِمَّتي وأبى حيائِي
مكَانِك تُحْمدي أو تستريحي	وَقوْلي كُلما جشأتْ وجاشَت
وَضربي هامَةَ البطلِ المُشيح	وإقدامي على المكروهِ نَفْسِي
مسافَة بَينَ جُثماني وَروحي (1)	لأنـي عـالمٌ أنْ سوفَ تَنئـا

وقال معاوية:

يُدافِعُ عَنْهُ الفرارُ الأجلْ	كأنَّ الجبانَ يَرى أنَّهُ
ويسلمُ منهـا الشجاعُ البطلْ(1)	فقـد تدركُ الحادثاتُ الجبانَ

وقالَ معاويةُ لعبدِ الرحمنِ بنِ الحكمَ (1)يا ابنِ أخي إنَّكَ لَقدْ لَهجْتَ تقولُ الشَّعْرَ، فإياكَ والتشبيبَ، فَتُعِرَّ شريفاً، وإياكَ والهجَاء، فتهجِي كريماً أو تثر بَهُ لئيماً، وإياكَ والمدحَ، فإنَّه كسبُ الخسيسِ، ولكنْ أفخرْ بمآثِرِ قومِكَ وقل في الأمثالِ، ما تزيِّنُ نَفْسَكَ وَتَؤدِّبُ بهِ غيرَكَ، فإنْ لَمْ تجدْ بُدّاً مِنْ المديحِ، فكنْ كالمبرارِ حينَ مَدَحَ، فإنه شَفَعَ بنفسِهِ حينَ بدأ بغيرِهِ فقالَ:

إن الكريمَ للكريمِ مُجِلٌّ (1)	أنـزلتُ نَفسي في بنـي ثُعَل

وقيلَ :حَجَّ معاويةٌ فلمّا دَخَلَ المدينةَ، قالَ الحسينُ (1)بنُ علي لأخيهِ الحسنِ بنِ علي صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ :لا تَلْقَهُ ولا تُسلِّمْ عَليهِ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ الحسنُ :إنْ علينَا دَيْناً ولا بدَّ مِنْ إتيانِه، فَرَكِبَ في أثرِهِ فَلَحِقَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وأخبَرهُ بدْينِه، فمروا عليهِ بُبختيٌّ (1)عليهِ ثلاثونَ ألفِ دينارِ، قَدْ أعيى وتخلَّفَ عن الإبلِ وقومٌ يسوقونَهُ فقالَ معاويةٌ ما هذا؟ فَذكرَ لَهُ فقال :اصرِفُوا ما عَلَيْهِ لأبي مُحَمِّدٍ.

قالَ زيادٌ :ما غَلَبني معاويةٌ في شيءٍ مِنْ أمورِ السِّياسَةِ قطُّ، إلا في شي واحدٍ، وذلكَ أنِّي استعملتُ رجلاً، على دَستْ ميسانَ (1)فكسر عليهِ الخراجُ فلحقَ بمعاوية، فكتبتُ إليهِ أسألُهُ تسليمَهُ إليَّ فكتبَ في جوابه :أمَّا بَعْدُ فليسَ ينبغِي لِمثلي ومثلكَ، أنْ نسوسَ الناسَ جميعاً بسياسةٍ واحدةٍ لكنْ تكونُ أنتَ للغلظَةِ والفظاظةِ، وأكونُ أنا

للرأفةِ والرَّحمةِ، فإذا هَرَبَ هاربٌ وَجَدَ لَهُ باباً يلِجُ فيه والسلامُ.

وقيلَ لمعاويةَ آنتَ أدْهى أمْ زيادٌ؟ فقالَ :إن زياداً ليس يدعُ الأمورَ تتفرَّقُ عليهِ، بلْ يجمعُها قبلَ ذلكَ، وإنها لتتفرقُ عَليَّ ثُمَّ أجمعُها.

قالَ قومٌ لزيادٍ :بِمَ ضبطتَ العِراقَ، ؟قالَ :بالسَّيفِ، قال :أنا ضبطت العراقَ والشَّامَ والحجازَ بالحِلْمِ.

وَلمَّا هَمَّ معاويةُ بالبيعةِ لابنِهِ يزيدَ، كتبَ إلى زيادٍ يستشيرُهُ فيه فدعا زيادُ .عبدَ بنَ كَعْبِ النميري ()، فأوفَدُه على معاويةُ فقالَ :إن لِكُلِّ مستشيرٍ ثِقَةٌ، ولكُل سِرِ مستودَعاً، وإنَّ الناسَ قَدْ ابتُدِعَتْ لَهُمْ خِصلتان، إضاعةُ السرِّ وإفسادُ النَّصيحةِ، وليست يُستْودَعُ إلا عِندَ رَجلينِ :رجلٌ يَرجُو ثوابَ الآخِرَة، ورجل لَهُ حَسَبٌ وعقلٌ، يصون حَسَبهُ وعقلَهُ، وإن أميرَ المؤمنينَ يستشيرني، وعلاقةُ الإسلامِ وضمانهُ شديدٌ، لأنَّ يزيدَ صاحِبُ لَعِبٍ وتهاونٍ، مَعَ ما أولعَ فيهِ من الصَّيدِ .فألقَ أميرَ المؤمنينَ مؤدياً عَنِّي، فأخبرْهُ وقُلْ لَهُ رويدَكَ في الأمرِ يستقيمُ، فإن دَرْكاً في تأخيرٍ خير مِنْ تعجيل أخافُ عاقبَتَهُ ولا تدري إلى ما يصيرُ الأمرُ فلمَّا بَلَّغَة الرسالةَ، أخذَ معاويةُ برأيِ زيادٍ وأخَّرَ بيعتَهُ .()وكتبَ إلى سعيدِ بنِ العاصِ ()يستشيرُه، فرجَعَ جوابُه إليهِ أنهُ قد بَقيتْ مشيَخة مِنْ أصحاب رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّمَ فروَيداً بهذا الأمرِ، لعلَّهُم ينقرضونَ .فقال معاويةُ :صَدَقَ سعيدٌ فأخَّرَ البيعة ولم يزلْ يُداري الناس، بعدَ ذلكَ سبعَ سِنينَ، إلى أنْ تَمَّ لَهُ الأمرُ.

وقيلَ :إنَّهُ استشارَ الأحنفَ بنَ قيس، فقالَ :أدخلُ على يزيدَ فأدخَلَهُ عليهِ، فَلَمَّا خرجَ قال لَهُ معاويةُ :كيفَ رأيتَ يزيدَ، فقالَ :رأيتُ شباباً وجلداً ونشاطاً، ثُمّ قالَ : نخافُكم إنْ صدَقنا ونخافُ اللهَ إنْ كَذبنَا، وأنْتَ أعلمُ يا أمير المؤمنينَ بليلِهِ ونهارِهِ، ومدخلِهِ ومخرجِهِ، وسرِّهِ وجهارِه، وإيرادِهِ وإصدارِهِ، فإنْ كنتَ تعلَمُ أن فيهِ للهِ رِضىً، ولهذه الأمةِ صلاحاً، فلا تشاورْ الناسَ، وإنْ كنتَ تعلَمُ مِنهُ غيرَ ذلكَ، فلا تزوِدْهُ الدّنيا وأنت عائِدٌ إلى الآخرة وإنما علينَا السَّمعُ والطاعة فقالَ معاوية :جزاكَ اللهُ عن الطاعةِ خيراً.

ولما أخذَ معاويةُ في البيعَةِ ليزيدَ، قالَ لَهُ :يا بُني، لَقَدْ ذَللت لكَ الشدَّةَ، ومنحتُكَ اللينَ، وتحملت دونَك الغِلظَةَ، وقد وليتُكَ أمراً عظيماً مِنْ أمرِ الأمةِ، وليسَ حيٌّ مِنْ أحياءِ العربِ إلا ولَهُ عِندي ترةٌ ()قدْ كنتُ أشغِلُهُ عنَها بحسنِ الوفادَةِ، وجزيلِ الرِّفدِ، حَتّى تركتُ قلوبَهُم كالطينَةِ المؤتثةِ فلا تخالفن فعْلِي فِيهم فعليكَ بإدرارِ عَطيّتكَ، ومباشرَةِ أمورِكَ، ولا تشغَلْ نفسَكَ بمفاكهة الإماءِ ومداعبتِهن، فإن ذلكَ من فِعْلِ

ضعَفَةِ الرِّجالِ .وانْظُرْ هؤلاءِ الأربعةِ مِنْ قريشٍ، أما الحسين بنُ عليّ فإني قد أوصيتكَ فيهِ بِحفْظِ قرابتِهِ ورعايةِ حَقِّ رَحِمِهِ فإن القلوبَ إليهِ جانحةٌ فاجعلْ لَهُ عِندَ ظَفَرِكَ نصيباً من رحمكَ، واطوي كشحاً عَن ابنِ عُمَرَ، وابنِ أبي بَكرٍ، فإنَّهما كمثلِ الهقلِ () لا يحملُ ثقلاً ولا يجمعُ نهوضاً وأما ابنُ الزبيرِ فكالثعلَبِ رواغَ بالحيلةِ وكالليثِ صال بالجراءةِ. ()

وفي روايةٍ أُخرَى أنَّه قالَ :أمّا عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ () فقدْ شغلتْه العبادَةُ وأمّا عبدُالرحمنِ بنُ أبي بكرٍ () فليسَ لَه هِمةٌ إلا في النِّساءِ واللهو.

فلَمَّا بُويعَ يزيدُ () حَجّ بالنَّاسِ وَقسَّم بمكةَ والمدينةِ أموالا كثيرةً وقالَ لَهُ عبدُاللهِ بنُ الزبير :إذا خرجْتَ فاخرجْ مَعَكَ الحسينَ بنَ عليّ، واطلبْ من مروان دارَه فإنَكَ لا تأتي بفائدةٍ مِثلَها، فقالَ ما اتَّهُم رأيكَ، أما الحسينُ فإني أوفدُ إليهِ فإنْ خَرَج مَعَهُم وأقامَ بالشامِ، عرفنا حَقَّهُ، ورعينا قرابتهُ وإن رجعَ إلى أهلِهِ، لم ندعْ صِلَتَه، فقدْ أقام دهره بالمدينةِ، لم يأتِنا مِنْه ما نكرهُ.

وكَتبَ معاوية إلى سعيدِ بنِ العاصِ، وهو أميرُ بالمدينةِ، بالقبضِ على مالِ مروانَ بن الحكمِ ()، فلَمْ يفعلْ فراجَعَهُ فيهِ، ثُمّ كَتب كتاباً ثانياً فدافَعَه واحتفظَ بالكتابينِ، فلَمّا عُزِلَ سعيدُ وَولِيَ مروانُ بن الحَكَمِ المدينةَ وكَتَبَ إليهِ بالقبْضِ على أموالِ سَعيدٍ فأرسل مروانُ بالكتابِ مع ابنِهِ عبدِ الملكِ إلى سعيدٍ وقالَ :لو لَمْ يكنْ الكتابُ لتجافيتُ عَنْ ذلكَ، فدعَا سعيدٌ بالكتابينِ، فأعطاهُما عَبْدَ الملكِ فَجَاءَ بِهما إلى مروانَ، فلَما قرأهُما قالَ :هو أفضلُ مِنّا فكفَ عن قبضِ أموالِ سعيدٍ.

وقالَ سعيدٌ لولدِهِ :مَنْ أتاكُم في مجالِسِكم، فقد وَجَبَ حَقُّهُ عليكُم ومن أتاكُم في منازِلِكم، فقد وَجَبَتْ حُرمتُهُ عليكُمْ، ومن أتاكُم في حاجةٍ فَلاَ تدخروهُ شيئاً، فمنّتُهُ عليكم أعظمُ إذ رأكم موضعاً لحاجتِهِ.

وَلَمّا حَضَرتْ سعيدَ بنَ العاصِ الوفاة، قالَ لبنيهِ أيّكُم يكفلُ بديني فقالَ ابنُهُ عمروٍ الأشدقُ ()، :وكَمْ دينُكَ، قالَ :ثمانون ألفاً، قالَ :وفيمَ استدنتها قالَ :سَدَدْتُ بِها خلةً من كريمٍ واشتريت بِها عِرضْي مِنْ لئيمٍ، فإذنْ أنَا بها زَعيمٌ، قالَ :هَذِهِ خصلة واحدةٌ يا بُنيَّ وخصلتانِ قالَ :ما هُما قالَ :بنَاتي لا تزوجوهُن إلا من الأكفاءِ، ولو تعلّقَ حبلٌ مِن الشَّعْرِ، قالَ عَلَيَّ :يا أبتي قالَ :وإخواني إنْ فَقدُوا وَجْهي لم يفقُدوا مَعروفي قالَ :عليَّ :يا أبتي قالَ :واللهِ يا بُنيَّ، ما زِلتُ أعرِفُ الكرمَ في وجهِكَ، وحماليقِ عينيكَ، وأنتَ في المهدِ، واللهِ يا بُنيَّ ما شتمتُ أحداً، منذُ كنت رَجُلاً، ولا زاحمتُ بركبتي رجلاً ولا كلفت من يرتجيني أنْ يسألني .وقالَ زيادُ :استوصوا

بثلاثةٍ منكُم خيراً الشريفِ، والعالمِ، والشيخِ واللهِ لا يأتيني شريفٌ بوضيع، استخف بهِ إلا ضربتُهُ، ولا يأتيني شَيْخٌ بشابٍ استخف بهِ إلا أوجعْتُهُ، ولا يأتيني عالِمٌ بجاهِلٍ استخفَّ بهِ إلا نكلتُ بهِ .ولهذا قالَ :ارحموا ثلاثةً :غنيَّ قوم افتقرَ، وعزيزَ قوم ذلَّ، وعالماً بينَ جُهّالٍ.

واختصمَ إلى زيادٍ رَجلان، فقالَ أحدهما :أصلحَ اللهُ الأميرَ إنَّ هذا يدُّلُ بخاصتِهِ، يَزْعَمُ أنها لَهُ منكَ، قالَ :صدَقَ وسأخبرُكَ بما ينفعُهُ عندي مِنْ مودتِه، إنْ كانَ الحق لَهُ عليكَ أخذتُكَ بهِ أخذاً عنيفاً، وإنْ كانَ الحق لكَ عليهِ أقضي عليهِ، ثم أقضِي عَنْهُ.

وكانَ زيادٌ إذا ولَّيَ رَجُلا، قالَ لَهُ :خُذْ عَهْدَكَ وَسِرْ إلى عَمَلِكَ، واعلمْ أنكَ مصروفُ رأس سنتك، وأنتَ تصيرُ إلى إحدَى ثلاثِ خصال، فاخترْ لِنفسِكَ، إنْ وجدناكَ أميناً ضعيفاً استبدلْنَا بكَ لِضَعفِكَ وَسلَّمتكَ من معرَّتِنا أمانتُكَ وإنْ وجدنَاكَ خائناً قوياً استهنَا بقوتكَ وأحسنَا على خيانتِكَ أدبَكَ وأوجعنا ظَهرَكَ وإنْ وجدناكَ قويَّاً أميناً زِدنَا في عمَلِكَ ورَفعنَا لَكَ ذِكْركَ وأوطئنَا كعبكَ وَكثَرنا مالكَ.

وكانَ لزيادٍ سياسةٌ عظيمة، حتى إنَّهُ كانَ لا يُغْلِق أبوابَ الحوانيتِ في الليلِ . وَمَا ذُكِرَ مِن حُسْنِ تدبيرهِ أنهُ أُتيَ بإمرأةٍ كانتْ قَدْ خَرَجتْ مَعَ الخوارجِ في الحرْبِ، فقتَلَها ثُمّ عرَّاها .فَلَمْ يخرجْ النساءُ عليه بَعْدَ ذلكَ وكُنَّ إذا دعينَ إلى الخروجِ قُلْنَّ لولا التعريةُ لَسَارعنَا إلى الخروج .وكان يقتُلُ المظاهرِ بالخروج، ويستصلِحُ المسر مِنْهُم، حتَّى يستكفي شرهُم، وخروجَهم علَيهِ وكان يبعثُ إلى الجماعةِ مِنهْم، فيقولُ ما أحسَبُ الذي يمنُعُكم مِن إتيانِي إلا الرُّجلةُ ()فيقولونَ أجَلْ، فيحملُهُم فيقولُ أغشوني الآنَ، واسمرُوا عِنْدِي.

وكَانَ عُمَرُ بنُ عبدِالرحمنِ رَحِمَهُ الله يقولُ :قاتلَ اللهُ زياداً جمعَ لَهُم كما تجمعُ الذرةُ، وحاطَهُمْ كما تحوطُ الأمُّ البرَة، وأصلَحَ العراقَ بأهلِ العراقِ، وتَرَكَ أهْلَ الشامِ في شامِهِم.

ولمّا ولَّيَ يزيدُ بنُ معاويَة سَلمَ بن زيادٍ ()قالَ :إن أَبي استكفَى أباكَ كبيراً، وقَدْ استكفيتُكَ صغيراً، فلا تتكلنَّ عليَّ عُذْر مني فَقَدْ اتكلتُ على كفايةٍ منكَ، وإيَّاكَ مِنِّي قبلَ أنْ أقولَ إيايَ مِنكَ، فإنَّ الظَّنَّ إذا أخلفَ مِنْكَ أخلفَ لَكَ، وأنتَ في أدنى حَظِّكَ، فاطلبْ أقصاهُ وَقَدْ أتعبَكَ أبوك، فلا تريحنَّ نفسَكَ، واطلبْ في يومِكَ أحاديثَ غَدِك، وَكُنْ لِنفسِكَ تَكنْ لَكَ.

وَدَخَلَ عبدُاللهِ بنُ جعفرٍ ()على يزيدَ بنِ معاويةَ فأكرَمَهُ، وقالَ بِكَمْ كان يصلُكَ

معاويةُ، فقالَ كان يصلُني بألفِ ألفِ درهم وترَّحمَ عليهِ .قالَ يزيدُ :وَقَدْ زدناكَ ألفَ ألفٍ أخرى، لتَرَحُّمِكَ عَلَيْهِ

أَخَذَ مُصْعَبُ بنُ الزبيرِ ()رَجُلاً مِنْ أصحاب المختارِ ()، فأمرَ بضربِ عُنقِهِ فقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، ما أقبحَ مِنْ أنْ أقومَ يومَ القيامةِ إلى صورتِكِ هذه الحسنةِ، ووجهِكَ هذا الحسنِ، الذي يُستضاء بهِ فأتعلَّقُ بأطرافِكَ فأقولُ :أي رَبِّ سَلْ مُصْعَباً فيمَ قتلَني، فقالَ :أطلقُوهُ، قالَ :أيُّها الأميرُ اجعلْ ما وهبتَ لي مِن عُمْرِي في خفضٍ، قال :قد أمرتُ لك بمائةِ ألفِ درهم، فإني أُشهِدُ الله تعالى وأشهِدُ الأميرَ، أنَّ لابنِ قَيْسِ الرقياتِ ()نصفَها، قالَ :ولَمَ قالَ لِقولهِ:

إنما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ	**تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ**
مُلْكُهُ مُلْكُ رَحمةٍ ليسَ فيهِ	**جبروتُ مِنْهُ ولا كِبْرِياءُ**
يتقي اللهَ في الأمورِ وَقَدْ	**أفلَحَ مَن كَانَ هَمُّهُ الاتِّقاءُ ()**

فَضَحِكَ مصعبُ، وقالَ :أرَى فيكَ مَوْضِعً للصنيعةِ، فأحْسَنَ جائزَتَهُ.

ولَمّا بَلغَ عَبدَالله بنُ الزبير، قتلُ أخيهِ مُصعَبٍ خطبَ الناسَ فقالَ :الحمد لله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء إنه لم يذل من كانَ الحقُّ مَعَهُ، وإنْ كَانَ فرداً، ولم يُعز مَنْ كان مِن أولياءِ الشيطانِ وإنْ كانَ مَعَهُ الثَّقلانِ .أتانا خبرٌ من العراقِ، أحزنَنَا، وأفرَحَنا، قتلُ مُصْعَبٍ يرحمه اللهِ، فأما الذي أحزَنَنا، فإن لفراقَ الحميمَ لَوعةٌ، يجدُها حميمُهُ عندَ المصيبةِ، ثمَّ يَرْعوي ذوي الرأي، إلى جميلِ الصَّبْر وكريمِ العزاء، وأمَّا الذي أفرَحَنا فَعَلِمْنَا أنَّ قَتْلَهُ شهادةٌ، وأن ذلكَ لَنا ولَهُ فيه الخيرةُ . ألا وإنَّ أهلَ العراقِ أهلُ الشِّقاقِ والنِّفاق؛ باعوهُ بأقلِّ ثَمَنٍ كانوا يأخذونَهُ مِنْهُ، إنَّا واللهِ ما نموتُ حبجاً، وما نموتُ إلا قصعاً بالرماح، وتحتَ ظلالِ السيوفِ وليسَ كما يموتُ بنو مروانَ، حبجاً، واللهِ إنْ قُتِلَ منهم رجلاً في جاهليةٍ ولا إسلام ألا وإن الدُّنيا عاريةٌ مِن الملكِ الأعلى، فإنْ تُقْبِلْ عليَّ لا آخذُها أخذَ البَطِرِ الأشرِ ()، وإنْ تدبرْ عنِّي لا أبكي عليها بكاءَ الحَزِنِ المهترِ.

قلتُ الحبجُ، إنْ ينتفخ بطنُ الدابة، مِنْ كثرةِ الأكل فتموتَ .والقصْعُ أنْ يطْعَنَ ويضربَ، فيموت مكانَهُ في الحالِ .والمهترِ الذي يسقطُ في كلامِهِ من الكِبَرِ .وقالَ المهلّبُ :بنُ أبي صفرةَ لبنيه :يا بنيَّ إن ثيابَكم على غيرِكم أحسنُ مِنْهَا عليكُم، وإنَّ دوابَكم تحْتَ غيرِكم، أحسنُ منها تحتَكم.

وقالَ أيضاً لبنيهِ :لا تتكلوا على ما سبقَ من فِعْلِي، وافعَلوا ما يُنسَبُ إليكُم . وأنشد:

وأحيا فِعالَهُ المولودُ ()   إنما المجدُ ما بنا والدُ الصِّدْق

وقالَ لابنِهِ يزيدَ :()اخفضْ جناحَكَ، واشتدَّ في سلطانِكَ فإنِّي رأيتُ الناسَ للسلطانِ، أهيبَ مِنْهم للقرآنِ.

ومرَّ في الكوفةِ بحيٍّ من همدانَ، في نادٍ لَهُم فقالَ رجلٌ مِنْهُم واللهِ ما يساوي إلا خمسمائةِ درهم، وكانَ المهلبُ أعوراً، فنظر إلى الرجلِ حتى أثبتَه، فلما خَرَجَ بالعشى، حَمَلَ في كَفّهِ خمسمائةِ دِرْهمٍ، ثُمَّ ضَرَبَ دابتَه حتى وقفَ في نادي همدانَ، فبصرَ بالشَّاب فقالَ :افتحْ حِجْرَكَ، وقالَ دونَكَ يا ابنِ أخي قيمة عمّكَ .فَوالله لَو قَوَّمتَهُ بأكثرَ مِنْ هذا لجاءتك فقالَ الفتى :واسوأتاهُ قالَ المهلبُ :لا ضيرَ، فقالَ شيخٌ من همدان :ما أخطأَ من سَوّدَكَ.

وَقَدِمَ زيادُ بنُ الأعجمِ، على المُهلّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ الأزديّ بخرسانَ فنـزلَ على ابنه حبيبٍ ()فَجَلَسَا على شرابٍ، وفي الدَّارِ شجرةٌ عليهَا حمامةٌ فَجَعَلَتْ تغَرِّدُ فقالَ زيادُ:

وذمَّة والدي أن لا تُضاري   تَغَنَّيْ أنتِ في ذِمَمِي وعَهْدِي

ذكرتُ أحبّتي وذكرتُ داري   إذا غنيت أو طربت يوماً

بقتلِهم لأنّكَ في جِواري   فإمَّا يَقتلوك طلبتُ ثأري

فَأَخَذَ حبيبُ سَهْماً، فَرَماهَا فأثبتَها، بهِ فماتَتْ .فقالَ زيادُ :قَتَلْتَ جاري، بيني وبينَك المهلّبُ، ثُمَّ أتى المهلّبَ، فأخبَرَهُ فقالَ :يا حبيبُ ادفعْ إلى أبي أُمامة ألفَ دينارٍ، فقالَ حبيبُ :أعزَّ اللهُ الأميرَ إنَّما كُنْتُ ألْعَبُ، فقالَ :مَعَ هذا اللّعِبِ جارُ أبي أُمامة جارِي، فَدَفَعَ حبيبُ إليهِ ألْفَ دينارٍ، فَأَنْشَأَ زيادُ يقولُ:

قضاهَا فأمْضَاهَا الأميرُ المهلَّبُ   فلِلهِ عَينا مَنْ رأى مِنْ قضيَّةٍ

مِنَ الطّيرِ حَضانٌ على البيْضِ   قضَى ألفَ دينارٍ لجارٍ أجرْتُه

يَنْعَبُ   رماهُ حبيبٌ بنَ المهلّبِ رميةً

فأنفذَهُ بالسَّهْمِ والشمسُ تغربُ   فألزمَهُ عقلَ القتيلِ بأسْرِهِ

فقالَ حبيبُ إنّما كنتُ ألْعَبُ   فقالَ زيادُ لا يـروعُ جـارَهُ

وجـارُهُ جاري بل من الجارِ أقربُ

فَلَمَّا سَمِعَهَا المهلّبُ أجازَهُ بجائزةٍ حَسَنَةٍ وصرفه مكرَّماً .فَبَلَغَ ذلك الحجاجَ فقالَ :ما أخطأتَ العربِ إذْ جَعَلَتْ المهلّبَ شَيْخَها.

وَقَفَ أعرابي على عَبدِ الملِكِ بْنِ مروانَ ()، فَسَلَّمَ ثُمَّ قالَ :يَرْحَمُكَ اللهُ أنَّهُ مَرَّتْ بِنا سنونَ ثلاثٌ أمّا إحداها فأخذَتِ المواشيَ وأمَّا الثانِيَةُ فَنَفَضتِ اللّحمَ، وأمَّا الثالِثَةُ

فخَلَصت إلى العظم، وعِنْدَكَ مالٌ فإن يكنْ للهِ فأعطِهِ عِبادَ اللهِ وأنْ يكُنْ لَكَ فتَصدّق علينا، إن اللهَ يَجْزِي المتَصدِّقينَ فَأَعْطَاهُ عشَرَةَ آلافِ درهمٍ وقالَ :لَوْ كانَ النَّاسُ يُحْسِنُونَ يَسْأَلُونَ ما حَرَمنا أحداً .قصةَ إبراهيمَ بنِ محمدٍ بنِ طلحةَ مع الحجاج الواردَةَ في صَفْحَةِ ١٤٦-١٤٤في هذا الموضعِ ولَمّا كنتُ أُحَقِّقُ الأصلَ فَقَدْ اكتَفَيْتُ بذكرِهَا هُناكَ وكَما ورَدَتْ في الأصْلِ مراعاةً لِحرمةِ الأصلِ.(

ولمَّا ولَّى عبدُ الملِكِ ()، الحجَّاجَ ()كَتَبَ إليهِ إني قَدْ استعملتُكَ على العراقينِ، صَدْمَةً فَأَخْرجَ إليْهِمَا كميشَ الأزارِ، شديدَ العذارِ، مُنْطويَ الخصيلةِ، قليلَ الثميلةِ، غرارَ النومِ، طويلَ اليومِ.

فَلَمَّا دَخَلَ الحجاجُ الكوفَةَ، أتاهُم آتٍ فقالَ :إنَّ الحجاجُ قَدْ قَدِمَ أميراً على العراقِ فاشْرَأَبَّ الناسُ نَحْوَهُ، وتطاولُوا ثم أفْرَجُوا لَهُ فُرْجَةً عَنْ صَحْنِ المسجدِ، فإذا هو يَتَبهنسُ في مِشيتِهِ، مُتَلَثماً بعمامةِ خزٍّ حمراءَ، مُتنكباً قوْساً عربيةً يؤمُّ المنبرَ فرقاهُ وجلَسَ .وأهلُ الكوفةِ إذْ ذاك لَهُمْ مَنَعَةٌ وفي المسجدِ عُميرُ بنُ ضابي ()، فقالَ لِمحمّدٍ بن عطاءٍ :هَلْ لَكَ أنْ أحصَبُهُ فقالَ :لا حتى نسمعَ كلامَهُ، فقالَ :لَعَنَ الله بَني أمية حيثُ يستعملونَ علينَا هذا لو كَانَ هذا كُلُّه كلاماً، لم يكُن شيئاً.

فقالَ الحجاجُ :يا أهلَ العراقِ أنَا لا أعْرِفُ قَدرَ اجتماعِكُمْ أفقدْ اجتمعتُمْ، فقالَ رَجُلٌ :قد اجتَمَعْنا أعَزَ اللهُ الأميرَ فَسَكَتَ هنيهةً لا يتكلّمُ، فَقَالوا يمنعُهُ العيُّ والحَصْرُ ثُمَّ قامَ فَحدَّرَ اللثامَ وقالَ:

مَتى أضَعُ العمامَةَ تَعْرِفُوني	**أنا ابْن جَلا وطلاعُ الثنايا**
كَنصلِ السَّيفِ وضاح الجبينِ	**صليبُ العود من سَلَفِي نـزارِ**
ونجذني مداورَةَ الشُّؤونِ ()	**أخو خمسينَ مجتمعٌ أشدي**

يا أهلَ العراقِ إنِّي أرَى رؤوساً، قدْ أينعتْ وحانَ قطافُها، وإنِّي لصاحِبُها وكأني أنظرُ إلى الدماءِ، بين العمائِمِ واللّحَى.

ليسَ أوانٌ يكثُرُ الخِلاطُ	**ليس أوانُ عشكِ فادَّرجي**
أرْوَع خَراجٍ مـن الـدَوّيِّ	**قد لَفَّهـا اللَّيْلُ بعصَلَبيٍّ**

مُهـاجرٍ ليس بأعرابيٍّ

قد لَفَّهَا الليلُ بسواقٍ حُطمْ	**.........................**
ولا بجـزارٍ على ظَهْرِ وَضمْ ()	**لَيْسَ بِـراعِي إبلٍ ولا غَنَمْ**

إني واللهِ يا أهلَ العراقِ، ما يُغْمَزُ جانبي من اللّينِ، ولا يقعقعُ لي بالشّنانِ ()

ولقد فررتُ عن تجربةٍ، وأجريتُ مع الغايةِ، وأنَّ أميرَ المؤمنينَ نكثَ كِنانَتَهُ بينَ يديهِ، فَعَجَمَ عيدانَها، فوجدَني أمرَّها عُوداً، وأصلبَها مَكْسِراً فوجهني إليكُم .

فوالله لاعصبَّنكُم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولألحوَّنكُم لَحْوَ العودِ، وَأَضربنَّكُمُ ضَرْبَ غرائبِ الإبلِ، وَلآخذنَّ الوليَّ بالولي، حتى تستقيمَ لي قناتُكم، حَتَّى يَلْقَى أحدُكم أخاهُ فيقولُ انجُ سعدُ فَقَدْ قُتِلَ سُعَيْدُ ألا وأيايَ وَهذه السقفاءَ والزرافاتِ، فإني لا أجِدُ أحداً من الجالسينَ في زرافةٍ، إلا ضربتُ عُنُقَهُ .فاستوسِقُوا واعتدِلوا، ولا تميلُوا وأطيعُوا .واعلمُوا أنَّه ليس مِنِّي الاكثارُ والإهذارُ ولا معي ذلكَ الفرارُ والتعرارُ، وإنَّما هو انتضائِي هذا السيفَ، ثُمّ لا أغمدُهُ الشتاءَ ولا الصيفَ حَتّى يَظْهَرَ أمرُ اللهِ، ويذلَّ لأميرِ المؤمنينَ صعبُكُم، ويستقيمَ له أودُكُم وصعرُكم، وإن أميرَ المؤمنينَ أمَرني بأعطياتِكُم، وأشخاصِكُم إلى مجاهدةِ عَدوّكُم، وقد أمرتُكم بذلكَ، وأجلتُكم ثلاثاً، وأعطيتُ الله عهداً لأنْ تَخَلَّفَ أحدٌ مِنْكُم، بعدَ قبضِه عطائِهِ يوماً واحداً لأضربَّن عنقَهُ، ولأنهبنَّ مالَهُ .يا غلامُ اقرأ كتابَ أميرِ المؤمنينَ، فقرأهُ ثُمّ دَخَلَ دارَ الإمارةِ.

وهذه الحكايةُ قَدْ اشتملتْ على ألفاظٍ كثيرةٍ، من الغريبِ، وأنا أُشيرُ إلى بيانِها على سبيلِ الاختصارِ .قولُهُ صَدْمَةً، أي ضربةً واحدةً ودفعةً واحدةً، وكميشَ الازارِ، مُشمرَ الازارِ ويقالُ في المَثَلِ لِمنْ جَدَّ في الشيءِ وَشَمّرَ فِيهِ :هو كميشُ الازارِ، شديدُ العذارِ، والخصيلةُ، لَحمُ الفخذينِ وَلَحْمُ السَّاقينِ وأراد بذلكَ الاسراعَ والجدَّ في الأمرِ .والثميلةُ، البقيةُ مِن الطَّعامِ والشرابِ في بطنِ الإنسانِ، أرادَ أنْ لا يستكثرَ مِنَ الطعامِ ويشتغلَ بصنوفِهِ، ولكن اقتصرَ على ما لا بُدَّ مِنْهُ فعلَ الجادِّ المُشَمِّرِ وغرارَ النَّومِ، قليلَهُ ويقالُ لِمنْ عَمِلَ في يومِهِ وَجَدَ فيهِ، وَلَمْ يشتغلْ بِلهوٍ ولا لَعِبٍ :هو طويل اليومِ، فَإِنْ اشتغلَ بالشَّرابِ واللهو قِيلَ :هُوَ قصيرُ اليومِ .واشرأبَّ الناسُ تطاولوا وأشرفوا .تبهنَسَ :تمايلَ في مَشيَتِهِ وتخايلَ وَيُقالُ لِمنْ كانَ ظاهِراً مشهوراً غيرَ خافٍ ولا خامِلٍ هُوَ ابنُ جَلا .والثَّنايا :ما ارتفعَ مِنَ الأرضِ وَغَلُظَ ويقالُ لِمنْ لَم يزلْ يفعلُ أفعالاً شريفةً هُو طلاّع الثنايا .ويقالُ للقوِّي في أمرِهِ :هو صليبُ العودِ، والأشدّ، جَمْعُ شِدّةٍ وهو القوةُ، يقالُ لِمنْ جَرَّبَ الأمورَ وأحكَمَها :هو منجِدٌ والناجذُ :أقصى الأضراسِ، والشؤونُ جمعُ شأنٍ يقالُ أينعتِ الثمرةُ إذا أدركتْ وبلغت وقطْفُ الثمرةِ أخذُهَا فَشَبَّه الرؤوسَ بذلكَ، ليسَ أوان عشك فادّرجي يُضْرَبُ مَثَلا لِلْمطمئنِّ وَقَدْ أظلّهُ أمرٌ عظيمٌ يحتاجُ إلى مباشرتِهِ والقيامِ بأمرِهِ .والخلاطُ الفسادُ وهو شبيهٌ بالمثلِ الأولِ .ويقالُ :العصلبيُّ الشديدُ مِنَ الرجالِ فَجَعَلَهُم بمنزلةِ

ناقةٍ أو إبل لِرَجُلٍ قوّي شديدٍ يسري عليها ويتبعُها ولا يَرْكَنُ إلى دَعَةٍ ولا سكونٍ، فجعلَ ذلكَ كذلك وَلَفَّ :جمع وأروعُ :جميع، والدَّاوي :جمع داويةٍ وهي الفلاةُ يريدُ أنّهُ صاحبُ أسفارٍ ورَحْلٍ، والحُطَمُ :العنيفُ من السَّوقِ وهو شبيهٌ بالمثلِ الأولِ : والوضِمْ :كل ما وقيتْ بِهِ اللحمُ من خَوانٍ أو حصيرٍ أو غيره، يقالُ يُقعقِعُ بالشِّنانِ : أيْ يُحَرِّكُ الشنانَ وهو ما خَلُقَ من الأسقيةِ وأصلُهُ أنْ يُحرك الشّنَ، حَتى يُسْمَعَ لَهُ صَوْتٌ، لِيَقّرَ بِهِ الوحوشَ ويجلِبَ بِهِ على الطّيرَ وشَبَهَهَا، يقولُ :لستُ مِمّنْ يروعُ بالأباطيلِ وَيقرعُ بالتخيلاتِ، وقولَهُ فررتُ عن تجربةٍ أصلُهُ أنْ يفرَّ الدابَة أي يكشِفُ جَحْفَلَتها، لينظرَ إلى أسنانِها فيعرفَ بها سِنَّها والكنانةُ التي يكونُ فيها السِّهامُ، وَنَكَثَها أي كَبَّها وصبَّ ما فيها، والعجْمُ الاختبارُ يُريدُ أنَّه اختبرَهَا، لِيعلَمَ صلابَتها من خَوَرِهَا وقويّها من ضعيفِها، وعصْبُ السَّلَمةِ يقالُ إنَّ الرجلَ إذا حَطَبَها شَدَّها بنسعَةٍ لئلا يصيبُه شوكُها، يَضربُ مَثَلا لِمَنْ عصبْتُه بِشّرٍ وأمرٍ شديدٍ، يُقالُ : لحوتُ العودَ وَلَحيتُهُ إذا قَشَرْتُهُ، يُقالُ في المَثَلِ :ضربَهُ ضَرْبَ غرائِبِ الإبلِ والأصلُ فيه أن الإبلَ إذا وَردتْ فدخَلَ فيها غريبُهُ ليستْ مِن الإبلِ عن الماءِ وضربتْ حتى تَخْرجَ عَنها، ويقالُ في المثلِ لمنْ يُعنى برحمه أو حميمه :أنجُ سعدٌ فَقَد قُتلَ سُعَيدٌ وأصلُه أنَّ سعداً وَسُعَيْداً ابني ضَبَّهُ خرجا يطلبان أباهما فَرَجَعَ سَعْدٌ ولم يرجعْ سعيدٌ، والزرافاتُ :الجماعاتُ، وأمّا السقفاءُ فلم يذكرْ أحدٌ لها تفسيراً . وقالَ بعضُهم :إنّها تصحيفٌ وإنما هو الشُفعاءُ وَهُمْ الذينَ يَشفعونَ عندَ السلطانِ في المذنب فنهاهُم عنْ ذلك .()

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لكثيرِ بنِ هراثةَ الكلابيِّ :هذا الحجاجُ قادماً منَ العراقِ، وَقَدْ شمخَ بأنفِهِ ونفخَ الشيطانُ في منخرِهِ، فإذا دخلَ عليّ فتعرضْ لَهُ بما يكرهُ، قالَ :أفعلُ يا أميرَ المؤمنينَ .فلمّا دخلَ الحجاجُ وأخذ مجلسَهُ وأفاضوا في الحديثِ، قال لَهُ عبدُ الملكِ :ما تقولُ في ثقيفٍ يا حجاجُ فَقَد زَعمَ أُناسٌ أنهم من إيادٍ وقالَ آخرونَ مِنْ قيس، :وأنتَ أعرفُ بقومِكَ فقال :أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ الحق أبلجُ وطريقُ الرّشدِ أبهجُ وَلَنْ يجدَ مَنْ ركبَ الحقَّ وقصدَ الصدِّقَ نحنُ مِنْ قيس ثابتُهُ أصولُنا، نابتةٌ غصونُنا باسقةٌ فرُوعنا فَعَلى ذلكَ قومُنا .فقالَ كثيرُ :لَقَدْ كانَ لَكَ مُنذُ دَهْرٍ طويلٍ، وهو على أهلِهِ عارٌ وبيلٌ، وخطبٌ جليلٌ، دخولُ رجل في قوم ليس مِنْهُم وتركُهُ قومَه رغبةً عَنْهُم .قالَ الحجاجُ :أمّا واللهِ لولا مكانُ أميرِ المؤمنينَ لاستوعرتُ موطنَكَ، ولاستعظمتُ مركَبكَ، ولأوردتُكَ مورداً يعبأ بالاصدارِ عَنْهُ ذوو القوةِ .فقالَ كُثيرُ :أنتَ أضعفُ كوعاً وأملى روعاً، ولن تنالَ ذلك بشيءٍ يا

حجاجُ على ما ضيعْتَ مِنَ الأمانةِ وأظهرتَ من الخيانةِ مَعَ سوءِ سيرةِ وقبحِ -
سياسةٍ، فإنَّكَ خربتَ وما عمّرتَ، وأفسدْتَ وما أصلحتَ، وجرْتَ وما عدلتَ وتركتَ الحقَّ إذ حكمتَ .فقالَ الحجاجُ :أمّا إنّكَ يا كثيرُ لتمدُّ يداً قصيرةً، وأناملَ حقيرةً .لا يستعادُ بِكَ في المظالِمِ ولا يستعانُ بكَ في المغارِمِ ولا تؤهلُ لدفعِ المظالِمِ .
فلمَّا خَشِيَ عبدُ الملكِ أَنْ يعْظُمَ بينَهُما الخطبُ عزَّمَ عليهما أنْ يسكتا، فخرجَ كُلُّ واحدٍ مِنْهما مملياً غيظاً وَحِقْداً ولم يلبثِ الحجاجُ أنْ خرجَ إلى العراقِ وَقَدِمَ وفدٌ مِن العراقِ على عبدِ الملكِ فلما أرادوا الانصرافَ .قالَ لكثيرِ بنِ هراثة :انطلق مَعَ هؤلاءِ القومِ، إلى الحجاج حتى تقومَ خطيباً، وتذكرَ السَّمعَ والطاعة لولاة الأمرِ، وكيفَ ينـزلُ بأهل الخلافِ والشّقاقِ مِنَ النقمةِ في العاجلِ والآجلِ .فقالَ لَهُ كثيرُ :
إنكَ قد علمتَ يا أميرَ المؤمنينَ ما بيني وبينَه وأنتَ لي ملجأٌ إنْ قهرتُ، وعزّا إنْ أذللتُ فإنْ أصابتني جائحةٌ أو حلّتْ بي مصيبةٌ مِنَ الحجاجِ فأنتَ المطالبُ بِثأري، وأنتَ بَعْدَ اللهِ ثِقَتي، وقد بعثني أميرُ المؤمنينَ إلى بلدٍ أتخوفُ أهلَهُ وأميراً أحذرُ فعلَهُ، وقدْ شمخَ بأنفِهِ نحوَ السماءِ واجترأ على سفكِ الدماءِ، وليسَ بحضرتي حفدة () يعينونني عليه ولا أنصارٌ ينصرونني .فقالَ لَهُ عبدُ الملكِ :أنفذْ لأمري، فلعمْري الحجاجُ أحكَم رأياً أنْ يأخذَكَ بأحنةٍ ()ويعرفَكَ بسيئةٍ، ولعمري لأنْ فعلَ لأحولنَّ زعامتَه، ولأنبذَنَّ منـزلتَهُ وليفارقنَّ كرامَتهُ وبالحرَى أنْ يكونَ قد أحكمتْهُ تجاربُهُ، وقصدَتْ بِهِ مذاهبُهُ وعزبَ عنهُ جهلُهُ وثابَ إليه حِلمُه فخرَج إليه كثيرُ في أصحابِهِ حتى قَدِمَ عَلَيهِ فلما دخل إليه قالَ لَهُ :مرحباً بكثيرِ بنِ هراثة من قومِ سادةٍ كِرامِ قادةٍ بها ليلٍ ()زاده .قالَ لَهُ هراثة :قَدْ كانتْ بيني وبينَ الأميرِ أشياءُ امتلأتُ منها رُعباً، وَضِقْت بهَا ذَرْعاً، والأميرُ صحيحُ الأديمِ في الحَسَبِ الصميمِ والشرفِ القديمِ، لا يشتكي مِنهُ الضعفُ، ولا يخافُ منهُ العنفُ .فقال الحجاجُ :ما احتجنَا إلى ثنائِكَ، ولا رغَبنا في دُعائِك ولا تلامُ على فِعْلِكَ ولا يعاقبُ مِثْلُكَ وأجازَهُ وفضلَّهُ على أصحابِهِ فَلمّا قَدِمَ على عَبْدِ الملكِ قالَ :كيفَ رأيتَ رأيي في الحجاج يا كثيرُ ألم تجدْهُ مُصيباً، لا يأخذُ في أمرِهِ بالعجلةِ حتَّى يرى من عدوِّه الغرةَ .قالَ بلى يا أميرَ المؤمنينَ ما أحسنَ لفظَهُ، وأدومَ لحظَهُ وأسكَنَ فورَهُ وأبعدَ غورَهُ .واللهِ لو لَمْ يسهلْ من أمرِهِ ما توعرَ لطحنَني طَحْنَ المروةِ الململمةِ ()، متساقطَ حبِّ الجمجم .()

وكانَ الشعبيُّ مِمّنْ خَرَجَ ومع ابنِ الأشعثِ ()، فلَمّا قَدِمَ على الحجّاجِ بعد قتلِ ابنِ الأشعثِ، قالَ :وأنتَ أيضاً مِمنْ خرجَ علينَا يا شعبيُّ قالَ :أحزنَ المنـزلُ، وأجدبَ الجنابُ، واكتحلنا السَّهرَ، واستحلّسنا الخوفَ، ووقعنَا في حربِهِ لَمْ نكنْ فيها

بررةٌ أتقياءُ، ولا فجرةً أقوياءَ .قالَ صدَقَ واللهِ ما بروًّا بخروجِهم علينا، ولا قوًّوا إذْ برزوا إلينَا، أطلقا عنه.

ودخلَ عليهِ ابن أبي ليلَى ()وقالَ :أصلحَ اللهُ الأميرَ، مشهور النصيحةِ صحيحَ الأديمِ، شاكرَ اللسانِ خرجَ أبي مع ابنِ الأشعَثِ فهدَمَ مَنـزلي وَحلَّقَ على اسمي () وَحُرِمتُ عَطائي، فقالَ :أو ما سمعتَ الشاعرَ حيثُ يقولُ:

جانيكَ مَنْ يَجْني عَلَيْكَ وَقَدْ تُعْدِي الصِّحَاحَ مبَارِكُ الجُرْبِ

ولَرُبَّ مأخوذٍ بِذَنْبِ قريبه ونَجا المُقارِفُ صاحِبُ الذَّنْبِ

قالَ :لا ولكنِّي سمعتُ الله يقولُ :غيرَ هذا في إخوةِ يوسفَ ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** .()﴾

فقالَ :يا غُلام علي بيزيدِ بنِ أبي مُسَلِم ()فأتاهُ فقالَ :ابنِ لَه دارَهُ واردِدْ اسمَه واعطِه عطاءه.

وقالَ عبدُ الملكِ بنَ مروانَ لأسماءَ بنِ خارجةَ :()بَلَغني عَنْكَ خِصالٌ فحدثني بهَا قالَ :هِي مِنْ غيري أحسنُ مِنْهَا مِني فقالَ :عزمتُ عليكَ ألا حدثتني فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ ما مددتُ رجلي بينَ يدي جليس لي قطُّ ولا صنعتُ طعاماً فدعوتُ عليه قوماً إلا كانوا أمَنَ عليّ مِنْهُمُ ولا نَصَبُ لي رَجُلَ وَجْهَهُ يسألني حاجةً فاستكثرتُ شيئاً أعطيتُه إياه.

ولَما وُليَّ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ ()بنُ مروانَ الخلافةَ عَدَلَ في الرعيةِ، وأحسنَ السيرةَ، وأعطَى المحرومينَ، وقالَ :لا تسألوا الناسَ شيئاً .وأعطى كُلَّ مُقعَدٍ خادِماً وَكلَّ ضريرٍ قائداً .وكانَ يَمرُّ بالبقَّالِ فيقفُ عليهِ فيأخذُ حزمةَ البقلِ، فيقولُ :بكمْ هذِه، فيقولُ :بفلسٍ فيقولُ :زِدْ عليها.

ورويَ عن الزهريّ ()أنَّهُ قالَ :دخلتُ على عبدِ الملكِ مسجدَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّم بالمدينةِ، عامَ حَجَّ، فتفرَّقَ النَّاسُ منَ المسجدِ، وبقيَ سعيدُ بنُ المسيبِ ()قاعداً في مجلِسِه، فلم يتحركْ عَنْهُ فجعلتُ أطوفُ بالوليدِ، في نواحِي بعيداً عن مجلِسِ سعيدٍ واشغِلُهُ بالحديثِ، مخافةَ أنْ يَرى مكانَهُ، فحانتْ مِنْهُ التفاتةٌ فرآهُ .فقالَ لي :يا محمدُّ مَنْ هذا الشيخُ، قلتُ :سعيدَ بنَ المسيبِ، وَقَدْ كَفَّ بصرُهُ، ولا عِلْمَ لَهُ بمكانِ أميرِ المؤمنينَ، ولَوْ عَلِمَ لكانَ قَدْ أدَّى الواجبَ عليهِ، من الحقِّ فقالَ : بلْ نحنُ أحقُّ بالمصيرِ إليهِ، والزيارةِ لَهُ .فجاءهُ الوليدُ فَسَلَّمَ عليهِ وجلَسَ عِنْدَهُ، وَسَأَلَهُ عَنْ حالِهِ .فوالله ما قَامَ لَهُ سعيدُ، ولا تزحزحَ عَنْ مكانِهِ فلما انصرفَ الوليدُ

قالَ لي :يا محمدُ هذا مِنْ بقِّيةِ الناسِ.

وَرَوَى الشافعيُّ ()رَحِمهُ اللهُ، عَنْ عمِّهِ محمَّدٍ بن عليٍّ بْنِ شافِعٍ قال :دخلَ سليمانُ ()بنُ يسارٍ، عَلَى الوليدِ بن عبدِ الملكِ، فقالَ لَهُ :يا سليمانُ مَنْ الذي تولّى كِبَرَهُ ()، فقالَ :عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سلول ()، فقالَ :كذبتَ لا أمّ لَكَ هو عليٌّ بنُ أبي طالبٍ، قالَ :أنتَ أعلَمُ وما تقول؟ قالَ :فَمّا حديثُ حدّثنا بِهِ أهلُ الشامِ أين اللهَ عزَّ وجلَّ إذا استرعَى عبداً رعيةً، كَتَبَ لَهُ الحسناتِ ولم يكتبْ عليهِ السيئاتِ، قالَ :لا أدري، ثُمَّ دَخَلَ مُحَمَّدُ بنُ شِهاب الزُّهري فقالَ له الوليدُ :يا محمدُّ مَنِ الذي تَولّى كِبَرَهُ، فقالَ :عبدُ اللهِ بِنُ أُبيِّ بنُ سَلولٍ، فقال :كَذبتَ لا أُمَّ لَكَ، هو علي بنُ أبي طالبٍ كرمَ الله وَجهَهُ فقالَ :واللهِ لو كانَ الكذبُ مكتوباً بَينَ الدَّفتينِ بأنَّ اللهَ تعالى قَدْ أباحَة لي أو نادَ منادٍ مِنَ السَّماءِ، أنَّ الله قَدْ أباحَ الكذبَ ما رآني أتحلَّى بِهِ.

حدثني عددٌ مِنَ الرجالِ، مِنْهُم سعيدُ بنُ المسيّبِ، وعلقمةُ بْنُ وَقاصٍ ()وعروةُ بنُ الزبيرِ ()وَأبو سَلَمَة بنُ عبدِ الرحمن ()وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنُ عتبة بنُ مسعودٍ ()عن عائشة رَضيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ الذي تولّى كِبَرُه عبدُ اللهِ بنُ أبي بنُ سَلِول، قال: صدقتَ .إنَّما أردتُ أنْ أعلَمَ، هَلْ أحدٌ ينكر باطِلاً ثمَّ قالَ :يا محمدُ، ما حديثٌ حَدَّثنا بِهِ أهلُ الشَّامِ، قالَ :وما الحديث، قالَ :حدَّثونَا أن اللهَ إذا استَرعى عبداً رَعيَّةً كتبَ لَهُ الحسناتِ ولمْ يكتبْ عليهِ السّيئاتِ، قالَ :كذبتَ والله يا أميرَ المؤمنينَ .قالَ :وكيفَ ذلكَ، قالَ :آتيكَ بحديث من كتابِ اللهِ الَّذي لا يأتيهِ الباطِلُ مِنْ بينَ يديهِ ولاَ مِنْ خلفِهِ، قالَ اللهُ عَز وجل ﴿ **:يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ.** ()﴾

فهذا وعِيدُ اللهِ لنبيٍّ هُوَ خليفةٌ، فيكفَ وعيدُهُ لخليفةٍ غَيرَ نَبيٍّ، قالَ :صدقتَ، ثُمَّ نـزلَ عَنْ سريرِهِ ووضعَ خَدَّهُ في التُّرابِ، وقالَ :يغروننا عن دينِنَا، ثُمَّ أغرَى جلساءَهُ بابنِ شهابٍ فقالَ :عَنْ مثلِ هذا يُؤخَذُ الدينُ.

ولمَّا وُلّيَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ ()أطلَقَ المحبسينَ، وأحْسنَ إلى الناسِ وسموهُ مفتاحَ الخيرِ .وفي أيامِهِ فُتِحَتْ القسطنطينيةُ، ولَوْ لَمْ يكنْ لهُ حسنة إلا استخلافَ عُمرَ بن عبدِ العزيزِ بعدَهُ لكانَ كافياً.

وَرويَ أن أعرابيّاً وَقَفَ بينَ يَديّ سليمانَ، فقالَ :إنِّي مُكلِّمُكَ يا أميرَ المؤمنين بكلامٍ فاحتملْهُ، وإنْ كرهتُهُ فَإنَّ وراءَهُ ما تُحِبُّ إنْ قبلتَهُ .قالَ :هاتِ، قال :إنِّي سأطلقُ لِساني، بمَا خرستْ عنهُ الألسنُ مِنْ عِظَتِكَ، تأديةً بحقِّ اللهِ تعالى وحق

إمامتِكَ، إنّهُ قَدْ اكتنفكَ رجالٌ، أساءُوا الاختيارَ لأنفسِهم، فابتاعُوا دنياهم بدينِهم، وَرِضَاكَ بِسخطِ اللهِ، خافوكَ في الله، وَلَمْ يخافُوا اللهَ فيكَ، فهم حَرْبٌ للآخرةِ، سِلْمٌ الدَّنيا، فَلا تأمنْهُم على ما ائتمنكَ اللهُ عليهِ، فإنَّهُمْ لم يألُوا الأمانة تضييعاً، والأمة خسْفاً، وأنتَ مسؤولٌ عَمَّا اجترَحوا، وليُسوا مسؤولين عما اجترحتَ، فَلا تُصلِحْ دُنياهم بفسادِ آخرتِكَ فإنَّ أعظمَ الناسِ غُبناً، مَنْ باعَ آخرتَهُ بِدُنيا غيرِهِ .فقالَ :أمَّا أنتَ يا أعرابي فقد سللت لسانَكَ وَهُوَ أقطعُ مِنْ سيفِكَ، قال :أجَلْ يا أميرَ المؤمنينَ لكَ لا عليكَ.

وَرُوِيَ أنَّ سعيدَ بنَ خالدٍ ()، دَخَل على سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ وكانَ سَعيدُ جواداً، فإذا لَمْ يجدْ شيئاً كَتَبَ لِمَنْ يسألُه الصِّكاكَ على نفسهِ حَتَّى يخرجَ عطاؤُه فَلَمَّا نَظَرَ إليهِ سليمانُ تَمَثَّلَ بِهذا البيتِ:

يَا مَنْ يُعينُ على الفتى المِعوانُ　　　　إني سمعت مَعَ الصَّباحِ منادياً

ثم قالَ :حاجتك، قالَ :دَيْنِي، قالَ :فَكَمْ هُوَ؟ قالَ :ثلاثونَ ألفِ دينارٍ، قالَ :لكَ دَيْنُكَ وَمِثْلُهُ.

وَرَوَى رجاءُ بنُ حيوةَ ()أن سُليمانَ بَنَ عَبدِ المِلِكِ، لَمَّا كَتَبَ العهْدَ لِعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ()وَمَنْ بَعْدَهُ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ ()وخَتَمَهُ وَدَفَعَهُ إليهِ، قالَ :اخرجْ إلى النَّاسِ، فمرهُمْ بالمبايعَةِ على ما فيهِ مختوماً، فَلَمَّا دَعاهُم رجاءُ إلى ذلكَ، وأخبَرَهُم بقول سليمانَ امتَنَعُوا، وقالوا :لا نبايعُ حتَّى نعلمَ مَنْ فِيهِ، فَرَجَعَ إلى سليمانَ فأخبَرَهُ، فقالَ سليمانُ :انطلقْ بأصحابِ الحرسِ ونادِ الصَّلاةَ جامعةً، فإذا اجتمعَ النَّاسُ، فمرْهُمْ بالبيعةِ على ما في الكتابِ فمَنْ أبَى فاضْرِبْ عُنقَه، ففعلتُ ذلكَ فبايعوا على ما فيهِ . قالَ رجاءُ :فلما خرجوا خرجتُ إلى منزلي، فبينَما أنا في الطَّريقِ إذْ سمعتُ جَلَبةَ موكبٍ فالتفتّ فإذا هشامُ بن عَبدِ الملكِ، فقالَ :يا رَجاءُ قد علمتَ موقعَك مِنَّا وأرَى أمير المؤمنينَ قَدْ صَنَعَ شيئاً، ما أدري ما هُوَ، وأنا أتخوَّفُ أن يكونَ قَدْ أزالَها عَنِّي، فإنْ يكن أزالَها عَني فاخبرْني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، حتَّى أنظرَ في هذا الأمرِ، قبلَ أنْ يموتَ سليمانُ .فقلتُ :سبحانَ اللهِ، يَسْتكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلَعَكَ عليهِ، لا يكونُ ذلكَ أبداً، فداراني فأبيتُ فانصرفتُ، فبينَما أنا أسيرُ سمعتُ جلبه خلفي، فالتفت فإذا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، فقالَ :يا رجاءُ إنَّه قد وَقَع في نفسِي، أمرٌ كبير مِنْ هذا الرَّجُلِ، أتخوَّفُ أن يكونَ قَدْ جَعَلَها إليَّ ولستُ أقومُ بِهذا الشَّأنِ، فأعلمني ما دامَ في الأمرِ نَفَسٌ، لَعلَّي أتخلَّصُ ما دامَ حَيّاً .فقلتُ :سبحانَ اللهِ العظيمِ، يستكتِمُني أميرُ المؤمنينَ أمراً أطلَعَكَ عَليهِ، فداراني فأبيتُ، قالَ رجاءُ :فلمَّا ماتَ سليمانُ أجلسْتُهُ

وهيأتُهُ، وخرجتُ إلى النَّاسِ فقالوا :كيفَ أميرُ المؤمنينَ، فقلتُ :قد أصبحَ ساكِتاً، وَقَدْ أَحَبَّ أنْ تُسلِّموا عليهِ وتبايعُوا على ما في الكتابِ بينَ يديهِ، فدخلوا عليهِ، وأَنَا قائمٌ عندَهُ، فلما دنَوا قلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركم بالوقوفِ، ثُمَّ تقدَّمت إليهم بالكتاب، فقلتُ :أميرُ المؤمنينَ يأمُركم أنْ تبايعُوا على ما في هذا الكتابِ بمرأىَ مِنْهُ ومسمعٍ فبايعُوا أجمعينَ.

فلمَّا فَرغوا عِنْ مبايَعتِهِم، قالَ لَهُم :أجركُم اللهُ في أميرِ المؤمنينَ .قالُوا :فَمَنْ ففتحوا الكتابَ فإذا فيه العهدُ لِعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فلما قرأوا عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ تغيرتْ وجوهُهم فلما قرأوا منْ بعدِهِ يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ تراجعوا، فقالوا :أينَ عمرُ بن عبدِ العزيز فطلبُوه فلمْ يجدوهُ في القومِ، فَنَظرُوا فإذا هُوَ في مُؤخّرِ المسجدِ، فأتوهُ فسلَّموا عليه بالخلافةِ، فَعَقَرَ فلمْ يستطعِ النُّهوضَ حتى أخذُوا بضبعيهِ فساروا إلى المنبَرِ فلمْ يقدرْ أنْ يَرقى حتى أصعدوهُ، فجلسَ طويلاً لا يتكلَّمْ .فلما رآهُم رجاءُ جلوساً قالَ :ألا تقومونَ فتبايعونَ لأميرِ المؤمنينَ فنهضَ القومُ إليه فبايعوهُ رَجُلاً رجلاً قالَ :فَما مَدَّ يَدَهُ إليهم .فَلمّا صَعَد هِشامُ مَدَّ يَدَهُ إليهِ .وقالَ هشامُ :إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ، فقالَ عُمَرْ :نَعَمْ إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ حين صارَ يلي هذا الأمرَ أنا وأنتَ ثُمّ قامَ فَخَطَبَ فحمدَ اللهَ وأثنَى عليهَ وقال" :أيُّها النَّاسُ إنِّي لستُ بقاضٍ ولكنَّي مُنَفذٌ، ولستُ بمبتدعٍ ولكني متبعٌ وإنَّ حولَكُم كثيراً مِنَ الأمصارِ والمدنِ، فإنْ هُم أطاعُوا كما أطعتُم فأنا وليُّكم وإنْ هُمْ امتنعُوا فلستُ عليكُم بوالي"، ثُمَّ نـزل يَمشي فأتاهُ صاحبُ المراكبِ، قالَ :ما هذا قالَ :مراكبُ الخليفةِ، قال لا :حاجةَ لي بهذا فَأتوني بدابّتي فأتوا بدابتِهِ، فركِبَهَا ثُمَّ خرجَ وخَرَجُوا مَعَهُ، فقالوا :نسيِّرُها هُنا قال :إلى أينَ؟ فقالوا :إلى البيتِ الذي يُهيّأ للخليفة، فقال :لا حاجةَ لي فيهِ، انطلقُوا بي إلى منـزلي، فأتى منـزلَهُ فنـزلَ عَنْ دابتِهِ، ثُمَّ دَعا بدواةٍ وقِرطاس وجَعَل يكتُبُ بيدِهِ إلى العُمَّالِ والأمصارِ ويملي على نَفْسِهِ .وقيلَ :أنه كان رُبَّما اشتريْتُ لَهُ الحِلة بألفيْ دِرْهَمٍ قبل الخلافةِ فيقولُ :أمَا وجدتُم ألينَ مِنْ هَذه فلمّا وُليَ الخلافةَ كانَ يشتري لَهُ الحلّةَ بأربعةِ دَرَاهِمَ فيقولُ :أما وجدتُم أغلظَ منها، فقيل لهُ :في ذلك فقالَ :إنَّ لي نفساً توّاقةً لا تصلُ إلى منـزلةٍ إلا تاقت إلى ما هُوَ أعلى مِنْهَا، فلَمّا نالتِ الخلافةَ تاقتْ إلى ما هُوَ أعلى مِنْهَا فلم تجدْ في الدُّنيا ما هو أرفعُ مِنَ الخلافة فتاقتْ إلى الآخرة وإلى ما أعدَّ الله فيها.

وقيلَ :إنَّ ثيابَهُ قُوّمَتْ عَلَيْهِ يومَ الجمعةِ، وهُوَ يخطبُ باثني عشرَ دِرْهَم وكانْت قميصاً وسراويلَ وعِمامةً ورداءً .ملأ الأرض عَدْلاً ورَفَعَ السَّبَّ عن أميرِ المؤمنينِ

عليِّ بنِ أبي طالب كَرمَ الله وجهَهُ على المنابِرِ وَأَمَرَ الخطباءَ أن يقولوا في آخِرِ الخطبةِ، في الموضِعِ الذي كانوا يذكرونَ اللّعْنَ فيهِ ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾() .ولَما حضرتْهُ الوفاةُ دَعَا بنيه وكانوا أحدَ عشر رجلاً، ولمْ يُخَلِّفْ غيرَ بِضعِ عَشَرَ دينار، فأمرَ أنْ يُكَفَّنَ وَيُشتَرى لَهُ موضعُ يُدْفَنُ فيه بخمسةِ دنانير وَيُقصدُ المالُ على وارثيهِ فأصابَ كلُّ ابن مِنْهم نِصفَ دينارِ وربع دينار وقالَ :يا بنيَّ ليسَ لي مالٌ فأوصي فيهِ ولكنَّي قَدْ تركتُكُمْ وما لأحدٍ عِنْدَكُمْ تَبِعَةٌ ولا يقعُ على أحَدٍ مِنكم عينُ أحَدٍ إلا ويرى لَكُم عليهِ حقاً .فقالَ له مُسلِمةُ بنُ عبدِ الملكِ :()أوْ خيرٌ مِنْ ذَلِكَ يا أميرَ المؤمنينَ قال :ومَا هُوَ قال هذهِ ثلاثُ مائةِ ألفِ دينار، فرقها فيهم وإن شئتَ فتصدَّقْ بها، وأوصِ فيها بما شئتَ، فقالَ أوْ خيرٌ من ذلكَ يا مسلمةُ تردُّها إلى مَنْ أخذتها مِنْهُ، فإنَّها ليستْ لَكَ بحقٍّ .ثم قالَ :إن وَلَدي أحدُ رجلين، فإمَّا صالحٌ فاللهُ يتولى الصالحين، وإمَّا فاسقٌ فلا أحِبُّ أن أتركَ لَهُ ما يستعينُ بِهِ على معصيةِ اللهِ فقال مسلمةُ :يرحمُكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنينَ حيّاً وميِّتاً، فقدْ ألنتَ لنا قلوباً قاسيةً وذكّرْتَها وكانت ناسيةً وأبقيتَ لنا في الصالحاتِ ذكراً، فيقالُ :إنه ما رُؤيَ أحدٌ مِنْ أولادِ عُمَرَ بنِ عبد العزيزِ إلا وهو غنيٌ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهُم وقد جَهَّزَ مِنْ خالِص مالِهِ، مائةَ فارس على مائةِ فَرسٍ في سبيلِ اللهِ تعالى .ولمّا حضرتْ هِشَامُ بنُ عبدِ الملكِ () الوفاةُ، خَلَّفَ أحَدَ عشر ابناً، كما خَلَّف عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزَ، وأوصى فأصابَ كُلُّ ابنِ ألفَ ألفِ دينارٍ .فيقالُ :إنَّه ما رُؤيَ أحَدٌ مِنْهُم إلاّ وهُوَ فَقيرٌ ولَقَدْ شُوهِدَ أحدُهم وهو يوقدُ في الأتونِ .ووجدتُ في كتابِ تفاوتِ التواريخ أنَّ هِشَامَ ابن عبد الملكِ، كانَ يأكلُ من بيتِ المالِ كلَّ سَنَةٍ مائتي دِرْهَم وأنّهُ كانَ ديوانُهُ من بيتِ المالِ، كديوانِ بعضِ الجُنْدِ .وحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قالَ :أرسلَني هشامُ إلى خرسانَ وكانَ عليهِ إذْ ذاك، قِباءُ أخضرُ، فلمّا رَجعتُ مِنْ خرسانَ رأيتُهُ عليه، قال تنظرُ إلى هذا القباءِ، واللهِ كانَ عليّ قبلَ الخلافةِ ومالي غيرُهُ .وَفقدَ بعضُ أولادِهِ في الجمعةِ فسأَلَهُ عن تأخّرِهِ فقالَ :نفقتْ دابتي، يَعني ماتتْ، فقال: أعجزْتَ عَنِ المَشْيِ، ثُمّ تسقُطُ عنكَ الجُمعةُ فمنعَهُ الركوبَ سنةً .ورَوِيَ أنَّ عُروهْ بنَ أذينَة ()أتَى مَعَ جَماعةٍ من الشُّعراء إلى هشامِ بنِ عبدِ الملكِ فانتسبَهم فانتسبُوا فلما انتسبَ له عِروةُ قالَ ألست القائلُ:

لقد علمت وما الإسرافُ من خُلُقي أن الذي هُوَ رزقي سَوْفَ يأتيني
أسعى إليه فَيُعْييني تطلُّبه ولو أقمتُ أتاني لا يُعيّني

فقالَ :نعمْ أنا قائلُها، قالَ :أفلا قعدتَ حتى يأتيكَ رزقُكَ، وغفل عَنْهُ هِشامُ فخرَجَ مِنْ وقتِهِ وَركِبَ راحلَتَهُ ومَضى منصرِفاً .فتفقَّدهُ هشامُ فَعرف خبرَهُ فاتبعَهُ بجائزتِهِ وقالَ لِلرسول: قلْ لَهُ أردتَ أنْ تكذِّبَنا وتُصدّقَ نفسَكَ، فمضى الرسول فَلَحِقَهُ، وقدْ نـزلَ على ماءٍ يَتَغَدَّى عليهِ فأبلَغَهُ رسالَتَهُ ودَفَعَ إليهِ الجائزةَ، فقالَ :قُلْ لَـهُ قد صَـدَقَنِي ربي وكذَّبَكَ.

وَوَفدَ على هشام وفدٌ أهلِ الحجازِ فتكلّموا رَجُلاً رجُلاً حتى قامَ محمّدُ بنُ أبي الجهمِ بنِ حذيفةَ العَدَويّ () وكانَ أعظم القومِ قَدْراً وأكبرَهُمْ سناً، فقالَ :أصلحَ الله الأميرَ إنَّ خُطباَء قريش، قَدْ قالتْ فيكَ فأقلَّتْ وأكثَرَتْ وأطنبتْ، وواللهِ ما بلغَ قائلُهُم قَدْرَكَ، ولا أحصَى مُطْنِبُهم فضلَكَ، فإنْ أذِنْتَ في القوْلِ قلتُ قالَ :قُلْ وأوجِزْ قالَ : تولاكَ الله بالحُسنى وزَيَّنَكَ بالتقوى وجَمَعَ لَكَ خَيْرَ الآخرَةِ والأولى .إنَّ لي حوائجَ فأذكُرُها قالَ :هاتِها :قالَ كبُرَ سني ودَقَّ عَظْمي ومالَ الدَّهرُ مِني فإنْ رَأى أميرُ المؤمنينَ أنْ يُجْبَرَ كَسْرِي ويُنْفَى فقْري فَعَلَ قال: وما الذي يَنفي فقرَكَ، ويجبرَ كسركَ، قالَ :ألفُ دينارٍ وألف دينارٍ وألفُ دينارٍ فأطرقَ هِشامُ قليلا، ثُمّ قالَ :هيهاتَ هيهات يا ابن أبي الجهْمِ بيتُ المالِ لا يحتَمِلُ ما سألتَ، ثُمّ قالَ :هيه وما هِيه أما والله إن أميرَ المؤمنينَ لواجِدٌ، ولكن اللهَ آثركَ لمجلسِكَ، فإنْ تُعطِنَا فحقّنا أدّيْتَ، وإنْ تمنَعَنا فنسألَ الذي بيدِهِ ما حَوَيْتَ يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ اللهَ جعلَ العطاءَ محبة والمنعَ مبغَضَةً والله لَئِنْ تُعْطِني فأحبك أحبُّ إليّ مِنْ أنْ تحرِمَني فأبغضُكَ قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أقضِي بها دَيْناً عليَّ حَمَّ قضاؤه وآذاني حَمْلُهُ وأضر بي أهلُهُ، قالَ :فلا بأسَ بتنفيسِ كُربةٍ وتأيدةِ أمانةٍ، وألفُ دينارٍ لماذا قالَ :أزوّجُ بها مَنْ بَلَغَ مِنْ أولادي، قالَ نَعَمْ المسلكُ سلكتَ، غضضتَ بصراً، وأعففتَ فرَجاً، ورجوتَ نسْلاً . قالَ :فألفُ دينارٍ لماذا قالَ أشتَري بِها أرضاً يعيشُ بها وَلَدي، وأستعينُ بفضلِهَا على نوائِبِ دَهري، وتكونُ دُخراً لِمن بَعْدي .قالَ :فَإنَّا قَدْ أمَرنا لَكَ بِما سألت فقالَ :الحمدُ لله على ذلكَ فأتبعَهُ هِشامُ بصرَهُ وقالَ :إذا كان القرشيُّ، فليكُن مِثْلَ هذا، ما رأيتُ رَجُلا أوجزَ في مقالٍ مِنْهُ ثمّ قالَ :أما والله إنَّا لَنعرفُ الحقَّ إذا نـزلَ ونَكرهُ الإسرافَ والبخلَ، فلا نُعْطي تبذيراً، ولا نمنع تقتيراً، وما نَحْنَ إلا خُزانُ اللهِ في بلادِهِ، وأمناؤُهُ على عِبادِهِ، فإن أَذِنَ أعطينا، وإنْ مَنَعَ أبينا، فلو كانَ كُلَّ قائِلٍ يُصَدَّقُ وكلُّ سائِلٍ يستَّحِقُّ ما حَرَمْنَا سَائِلاً ولا جبهنا قائلاً .فنسألَ مَنْ بِيدِهِ ما استخفضنَاه أنْ يجريه على أَيْدينا فإنَّهُ يفتحُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاء ويقدِرُ إنَّهُ بعبادِهِ خبيراً بصيراً .فقالوا : يا أميرَ المؤمنينَ لَقَدْ تكلّمتَ فأبلغتَ، وما بَلَغَ في كلامِهِ ما قصصتَ فقالَ :إنَّه مبتدئٌ

وليسَ المقتدِي كالمبتدي .وخَطَبَ خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القسريِّ ()وَقَدْ أُرْجِفَ بموتِ هِشام بنِ عبدِ الملكِ فقالَ: ما هذهِ الجماعةُ التي قد أَلِفها الطيْشُ واستخفَّها الجهلُ وأقبلتْ دبرَ الوجوهِ قد أَشْخَصَ لها الرجيمُ نصباً فأوقصتْ إليهِ وأناخَ قعودَ الضلالةِ فاحتملتْ عليهِ أوْ كُلّما خَطَرَتْ للشياطينِ بينَ أظهرِكُمْ خطوةً أو كَادَ كم ينكر، أو بَعَثَ فيكُمْ مُنكراً، أقبلتُم قمصاً ()، وسعيتُم حرصاً .فتُعْساً ونُكْساً قلتُم ماتَ هِشامُ، أفبدعٌ الموت أو مستنكَرٌ أو مبرأٌ مِنْهُ أَحَدٌ قَدْ ماتَ الذي خلقَهُ اللهُ ونفخَ فيهِ مِن رُوحِه وأسجَدَ له ملائكَتَهُ أخرُجوا يا فراشَ النَّارِ وبَقِيَّةَ الأشرار.

وخَطبَ مَرَّةً فارتجَّ عليهِ ()فقالَ :أيُّها الناسُ إن القولَ يجيئُ أحياناً، ويعزُبُ أحياناً، فيتيسرُ عندَ مجيئِهِ سببُهُ، ويعزُّ عِنْدَ ذهابِهِ طَلَبُهُ، وربَّما طلبَ فأَبَى وكُوبِرَ فعَصى، فالتأنِّي لمجيئهِ أيْسَر مِنَ التَّعاطي لأبِيَّهِ وقَدْ يختَلِجُ مِن الجريءِ جَنانُهُ، ويرتجُّ على البليغِ لسانُهُ فَلاَ يغيُرُهُ المنطقُ إذا امتنَعَ كما لا يبطُرُهُ القولُ إذا اتَّسَعَ.

ودخلت امرأة مِنْ بَنِي كِلاب، على خالدِ القِسْرِيِّ، وهُوَ في مَجْلِسِهِ فَسَلَّمْتَ عليهِ وأنشدَتْهُ شِعْراً .فقالَ لها خالدُ :ما حاجتكَ، قالتْ :عندِي للأميرِ نصيحةٌ .قالَ : وَمَا هِيَ قالت :أكَبَّ على دَهْرُ بجرانهِ ()، وعضنّنا بنابِهِ، فما تركَ لنا سَبْداً، ولا لُبَداً ()ولا ماهياً()، ولا صافياً()، فما بنا خفضٌ ولا نَبضٌ فكنتَ أنتَ المنتجعُ ()وإليكَ المفزَعُ .فنصيحتي أصلحَ اللهُ الأميرَ، أنْ تأمرَ لي بخادِمٍ، وما يُصْلِحني وإياهُ فواللهِ لقد عُودتُ الرّخاءَ، وما قاسيتُ الشَّقاءَ .قالَ خالدٌ :هذه نصيحةٌ لكِ دونَنَا قالتْ أيُّها الأميرُ ليستْ لي دونَكَ، لَكَ أجرُها وذِخْرُها، وحمدُها وشكرُها، ولي منفعتُها معَ أنَّ الأجوادَ لوْ لَمْ يَجِدوا، مَنْ يقْبلُ العطاءَ ما ذُكروا بالسَّخاءِ قال صدقت فَهَلْ لَكِ مِنْ زوجٍ، قالتْ :واللهِ ماليَ زوجٌ، ولا وجدتُ كُفئاً ولا أتزوّجُ دَنِيّاً، وإنْ كانَ مُتْرَفاً غنيّاً، ولئنْ كنتُ فقدتُ نسباً، ما فقدتُ حسباً، وما كنتُ أشتري عاراً يبقى، بمالٍ يفنى . أعوذُ بجلالِ اللهِ مِنْ ذَلِكَ، وماليَ أبقَ اللهُ الأميرَ بزوجٍ مِنْ أربٍ .فأمرَ لَها بخادمٍ، وما يصلُحُها، وأمَر صاحبَ نفقاتِهِ أن يُجري لهما ما وَسِعَهُما.

وَرُوِيَ عَنِ الوليدِ بنِ يزيدَ ()مَعَ ما كانَ فيهِ مِنَ الخلاعَةِ واللعب، والتهاونِ بالدّينِ أنه لما وُلّى أجرَى على الزّمنَى والعميانِ، وكساهُمْ وأعطى كلَّ واحدٍ مِنهُم خادماً، وزادَ النَّاسَ، على ما كانَ يُعطيهم هشامُ، ولَمْ يسألْ سائِلاً قطُّ، إلا قالَ :نَعَمْ وأعطاهُ .وكانَ أديباً شاعراً، فَمِنْ أحسنِ قولِهِ :ما)حدَّثني (اسحاقُ الموصليُّ ()قالَ : دخلتُ يوماً على الرَشيدِ، وَهُوَ مستلْقٍ وَهُوَ يقولُ :أحسنَ واللهِ أظرفُ قريشٍ، وأفتاها)وأسْخاها(، وأشعرُها وأغزلُها .فقلتُ :مَنْ هُوَ يا أميرَ المؤمنينَ وفي أيِّ شيءٍ،

فقالَ :أمَّا بَعْدُ ما سمعتَ مني في وَصفِهِ فلا أُسمِّيهِ ولكنْ أذكرُ الشعرَ فإنْ كنتَ تعرفُهُ فاكتمْ عنِّي ما سمعتَ مِني وهو الذي يقولُ:

نامت وإن أسهرت عَيْنيَّ عَيْناها لا أسألُ اللهَ تغييراً لِما صنعتْ

والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها فالليلُ أطولُ شيءٍ حين أفقدُها

أتعرِفُه قلتُ :لا بصوتٍ ضعيفٍ، قال :بحياتي، فقلتُ :بَلى وحياتِكَ هُوَ الوليدُ بنُ يزيدَ، فضحكَ وقالَ :ما قلتُ في وصفِهِ إلا دونَ ما يستحِقّ وَلكنَّ المُلكَ عقيمٌ.

وكتبَ إلى هشامِ بنِ عبدِ الملكِ برسالةٍ وفي آخرها شِعْرٌ:

ولو كنتَ ذا حزم لهدمتَ ما تبني رأيتُكَ تبني دائماً في قطيعَتي

فويلٌ لهُم إنْ مِتُّ منْ شَرِّ ما تَجْني تثير عليَّ الباقينَ مني ضغينةً

كأنِّي بهِمْ واللَّيْتَ أكثر قولهمْ ألا ليتنا كنـا إذا ليت لا تُغْني ()

وقالَ أيضاً وَقَدْ رَجَعَ إليهِ جوابُ هشامٍ بما يكرهُهُ:

حياضَكَ يوماً صادراً بالنَّوافِلِ أليسَ عجيباً أن أرى كلَّ واردٍ

بتخلِّيه عَنْ وردِ تلكَ المناهلِ () وأرجع مجذوذَ الرَّجاءِ مُصَرّداً

وقال أيضاً فيه:

إلى المَقاريف ما لَمْ يَخْبُرِ الدَّخَلا أنَا النَّذِيرُ لمُسْدِي نِعْمَة أبَداً

وإنْ أهَنْتَهُمْ ألْفيْتَهُمْ ذُلُلا إنْ أنْتَ أكْرَمْتَهُمْ ألْفيْتَهُمْ بُطُراَ

ستَعْلَمُونَ إذا كانَتْ لنا دُوَلا أتَشمُخونَ ومِنّا رأسُ نِعْمَتِكُمْ

سِوَى الكلْبِ فاضرُبْهُ لهم مَثَلا انْظُرْ فإنْ أنت لم تقدر على مَثَل لهم

حَتَّى إذا ما قوي من بعدما هزلا بَيْنما يُسَمِنُهُ للصَّيْد صاحبُهُ

ولَـوْ يطيق له أكْلاً لَقَدْ أكلا () عدا عليـه فَلمْ تَضْرُرْهُ عَدْوَتُهُ

وذلكَ أن يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ، كَان قدْ أخذَ البيعةَ لأخيهِ هشام، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لابنهِ الوليدِ .ولَمّا قتل يزيدُ بنُ الوليدِ بنُ عبدِ الملكِ ()، الوليدَ بنَ يزيدٍ وَوُلي الخِلافةَ خَطَبَ فَحَمَدَ اللهَ وأثنَى عليهِ :أيُّها الناسُ واللهِ ما خرجتُ بَطِراً ولا أشِراً، وَلا رياءاً ولا حِرْصاً على الدُّنيا، ولا رغبةً في الملكِ .وما بي إطراءٌ لنفسي إني لظلومٌ لَها إلا ما يرحمُني اللهُ عزَّ رجلَّ .ولكني خرجتُ غَضَباً للهِ عزَّ وجلَّ ولدينِهِ، داعياً إلى اللهِ وإلى سنَّةِ نبيهِ صلَّى اللهُ علَيْهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ، لَمَّا هُدِّمتْ معالمُ الدِّينِ، وأُطْفِئَ نورُ التَّقوى، وَظَهَرَ الجبارُ العنيدُ، مُستخفاً بِكلِّ حرمةٍ وراكباً لِكلِّ بِدعةٍ، الكافرُ بيوم

الحسابِ وإنَّهُ لابنُ عمِّي في النَّسَبِ وَكُفئي في الحَسَبِ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ، استخرتُ اللهَ تعالى في أمرِهِ، وسألتُهُ أنْ لا يكَلني على نفسي، ودعوتُ إلى ذلكَ مَنْ أجابني مِنْ أهلِ وِلايتي حتَّى أراحَ الله مِنْهُ العبادَ، وطهَّرَ مِنْهُ البلادَ، بحولِهِ وقوّتهِ، لا بحولي وقوَّتي .أيُّها الناسُ إنَّ لكم عليَّ أنْ لا أضعَ لبنةً على لبنةٍ ولا حجَراً على حجرٍ ولا أكنـز مالاً ولا أُعطيه زوْجاً ولا ولداً ولا أنقُلُهُ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ أخرى حتى أَسُدَّ فقرَ تِلك البلدِ ولا أجبرُكم في ثُغورِكُم، حَتَّى أفتتنَ أهليكُم، ولا أُغلِقُ بابي دونَكم، فيأكلَ قويَّكُم ضعيفَكم، وَلا أحمِلُ على أهل جِزْيتكُم، ما أجلّيهم به عَنْ بلادِهِم، وأقطَعُ بِهِ نسلَهُم، ولكنْ أُدرِ العطاءَ في كلِّ سنةٍ، والرزق في شَهْرٍ حتى تستوي بِكم الحالُ، فيكونَ أفضلُكم كأدناكُم .فإنْ أنا وفيتُ لكُم، فعليكُم السَّمْعُ والطاعةُ، وَحُسْنُ المؤازَرةِ والمكاتفةِ، وإنْ لَمْ أفِ لَكُم، فلكُم أنْ تخلعوني إلا أنْ تستتيبوني فإنْ تبتُ، قبلتُم توبتي، وإنْ عرفتُم أحداً بالصلاحِ، يُعطيكُم مِنْ نفْسِهِ مثلَ الذي أعطيتُكُم، فأردتُم أنْ تبايعُوه، فأنا أولُّ من يبايعُهُ، ويدخلُ في طاعتِهِ أيْها الناسُ إنهُ لا طاعة لِمخلوقٍ في معصية الخالقِ أقولُ هذا واستغفرُ الله لي ولَكُم، ولجميعِ المسلمينَ انَّهُ غفورٌ رحيم((

وكتبَ إلى مروانَ بن مُحَمّدٍ ()وقدْ بلغَهُ تلكؤُهُ في بيعتِهِ .أمَّا بَعْدُ :فإنِّي أراكَ تُقَدِّمُ رِجلاً، وَتؤخِّرُ أخرى، فاعتمدْ على أيِّهما شِئْتَ، والسلامُ.

ولما تفرّقَ الأمرُ على مروانَ بنِ مُحَمّدٍ وأيقنَ بزوالِ مُلْكِهِ، وَغَلَبَةِ بني هاشم عليهِ، قالَ لِعبدِ الحميدِ بنِ يحي كاتبِهِ :إني قدْ احتجتُ، أنْ تكونَ مَعَ عدَوي عليَّ، وَتظْهِرَ لَهُم الغدرَ بي فإنَّ إعجابَهُم بأدبِكَ، وحاجتِهِم إليكَ تدعوهُم إلى حُسْنِ الظَّنِ بكَ .فإنْ استطعتَ أنْ تنفعَني في حياتي، وإلا لمْ تعجزْ عَنْ حِفظِ حُرْمتي بَعَدَ وَفاتي . فقالَ عبدُ الحميدِ :إن الذي أمرتَني بِهِ أنفعُ الأمرينِ لَكَ وأقبحُهما بي .وما عِنْدي إلا الوفاءُ، حتى يفتَح اللهُ لكَ أو أُقتلَ مَعَكَ، ثُمَّ قالَ:

فَمن لي بعذرٍ يوسعُ النَّاسَ ظاهِرُهُ ()   أسرُّ وفاءً ثُمَّ أظهرُ غـدْرةً

وقالَ مروان إذا انقضتِ المدةُ لم تنفعِ العدَّةُ

وكتبَ إلى عبدِ اللهِ بنِ عليّ ()، يوصيهِ في حرَمِهِ، فكتبَ إليهِ عبدُ اللهِ يا مابق الحقَّ لنا في دَمِكَ، وَعلَينا في حرَمكَ.

وَلَمَّا استُخلِفَ أبو العباسِ السّفاح()، وَهُوَ أولُ ملوكِ بني العباسِ .

رويَ أن أولَ خُطْبةٍ، خطَبَها السفاحُ، في بلدةٍ تُسمَّى العباسيَّةِ، فَلمَّا صارَ إلى موضعِ الشهادةِ قامَ رَجلٌ من الطالبيينَ في عُنقِهِ مُصْحَفٌ، فقالَ :أذكِّرُكَ الذي

ذكرتَهُ، إلا أنصفتني مِنْ خَصْمي، وحكمتَ بيني وبينَه، بما في هذا المُصْحَفِ، فقالَ : ومنْ خصمُكَ، قال :أبو بَكرٍ الذي منَعَ فاطمةَ فدكاً .قالَ :وأقامَ على ظُلمِكُم، قالَ : نَعمْ، قالَ :وهلْ كانَ بعدَهُ أحدٌ، قالَ :نعمْ، قالَ :مَنْ، قالَ :عُمرَ، قالَ :وأقامَ على ظلمِكُم، قالَ :نعم، قالَ :وهلْ كان بعدَهُ أحدٌ، قالَ :مَنْ، قال :عثمانُ، قالَ :وأقامَ على ظلمِكُم، قالَ :نعمْ، قالَ :وَهَلْ كانَ بعدَه أحدٌ، قالَ :نَعَمْ قالَ :مَنْ، قال :علي قال وأقام على ظلمِكُم، فأسكتُ الرّجُلُ، وجَعَلَ يتلفتُ إلِى ورائه يطلبُ تَخلّصاً .وأقبلَ السَّفاحُ على خُطبتِهِ وَصَعَدَ المنبرَ بوجهٍ كأنَّهُ مصحفَ، فلم يستطعْ الكلامَ مِنَ الحياءِ، فنهضَ عَمُّه داوود ُبنُ عليٍّ ()حتى صَعَدَ المنبَر، فقالَ المنصورُ :فقلتُ في نَفسي، هذا شيخُنا وكبيرُنا، يدْعو إلى نفسِهِ، فلا يختلفُ عليه اثنان .فانتضبتُ سيفي وغطيّتُه بثوبي، وقلتُ :إنْ فَعَلَ ناجزتُه فلما رَقى استقبلَ النّاسَ بوجههِ أبي العبّاس.

فقال :أيُّها الناسُ إن أميرَ المؤمنينَ يكرهُ أنْ يتقدَّم قولُه فعلَه، وأثرُ الفعالِ عليكُم أجدى من تشقيقِ الكلامِ، وحسبُكم بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ متلوٌ فيكم وابنَ عَمِّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّمَ خليفةٌ عليكم .فواللهِ قسماً باراً ولا أريدُ بهِ إلا اللهَ ما قامَ هذا المُقامَ، أحدٌ بَعْدَ عليّ بنِ أبي طالِب، عليه الصلاةُ والسلامُ عليه وعلى آلِهِ، أحق مِن أميرِ المؤمنين هذا فليطمأن ظانُكم، وليهمسْ هامِسُكم قالَ المنصُورَ :فَشممتُ () سيفي.

وخطبَ داوودُ بن علي فقال:

من يلق آساد الرجال يكلم ()   **شِنْشِنَةٌ أعْرِفُهَا مِنْ أخْزَمِ**

مهلاً مهلاً يا روايا ()الأرجاف، وبقايا النفاق، وأنسال الأحزاب عن الخوض فيما كفيتم، والتخطي إلى ما حذرتم، قبل أن تتلف نفوس، وتحز رؤوس .ألم تجدوا ما وعدكم ربكم حقاً، من إيراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها .لا والله بل ضب مضمر ()وحسك ()وكمد، رغما للمعاطس وبعداً للقوم الظالمين .

وصعد المنبر مرة فارتج عليه الكلام فقال أما بعد :فقد يجد المعسر ويعسر الموسر، ويثقل الحديد، ويقطع الكليل .وأن الكلام بعد الأفحام كالاشراق بعد الاظلام وقد يعزب البيان ويعقم الصواب وإنَّما اللسان بضعة من الإِنسان يفتر بفتوره إذا أكتل وينبسط بانبساط إذا ارتجل .وإنا لا ننطق أشراً، ولا نسكت حصراً، بل ننطق مرشدين، ونسكت معتبرين .فإنا أمراء القول، فمنا وشجت ()أعراقه، وإلينا تعطفت أغصانه وعلينا تهدلت ثمرته فنجنى منه ما أحلو لي وعذب، ونترك منه ما أملولح وخبث .ومن بعد مقامنا مقام، ومن بعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل الكلام .إن شاء

الله وهو أحمد مستعان.

وخطب سليمان بن علي ()بن عبد الله بن العباس فقال :إياكم أن يتكلم الرجل في ما لا يعنيه ويرعى ما لا يسترعيه .فينـزل به منا فاقرة ليست لها باقية، وإياكم إياكم .واحذروا مصارع الحائنين فإني وإياكم لا قال الأول:

فلما كفرتم شكر ما كنت أصنع بدأتكم بالخير حتى بطرتم

فإن عدتم فالسيف عندي مقنع سنعطيكم صابا ومرا وعلقما

وما بعد السوط، إلا السيف، فأبقوا على أنفسكم أو ذروا.

وخطب المنصور ()فحمد الله وأثنى عليه، فلما انتهى إلى قوله أشهد أن لا إله إلا الله .وثب رجل من أقصى المسجد قال أذكرك الله ما تذكر .فقال :سمعاً لمن فهم عن الله عز وجل وذكر به، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عصياً، وأن تأخذني العزة بالاثم .وقد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين .وأنت والله أيها القائل ما أردت بها الله ولكنك حاولت أن يقال قام، فقال :وعوقب فصبر، وأهون بقائلها لقد هممت فاهتبلتها .()ويلك إذ عفوت، وإياكم معاشر الناس وأختها .فإن الموعظة علينا نـزلت، ومن عندنا أنبئت، فردوا الأمر إلى أهله يصدروه كما أوردوه .ثم رجع إلى خطبته فأتمها.

وصعد المنبر مرة فحمد الله وأثنى عليه، ثم سكت طويلا .فقال رجل :ما لأمير المؤمنين لا يتكلم، فإنه والله ممن يهون عليه صعب الكلام، فأكمل خطبته ثم قال:

ولو شتمتُ بني سَعْدٍ لقد سكنوا مالي أُكَفْكِفُ عن سَعْدٍ وَيشْتِمُني

لبئست الخُلّتانِ الجَهْلُ والجُبُنُ () جهلا علينا وجبنا عن عدوكم

ثم حسر رأسه وقال:

لأكْشِفَـنْهُ إلا لاحْدَى العَظَائم وألقيت عن رَأسِي القِناعَ ولم أكُنْ

ثم قال :والله لقد عجزوا، عن أمر قمنا به، فما شكروا، ولقد مهدنا ما استوعروا وأعطينا الحق وغمطوا .()والله لا أكرم أحداً، بمهانة نفسي، والسعيد من وعظ بغيره، لأن سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

وقام عمرو بن عبيد ()بين يدي المنصور فقال :إن الله عز وجل أعطاك الدنيا بأسرها فاشتري نفسك ببعضها .واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة فيه فوجم أبو جعفر في قوله فقال الربيع ()له يا عمرو غممت أمير المؤمنين فقال عمرو :أن هذا قد صحبك عشرين سنة لم ير عليه أن ينصحك، يوماً واحداً .وما عمل وراء بابك،

بشيء من كتاب الله عز وجل ولا سنَّة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله .فقال أبو جعفر :فما أصنع قد قلت لك خاتمي بيدك، فتعال أنت وأصحابك فاكفوني هذا الأمر . فقال عمرو :أدعنا بعد ذلك تسمح نفوسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق .

وقيل بينما المنصور يطوف بالبيت ليلا، إذ سمع قائلا يقول :اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي، والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع . فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين واستلم الركن، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة .فقال له المنصور :ما الذي سمعتك تذكر، من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله، من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي بما أرمضني .فقال :يا أمير المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالأمور على جليتها، ومن أصولها، وإلا احتجزت على نفسي . فقال :أنت آمن على نفسك، فقال :إن الذي دخله الطمع، حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغى والفساد أنت .فقال :ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي .قال وهل دخل أحد من الطمع مثل ما دخلك، إن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجاباً، من الجص والآجر وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح والكراع، وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، نفر سميتهم ولم تأمرهم بإيصال الملهوف والمظلوم، ولا الجائع ولا العاري، ولا الضعيف ولا الفقير وما أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك جباء الأموال وأمرتهم بجمعها ولا يقسموها، قالوا :هذا قد خان الله عز وجل، فمالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه فأتمروا بينهم أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا .ولا يخرج لك عامل، فيخالف أمرهم إلا أقصوه ونفوه، حتى تسقط منـزلته ويصغر عندك قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم، فكان أول من صانعهم، عمالك بالهدايا والأموال، ليتقووا به على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك، ذوو القدرة والثروة من رعيتك، لينالوا به ظلم من دونهم . فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل .وإن جاء متظلم حيل بينه، وبين الدخول عليك، فإذا رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدك وقد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل، فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك،

فإن للمتظلم منه حرمة عندهم، فأجابهم خوفاً منهم فلا يزال المظلوم، يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث، وهو يدافعه ويماطله، ولا يقبل عليه .فإذا أجهد وأحوج وظهرت، صرخ بين يديك فيضرب ضرباً عنيفاً شديداً مبرحاً، ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر، فلا تنكر فما بقاء الإسلام على هذا .ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة، وقد أصيب ملكها بسمعه فبكى يوماً بكاء شديداً فحثه جلساؤه على الصبر .فقال :أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكنى أبكي للمظلوم بالباب يصرخ، فلا أسمع صوته .ثم قال أما إذا ذهب سمعي :فإن بصري لم يذهب فأذنوا في الناس، أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم .ثم كان يركب الفيل طرفي النهار، ينظر هل يرى مظلوماً، فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله عز وجل غلبت رأفته على المشركين وأنت تؤمن بالله واليوم الآخر ثم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه واسم غلب شح نفسك عليك .فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عز وجل، الطفل يسقط من بطن أمه وما له على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله جل ثناؤه يلطف بذلك للطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست بالذي يعطي، بل الله يعطي من يشاء بغير حساب .
وإن قلت أنا أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عز وجل عبراً في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع، حين أراد الله بهم ما أراد .وإن قلت أنا أجمع المال لطلب غاية، هي أجسم من الغاية التي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تنال الا بالطاعة يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأكثر من القتل والصلب .قال المنصور :لا قال : فكيف يصنع أمير المؤمنين يوم القيامة عند لقاء الملك الذي خولك ملك الدنيا، ولا يعاقب من عصاه من عبيده، وعمل بخلاف ما أمره به في كتابه بالقتل ولكن يعاقبه بالخلود في العذاب الأليم وقد رأى ما عقد عليه قلبك، وتحملته جوارحك، ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه قدماك، ممن يعني ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يديك، ودعاك إلى الحساب على ما خولك .فبكى المنصور وقال :ليتني لم أخلق، ويحك فكيف احتال لنفسي .فقال :يا أمير المؤمنين إن للناس أعلام يفزعون إليهم، في دينهم ويرضون نفوسهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددوك .قال :قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال خافوا أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وأنا الضامن

عليهم، أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد إلى مجلسه، فطلب الرجل فلم يوجد .وقال المنصور لبعض عماله وقد بلغه أنه خانه :يا عدو الله وعدو أمير المؤمنين، أكلت مال الله .فقال :نحن عباد الله، وأنت خليفة الله والمال مال الله، فمال من تأكل إذاً .فأعجبه جوابه فقال :خلوا عنه ولا تولوه شيئاً.

ووجد على بعض الكتاب فأمر بتجريده وضربه فقال:

فهبنا للكرام الكاتبين ونحن الكاتبون وقد أسأنا

وروى أن بعض أهل العبث كان قد خرج بفلسطين، فكتب إلى العامل بها، دمه بدمك مرتهن، إنْ لم توجه به إلى، فظفر به فأشخصه إليه، فأدخله الربيع عليه فقال : "أنت المتوثب علينا عمال أمير المؤمنين "لا يوزن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك فقال بصوت ضعيف:

وَمِنَ العَنَاءِ رياضَةُ الهَرَمِ أتَرُوضُ عِرْسَكَ بَعْدَمَا هَرِمَتْ

فلم يتبين المنصور ما قال، لضعف صوته .فقال :يا ربيع ما يقول قال يقول:

فهل عذابُك عنّي اليَوْمَ مصروف الْعَبْدُ عَبْدُكُمُ والمالُ مالُكُمُ

فعفى عنه وخلى سبيله.

وكان يقول عقوبة الحليم التعريض، وعقوبة السفيه التصريح.

وروي عن الربيع أنه قال :جمع المنصور مالكاً وأبا حنيفة ()وابن أبي ذؤيب () رضي الله عنهم فقال :كيف ترون في هذا الأمر، الذي أعطاني الله تعالى .فقال ابن أبي ذؤيب :ملك الدنيا يؤتيه الله من يشاء وملك الآخرة يؤتيه، من وفقه له، وأن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها، وأنت وأعوانك خارجون من التقوى، عالين على الخلق فإن سألت الله السلامة، كان في ذلك نجاتك، وإلا أنت المطلوب . فقال لأبي حنيفة :ما تقول، قال :المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب، وأنت إذا نصحت نفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا فنقول بما تهواه، خوفاً من سيفك وحبسك ولقد وليت الخلافة، وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى .فقال لمالك :ما تقول؟ فقال :لو لم يرك الله أهلا لذلك، ما قدر لك أمر الأمة، أعانك الله على ما ولاك .ثم أمر بانصرافهم، قال الربيع :ثم أعطاني ثلاث بدر ()، وقال :اتبع القوم فإن أخذ ابن أبي ذؤيب وأبو حنيفة منها شيئاً، فأتنى برؤوسهما وإن أخذها مالك كلها فادفعها إليه .فأتيت ابن أبي ذؤيب وعرضت عليه، فقال :ما أرضى له هذا المال، فكيف أرضاه لنفسي، وقال أبو حنيفة :لو ضربت رقبتي ما مسست منها درهماً

واحداً، فأتيت بها مالكاً فأخذها كلها .قال الربيع :فأعلمته ما جرى، فقال :بهذه الصيانة حقنوا دماءهم.

وروي عن الربيع قال :ما رأيت رجلا أربط جأشاً، من رجل رفع عليه إلى المنصور أن عنده ودائع، وأموالاً لبني أمية، فأمرني بإحضاره فأحضرته فدخلت به عليه .فقال له المنصور :قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي لبني أمية عندك، فأخرج إلينا منها .فقال :يا أمير المؤمنين أَوَارِثٌ أنت لبني أمية، فقال :لا، فقال :فوصي لهم في أموالهم وربايحهم، قال :لا، قال :فما مسألتك عما في يدي من ذلك .قال :فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه فقال :إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل للمسلمين في حقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فأجعله في بيت مالهم، فقال :يا أمير المؤمنين تحتاج إلى إقامة البينة العادلة، على أن ما في يدي لبني أمية، مما خانوه وظلموا، دون غيره، فقد كان لبني أمية أموال غير أموال المسلمين .قال :فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال :صدق يا ربيع، ما يجب على الشيخ شيء، ثم قال :هل لك من حاجة، فقال :نعم، حاجتي يا أمير المؤمنين أن تنفذ كتابي على البريد إلى أهلي، ليسكنوا إلى سلامتي، فإنهم قد راعهم إشخاصي . وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين، قال :قل، قال :تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله ما لبني أمية في يدي مال، ولا وديعة، ولكني لما مثلت بين يديك، وسألتني عما سألتني عنه، قابلت بين هذا القول وما قبله، فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة .فقال :يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فقال :هذا غلام لي، سرق علي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبق .()فشد المنصور على الغلام، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه، وسعى به خوفاً وكذباً حتى لا يقع في يده .فقال المنصور للشيخ :نسألك أن تصفح عنه، فقال :قد صفحت عنه وأعتقته ووهبت الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف دينار، فقال المنصور :ما على ما فعله الشيخ من مزيد، فقال :يكون هذا بحق شفاعتك يا أمير المؤمنين وانصرف .فكان المنصور يتعجب منه كل ما ذكره، ويقول :ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وقيل :كان المنصور في صدر نهاره، يأمر وينهى، ويدبر الملك والنظر في النفقات، ومعاش الرعية، فإذا صلى العصر، جلس لأهل بيته، فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه، من كتب الثغور والآفاق، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه فنام، فإذا بقي الثلث الأخير من الليل، قام فأسبغ وضوءه وصف قدميه في

محرابه، حتى يطلع الفجر ثم يخرج ويصلي.

حديث زينب ابنة سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ()، قالت :كنت عند الخيزران ()، وعادتها إذا كنت عندها أن تقعد في عتبة الرواق المقابل للإيوان، وأجلس بإزائها، وفي الصدر مجلس المهدي ()، يقعد فيه وهو يقصدنا في كل يوم، فيجلس ساعة ثم ينهض .فبينما نحن كذلك إذ دخلت جارية من جواريها، اللواتي يحجبنها .فقالت :أعز الله السيدة، امرأة لها جمال وخلقة حسنة، وليس من وراء ما هي عليه، من سوء الحال غاية، تستأذن عليك .وقد سألتها عن اسمها، فامتنعت أن تخبرني، فالتفتت إلى الخيزران فقالت :ما ترين، فقلت :أدخليها، فإنه لا بد من فائدة أو ثواب .فدخلت امرأة كأجمل النساء وأكملهن، لا تتواري فوقفت إلى جانب عضادتي الباب، ثم سلمت متضائلة، ثم قالت :أنا مزنة بنت ()مروان بن عبد الملك، فقالت زينب :وكنت متكئة، فاستويت جالسة، فقلت :مزنة، فلا حياك الله ولا قربك، والحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلّك، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك، في الإِذن في دفن إبراهيم بن محمد ()، فوثبت عليهن وأسمعتهن، وأمرت بإخراجهن على الحالة، التي أخرجن عليها، فلا أنسى حسن ثغرها، وعلو صوتها بالقهقهة .وقالت :أي بنت عم، أي شيء أعجبك من حسن صنع الله في العقوق، حتى أردت أن تنافسيني فيه والله إني فعلت بنسائك الذي فعلت، فأسلمني الله عز وجل إِليك، ذليلة جائعة عريانة، فكان هذا مقدار شكرك لله على ما أولاك فيَّ .ثم قالت :السلام عليكم وولت، فصاحت بها الخيزران :ليس هذا لك، عليَّ استأذنت وإليَّ قصدت فما ذنبي .فرجعت وقالت : لعمري فقد صدقتي يا أخيَّة .

وكان مما ردَّني إليك، ما أنا عليه من الضرر والجهد .قالت زينب فنهضت إِليها الخيزران لتعانقها، فقالت :ليس فيَّ لذلك موضع، مع الحال التي أنا عليها . فقالت الخيزران لها :فالحمام إذاً، وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام، فدخلت وطلبت ماشطة ترمي ما على وجهها من الشعر .فلم تزل حتى خرجت من الحمام، فوافتها الخلع والطيب، فأخذت من الثياب ما أرادت، ثم تطيَّبت وخرجت إلينا، فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي إذا دخل، فقالت لها الخيزران :هل لك في الطعام فأنا لم نطعم بعد، فقالت :والله ما فيكن أحد أحوج إليه منِّي، فعجلوه، فأُتِيَ بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة وتلقّمنا وتضع بين أيدينا، إلى أن اكتفت، ثم غسلنا أيدينا .فقالت لها

الخيزران :من وراءك ممن تعنين به، فقالت :ما خارج الدار أحد من خلق الله، بيني وبينه سبب، فقالت الخيزران :إن كان هذا هكذا، فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا، ونحول إليه جميع ما تحتاجين إليه، ثم لا نفترق حتى يفرق الموت بيننا .فقالت :فطفنا بها في المقاصير، فاختارت أوسعها وأنـزهها، ولم نبرح حتى حوِّل إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكساء والجواري والرقيق، ثم تركناها وخرجنا عنها .فقالت الخيزران :إن هذه المرأة كانت فيما قد كانت فيه، وقد مسها ضرّ، وليس يغسل ما في قلبها، إلا المال، فاحملوا إليها خمس مائة ألف درهم، فحُمِلَت إليها .ووافانا المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته حديثها، وما لقيته به، فوالله ما انتظر أن أعرِّفه جوابها حتى وثب مغضباً في وجهي، وقال :يا زينب، هل هذا مقدار شكر الله على نعمه، وقد مكَّنك من مثل هذه المرأة، على هذه الحال التي هي عليها فوالله لولا محلك من قلبي، لحلفت أن لا أكلمك أبداً .قالت :فقلت :قد اعتذرت إليها، ورضيت ثم قصصنا عليه قصتها كلها، وما فعلت الخيزران لها، فقال لخادم معه :إحمل إليها مئة بدرة، وادخل إليها وأبلغها السلام عني .وقل لها، والله إني ما سررت منذ دهري سروري بمكانك، وأنا أخوك وممَّن يوجب حقك، لا تدعي حاجة إلا سألتيها .ولولا أني أكره أن أحشمك ()لصرت إليك مسلماً عليك، وقاضياً حقك .فمضى الخادم إليها بالمال والرسالة، فأقبلت إلينا معه، فسلمت على المهدي، وشكرت له فعله، وأثنت على الخيزران عنده .وقالت :ما على أمير المؤمنين حشمة ()، أنا في عِداد حرمه، وقعدت ساعة، ثم قامت إلى منـزلها فخلفتها عند الخيزران كأنها لم تزل في ذلك القصر.

وقيل :إن المهدي لما حج، أنفق في حجِّه ثلاثين ألف ألف درهم، وخمسمائة ألف دينار .وفرق من الثياب مائة ألف وخمسين ألف ثوب، وهو الذي وسَّع المسجد الحرام، وبناه على ما هو عليه اليوم.

وقيل :نذر ()المهدي، دم رجل من أهل الكوفة، كان يسعى في فساد دولته، فجعل لمن دلَّ عليه، أو جابه مئة ألف درهم .فأقام الرجل متوارياً ثم إنه ظهر يوماً ببغداد، فبينما هو يمشي في بعض نواحيها، بصر به رجل من أهل الكوفة، فرفعه فأخذ بمجامع ثيابه، وقال :هذا بغية أمير المؤمنين، فبينما الرجل على تلك الحال، إذ سمع وقع الحوافر من ورائه فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال :يا أبا الوليد ()، أجرني أجارك الله، فوقف، فقال للرجل الذي هو متعلق به :ما شأنك؟ قال :بغية أمير المؤمنين، نذر دمه وبذل لمن دل عليه مئة ألف درهم .فقال :يا غلام، انـزلْ عن

دابتك واحمل الرجل عليها، فصاح المتعلق بالرجل :يا للناس أيحال بيني وبين طلبة أمير المؤمنين، فقال له معين :اذهبْ فاخبره أنه عندي، فانطلق الرجل إلى باب المهدي، فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدي، فأخبره فأمر بإحضار معن، فأتته الرسل، فدعا أهل بيته ومواليه، وقال :لا يخلصن إلى هذا الرجل، وفيكم عين تطرف .ثم سار إلى المهدي، فدخل فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام .وقال :يا معن أتجير علينا، قال :نعم يا أمير المؤمنين، قال :ونعم أيضاً !فاشتد غضبه .فقال :يا أمير المؤمنين، قتلت في طاعتكم في اليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً، إلى أيام كثيرة قد تقدم بلائي وحسن غنائي، فما رأيتموني أهلاً أن يوهب لي رجل واحد، فأطرق المهدي طويلاً، ثم رفع رأسه وقد سرى عنه .وقال :قد أجرنا جارك، فقال معن :إن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه .قال :قد أمرنا له بخمسين ألف درهم، قال معن :إن صِلات الخلفاء لا تكون إلا على قدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له العطية .فقال :قد أمرنا له بمائة ألف درهم، قال :تعجَّلها يا أمير المؤمنين، فإن خير البر عاجله، فأمر بتعجيلها له . وانصرف معن بالمال إلى الرجل وقال له :خذ صلتك والِحقْ بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

ذكر المنصور لمعن بن زائدة بعد كلام له :قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء، لولا مكانك عنده ورأيه فيك لصعب عليك الأمر قال :وما ذاك يا أمير المؤمنين، فوالله ما تعرضت به منك، قال :إعطاؤك مروان بن أبي حفص ()ألف دينار في قوله فيك:

شَرَفاً عَلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ	**مَعْنُ بنُ زائِدةَ التي زيدتْ به**
يَوْمَاهُ يَومُ ندا ويوْمُ طِعَانِ	**أنْ عُدَّ أيّامُ الرجال فإنها**

فقال :ما أعطيته لهذا ولكن لقوله:

بالسيفِ دونِ خليفة الرحمان	**ما زلْتَ يومَ الهاشِميَّةِ مُعْلِماً**
مِن وقْعِ كلِّ مُهَندٍ وسِنانِ	**فحميت حوزته وكنت وقاءه**

فاستحيا المنصور فقال ما أعطيته إلا لهذا .قال :نعم يا أمير المؤمنين فوالله لولا مخافة الشنعة، عندك لمكنته من مفاتيح بيوت أموالي وانحلته إياها .قال المنصور :لله درك من أعرابي ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم قيل أقام أعرابي على باب معن بن زائدة فلما طال مقامه كتب إليه رقعة فيها :

وفي الأرض أسباب وفيها مذاهب	**فما في يديك الخير يا معنُ كله**

إذا افتتحت عند الإياب الحقائب سيأتي بنات العم ما أنت صانع

ووكل من يوصلها إليه وسار فلما وصلت الرقعة إليه وقرأها أمر برده وقال : والله لتفتشن عن خير كثير وأمر فملئت حقيبته دراهم.

وحضر ببابه شاعر فأقام مدة لا يتهيأ له الدخول عليه، فقال يوماً لبعض خدمه :إذا دخل الأمير البستان فعرفني فلما دخله أعلمه .فكتب بيتاً على خشبة وألقاها في الماء، الذي يدخل البستان .فلما نظر معن في الخشبة أخذها فقرأها فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فمالي إلى معن سواك رسول

فقال من صاحب هذه، فدعا بالرجل فقال له :كيف قلت أنشد البيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فأخذها ووضع الخشبة تحت بساطه .فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت بساطه، وقرأها فدعا بالرجل، فأمر له بمائة ألف أخرى، وكذلك في اليوم الثالث فلما أخذها الرجل، تفكر في عظم ما أخذ وخاف أن يسترجعها منه فخرج فلما كان في اليوم الرابع قرأ ما فيها ودعا بالرجل فلم يوجد .قال معن :حق عليّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

قيلَ :خرجَ على هارونَ الرشيدِ ()بعضُ الخوارجِ، فأنهضَ إليهِ جيشاً فَظَفِرَ بِه، فِلَمّا دخلَ عليهِ، قالَ لَهُ :ما تريدُ أنْ أصنعَ بِكَ قالَ :الذي تريدُ أن يصنعَ اللهُ بكَ، إذا وقفتَ بينَ يديه .فأطرقَ مليا ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ وأمرَ بإطلاقِهِ فَلَمَّا خرجَ قالَ بعضُ مَنْ حَضَرَ :يا أميرَ المؤمنينَ يقتلَ أهلَكَ وُيفنِي أموالَكَ وتطلقُهُ لِكلمةٍ واحدةٍ، تأمل هَذا، فإنَّه يُجَرّئُ، عليكَ أهلَ الشَّر .فأمرَ بِردِّهَ فَلمّا مَثَل بينَ يديهِ، عَلِمَ أنه قَدْ سعَى بِهِ عِنْدَهُ، فقالَ :يا أميرَ المؤمنينَ لا تطعْهُ فَلَوْ أطاعَ الله فيكَ، ما استخلَفَك لحظةً واحدةً فأمرَ بإطلاقِهِ وقالَ :لا تعاودْوني في بَابِه .()

وَعَنْ جُريمٍ بن أبي يَحيى المُزَنـيِّ قالَ :دَعاني، يوماً للأكْلِ مَعَهُ فَلَمَّا توسَّطَ الأكلَ، رفع رأسَهُ إلى رَجُل، يكلّمُهُ بالفارسيّةِ قُلْتُ :يا أمير المؤمنينَ إنْ كنت تريد أنْ تُسِرَّ إليهِ، فإنِي أفهمُ الفارسيَّة، فأمرْني أتنحَّى إلى أنْ تُقّدم إليهِ بِما تُريدُ فَاعجبَ الرشيدَ كرمُ أخلاقِهِ وَصَدَّقَهُ وَخَاطَبَ الرَّجلَ سِرًّا بما أرادَ وأمرَ لجريمٍ بصِلَةٍ سَنِّيةٍ.

وَقيلَ استزار إبراهيمْ بنُ المهدي، أخاه هارون الرشيدَ بالرّقةِ، فَلَمَّا حَضَرَ الطعامُ وكانَ الرشيدُ لا يأكلُ حاراً قَبْلَ باردٍ .فَوضعَتْ البواردُ بينَ يديهِ على المائدةِ، فَرَأى فيما قرب مِنهُ جاماً ()فِيهِ قريشُ السَّمكِ، فاستصغرَ القِطَعَ فقالَ لإبراهيم لِمَ

يُصَغّرْ طباخُك السَّمكَ .فقالَ :إنَّهُ لَمْ يُصَغِّرْ القِطَعَ، وإنَّما هذه ألسنةُ السَّمكِ، فقالَ : شَبيهٌ أنْ يكونَ في هذا الجامِ مائةُ لِسانٍ فقالَ لَه مراقبُ خادِمِ إبراهيمَ يتولى قهرمتَه، فيه يا أمير المؤمنينَ أكثرُ مِنْ مائةِ لسانٍ فاستحلَفه على مبلغِ ثَمنِ السَّمكِ، الذي مِنها هذهِ الألسنةُ .فأخبَرُ أنَّهُ ألفُ دِرهم فَرَفَعَ هارونُ يدَهُ مِنَ الطعامِ وَحَلَفَ أنْ لا يطْعَمَ دونَ أنْ يُحْضِرَ مراقبُ ألفَ دينارٍ، فأحضرَها فأمَرهُ أنْ يتصدَّقَ بِها .وقالَ لإبراهيمَ : أرجو أنْ يكون هذا كَفارةً لِسَرفِكَ في انفاقِكَ، على جامِ سَمَكٍ ألفَ دِرْهم، ثُمَّ أخذَ الجامَ بيدِهِ، وَدَفَعَهُ إلى بعضِ خَدَمِهِ .وقالَ :أُخرجْ :مِنْ دارِ أخي، ثم انظرْ أوَّلَ سائِلٍ تراهُ، فادفعْهُ إليه .قالَ إبراهيمُ :وكانَ شراءُ الجامِ على مائتين وسبعينَ ديناراً فغمزتُ بعضَ خَدَمِي أنْ يَخْرُجَ مَعَ الجامِ فيبتاعَهُ مِمّنْ يُدْفَعُ إليهِ، وكأنَّ الرّشيدَ فَهِمَ ذلكَ مِني فهتَفَ بالخادِمِ، وقالَ :إذا دَفعت الجامَ الى السائِلِ، فقلْ لهُ يقولُ لكَ أميرَ المؤمنين :احذرْ أن تبيعَ الجامَ بأقل من مئتي دينار فإنّه يُساوي أكثرَ مِنْها .فَفَعَلَ الخادِمُ ما أمَرهُ، قالَ :فواللهِ ما أمكَنَ خادِمُ إبراهيمَ أن يشتريَهُ، ويردَّهُ إلى الدّارِ إلا بمائتي دينارٍ، كما أوصى أميرُ المؤمنينَ .

وَلمّا حُمِلَ الشَّافِعي رَحمهُ اللهُ مِنَ اليمن إلى الرشيد، حينَ وُشِيَ بِهِ إليهِ فجرَى لَهُ مَعَهُ كلامٌ كثيرٌ إلى أنْ قالَ لَهُ الرشيدُ، هَلْ مِنْ موعِظَةٍ تَعِظُ بها أميرَ المؤمنينَ . قالَ :نَعَمْ على تركِ الحشمَةِ وَرَفعِ الهيبَةِ، وقبولِ النُّصحِ والقاءِ رداءِ الكِبْرِ عن منكبِكَ .قالَ الرشيدُ :لَكَ ذلك، فَجَثى الشافعي على ركبتيهِ .وقالَ :يا ذا الرَّجلِ، إنَّه مَنْ أطالَ عِنَانِ الأمرِ في العِزّ، طَوى عدارَ الحذَرِ بالمهلَةِ، وَمَنْ لَمْ يعوّلْ على طريقِ النجاةِ، كانَ بجانِبِ قِلّةِ الاكتِراثِ بالمراجَعَةِ إلى اللهِ مُقيماً .وَمَنْ أرث الظَّنَ، كَانَ مِنْ أَمَنةِ المحذورِ، في مِثْلِ نسجِ العنكبوتِ، لا تأمنُ على نفسِهَا، وَتَحْجِزُها عن سَعْيها، فَلَوْ جَرَّعَها مخالفتَها وبادرَ خوفَ المراجعةِ، بالتزوَّدِ إلى دارِ المقامةِ، إنْ لَوْ فعلتَ ذلكَ يا رَجُلُ ما اهتدتْ إليكَ يَدُ النَّدامةِ وَلأبدَرْتكَ غداً في القيامةِ، لكنَّكَ أتيتَ مِنْ حيثُ لا يُؤدِّي إلى فَهمِكَ، مَنْ أذنَ لمجِّ الكلامِ بسمعِكَ فَمِن ثَمَّ أعقبَكَ التّواني، والاغترارُ بنفسِكَ وَلَوْ كانَ لَكَ أميرٌ مِنْ عقلِكَ ينقد لكَ ما سقَطَ من عيوبِكَ، لشغَلَكَ ذلكَ عن النَّظَرِ في عيوبِ غَيرِكَ وَلكنْ ضَرَبَ الهَوى عليكَ رِواقَ الحيْرَةِ فتركَكَ إذا خرجْت يدْ موعِظتِكَ، لم تكدْ تراها وَمَنْ لَمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً، فَما لَهُ مِنْ نورٍ .فَبَكى الرشيدُ حتى بَلَّ مِنديلاً كانَ في يدِهِ، ثُمَّ قالَ لَهُ خاصةٌ مَنْ يقومُ على رَأسِهِ :اسكتْ فقدْ أبكيتَ أميرَ المؤمنينَ فالتفتَ إليهِمُ الشَّافعيُّ، رَحِمَهُ اللهُ، وقالَ :يا عبيدَ الدَّنيا، الذينَ باعوا أنفسَهُم لمحبوبِ الدُّنيا، أمَا رأيتُم ما استُدرجَ بِهِ مَنْ كانَ قَبْلَكُم مِنَ الأمم

بالأمانِي ألمْ تَروا كيفَ فَضَحَ اللهُ مستورَهُم، وأمطرتْ بواكيرُ الهمومِ عليهم، بَعدَ سُرورِهِمَ فأصبحُوا بَعْدَ خِفضِ عيشِهِم، ولينِ رفاهيتِهم، في نسيم روضةِ البطّالينَ حصائِدَ النِّقَمِ ومدارجَ المثولاتِ .فقالَ لَهُ الرشيدُ :لَقَدْ سللتَ علينا لسانك وهو أمضى من سيفك فقال له الشافعى :إن قبلتَهُ فهو لَكَ، وإلا عليكَ .قالَ :فَهَلْ مِنْ حاجةٍ خاصة بعد العامةِ، قالَ :بعدَ مكنونِ النصيحةِ، وتجريدِ الموعظَةِ تأمرني أن أسود وجه موعظتي بالمسألةِ قالَ :ثُمَّ ماذا قال :النظر في أُمورِ الرعيةِ والقِسمَةِ بينَهُم بالسويةِ، قالَ :وَمَنْ يُطيقُ ذلكَ، قالَ :مَنْ تُسمى باسمِكَ، وَنُسِبَ إلى موضعِكَ .قال :ثم ماذا قالَ :الحب أحببْ الله،، وجيران قبر رسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وعلى آلهِ، أما واللهِ لَو أردتَ عِمارَةَ قَبْرِ رَسولِ اللهِ صلىَ الله عليه وعلى آلهِ وسلم للزمك في ذلك مؤنةً . قالَ :فأمَرَ الرشيدُ بمال للمهاجرينَ والأنصار والعلويةِ، وأمرَ للشافعي، رحمه الله، بخمسينَ ألفِ دينارِ، وحمله على فَرَس.

وكانَ الرشيدُ يُصَلي في كُلِ يَوم مِئَة ركعةٍ، إلى أنْ تُوفيَ ويتصدقُ في كُل يَوم بمائةِ ألف درهم، فإذا حَج حَج مَعَهُ مائة مِنَ الفقهاءِ كل فقيهٍ منهُم بزادِهِ وَراحِلَتِهِ . وُجِدَ ذلكَ في كِتابِ تفاوت التواريخ واللهُ أعلمُ.

قالَ الأصمعي :()قصدتُ في بعضِ الأيامِ، رجلا كنت أغشاهُ لكرمه، فوجدتُ على بابِهِ بوّاباً، فمَنعنِي مِنَ الدخولِ عَلَيه .فقالَ البوّابُ :واللهِ ما أوقفَنِي على بابِهِ، لأمنعَ مِثلَكَ الدخولَ عليهِ، لرقة حاله وقصور يده، فكتبت رقعة أقول فيها:

فَما فضلُ الكريمِ على اللَّئيم　　　إذا كانَ الكريمُ لَهُ حِجابٌ

ثم قلتُ أوْصِلْ رقعتي هذِهِ إليهِ ففعلَ .فعادتْ الرقعة، وقد كتب على ظهرِها:

تَستَّرَ بالحجابِ عَنِ الغريم　　　إذا كان الكريمُ قليلَ مالِ

ومع الرقعةِ صُرة فيها خمسمائةِ دينارٍ وَعذْرٌ .فقلتُ :واللهِ لا تحِفن أميرَ المؤمنينَ بِهذا الحديثِ، فجئتُ إلى الرشيدِ فَلَمّا رآني قالَ :مِنْ أين يا عبد الملك قلت : من عند رجل، أكرمَ الأحياءَ حاشا أمير المؤمنين، قال :ومن هو قلتُ :رَجُلٌ قَراني عِلمَهُ مالَهُ، ثم دفعت إليهِ الرقعة والصرة .قالَ هذا ختم بيتِ مالِي فلا بد لِي من الرجل، الذي دفعها إليكَ .قلتُ :يا أميرَ المؤمنينَ واللهِ إني لأستحي أنْ أروعَهُ برسلك، فقالَ لِبعضِ خاصته امض معَ الأصمعيِّ، فإذا أراكَ الرجلَ فقل له :أجبْ أميرَ المؤمنينَ مِنْ غيرِ ازعاج .قالَ فلما حضر الرجلُ بين يدي الرشيدِ، قالَ له :أما أنتْ بالأمس، وقفتَ بموكبنا وشكوت رقة حالك وأن الزمان أناخَ عليكَ بكلكله، فدفعنا إليك هذه الصرةَ لتصلح بها حالَكَ فقصدَكَ الأصمعي ببيت واحد فدفعتها إليهِ،

قال :والله ما كذبتُ فيما شكوتُ يا أميرَ المؤمنينَ مِن رِقةِ الحالِ وصعوبةِ الزمانِ وَلَكني استحييت مِنْ اللهِ تعالى أَنْ أعيدَ قاصِدِي، إلا كما أعادَني أميرُ المؤمنينَ .فقالَ: لله درُّك فما ولدت العربُ أكرمَ مِنْكَ، ثُمّ أمَرَ له بألْفِ دينارٍ، فقلت :ألحقني به يا أمير المؤمنين فتبسم وأمر أن تكمل لي ألف دينار، وعاد الرجل من جملة ندمائه.

وقيل لما حج الرشيد، ورجع قافلاً دعا صالحًا، حين تنكر للبرامكة، فقال : أخرج إلى منصور بن زياد ()، فقل له :قد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم، فاحملها إلي من يومك، فإن هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا، وإلا فاحمل إلي رأسه، وإياك ومراجعتي في شيء مِنْ أمره .قال صالح :فخرجت إلى منصور فعرفته الخبر، فقال :إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي ثم حلف أنه لا يعرف موضع ثلاثمائة ألف درهم، فكيف عشرة آلاف ألف درهم، فقال له صالح خذ في عملك .()قلت له :امض إلى منـزلي حتى أوصي وأتقدم في أمري فما هو إلا أن دخل حتى ارتفع الصراخ من منازله، وحجر نسائه، فأوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم .فقال :امض بنا إلى أبي علي، يعني يحيى بن خالد، فلعل الله أن يأتينا بفرج من جهته، فمضيت معه فدخل على يحيى بن خالد، فقال له يحيى :ما وراءك فقص عليه القصة فقلق يحيى لأمره وأطرق مفكرا ودعا جارية وقال لها : كم عندك من المال قالت :خمسة آلاف ألف درهم قال :هاتيها فأحضرتها ثم وجه إلى ولدها الفضل ()إنك كنت أعلمتني، فداك أبوك أن عندك ألفي ألف درهم وددت أنك تشتري بها ضيعة، وقد وجدت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها وتحمد ثمرتها فوجه إلي بالمال، وقال للرسول امض إلى جعفر فقل له :ابعث لي، فداك أبوك، بألف ألف درهم، لحق لزمني فوجها إليه فقال :هذه ثمانية آلاف ألف درهم، ثم أطرق طويلا، لأنه لم يكن بقي معه من المال شيء ثم رفع رأسه إلى خادم له، فقال :امض إلى دنانير ()فقل لها :وجهي إليَّ بالعقد الذي كان أمير المؤمنين، وهبه لك فجابه فإذا هو عقد كعظم الذراع، فقال لصالح :اشتريت هذا بمائة ألف وعشرين ألف دينار، فوهبه أمير المؤمنين، لدنانير وقد حسبناه بألفي ألف درهم وهذا تمام المال، فانصرف وخل صاحبنا، لا سبيل لك عليه .قال صالح :فأخذت ذلك ورددت منصورا معي، فلما صرنا بالباب أنشد متمثلا:

ولكن خفتما صرد ()النبال   **فما بقيا علي تركتماني**

قال صالح فقلت ما على وجه الأرض، رجل أنبل من رجل خرجنا من عنده ولا سمعت بمثله، فيما مضى ولا يكون فيمن بقي، ولا على وجه الأرض، رجل

أخبث سريرة، ولا أردأ طبعا، من هذا النبطي، إذا لم يشكر من أحياه .قال :ثم صرت إلى الرشيد، فقصصت عليه قصة المال، وطويت عنه ما قال منصور، لأني خفت إن سمعه أمر بضرب عنقه .قال الرشيد :أما إني قد علمت، من نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت .وقال :اقبض المال، واردد العقد على دنانير لأني لم أكن لأهب هبة، فترجع إلي .قال صالح :فلم أطب نفساً، بترك تعريف يحيى ما قال منصور، فقلت له بعد أن أطنب في شكره، ووصف ما كان منه لقد أنعمت على غير شاكر، قابل أكرم فعل بالأم قول .وكيف ذلك فأخبرته بما قال، فجعل والله يطلب له المعاذير .وقال :يا أبا علي إن المخوف القلب ربما سبق إلى لسانه ما ليس في ضميره، وقد كان الرجل في حال عظيمة .فقلت والله ما أدري أي أمريك أعجب، أمن أوله أم من آخره، لكني أعلم أن الدهر لا يخلف مثلك أبدا.

قال يحيى بن خالد :من أحسنت إليه، فأنا مرتهن به، ومن لم أحسن إليه فأنا مخير فيه .وقال :في ذكر النعمة من المنعم تكدير، ونسيان المنعم عليه كفر .وقال : يدل على كرم الرجل، سوء أدب غلمانه .وقيل له :لم لا تقول الشعر فقال :شيطانه أخبث من أن أسلطه على عقلي .وقال :إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة.

وقيل :ركب محمد بن إبراهيم ()دين فركب إلى الفضل بن يحيى، ومعه حُق فيه جواهر، فقال له :قصرت بنا غلاتنا وأغفل أمرنا خليفتنا وتزايدت مؤنتنا فلزمنا دين احتجنا إلى أدائه وهو ألف ألف درهم وكرهت بذل وجهي للتجار، وأذالة () عرضي منهم .ومعي رهن وثيق بذلك، فإن رأيت أن نأمر بعض غلمانك بقبضه، وحمل المال إلينا فعلت، فدعا الفضل بالحق، فرأى ما فيه وختمه بختم محمد بن إبراهيم، ثم قال له :نجح الحاجة، أن

تقيم اليوم عندي في منـزلي، فقال له :إن المقام على مشقة فقال :له ما يشق عليك من ذلك إن رأيت أن تلبس بعض ثيابنا، دعوت به وإلا أمرت بإحضار ثياب من دارك .فأقام ونهض الفضل فدعا بوكيله، وأمره بحمل المال وتسليم الحق الذي فيه الجوهر إلى وكيل محمد بن إبراهيم وأخذ خطه بذلك .ففعل الوكيل ذلك، وأقام محمد عنده إلى الليل، وليس عنده خبر بشيء من الأمر ثم انصرف إلى منـزله فأحضر الوكيل المال والحق فغدا على الفضل ليشكر له فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد فوقف منتظرا له، فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، فاتبعه فوجده سبقه إلى دار ابنه فوقف ينتظره فقيل له :قد خرج من الباب الآخر، قاصدًا إلى منـزله، فانصرف عنه فلما عاد إلى منـزله وجه الفضل إليه بألف ألف أخرى فغدا عليه

فشكره وأطال، فأعلمه الفضل أنه بات بليلة طالت غما بما شكاه إلى أن لقي الرشيد، فأعلمه بحاله وأمره بالتقدير له، فلم يزل يماكسه إلى أن تقرر الأمر معه على ألف ألف درهم، فقال :إنه لم يصلك بمثلها قط ولا زادك على عشرين ألف دينار فشكرته، وسألته أن يصك بها صكا بخطه ويجعلني الرسول ففعل فشكره محمد . وقال صدق أمير المؤمنين أنه لم يصلني بأكثر من عشرين ألف دينار، وهذا إنما تهيأ بك وعلى يديك، وما أقدر على القيام بحقك ولا على شكر أجازي به معروفك غير أن عليَّ وَعَليَّ أيمانا مؤكدة إن وقفت بباب أحد سواك ولا سألت غيرك حاجة أبدا، ولو سففت التراب .فكان لا يركب إلى غير الفضل، إلى أن كان من أمرهم ما حدث، فكان لا يركب إلى غير دار الرشيد ويعود إلى منـزله فعوتب بعد تقضي أمرهم، في ترك الركوب إلى الفضل بن الربيع، فقال :والله لو عمرت ألف عام ومصصت الثماد، ما وقفت بباب أحد، بعد الفضل بن يحيى، ولا سألته حاجة أبدا حتى ألقى الله تعالى، فلم يزل ذلك حاله حتى مات.

وقيل :دخل مسلم بن الوليد ()على الفضل بن يحيى، وقد كان ورد عليه خبر سره، فجلس للشعراء فمدحوه وأثابهم، ونظر في حوائج الناس فقضاها، وتفرق الناس عنه، وخلا في منـزله، ولم يحضر مسلم ذلك، وإنما بلغه حين انقضى المجلس، فدخل عليه فاستأذنه في الإنشاد فأذن له فأنشده قوله:

أَتَتْكَ المطايَا تهتدي بِمَطِيَّةٍ عَلَيْهَا فَتًى كالنَّصْلِ يُؤْنِسُهُ النَّصلُ
وردتُ رواق الفضل آملُ فضلهُ فحظُّ الثناءِ الجزلِ نائلُهُ الجزلَ
فَتَى تَرْتَعِي الآمالُ مُزْنَةَ جُودِهِ إذا كَانَ مَرْعَاهَا الأمانيُّ والمطلُ
تُساقِطُ يُمْنَاهُ الندى وَشِمالُهُ الردى وعيونُ القَوْلِ مَنْطِقُهُ الفصل
أَلَحَّ عَلَى الأَيَّامِ يَفْرِي خُطُوبَها على مَنْهَجٍ ألفى أباهُ بهِ قَبْلً
أنَافَ على العَلياءِ يَحْيَى وخالد فَلَيْسَ لَهُ مِثْلُ وَلا لَهُما مِثْلُ
فروع أصابت مغرساً متمكناً وأصلاً فطابت حيث وجهها الأصل
بَكفِّ أبي العباس يُسْتَمْطَرُ الغِنَى وَتُسْتَنزلُ النّعْمى ويُسْتَرْعَفُ النَّصْل

فطرب الفضلُ طربا شديدا، وأمر بأن تعد الأبيات، فعدت فكان مبلغها ثمانين بيتا .فأمر له بثمانين ألف درهم وقال :لو لا أنه أكثر ما وصل به شاعر لزدتك ولكنه شيء لا يمكن تجاوزه يعني أن الرشيد رسمه لمروان بن أبي حفصة.()

وروى أن مروان بن أبي حفصة دخل على الرشيد فأنشده مدحا فيه، فقال :من أنت قال :شاعرك مروان بن أبي حفصة فقال :ألست القائل:

مقاما لا نُريدُ به زوالا   أقمنا بالمدينة بعد مَعْن

وقدْ ذهَبَ النَّوالُ فلاَ نَوالاَ   وَقلْنا أيْنَ نذهب بعد معنٍ

إلَــى أنْ زَارَ تـربَتـه عِيـالاَ   وكَانَ النَّــاسُ كُلُّهُمُ لِمَعْنٍ

فقد ذهب النوال كما زعمتم .فلم جئت تطلب نوالنا .لا شيء لك عندنا جروا برجله، فجروا برجله حتى أخرج فمكث سنة ثم دخل عليه في جملة من الشعراء فأنشده قوله:

بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بالحَياءِ دَلالَها   طَرَقتْكَ زائرةً فَحَيِّي خَيَلَهَا

بــأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرُونَ هِـلاَلَـها   هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومُها

حتى بلغ قوله:

جِبريلُ بَلَّغها النَّبيَّ فَقالَهَا   أوْ تَجْحَدُونَ مَقالَةً مِنْ رَبِّكُمْ

بِتُراثِهِمْ سفَأَرَدْتُمُ إبطالَـها   شَهِدَتْ مِنَ الأنْفالَ آخِرُ آية

فزحف الرشيد حتى صار على البساط .وقال :كم هي قالوا هي مائة بيت فأمر له بمائة ألف درهم.

وقيل :دخل يزيد بن مزيد [0]على الرشيد فقال له :من الذي يقول فيك:

ولا يُمَسِّحُ عينيه من الكحل   لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خديه ومفرقه

فهن يَتْبَعْنَــهُ في كـل مُرْتَحَل   قد عود الطير عادات وثقن بها

فقلت له :لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له :أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تعرف قائله؟ فخرج من عنده خجلا، فلما صار إلى منـزله دعا حاجبه، وقال : من بالباب من الشعراء؟ قال :مسلم بن الوليد .قال :فكيف حجبته عني، فلم تعلمني به، قال :أخبرته أنك مضيق، وأنه ليس في يدك مال تعطيه، وسألته الإمساك والمقام أياما، إلى أن يتسع عليك الحال، فقال :أدخله إليَّ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

كَأنَّهُ أجَلُ يَسْعَى إلى أمَلَ   مُوفٍ على مُهَج في يوم ذِي رَهَج

لا يَأمنُ الدَّهْرَ أنْ يُدْعَى على عَجَلٍ   تَراهُ في الأمْنِ في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ

وَلا يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الكُحُلِ   لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرِقَهُ

فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحَلِ   قدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها

وَأنْتَ وَابْنُكَ رُكْنَا ذَلِكَ الجَبَـلِ[0]   للهِ مِنْ هاشِمٍ في أرْضِـهِ جَبَلٌ

فقال له :قد أمرت لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر، فخرج الحاجب

فقال :قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه بمائة ألف درهم، خمسون ألفا منها لك، وخمسون ألفا لنفقته، فأعطاه إياها .فكتب صاحب الخبر بذلك إلى الرشيد فأمر له بمائتي ألف درهم وقال :اقبض الخمسين ألف درهم، التي أخذها الشاعر وزده مثلها، وخذ مائة ألف لنفقتك، فافتك ضيعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى.

وروى عن مسلم بن الوليد أنه قال :جاءني رسول يزيد بن مزيد فجئته فوجدته خارجا من الحمام، وهو على كرسي وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة، والمرآة بيده وهو يسرح لحيته فقال لي :أنشدني فأنشدته حتى بلغت قولي:

ولا يمسحُ عينيه مِنَ الكُحْلِ   **لا يعبقُ الطيبُ خَدَيه ومفرقه**

فوضع المرآة من يده وقال للجارية :انصرفي فقد حرم علينا مسلم الطيب والكحل .فلما فرغت من القصيدة، قال لي :يا مسلم أتدري ما الذي حداني على أني وجهت، إليك قلت :لا والله ما أدري، فقال :كنت عند أمير المؤمنين فقال لي :يا يزيد من الذي يقول فيك :

يَمْضِي فيقتطعُ الأجْسَادَ وَإلهامَا   **سَل الخليفةُ سَيْفَاً مِنْ بنَى مَطَرٍ**

قدْ أوْسَعَ النَّاسَ إنْعَاماً وإرْغاما [0]   **كالدَّهْرِ لا يَنْثَنِي عمّا يَهُمُّ بـهِ**

فقلت والله ما أدري، فقال الرشيد :يا سبحان الله إنك مقيم على أعرابيتك أيقال فيك مثل هذا الشعر، ولا تدري من قائله .فسألت عن قائله فأخبرت أنك هو، فقم حتى أدخلك على أمير المؤمنين، ثم قام فدخل على الرشيد، فما علمت حتى خرج الآذن علي، فدخلت على الرشيد فأنشدته ما لي فيه من الشعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم، فلما انصرفت أمر لي يزيد بمائة ألف وتسعين ألف درهم أخرى وقال :لا يجوز أن أعطيك مثل ما أعطاك أمير المؤمنين، وأقطعني إقطاعات تبلغ غلتها مائتي ألف درهم.

وروي عن إسحاق بن إبراهيم، قال :كنت عند المأمون [0]بدمشق، وقد كان المال عنده قليلا، حتى ضاق وشكا ذلك إلى أخيه أبي إسحاق [0]، فقال :يا أمير المؤمنين قد أمرت بمال يحمل إليك، وهو موافيك بعد جمعة، فلما ورد المال من النواحي التي كان يتولاها، وكان ثلاثون ألف ألف، قال المأمون ليحيى بن أكثم [0]: اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، قال يحيى :فخرجنا حتى أصحرنا ووقفنا ننتظره . وقد كان هئ بأحسن هيئة، وحليت أبا عره، وألبست الأحلاس الموشاة والجلال المصبوغة، وقلدت العهن .[0]فنظر المأمون إلى شيء استحسنه وعظم ليحيى في

عينه، واستشرف الناس ينظرون إليه، ويتعجبون منه ويستظرفونه فقال المأمون ليحيى يا أبا محمد :ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين نراهم إلى منازلهم خائبين، وننصرف نحن بهذا المال، دونهم، إنا إذا للئام، ثم دعا إلى محمد بن يزداد وقال : وقع لفلان بكذا، ولفلان بكذا، فوالله ما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف، ثم أمر أن يصرف الباقي في عطاء الجند.

وقيل :كان بالبصرة شاعر من بني تميم، فأراد جعفر بن سليمان أن يتقدم إلى المأمون، مادحا له ومعرضا بشكر الوالي .فأعطاة بختيا ()ونفقة، قال فركبت بختي ومضيت أروم العسكر، قاصدًا إليه، فإذا بكهل على بغل هملاج()، قد تلقاني مواجهة، وأنا أردد نشيد أرجوزتي فقال :السلام عليك يا هذا بصوت جهوري ولسان فصيح، فرددت السلام، فقال لي :قف إن شئت فوقفت فتضوعت منه رائحة المسك والعنبر، فقال لي :ممن أنت فقلت :رجل من مضر، قال :ثم مِنْ مِنْ قلت من بني تميم، ثم من بنى سعد، ثم قال فما أقدمك هذه البلد قلت قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله قبله أطول باعا، ولا أندى راحة منه، قال :فما الذي قصدته به قلت : شعر طيب، يلذ على الأفواة، وتقتفيه الرواة ويحلو في آذان السامعين .قال :فأنشدنيه قال :فغضبت وقلت :له يا ركيك العقلى أخبرك أني قصدت الخليفة بمدح حبرته فيه، تقول أنشدنيه، قال :وما الذي تأمل منه قلت ألف دينار إن كان على ما ذكر عنه، قال لي :فأنا أعطيك ألف دينار، إن رأيت الشعر جيدا، والكلام غضا، وأضع عنك العناء والترداد ومتى تصل إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح وسيف فقلت له :بالله عليك أنت تفعل، قال :نعم قلت :ومعك الساعة ما تعطيني قال :لك الله على أن أعطيك الساعة ألف دينار فأنشدته أرجوزةً فيها:

وَصَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْمُنيفَهْ	**مَأْمُونُ يَا ذَا الْمِنَنِ الشَّرِيفَهْ**
هَلْ لَكَ في أَرْجُوزَةٍ ظَرِيفَهْ	**وَقَائدَ الْكَتِيبَةِ الْكَثِيفَهْ**
لاَ وَالَّذِي أَنْتَ لَهُ خَلِيفَهْ	**أَطْرَفَ مِنْ فِقْهِ أبي حَنِيفَهْ**
أَمِيرُنَا مُؤْنَتُهُ خَفِيفَهْ	**ما ظُلِمَتْ في أَرْضِنَا ضَعِيفَهْ**
واللصُّ والتاجِرُ في قَطِيفَهْ	**والذئبُ والنعجةُ في سَقِيفَهْ**

قال :فوالله ما أتممت إنشادها، حتى أقبل عشرة آلاف فارس، قد سدوا الأفق وهم يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال :فأخذني والله الأفكل .يعني الرعدة ونظر إلي بتلك الحال، فقال لا بأس عليك ثُمَّ التفتُ إلى خادم نظيف الوجه والملبس كان قريبا منه فقال :أعطه ما معك فأخرج الخادم كيسا

وجدت فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال لي :هاك أيها الرجل ثم قال :سلام عليك ومضى فكان آخر العهد به، فسألت عنه بعد ذلك فقيل "لي المأمون أمير المؤمنين لم يرد أن يعرفك بنفسه"، لكرم طباعه وخلائقه .وقيل إن المأمون كان في مجلسٍ له بدمشق فغناه علوية :()

أتاكَ بِهِ الواشونَ حَقًّا كَما قالوا   برئتُ مِن الإسلامِ إنْ كانَ ذا الذي

تواصـوا بالنميمةِ واحتـالـوا   ولكنهـم لما رَأوكَ سريعةِ لهجري

فقال :يا علوية لمن هذا الشعر قال :لقاضي دمشق .فقال لأخيه :يا أبا اسحاق أحضره، فلم يكن بأسرع من أن حضر شيخ قصير مخضوب، فقال له المأمون :من تكون قال أنا فلان بن فلان، قال :أنت الذي تقول الشعر قال :نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وكل شيء يملك في سبيل الله، إن كان قال شعرا منذ ثلاثين سنة إلا في زهد ومعاتبة صديق .فقال لأخيه :أعزله، ما كنت لأولى رقاب المسلمين، من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام .ثم قال لعلوية :لا تقل برئت من الإسلام ولكن قل حرمت مناي منك .وقال عمارة بن عقيل ()أنشدت المأمون قصيدة، فكنت أبتدئ بصدر البيت، وهو يبادرني إلى عجزه .فقلت :والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها مني أحد قبلك، فقال :هكذا ينبغي أن يكون ثم أقبل عليَّ وقال :أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة ()، أنشد عبد الله بن عباس قصيدته التي يقول فيها:

....   تَشُطُّ غدًا دَارُ جيرانِنا

فقال ابن عباس:

وللـدَّارُ بَعْدَ غَـدٍ أبْعَدُ   ....

حتَّى أكمل القصيد، كلما أنشد صدر البيت أكمله ابن عباس، ثم قال :أنا ابن ذلك .وقال ابن المبرد :()قال لي عمارة قال لي عبد الله بن أبي السَمَطِ يا عمارة أما علمت أن المأمون لا يبصر الشعر، فقلت له :ومن أفرس منه فيه، أنا أنشدته البيت، فيسبقنا إلى عجزه، من غير أن يكون سمعه .قال :إني أنشدته بيتا أجدت فيه، فلم يحركه قلت وما هو قال:

بالدّين والنَّاسُ بالدُّنيا قد اشتغلوا   أضْحَى إمَامُ الْهَدَى المأمُون مُشْتَغِلا

فقلتُ :ما صنعت شيئا، ما زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها مسبحتُها في يدها، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولا عنها، هلا قُلْتَ كما قال جرير ()في عمر بن عبد العزيز :()

ولا عَرَضُ الدُّنْيا عن الدّينِ   فَلا هُوَ في الدُّنْيَا مُضيعٌ

شاغِلُهُ **نَصِيبَهُ**

وجاءت امرأة إلى المأمون فقالت:

ويا إماماً به قد أشْرَقَ البَلَدُ **يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى به الرَّشَدُ**

عَدَا عليها فلم يَتْرِكْ لها لُبَدُ **تشكُو إليك عَمِيدَ الخلق أرملةٌ**

ظلما وفرق منها الأهلُ والولدُ **وابتز منها ضِياعاً مَنْعَتِها**

فأجابها وقال:

عَني وأقْرَح مِنِيّ القلبُ والكبدُ **في دون ما قُلْتِ زَالَ الصَّبرُ والْجَلَدُ**

واحْضِري الخَصْمَ في اليوم الذي أعِدُ **هذا أوان صلاة العصر فانْصرِفي**

انصفك منه وإلا المجلس الأحَدُ **والمجلسُ السبتُ أن يقضي الجلوسُ لنا**

فلما كَانَ يومُ الأحدِ جَلَسَ فجاءته، فقالت :السَّلامُ عَليكَ يا أميرَ المؤمنينَ، فردَّ وقالَ :أينَ خَصْمكِ، قالت :واقفُ على رَأسِكَ، وأومأت إلى العبَّاس () ابنه فقال لأحمد بن أبي خالد :خذ بيده وأجلسه معها، ففعل فجعل كلامها يعلو كلامه، فقال لها أحمد بن أبي خالد :يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وتكلمين الأمير فاخفضي من صوتك .فقال المأمون :دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، ثم قضى على ابنه.

ومن شعر المأمون:

وَأغْفَلْتَنِي حتَّى أسَأتُ بِكَ الظَّنَّا **بَعَثْتُك مُرْتَاداً فَفُزْتَ بِنَظْرةٍ**

فيا لَيْتَ شِعْري عن دُنُوك ما أغْنِا **فَنَاجَيْتَ مَنْ أهْوَى وَكُنْتُ مُبَاعَداً**

لقد سرقت عيناك من عينها حُسْنا () **أرَى أثراً منها بعَيْنَيْكَ لم يكـن**

وله أيضاً :()

عَيْنُ رَسُولي وَفُزْتُ بالْخَبَر **إنْ تَشْقَ عَيْني بهَا فَقَدْ سَعُدَتْ**

رَدَّدت عَمْداً فـي طَرْفِهِ نَظَري **وَكُلَّما جَاءَني الرَّسُولُ بها**

قدْ أثَّرتْ فِيـهِ أحْسَنَ الأثَر **يَظْهَرُ فـي وَجْهِهِ مَحَاسِنُها**

فانظرْ بهَا واحتفظ على بَصَري **خُذْ مُقْلَتي يـا غُلام عـاريةً**

واعتل الفضل بن سهل فتأخر في بيته، فوردت عليه رقعة من المأمون بخطه يسأله عن حاله وفي آخرها:

وبالخير ربُّنا مَسَّاكَا **كَيفَ أصبحتَ بالسلامةِ يا فضلُ**

وعافاكَ عاجلاً وشافكَا **لا أراني الإله فقدَك يا فضلُ**

وَقلبي لو يستطيعُ أتاكَا **قد أردتُ المجيء إذْ غلبَ الشوق**

لستُ أستطيعُ أنْ أراكَ كَذاكا فتذكرتُ عندَ ذاك بأني

كيفَ أنتَ الغداةَ مِن شكواكا فأينَ يا وقتُ فيك حَذاري

باب
في خطبهِ ومناقِبه

قيلَ خَطَبَ يومَ جمعةٍ فقال :الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه، واستوجبه على خلقه، أحمده واستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون :أوصيكم عباد الله بتقوى الله، والعمل لما عنده، والانجاز لوعده والخوف من وعيده، فإنه لم يسلم إلا من اتقاه، وخافه ورجاه وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحلوا سراعا فقد جد بكم الرحيل، واستعدوا للموت فقد أضلكم ما تحذرون، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم والجنة أو النار إلا الموت أن ينـزل به، وأن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة، وأن غائبًا يحدوه الجديدان لحري بسرعة الأوبة وإن قادمًا يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه، ونصح نفسه، وقدم توبته وغلب شهرته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خاذله، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها، ويمنيه التوبة ليسوفها، حتى تهجم عليه منيته، أغفل ما يكون عنها، فيالها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة، أو تؤديه أيامه إلى شقوة .نسأل الله أن يجعلنا وإياكم، ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعته غفلة، ولا تحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء، وبيده الخير وهو فعال لما يريد.

وخطب يوم أضحى فقال بعد التكبيرات الأولى والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والوصية بتقوى الله عز وجل:

إن يومكم هذا، يوم أبان الله عز وجل فضله، وأوجب تشريفه، وعظم حرمته ووفق له من خلقه صفوته وابتلى فيه خليله وفدى فيه من الذبح نبيه وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام، في شهر حرام، يوم الحج الأكبر، ويوم دعا الله عز وجل إلى مشهده، ونـزل القرآن بتعظيمه .قال عز وجل ﴿ :**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** () ﴾فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله واجعلوها من أطيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول عز وجل :

﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ () ﴾الآية ثم قال بعد التحميد والتكبير وذكر الجنة والنار الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب، وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان، والحساب والقصاص والصراط، ثم الثواب والعقاب .من نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة والشر كله في النار.

وخطب يوم الفطر فقال بعد التكبير :ألا وأن يومكم هذا يوم عيد وسنة، وابتهال ورغبة، يوم ختم الله فيه صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتما للشهر، وأول شهور الحج، وجعله معقب المفروض من صيامكم، ومتنفل قيامكم، أحل فيه الطعام لكم، وحرم فيه الصيام عليكم .فاطلبوا إلى الله عز وجل حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال :لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .فاتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي فيه عدل بينكم ولم يحتضر الشك فيه أحد منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، وإنه لا يقال ()بعده عثرة ولا تقبل عنده توبة .واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه على غصصه وعلزه ()وكربه، ولا يعين على القبر وظلمته، ووحشته وضيقه وهول مطلعه، ومساءلة ملائكته إلا العمل الصالح، الذي أمر الله عز وجل به فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته وفاتت استقالته ودعا من الرجعة بما لا يجاب إليه، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه .فالله الله عباد الله وكونوا قوما سألوا الرجعة، فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها فإنه ليس يتمنى المتمنون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم، واحذروا ما حذركم الله عز وجل، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة له وعليه فقد حكى الله عز وجل لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضكم عنها وهو قوله عز وعلا ﴿ :وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ () ﴾الآية .وقال تعالى ﴿ :وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا () ﴾الآية.

ولست أنهاكم من الدنيا، بأعظم مما نهتكم به الدنيا عن نفسها، فإنه كل مالها ينهى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته عيونكم من عجائبها ذم كتاب الله عز وجل لها، ونهي الله جل ثناؤه عنها، فإنه يقول تبارك وتعالى ﴿ :فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ () ﴾، وقال ﴿ :إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ .. ()الآية، فانتفعوا بمعرفتكم، وبإخبار الله عز وجل عنها .واعلموا أن قوما من

عباد الله أدركتهم عصمة الله، فحذروا مصرعها وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله تبارك وتعالى فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها.

وروي عن واقد ()بن محمد الواقدي عن أبيه أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها دينه، وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر الرقعة، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، سخاء، وحياء، أما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك وأما الحياء فهو الذي يمنعك تبليغنا ما أنت فيه، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك، وإن لم تصب فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق ()عن الزهري عن أنس ()أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام " :()يا زبير أعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر الله عليه ومن قلل قلل الله عليه ()وأنت أعلم .قال الواقدي :فوالله لمذاكرة المأمون إياي الحديث، أحب إلي من الجائزة.

قال يحيى بن أكثم القاضي :تغدينا في يوم عيد، عند المأمون فظننته أنه وضع على المائدة، أكثر من ثلاثمائة لون، فكلما وضع لون، نظر إليه فيقول هذا نافع لكذا، وضار من كذا، فمن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلب عليه السوداء فلا يأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه، فليأكل من هذا .فوالله ما زال يقول كذلك، في كل لون حتى رفعت المائدة .فقلت :يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب، كنت جالينوس ()في معرفته، وإن تكلمنا في النجوم، كنت هرمسا ()في حسابه، أو في الفقه كنت عليا بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه .فقال :يا أبا محمد أين فضل الإنسان على غيره من الحيوان إنما هو بعقله، ولولا تفاضل العقول لتساوى الناس.

قال يحيى بن أكثم :كان المأمون يجلس للناس، في يوم الثلاثاء للمناظرة فإذا حضر الفقهاء ومن يناظر من أهل المقالات، أدخلوا حجرة مفروشة وقيل انزعوا أخفافكم، وأحضرت الموائد، وقيل أصيبوا من الطعام، وجددوا الوضوء ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها .فإذا فرغوا أتوا بالمجامر ()وتطيبوا، ثم خرجوا إليه فاستدناهم حتى يقربوا منه، فيناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين، فلا يزال كذلك إلى أن تزول الشمس ثم يقوم إلى الصلاة فبينما هو يوما جالس، إذ دخل عليه علي بن ()صالح حاجبه، فقال :إن في الباب رجلاً، عليه ثياب غلاظ مشمرة، يطلب الدخول للمناظرة .قال :ائذن له فدخل ونعله في يده، فوقف

على طرف البساط، وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .فقال المأمون :وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قال :أتأذن في الدنو منك، قال :نعم، فدنا منه، فقال له : اجلس فجلس، فقال :أتأذن في كلامك قال :تكلم، قال :أخبرني عن هذا المجلس، الذي أنت فيه جالس، أجلسته بإجماع المسلمين واختيار لك ورضى بك، أم بالمغالبة لهم، والقوة عليهم بسلطانك .قال المأمون :لم أجلسه بواحد منهما ولكن كان يتولى أمرهم سلطان قبلي احتمله إما على رضى منهم، وإما على كره، فعقد)لي ولاية الأمر بعده (باتفاق من حضر من المسلمين، فأعطوا ذلك إما طائعين، وإما كارهين، فلما صار الأمر إلي، علمت أني محتاج إلى إجماع كافة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها على الرضى بي، ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن هذا الأمر اضطرب المسلمون، وغلب على الناس الهرج والفتنة، ووقع التنازع فتعطلت أحكام الله ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم، وانقطعت السبل ولم يحج بيت الله ولم يجاهد في سبيله إذ لم يكن سلطان يجمعهم ويسوسهم، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به، وأسلم الأمر إليه وأكون أنا كرجل من المسلمين.

وأنت أيها الرجل، رسولي إلى جميع المسلمين بهذا .فقام وقال :السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .قال :فأمر المأمون علي بن صالح أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين يقصد، ففعل ثم رجع، فقال :مضى إلى مسجد فيه جماعة على هيئته وزيه، فقالوا :لقيت الرجل، قال :نعم، وقص عليهم القصة، فقالوا :ما نرى بهذا بأسا وافترقوا .فأقبل المأمون على يحيى بن أكثم وقال :يا أبا محمد قد كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر خطب .قال ابن أكثم :ما رأيت ولا سمعت بأكرم من المأمون، وأخذ في الحديث عنه، قال :بت عنده ليلة فانتبه بالليل فظنني نائما، فجعلت أراعيه وقد عطش فلم يدع بالغلام، لئلا ينبهني، فقام متسللا حافيا، يقارب الخطو، حتى أتى البرادة فتناول كوزا منها فشرب، ثم رجع يخفي وطئه كأنه لِصٌّ حتى اضطجع في مضجعه، وأخذه سعال فرأيته يجعل كمه في فيه، لئلا أسمع سعاله فأنتبه، وطلع الفجر وأراد القيام وقد تناومت إلى أن كادت الصلاة تفوت، فتحركت، فقال :الله أكبر، يا غلام هات نعل أبي محمد، فقلت :يا أمير المؤمنين إن بعيني جميع ما كان الليلة من صنعك ولذلك جعلكم الله لنا موالي وجعلنا لكم عبيدا .قال :ولقد سايرته يوما إلى البستان، فحاذيته من جهة الشمس لأستره منها، فلما عاد في طريقه دار في الموضع الذي كنت فيه، وقال :من حق المسايرة، أن آخذ بنصيب من الشمس،

كما أخذت أنت منها، فقلت :والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك هول المطلع لفعلت، فقال :لا بد، فسترني من الشمس حتى عدنا.

قال :وكان ابن أبي خالد يعرض الكتب بين يديه يوما فجاءته عطسة شديدة، فأدخل وجهه في كمه وكتمها، فكادت تأتي على نفسه وفطن المأمون له، فقال :يا أحمد بئس ما صنعت بنفسك، إنا لا نحمد أحدا على هذه الخطة، فقال :يا أمير المؤمنين ما سمعت لأحد من الملوك بمثلها، فقال المأمون :بلى، أراد الأبرش (1) أن يعمم سليمان بن عبد الملك (2)، فقال :إنا لا نتخذ الإخوان خولا .قال يحيى بن أكثم : وتوضأت يوما عنده، فلما أتيت بالوضوء إذا بالإبريق له أنبوب طويل، نحو من أربع أذرع، فجعلت أتعجب منه وأدير فيه الفكر وأحد النظر، فقال لي المأمون عند ذلك :يا أبا محمد كأنك تعجب من طوله، قلت :نعم يا أمير المؤمنين، فقال :إن هذا الغلام قد اعتاد أن يوضئني، وله صحبة قديمة، وهو يأكل البصل كثيرا، فنهيته عنه غير مرة، فلم ينته، فأمرت بعمل هذا لئلا أقطعه من شهوته وأتباعد عن رائحته .

وروي أن دعبلا (3) هجاه فقال:

أوَ مَا رَأى بالأمْسِ رَأسَ مُحَمَّدِ	**وَيَسُومُنِي المأمُونُ خطَّةَ عَارِفٍ**
يُوفِي الجِبَالُ على رؤُوسِ القَرْدَدِ	**يُوفِي كلى رؤوس الخلائق مثلما**
قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد	**إني من القوم الذين هم هم**
واسْتنقذُوكَ من الحضيض الأوهَد (4)	**شادُوا بذكرك بَعدَ طول خُمـوله**

فبلغه ذلك فقال :قبحه الله ما أبهته، متى كنت خاملا ومن حجر بالخلافة درجت وبدرها غذيت .وظفر به بعد ذلك فعفا عنه.

ولما حبس يحيى بن أبي خالد كتبت إليه أم ولد له :إن جميع أمهات أولادك، قد نالوا فضل أيامك سواي، فوقع لها :قد أعددت لك الفضل بن سهل، فلما ورد الفضل بن سهل، وبلغ ما بلغ، دفعت الجارية توقيع يحيى ين خالد إليه، فلما رآه بكى، وأمر لها بعشرة آلاف دينار وقال :إذا فني منك فطالعينا .قال أحمد بن أبي خالد :ما رأيت مثل الفضل بن سهل، أصبر على الجلوس، ولا أقوى على كتاب، ولا أنزه نفسا، ولا أشد ارتفاعا عن الدنيا، ولا أطلب لجميل الذكر، وحسن الأحدوثة منه، ما جمع مالا قط ولا ادخره، وكـان يلبس من ثياب المأمون، ويركب من دوابـه وما وجد له يوم قتل شيء.

وكان الفضل بن سهل في الحمام، فهجم عليه جماعة من غلمان المأمون (5)، فقتلوه فيه فارتفعت الضجة وركب المأمون إلى الحمام حتى وقف على باب الحمام،

فأخرج الفضل فنـزل المأمون فوقع عليه، وقبل وجهه وهو يبكي ومشى المأمون من الحمام إلى الدار، ثم وقف عليه حتى غسل وكفنه بيده وحنطة وركب حتى صلى عليه، وغلبته العبرة حتى ارتفع صوته، فلما انصرف طلب قاتليه فقتلهم، ثم التفت إلى علي بن موسى الرضى ()عليه السلام، فقال :لقد أصبحت والله بعد فقد ذي الرياستين ()، بمنـزلة رجل في فلاة، إن دهمه الليل خاف من السباع، وإن وافاه نهار :خاف العدو وهو ما بين ذلك معدم من الزاد .وجعل يبكي وأخذ بيد علي بن موسى الرضى، ودخل على أم الفضل ()يعزيها فقال :أتجزعين يا أمة وقد خلف لك ذو الرياستين ابنا، فقالت :كيف لا أجزع على من جعلك ابني.

رجعنا إلى الكتاب قال دخل أبو إسحاق المعتصم ()على المأمون فقال له :إن عبد الله بن طاهر ()يميل إلى ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد إليه بمثل ذلك، فدس المأمون إليه رجلا وقال له :امض إلى عمالة عبد الله بن طاهر، إلى مصر على هيئة الناسك، فادع أهلها إلى القاسم ()بن إبراهيم بن طباطبا العلوي واذكر مناقبه وعلمه، ثم إئت عبد الله بن طاهر، فادعه ورغبه وابحث لي عن دفين نيته، بحثا شافيا وجئني بما تسمع منه، فأتى الرجل مصر فدعا جماعة من الرؤساء، وقعد لعبد الله بن طاهر فلما انصرف من مركبه، قام إليه فأخرج رقعة من كمه فدفعها إليه، وأدخله عليه فقال :هات ما عندك قال : بأمان منك قال :نعم، فأظهر له ما أراد ودعاه إلى القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وأخبره بفضائله وعلمه وزهادته، فقال عبد الله بن طاهر أتنصفني قال :نعم، قال : هل يجب شكر الله على العباد، قال :نعم، قال :فهل يجب شكر بعضهم بعض على الإحسان؟ قال :نعم، قال :فتجيء إليَّ وأنا في هذه الحال التي تراها، ينفذ خاتمي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ما ألتفت يميني ولا شمالي، ولا قدامي ولا خلفي، إلا رأيت منة منه ونعمة على ختم بها رقبتي، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول لي أغدر بمن ولاك هذا كله، واسعى في إزالة ملكه، فسكت الرجل فقال له عبد الله بن طاهر :قد بلغني خبرك، وبالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذه البلد فإن الخليفة إن بلغه أمرك .كنت الجاني على نفسك، فرحل من وقته حتى وافى المأمون، فأخبره بما سمع من عبد الله بن طاهر، فاستبشر به وقال :ذلك غرس يدي ونشو أدبي، فلم يظهر لأحد من ذلك شيء ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون.

وقيل اجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنـزل العتابي ()فقال أليس هذا منـزل كلثوم، قيل :بلى، فثنى رجله ودخل عليه، فألفاه جالسا في بيت كتبه فحادثه وذاكره

ثم انصرف، وتحدث الناس في ذلك، فقالوا :إن الأمير لم يقصده، وإنما اجتاز به فأخطر بتلك الزيارة فكتب إليه:

بَعْدَ الخمولِ نَباهةَ الذكْرِ   يا مَنْ أفادَتْنِي زِيارَتَهُ

وبحارُ بِرِّكَ لَيْسَ بالخطرِ   قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ عرضت

تستَنْفِذِ المجهودَ مِنْ شُكري   فادفعْ مقالَتَهُم بثانيةٍ

إنَّ الثلاثَ تتمةُ الوِتْرِ   لا تجعلَنَّ الوِتْرَ واحدةً

فبعثه الأبيات إلى أن زار ثلاثا.

وحدث صالح بن علي وكان من وجوه الكتاب، قال :طالت بي العطلة، وبلغ بي ذلك أعظم الحاجة، فبكرت يوما إلى أحمد بن أبي خالد، الوزير، لأعلمه بجليل أحوالي وأسأله لم شعثي، فخرج من بابه وبين يديه قاصدًا باب المأمون، فلما نظر إلي أنكر بكوري وعبس في وجهي وقال :في الدنيا أحد بكر هذا البكور ليشغلنا، قال :فقلت ليس العجب منك أصلحك الله فيما لقيتني به، إنما العجب مني إذا أسهرت ليلتي وأسهرت جميع أهلي، يرقبون الصبح حتى أصير إليك، في صلاح أحوالي بعد وقوع الاختيار عليك فيما آمله عندك، ولكن علي وعلي أن وقفت لك بباب أو سألتك حاجة، إلى أن تصير إلي معتذرا مما لقيتني به، وانصرفت مغموما مفكرا فيه نادما على ما فرط مني من اليمين، آيسا من الفرج لاستبعاد مجيء الوزير إلي واعتذاره مني، راجعا على نفسي باللوم، فإني لكذلك إذ دخل علي بعض الغلمان، فقال :إن الوزير أحمد بن أبي خالد آخذا في شارعنا ودخل آخر فقال :إنه دخل دربنا، ودخل ثالث فقال :إنه قرب من دارنا ثم دخل رابع فقال :إنه دخل دارنا، فخرجت مستقبلا له فلما استقر به المجلس قال لي :كان أمير المؤمنين قد أمرني بالبكور إليه، في بعض مهماته فدخلت إليه وقد غلبني الهم والغم بما فرط مني إليك، حتى أنكر حالي فقصصت عليه القصة، فقال :قد أسأت إلى الرجل ولا عليك أن تعتذر إليه قلت :فامضي إليه فارغ اليد، قال :فتريد ماذا قلت تقضي دينه، قال :وكم ذلك قلت مائة ألف درهم فأمرني بالتوقيع لك بها، قلت :فإذا قضى دينه فيرجع إلي ماذا قال فوقع له بمائة ألف درهم أخرى، يصلح بها حاله .قلت :فولاية يشرف بها قال :له مصر أو غيرها مما يشبهها، قلت :فمعونة يستعين بها على سفره، فأمر بأن يوقع لك بمائة ألف درهم وهذه التوقيعات لك بكل ذلك فنثرها وانصرف.

وقال محمد بن عباد المهلبي :()دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها، فأخبر المأمون بذلك فلما عاد إليه عاتبه في

ذلك، فقال :يا أمير المؤمنين منع الجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائتي ألف درهم.

وأنهى إلى المعتصم أن الحسن بن سهل قد أضاف إلى ضياعه التي أقطعها، ضياعا كثيرا خراجية، فتكرم المعتصم أن يأمر بمناظرته دون سائر أصحاب الإقطاعات، فأمر بكشف الإقطاعات كلها، فدخل الحسن بن سهل لما بلغ إليه ذلك عن المعتصم، فقال :يا أمير المؤمنين ما كانت لي ضياع ولا لأبي من قبلي، ولكن هي نعمتكم التي أنعمتم بها علي وقد رددت جميعها، إلى أيدي عمال أمير المؤمنين، وما كان لي فيها ملكا فأمير المؤمنين منه في حل، ولا أكون سببا لهلاك الناس وضررهم فاستحيا المعتصم وغض طرفه، وقال :لا أكشف إقطاعاتك ولا إقطاعات غيرك ولم يزل على بر وإكرام .وقال أحمد بن أبي داوود ()القاضي :ما رأيت أجمع لفضيلة ولا أوصل لرحم، ولا أرق قلبا على ذي حاجة، وأصدق وأوفى بقول واكظم لغيظ وأعفى عن مسيء، وأشد تفقدا للصاحب والخادم، وأشجع قلبا وأحسن سياسة من المعتصم، فأما صلته للرحم، فكان إبراهيم بن المهدي أعدى خلق الله له وأشدهم استخفافا له في أيام المأمون وكان المأمون زوج المعتصم لبابة بنت إبراهيم فمنحه وقال لا أرضاه لها فلما صارت إليه الخلافة بره وآثره وكان أحضى الناس عنده.

وقال المعتصم :يا أبا عبد الله لقد كنت ألقى من جماعة في أيام المأمون، كل ما أكره ويذكرونني له بأسوء الذكر، ويقولون في أقبح القول فظننت أني متى قدرت عليهم، لم أبق على أحد منهم، وكان أشدهم قصدا لمكروهي وعيي إبراهيم بن المهدي، وكأن يذكرني بالقبح إذا غبت وينتقصني إذا حضرت، ويحكي كلامي في مجلس المأمون، ويهجوني بأقبح الهجاء حتى هممت مرة بعد أخرى، أن أفتك به في مجلس المأمون، فأقطعه إربا إربا، فلما قدرت وصار إلى السلطان، ذهبت الحفيظة من قلبي عليه وعلى أمثاله، ممن تقدمت إساءته فرأيت العفو عنهم أحسن من المكافأة وأنفع في الآخرة.

وقال إبراهيم بن المهدي لما ولي المعتصم :والله لقد ظننت أنه يأمر بضرب عنقي إذا وقعت عينه علي ولو أمكنني الهرب منه لهربت فما دخلت عليه يوما إلا جدد لي بشرا وإكراما ولا خرجت إلا بصلة وخلع وحملان.

وقال ابن أبي داوود وكان محمد بن قاسم العلوي ()خرج عليه بخراسان، فحمله عبد الله بن طاهر في الحديد إلى حضرة المعتصم، فاطلع عليه يوما من

مشرفه، فرآه وعليه جبة صوف وفي رجله الحديد، وقد تغير لونه فرق له ودمعت عيناه، ثم قال لي :يا أبا عبد الله هذا ابن عمي وأدنى الناس رحما، وما يحتمل قلبي أن أراه على هذه الحال، ثم دعا بعض الذي كان قائما على رأسه، فقال :اذهب فقل له ما الذي دعاك إلى الخروج علي، ولم ينلك مني سوء قط، فمضى الرسول فأبلغه، فقال :رأيت جورا شديدا، لم يسعني فيما بيني وبين الله إلا إنكاره فقال المعتصم : ارجع إليه فقال له هل هذا جور أحدثته أنا، أم كان شيئا فعله سلفي قبلي، قال :بل كان فعله سلفك قبلك وسلكت سبيلهم، فقال :ارجع وقل له أيما أفضل أنت أم من تقدم من سلفك، فقال محمد :بل من تقدم من سلفي، فقال :قل له يا هذا كيف وسع سلفك مع فضلهم وسابقتهم، أن لا يخرجوا على سلفي، ولم يسعك أنت إلا الخروج علي، فأبلغه ذلك فسكت ولم يجبه .فرجع الرسول فعرفه ذلك .قال :لي يا أبا عبد الله ما أصنع بهذا، أخاف والله إن أطلقته معاودة مثل الذي كان منه، فيسفك دماء المسلمين بيننا وبينه، قال قلت :الحبس الذي يؤمن مكروهه، قال فأمر بفك قيوده في الوقت، وأنزلت عنه ثقل الحديد، ونقله إلى دار ووسع عليه في مطعمه ومشربه وملبسه.

قال :وكنت يوما عنده وقد امتلأ غيظا فدعى بعمر بن فرج ()وهو يتناوله بالشتم، فلما جاءه قال :يا ابن اللخناء، متى أمرتك بجعل أصحاب أخبار علي الطالبيين وتتبع أمرهم، قال :يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلا منهم كاتبه أهل خراسان وأرمينيا، فأردت أن أعرف وأتيقن حقيقة ذلك وأنهيه إلى أمير المؤمنين، فقال :وما الذي عليك منهم، فوالله لأغفرن ذنوبهم، ولأصلن أرحامهم، ولأعفون عن مسيئهم ولأعطفن على كبيرهم وصغيرهم، فإن أرادوني بسوء فالله بيني وبينهم.

قال :ودخلت إليه فقلت إن أهلك، وذوي رحمك من آل أبي طالب في ضر شديد بالمدينة، وقد نالتهم مجاعة شديدة وسنة مجدبة، وتأخرت أرزاقهم، فدعا ابن الزيات ()وقال :يا محمد احمل إليهم الساعة ولا تتوقف مائتي ألف درهم، ووالله لإن أخرت إلى غدٍ، لأنهكتك عقوبة فحمل إليهم ذلك من وقته.

قال :وكنت عنده يوما فدخل عليه بعض من يحضر مجلسه فقال إني كنت بالأمس عند عبد الله بين أيوب ()، قال فما كانت حالتكم فقال :أطعمنا ثلاثة ألوان ليس فيها لحم، فقال ويلك :ذلك حسن المروءة وكثير الطعام قال انفذْ إلى القصَّاب رقعة يعطه وظيفته من اللحم وإلا لم يأكل هو ولا أولاده لحما فأطرق مفكرا وقال بلغت به الحال إلى هذا قلت نعم فدعا بإيتاخ ()فقال احمل إلى عبد الله بن أيوب

مائتي ألف درهم وقل للرسول لا يأخذ منه شيئا فإذا رجع من عنده فاعط رسولك ألفي درهم.

قال :ورأيته وقد حاصر عمورية، وأنه لواقف والحجارة تأتي من كل موضع حتى يناله بعضها وهو لا يزول، فقلت :الله الله يا أمير المؤمنين نشدتك الله لما تنحيت، فقال :والله ما من موضع يأتيني فيه الموت أحب إليَّ من هذا الموضع، فقلت :إن أرواح المسلمين بروحك معلقة، فإن حدث حادث فإنهم مضيعة جازر فما التفت إلى قولي وثبت مكانه.

وقال :وخرجنا في تلك الغزاة، فكنت على جمل في محمل، وكان يجيء على فرسه حتى يصير تحت محملي ويحدثني، فأقول :انـزل واركب دابة وأكون بين يديك يا أمير المؤمنين، فيقول :لا والله لا فعلت، المحمل أبر بك وأرفق.

وصرنا إلى مخاضة فقال للجمال :قف ثم إنه تقدم حتى عرف مقدار الماء وجعل يقول للجمال :خذ كذا خذ كذا بلطف ورفق حتى عبرت.

وقال يوما ونحن بعمورية :ما تقول في البسر يا أبا عبد الله، فقلت :نحن ببلاد الروم والبسر بالعواق، فقال :قد جاءنا عذقان .فقال :يا ايتاخ هات أحد العذقين، فجابه فمد المعتصم يده وحسر عن ذراعه، وقال :بحياتي عليك كل ين يدي فقلت : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، بل تضعه فآكل منه كما أريد، قال :لا والله إلا من يدي، قال أحمد :فوالله إن زال حاسرا مادا يده وأنا أجتني، حتى رمى به وما به بسرة واحدة.

قال :ووقف يوما على الدور بعمورية، رجل فصيح بالعربية فجعل يشتم النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك على المعتصم وعلى المسلمين، وحاولوا قتله وراموه بكل مرام، من النشاب والعرادات ()وغيرها ولم يلحقه شيء حتى رمى رجل من الناشبة، فأصاب نحوه فوقع اللعين من السُّورِ إلى خارج، وكبر المسلمون وسر المعتصم بذلك سرورا عظيما، وقال :أخبروني عمن رمى هذا السهم المبارك، فأوتى بالرجل فأدخل عليه، فقال له :سألتك بالله لتبعني ثواب هذا السهم بمائة ألف درهم، فقال الرجل :يا أمير المؤمنين ليس الثواب مما يباع، قال :فما زال يرغبه حتى بلغ معه خمسمائة ألف درهم، فقال ما أبيعه بالدنيا بأسرها وما فيها، ولكني أشهد الله أني قد جعلت نصف ثوابه لك يا أمير المؤمنين، فقال :قد رضيت بهذا أحسن الله جزاءك، وأمر للرجل بمائة ألف درهم، فقبضها من ساعته .وقيل لما وقع الحريق في الجانب الغربي ببغداد وجه المعتصم ابنه هارون ()فقام بأمرها حتى

أطفيت، وأمر بكتب أسماء من احترق له شيئا، ومبلغ ما ذهب لهم ثم أعطى كلا منهم على قدر حاله فبلغ إعطاؤهم عشرين ألف دينار وخمسماية ألف ألف درهم.

وقال ابن أبي داوود الماضي :ما رأيت رجلا عرض على الموت فلم يكترث به ولا عدل به عما أراد، إلا تميم بن جميل الخارجي ()وكان قد خرج على المعتصم، فرأيته وقد جيء به أسيرا، فأدخل عليه في يوم مركب، وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما فدعا بالسيف والنطع ()فلما مثل بين يديه، نظر إليه المعتصم فأعجبه حسنه وقده، ومشيته إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكر فيه ثم استنطقه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال :يا تميم إن كان لك عذر فأت به، فقال :أما إذا أذن أمير المؤمنين في الكلام فأني أقول :الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الإسلام، ولم بك شعث الأمة، وأخمد بك شهاب الباطل، وأنار بك سبيل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأنت إلى العفو أقرب، وهو بك أشبه وأليق ثم أنشد:

يلاحظُني مِنْ حيثُ ما أتلفتُ ... أرىَ الموتَ بينَ السَّيف والنَّطع كامناً
وأيُّ امرئ عما قضَى اللهُ يُفلتُ ... وأكثرُ ظَنِّي أنكَ اليومَ قاتِلي
وسيفُ المنايا بينَ عَيْنيه مُصْلَتُ ... فمَنْ ذا الذي يأتي بعُذْرٍ وُحُجَّةٍ
يسل علّي السيفُ فيه وأسكتُ ... يعز على الأوس بن ثعلبة موقفي
لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ مؤقَّتُ ... وما حزني مِنْ أن أموتَ وإنني
وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتَّتُ ... ولكنّ خَلْفِي صِبْيةً قد تركتهم
وقد لطموا تلك الخدود وصوّتوا ... كأني أراهم حين أُنْعَى إليهِمُ
أذُودُ الرَّدَى عنهم وإن متّ موَّتوا ... فإن عشتُ عاشُوا خافضين بغْبطةٍ
وآخرَ فرحانُ يُسَرُّ وَيشْمَتُ ... وكم قائل لا يُبعدِ اللهُ دارهُ

قال :فبكى المعتصم ثم قال :إن من البيان لسحرا ()كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال :يا تميم كاد والله يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله تعالى وللصبية، وعفوت عن زلتك .وعقد له ولاية على عمله وخلع عليه وأعطاه خمسين ألف دينار.

قيل :وكان الأفشن ()مغضبا على أبي دلف العجلي ()، وحاسدا له على فضله فحمل نفسه يوما على قتله، فاستدعاه باستحثاث وإزعاج .وكان صديقا للقاضي

أحمد بن أبي داوود فبعث إليه أن أدركني، فمن أمري كيت وكيت فركب مسرعا واستحضر من حضره من الشهود، فلما ورد باب الأفشين قال له الغلمان :نستأذن لك، فقال :الأمر أعجل من ذلك، ونـزل ودخل على الأفشين وهو جالس في مجلسه، وقد أقيم أبو دلف بين يديه في الصحن، فلما رأى الأفشين القاضي قد دخل بلا إذن بهت فقال" :إن أمير المؤمنين أمرني إليك أيها الأمير "أن لا تحدث في أمر القاسم حدثا، إلا بإذنه ثم التفت إلى الشهود، فقال :اشهدوا أني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين، ثم خرج فأتى باب المعتصم مسرعا، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه قال :يا أمير المؤمنين قد كذبت عليك واحدة، ثم أرجو بها الجنة، ولك الفخر، قال :وما هي، قال :كان من الأمر كيت وكيت، فضحك المعتصم وقال :أحسنت أحسن الله إليك، ثم لم يلبث أن جاء الأفشين مستأذنا فأذن له، فلما استقر مجلسه قال : يا أمير المؤمنين جاءني رسالة منك مع قاضي القضاة في معنى أبي دلف، فما تأمرني في شأنه، قال :نعم أنا أرسلت إليك فيه فاحذر أن تتعرض له إلا بالخير، فأفلت من يده بذلك.

وروي أن بعض العمال رفع على خالد بن يزيد بن مزيد [0]، أنه اقتطع أموالا واحتجز بعضها فغضب المعتصم وحلف ليأخذن أموال خالد وليعاقبنه، فلجأ خالد إلى القاضي أحمد بن أبي داوود فاحتال أحمد حتى جمع بينه وبين خصمه الذي رفع عليه، فلم تقم على خالد حجة، فعرف ابن أبي داوود المعتصم بذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفع فأحضر خالد وأحضرت آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك قبض على أمواله وضياعه وصرفه عن العمل، فحضر ابن أبي داوود المجلس فجلس دون مجلسه الذي كان يجلس فيه، فقال له :المعتصم ارتفع إلى مكانك، فقال :يا أمير المؤمنين ما استحق إلا دون هذا المجلس، قال :وكيف قال الناس يزعمون أنه ليس محلي محل من يشفع في رجل قذف ليس بما ليس فيه، ولم يصح عليه فلم يشفع . قال :فارتفع إلى موضعك قال :مشفعا أو غير مشفع، قال :بل مشفعا قد وهبت لك خالدا ورضيت عنه، فقال :إن الناس لا يعلمون بهذا، قال قد وهبت عليه جميع ما قبض عليه من ضياعه وأمواله، قال :فمن له بفك قيوده والخلع عليه ففعل ذلك، قال :قد استحق هو وأصحابه رزق سنة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجعلها صلة له لتحمل معه ففعل ذلك .ثم خرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه، والناس ينتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال سروا بذلك، وصاح به رجل نحمد الله على خلاصك يا سيد العرب، فقال :مه سيد العرب والله بعد أمير المؤمنين أحمد بن أبي

داوود الذي طوقني هذه المكرمة.

قال أبو عبد الله النديم :()لقد رأيت الملوك في مقاصيرها ومجامعها، وما رأيت أغزر أدبا من الواثق ()، خرج إلينا ذات يوم وهو يقول لعمري لقد عرض عرضه من عرضه لقول الخزاعي:

طوى الكشحُ عَني اليومَ وهو مكينُ   خليليَّ ماذا أرْتجِي مِنْ غَدِ امرىءٍ

يَسُدُّ بـهِ فقْرَ امـرئٍ لضنـينُ   وإنَّ امـرءًا قـدْ ضَنَّ يوماً بمنطق

فانبرى أحمد بن أبي داوود كأنما أنشط من عقال يسأله في رجل من أهل اليمامة فأسهب في الشفاعة وأطنب وذهب في القول كل مذهب .

فقال له الواثق :يا أبا عبد الله لقد أكثرت في غير كثير وأطنبت فقال :يا أمير المؤمنين إنه صديقي وأنشد:

مِنَ الهيِّنِ الموجودِ أنْ يتكلَّما   وأهونُ ما يُعطي الصَّديقُ صَديقَهُ

قال الواثق :ما قدر هذا اليمامي أن يكون صديقك، وإنما أحسبه أن يكون من بعض خولك، فقال :يا أمير المؤمنين إنه قد اشتهر بالاستشفاع بي عندك وجعلني بمرأى ومسمع من الرد والإسعاف، فإن لم أقم له هذا المقام، كنت كما قال أمير المؤمنين:

يَسدُّ بهِ فقرَ امرئٍ لضنينُ   وإنْ امرىءٌ قدْ ضَنَّ يوماً بمنطقٍ

فقال الواثق لمحمد بن عبد الملك الزيات، بالله يا محمد ألا عجلت لأبي عبد الله حاجته، ليسلم من هجنة المطل، كما سلم من هجنة الرد.

وقال أحمد بن إسرائيل ()فرق الواثق في الصدقة ووجوه البر على المساكين والفقراء واليتامى الذين أقيمت لهم الكفايات للتعليم، خمسة ألف ألف دينار وفرق على التجار الذين ذهبت أموالهم في الحريق في زمانه سنة إحدى وثلاثين ومائتين خمسمائة ألف ألف دينار، وكان عمر بن فرج يقول .أمر الواثق بحمل الأرزاق لآل أبي طالب إلى المدينة وكان يصل إليهم في سنة مائتا ألف دينار فكان مبلغ ما حمل إليهم ألف ألف دينار .ونظر عمر بن فرج فيما تصدق به الواثق في علته التي توفي فيها، فكان ثلاثة ألف ألف دينار، فأنهى ذلك إليه فاستقله .وكان الواثق قد أمر أن تبنى حضائر فيها بيوت، يجمع فيها المساكين فيجرى لهم الطعام والكسوة، ويمنعوا من السؤال في الطرق والأسواق والأبواب ببغداد وبسر من رأى، وأمر بكتاتيب للصبيان الأيتام والمساكين فيتعلمون القرآن .وقال ابن أبي داوود :لقد فرق الواثق من الأموال، ما خفت أن يخلي بيوت الأموال، فلا يوجد فيها شيء إن جرى أمر أو

حدث حادث، ولقد كنت أعجب من تفرقة المعتصم الأموال، فلما رأيت الواثق وما فعل أنساني فعل المعتصم .قال وكنت لا أذكره بشيء من الخير وأبواب البر، وما فيه ثواب وقربة إلى الله تعالى إلا سره ذلك، وشكرني عليه وجزاني خيرا، وحضني على أن أذكره به.

وكان يجلس للمظالم فيكون غايته انصاف الناس، والإحسان إليهم ودفع الظلم عنهم ورد حقوقهم إليهم، فإذا فعل من ذلك شيئا حمد الله على ما وفقه وأجرى على يديه من الإنصاف .وكان ابن الزيات ربما تكلم عند تظلم المتظلمين بما يريد أن يدافعهم به الواثق النصيحة والإشفاق فينتهره ويؤنبه ويحذره الظلم.

ونال الناس بالعراق غلاء شديد سنة إحدى وثلاثين ومائتين حتى بلغ الكر () الدقيق مائة دينار، فجهد الناس فأمر الواثق بتفرقة الأموال ببغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة فكان ذلك ستمائة ألف دينار .وبلغ إليه أن العمال يأخذون من السفن، التي ترد من الهند والصين العشر، فقال هؤلاء تجار مسلمون، يغدون بأموالهم وأنفسهم، ويركبون البحر فيطول مكثهم فيه، فأمر بإسقاط العشر عنهم .قيل وكان يصلي في داره الصلوات كلها جماعة، يوؤذن المؤذن فيقوم فيركع ثم يتقدم فيصلي، ويصلي خلفه من حضر من أصحابه وقواده وغلمانه، وكان يركب إلى الجامع فيخطب ويصلى وكان كثيرا ما يخطب بخطبة المأمون المشهورة التي تقدم ذكرها في هذا الكتاب .ولما اعتل علته التي مات بها، اجتمع القواد إلى ابن أبي داوود فقالوا :كلمه، يعقد العهد لابنه محمد، فذكر له ذلك فأعرض عنه بوجهه فكلمه ثانية، فقال :يا أبا عبد الله أما كفاني أني تقلدت الأمر في حياتي حتى أتقلد تبعته وأثمه بعد وفاتي، إن عمل من أعهد إليه صالحا، كان له ثوابه، وإن عمل سيئا كان علي وزره، إذ صيرت أمور المسلمين إليه، ومن أين أجد رجلا أرضى دينه وأمانته وفضله، وجمع القواد فقال لهم :عليكم بتقوى الله وأحسنوا الاختيار لأنفسكم بعدي والله خليفتي عليكم وعلى جميع المسلمين .

ولما أزمع المتوكل ()على الرحيل إلى دمشق أمر ابنه محمد ()المنتصر المهلبي يزيد

فقال بيتين على لسانه، ودفعهما إلى من يحسنهما وغنى بهما المتوكل وهما:

وَلَوْ قدْ حدَى الحادي بطلبٍ يحذرُ إلى اللهِ أشكو عَبْرةً نتخيرُ

مقيماً وفي الشامِ الخليفةُ جعفرُ فواحسرتَنا أنْ كنتُ في سُرَّ مَنْ رأى

فأعجب بهما المتوكل وارتاح وبكى ثم قال :من يقول هذا فقيل قاله محمد المنتصر فقال هو على لسانه :لكن من قائله قالوا :يزيد المهلبي فقال ادعوه فوالله لأضحكنه كما أبكاني فلما دخل عليه أمر له بخمسين ألف درهم.

وروي أن محمد بن عبد الله بن طاهر ()كان مولودا بحد السرطان ()، فلما كان ذات ليلة جمع أهل بيته، فقال لهم :إني مولود بحد السرطان وإن طالع السنة السرطان وإن القمر ينكسف الليلة بالسرطان وهي ليلة الأحد فان نجوت في هذه الليلة فسأبقى سنتين وإن كانت الأخرى فإني ميت لا محالة قالوا :بل يطيل الله عمرك، قال :فلما كان الليل دعا غلاما له كان قد علمه النجوم ()، فأصعده إلى قبة له فأعطاه بنادق وأسطرلابا ()، وقال له خذ الطالع فكلما مضى من انكساف القمر دقيقة فاقذف إلي ببندقة حتى أعلم بذلك .وجلس محمد مع أصحابه وجعل الغلام كل ما مضى من انكساف القمر دقيقة قذف إليه ببندقة، فلما انكسف من القمر ثلثه قال لأصحابه :ما تقولون في رجل معكم قاعد يقضي ويمضي وقد ذهب منذ جالسكم ثلث عمره قالوا :بل يطيل الله عمرك .فلما مضى من الليل ثلثاه، عمد إلى جواريه فأعتق منهن من أراد عتقها، ووقف من ضياعه ما أوقف .وقال لهم :ما تقولون في رجل معكم يقضي ويمضي، وقد ذهب جل عمره، فقال القوم :بل يطيل الله عمرك وبقاك أيها الأمير فلما مضى من الثلث الثالث دقيقتان، قال لهم :إذا استغرق القمر فامضوا إلى أخي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ()، ثم قام فاغتسل ولبس أكفانه وتحنط ودخل إلى بيت له، ورد عليه الأبواب واضطجع فلما استغرق القمر في الكسوف فاضت نفسه فدخلوا عليه فإذا هو ميت، فانطلقوا إلى عبيد الله أخيه ليعلموه، فإذا عبيد الله على طيار له على باب القصر قد سبقهم، فقال لهم :مات أخي، قالوا :نعم .قال :ما زلت آخذ الطالع حتى استغرق القمر في الكسوف فعلمت أنه قد قبض ثم دخل فأكب عليه طويلا.

ثم خرج وهو يقول:

زالَ عنها السّرادِقُ الممدودُ هُدَّ ركنُ الخلافةِ الموطودُ

جَدَّ أطنابَها فمالَ العمودُ حطَّ فسطاطَها المحيطَ عليها

والناد شبَّ منها الوقود أحد كان خدّه مثل حدِّ السيف

حدَّها إليهِ الأجودُ أحدٌّ كان خدُّهُ مِن نُحوسٍ جُمِعَتْ

فانجلى البدرُ والأميرُ عميدُ كُسِفَ البدر والأميرُ جميعاً

ونورُ الأمير مالا يعودُ عاودَ البدرَ نورُهُ لتجليه

فالدُّنيا عليها كآبةٌ وجمودُ   أظلمتْ بَعدَهُ الخلافةُ

قدْ قضى وَمنها عتيدُ   الأمورُ قدْ كانَ دَبَّرَ منها مبرمٌ

والغربُ فمنها تهائمٌ ونجودُ ()   قدْ بكاهُ العراقُ والشرقُ

فلما حُمِلَ على سرِيرِه أنشأ يقولُ:

ألا للهِ ما حَمَلَ السريرُ   تُداولُهُ الأكفُّ على سريرِ

إذا رَجعتْ وأطولُها قصيرُ   أكفٌّ لو تُمدُّ إليه حيّاً

تبكيهِ الأراملُ والفقيرُ   تباشرتِ القبورُ بهِ وأضحى

حكي أن محمد بن زيد العلوي ()الداعي بطبرستان كان إذا افتتح الخراج نظر في بيت المال، من خراج السنة التي قبلها، وفرقه في قبائل قريش على دعوتهم، وفي الأنصار وفي الفقهاء، وأهل القرآن وسائر طبقات الناس، إلى أن يفرق جميع ما بقي .فجلس في سنة من السنين ففرق مثل ذلك على عادته، فلما بدأ ببني عبد مناف وقد فرغ من بني هاشم، دعا بسائر بني عبد مناف، فقام إليه رجل فقال له : من أي بني عبد مناف أنت؟ فقال :من بني أمية، قال :من أيهم فسكت فقال لعلك من ولد معاوية قال :نعم فقال :من أيهم فسكت فقال :لعللك من ولد يزيد .قال :نعم .قال : بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلدا ولايته إلى آل أبي طالب وعندك ثأرهم في سيدهم، وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك، فإن كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك شيء وإن كنت جئت مستهزئا بهم فقد خاطرت .فنظر إليه العلويون نظرا شديدا وهموا به، فصاح بهم محمد، فقال :كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون في قتل هذا، دركا وثأرا بالحسين بن عليٍّ عليهما السلام وأي جرم لهذا إن الله تعالى حرم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت .والله لا يعرض له أحد إلا أقدته به، واسمعوا حديثا أحد ثكموه به يكون لكم قدوة فيما تستأنفون، حدثني أبي عن أبيه قال :عرض علي المنصور سنة حج جوهرا فاخرا فعرفة وقال :كان هذا لهشام بن عبد الملك وهذا بعينه قد بلغني خبره عند ابنه محمد ()، وما بقي منهم أحد غيره، ثم قال للربيع :إذا كان غدا، وصليت بالناس في المسجد الحرام وحصل الناس به، فأغلق الأبواب كلها، ووكل بها ثقاتك من الشيعة واقفلها وافتح للناس بابا واحدا وقف عليه، ولا يخرج أحد إلا من قد عرفته، فلما كان من الغد فعل الربيع ذلك .وتبين محمد بن هشام القصة، فعلم أنه المطلوب وأنه مأخوذ، فتخير وأقبل محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام على أثر ذلك، فرآه متحيرا وهو لا يعرفه فأنكر أمره، فقال

له :يا هذا أراك متحيرا متلددا فمن أنت ولك أمان الله تعالى العام التام، وأنت في ذمتي حتى أخلصك بعون الله عز وجل .قال :أنا محمد بن هشام بن عبد الملك فمن أنت قال :أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي قال :فعند الله احتسبت نفسي، قال :لا بأس عليك يا ابن عم فانك لست قاتل زيد، ولا في قتلك إدراك ثأره، وأنا الآن بخلاصك أولى مني بإسلامك، ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه وقبح مخاطبة، يكون فيه خلاصك بمشيئة الله وعونه .فقال :يا سيدي أنت وذاك، فطرح رداءه على رأسه ووجهه ولبَّبَهُ (1)به، وأقبل يسحبه فلما وقعت عين الربيع عليه، لطمه لطمات وجاء به إلى الربيع، وقال يا أبا الفضل أن هذا الخبيث جمال من أهل الكوفة، أكراني جماله ذاهبا وعائدا، وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى بعض القواد الخرسانية ولي عليه بذلك شهود فضم إلى حرسيين يصيران به معي إلى القاضي ويمنعان الخرساني من اعتراضه إن اعترضنا .فضم إليه حرسيين وقال :امضيا به معه فلما بعد عن المسجد، قال له :يا خبيث تؤدي إليَّ حقي، قال : نعم يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .فقال للحرسيين :انصرفا في حفظ الله، فلما بعدا أطلقه، فقبل محمد بن هشام يده ورأسه وقال :بأبي أنت وأمي، الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم أخرج جوهرا له قيمة وقدر عظيم، ودفعه إليه وقال شرفني يا سيدي بقبوله مني، فقال :اذهب بمتاعك يا ابن عم، فإنا أهل بيت لا نقبل على المعروف مكافأة، وقد تركت لك دم زيد وهو أعظم قدرا من ذلك، فانصرف راشدا ووار نفسك عن هذا الرجل إلى أن يخرج، فإنه مجد في طلبك .
فمضى وتوارى ثم أن محمد الداعي أمر للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمرهم أن يخرجوه إلى الري ويأتوه بكتابه بسلامته فقام الأموي وقبل رأسه ومضى ومعه القوم حتى وصل مأمنه وجاؤه بكتابه بسلامته .تقطيع بالأصل وصلاته على سيدنا محمد وعلى آله ورضي الله عن أصحابه.